

فضيلة الشيخ الدكتور
محمد بن عبد الرحمن العريفي

دار عباد الرحمن



رقائق العريفي

تأليف الدكتور

محمد بن عبد الرحمن العريفي

عفا الله عنه



الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ م

رقم الإيداع

٢٢٧٥٤ / ٢٠١٠

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فهذا كتاب «رقائق العريفي»، كتابٌ يحوي قدرًا من الفوائد العظيمة، والمنافع الجليلة، ويشير فيه الشيخ الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن العريفي، إلى ما ينبغي على العباد أن يلحظوه، بنظرٍ وتفكرٍ وتأملٍ وتدبرٍ في آيات الله في الكون وفي كتابه الكريم، ينتفع بما فيه من إرشادات وتوجيهات ونصائح وعظات الفرد المؤمن والأسرة المؤمنة ويهدف لإصلاح المجتمع الإسلامي جماعات وأفراد، نفعنا الله وإياكم بما يقدمه شيخنا الفاضل، ونسأل الله العون والرشاد والتوفيق والسداد في ما نقدمه للقارئ الكريم من إصدارات نهدف منها نشر العلوم والمعارف والدعوة إلى أن يعم دين الله وسنة رسوله ﷺ مشارق الأرض ومغاربها.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.

❋❋❋

موقف الأبناء من مشاكل الوالدين

تنقلب حياة الأسرة من السعادة إلى الشقاء، ومن الفرح إلى الحزن والكدر والضيق، وينشأ الأبناء بنفسيات غير سويّة وذلك عندما يعيشون في دوّامة مشاكل الآباء!! يقفون في حيرة واضطراب أمام مشاكل والديهم ليس لهم أي حيلة إلاّ الانكفاء بين جدران غرفهم والبكاء بدموع الرعب والحسرات!! ومنهم من تجده يهرب بذاته ومشاعره وعواطفه خلف أسوار البيت مع الأصدقاء أو الصّديقات كمحاولة للتخلّص من هذه الدوّامة التي تكاد تعصف بهم!!

والسؤال الخطير: لماذا يعيش الأبناء هذه العزلة والانطوائية عن مشاكل آبائهم ويحاولون الهروب بدلاً من محاولة الإصلاح؟!

ربما أن ذلك عائد إلى أسباب منها:

١ - جفاف العلاقة العاطفية بين الآباء وأبنائهم، الأمر الذي يصنع حاجزًا من الرهبة بين الأبناء وآبائهم من أن يجرءوا على الحديث أو الحوار معهم في أثناء مشاكلهم.

٢ - عدم غرس قيمة الإصلاح في نفوس الأبناء من صغرهم، بل تجد على العكس من ذلك من خلال السلوك الذي ينمّي فيهم حب الانتقام وعدم الإصلاح، فمثلاً عندما يختصم الأبناء لا يهتم الوالد أو الوالدة بأن يشجّع المظلوم منهم على التسامح والظالم منهم على الاعتذار، وهكذا...

٣ - عدم تنمية روح الحوار والتحاور مع الأبناء.

٤ - النفسيّة الغضبيّة عند الوالد أو الوالدة أو كليهما، والتجاوب مع هذه النفسيّة

بالسباب والشتم أو التكسير والضرب.

٥ -إيغار صدور الأبناء على أحد طرفي المشكلة، فالأم تحاول أن توغر صدر بناتها على والدهم، والوالد يحاول أن يكسب أولاده في صفّه، وهكذا تتحوّل الدار إلى حلبة للتصارع ويبقى الأبناء هم البورصة التي يتزاحم عليها الآباء!!

هذه الأسباب وغيرها تساعد على تشكيل نفسيّة الهروب من مواجهة الأبناء لمشاكل آبائهم ومحاولة الإصلاح.

إن على الآباء أن يغرسوا في نفوس أبنائهم هذه القيمة العظيمة من صغرهم، لأنهم في يوم ما سيحتاجون إلى مواقفهم التي سيكون لها دور وأثر كبير في إعادة مياه السعادة الأسرية إلى مجاريها، وكم والله هي السعادة بين أفراد الأسرة الواحدة حين لا يخرجون بمشاكلهم خارج محيط الدار!!

في هذه الكتابة البسيطة أحاول أن أسطّر بعض التوجيهات للأبناء من أجل تشكيل وعي معرفي ومهاري لكيفية الإصلاح بين الوالدين عندما تحدث بينهما أي مشكلة.

أولاً: الوعي المعرفي:

١ -اعْلمُوا أيها الأبناء أنكم تنظرون إلى أبويكم نظرة الإجلال والقدوة -وهما يستحقان ذلك -لكن ينبغي أن لا تتضخّم هذه النظرة تضخّمًا حتى تصبح ورمًا فننتظر من والدينا أن لا يختصما أو يختلفا أو يخطئ بعضهم على بعض، فهما كأي بشر من البشر يخطئون ويختلفون ويحدث بينهم ما يحدث بين كل شريكين.

٢ -الإصلاح بين الوالدين من أسباب حصول الرحمة بين أهل البيت الواحد، ولقد وصف الله العلاقة الزّوجية بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١] مما يدل على أن وجود الرحمة أمر مهم من أجل استقرار الحياة بين الزوجين بل بين أفراد الأسرة ككل.

وإننا نجد في آية أخرى كيف أن الله ﷻ جعل الإصلاح بين الناس عمومًا من أهم أسباب حصول الرحمة بينهم وتنزّلها عليهم، فكيف بالإصلاح بين الأبوين؟!

فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولك يا بني الغالي أن تتخيّل واقع أسرة لا يتراحم أهلها، ولا يلتمسون أسباب الرحمة بينهم، كيف تكون حياتهم؟!

٣ - الإصلاح سبب لدحر الشيطان وخيبة أمانيه؛ حيث إن من أكبر أمانيّ الشيطان أن يفرّق بين المرء وزوجه، ويقوّض هذه المملكة الصغيرة وهذا الحصن الحصين من حصون الأمة وقلاعها، جاء في الحديث: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، فيدنيه منه ويقول: نعم أنت».

ومن هنا كان الإصلاح من أعظم الأسباب التي يُدحر بها كيد الشيطان فينقلب على عقبه خائبًا خاسرًا.

ثانيًا: مهارات وتوجيهات في الإصلاح:

إن على الأبناء أن يتمرّسوا على بعض المهارات التي تعينهم على التواصل بمهارة مع والديهم عند مشاكلهم، وحلّها بطرق سلميّة محببة تبعث في النفس الهدوء والرضا والاستقرار، ومثل هذه المهارات يمكن معرفتها من خلال القراءة والاطلاع والسؤال والممارسة في الحياة العملية سواء مع الإخوان أو الأصدقاء.

من هذه المهارات:

* مهارة الذكريات: وهي تقوم على: إثارة ذكريات الحب القديم بين الوالدين؛ حيث تذهب البنت إلى والدتها وتسألها عن ذكريات الحب القديمة التي كانت بينها وبين والدها، والابن يذهب إلى والده ليثير فيه هذه الذكريات الجميلة، ونقل مثل هذه الذكريات من طرف لآخر، هذه المهارة لها أثر إيجابي عاطفي لحل المشكلة بين الأبوين سيما إذا صار بين الأبناء حرص على الإصلاح وتعاون بينهم على ذلك.

* لا تقف في صفّ أحدهما: عندما تحدث مشكلة بين أبويك، ستُحاول الأم أن تكسب بعض أبنائها في صفّها، هذا الأمر قد لا يهمّ الوالد كثيرًا؛ لأنه صاحب الكلمة والقرار في البيت، لكن مشكلة الوقوف بصف دون آخر سيُعقّد من قضية

الإصلاح؛ لأن الطرف المقابل سيشعر أن سعي الابن في الإصلاح سعي مشبوه!!

※ الإحسان والبر: إظهار الإحسان والبرّ بكلا الوالدين دون محاباة أو ميلٍ إلى طرف دون طرف يُنشئ علاقة عاطفية بين الآباء وأبنائهم، الأمر الذي يسهّل عمليّة النقاش والتحاور.

※ مهرجان الإصلاح: بدون أن يعلم الوالدان لماذا يقوم الأبناء بتزيين ردهات المنزل وتغيير ترتيب أثاثه وتنظيفه بطريقة ملفتة، ثم عمل كروت دعوة للوالدين موقعة من أبنائهم لدعوتهم لحضور حفلة السعادة أو حفلة الوئام، ولا بأس أن يُهدي الأبناء لأبويهم لهذه المناسبة ملابس خاصّة تزيد من الحميميّة بينهما وتذيب جليد الخلاف.

※ نصيحة مفتعلة: كأن يطلب الابن أو البنت من والديهما أن يدلاّهما على نصيحة مناسبة لصديقة أو صديق يعيش في خوف وملل من كثرة مشاكل أبويهما، وأن هذه المشاكل قد أثرت في مستواه الدراسي والأخلاقي، فبماذا ينصحان هذا الصديق أو الصديقة؟

في هذا الطلب رسالة غير مباشرة إلى الأبوين بأثر هذه المشاكل في الأبناء وتأثيرها السلبي فيهما.

※ المراسلة: كتابة رسالة إلى أحدهما أو كليهما بعبارات فيها استثارة للعواطف، بعض الآباء قد لا يجيد القراءة فلا بأس من تسجيل رسالة صوتية له أو لهما بأسلوب عفوي عاطفي.

※ سرّ السرير: العجيب أن في غرفة النوم سرًا غريبًا بديعًا، يختصم الزوجان أول النهار ثم يصطلحان في آخره خلف جدران هذه الغرفة!!

إن على الأبناء أن يدركوا أن لهذه الغرفة (تأثيرًا) في طبيعة العلاقة بين أبويهما، ولذلك من مهارات الإصلاح بين الأبوين إن تخاصما أن تلتفتوا إلى هذه الغرفة بالتجهيز والتبخير والتعطير وتنظيف أثاثها وإعادة ترتيبه بطريقة جذّابة وتغيير إضاءته من غير أن يشعر أحدهما بذلك، وأعتقد أن سرّ السرير كفيل بأن يذيب جبلاً من جليد الخصومة بينهما!!

* مرافعة: من المهم جدًّا أن نعي أن الإصلاح لا يعني عدم بيان الخطأ؛ لأن الإصلاح دون بيان الأخطاء يعني تراكمات من الأخطاء وفتائل قابلة للاشتعال، كما أن بيان الخطأ لا يعني الاتجاه باللوم إلى المخطئ أو إجباره على الاعتذار، لذلك على الأبناء أن يقيما مرافعة بين الطرفين.

لكن متى تكون هذه المرافعة؟!

عندما تعود المياه إلى مجاريها، ويلتئم الصّدع، يقوم أحد الأبناء بالمرافعة لصالح أمه، ويجمع أقوالها ويحاول الدفاع عنها بالمعروف، ويقوم ابن آخر بالمرافعة عن والده ويجمع أقواله ويحاول الدفاع عنه بالمعروف، وتكون هذه المرافعة أمامها فقط دون أن يشاركا في الترافع!!

وليكن هناك اتفاق مسبق بين أطراف المرافعة على أهمية تقرير الخطأ بأنه خطأ دون الإشارة إلى أي طرف بأنه هو المخطئ!! هذه الطريقة فقط إنما هي لبيان الخطأ حتى لا يتكرر.

مثل هذه المهارات تتطلّب نفسية مرحة مثقفة مطلعة لبقة حتى يخرج جوّ المرافعة في جوّ مرح شفاف!!

* سدّ الثغرات: بعض المشاكل بين الوالدين يكون سببها هو تقصير أحد الطرفين في حق الآخر؛ إمّا نظرًا لعجز أو تعب أو تكاسل، وهنا على الأبناء أن يجتهدوا في سدّ مثل هذه الثغرات بالقيام بالحق، الوالد ربما يقصّر في النفقة على البيت، على الابن المستطيع أن يحاول سدّ هذه الثغرة بطريقة حكيمة.

الأم قد تعجز عن القيام ببعض أشغال البيت المهمّة - حتى مع وجود الخادمة - على البنت أن تسدّ هذه الثغرة عن والدتها، وهكذا حتى لا تقع المشكلة.

أعتقد أيها الأبناء أن بعضًا منكم ينظر إلى مثل هذه المهارات على أنها ضربٌ من المحال سيما مع أبوين يتعايشون مع زمن بعقليات وعواطف زمن آخر، لكن الحرص على الإصلاح والشعور بأهميّة هذا الجانب في بعث روح السعادة بين العائلة يدعونا إلى أن نكون إيجابيين بقدر أكبر في التعامل مع مشاكل الوالدين!!

اللهم ربّ اغفر لوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرًا.

مجنون ولكن

مقدمـة:

ينطوي استخدام مصطلح الجنون لدى غير المتخصصين على قدر من الخلط والغموض، فيتساوى عند العامة هذا الاصطلاح مع جملة من الأمراض العقلية، وهو خطأ شائع، لأن الجنون كلمة أشد عمومًا وينضوي تحتها جملة من الحالات التي تنحرف عن المألوف في اتجاه مرضي أو غير مقبول من قبل المجتمع.

على أن هذا الموقف من الجنون لا يتصف بدقة موضوعية؛ لأن الحكم يستند إلى تعريف الحالة السوية، بينما لازالت هذه التعريفات نسبية وترتبط بعوامل متداخلة؛ كالزمن، والحضارة، والثقافة.

كذلك فإن دراسة الجنون خلال حقبة زمنية ما، تعكس جوانب مهمة من الحياة الثقافية والاجتماعية لمجتمع ما، وموقف المجتمع متباين من هذه الظاهرة التي استأثرت باهتمام الإنسان منذ بداية التأريخ، وحركت في مخيلته سلسلة من الأفكار والفرضيات لتفسيرها.

ومن أجل أن ندرس هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي فقد حاولنا أن نوجز السيرة التاريخية لهذا الاصطلاح عبر حقبة زمنية امتدت على بعد زمني يصل إلى عشرة قرون من التأريخ الإسلامي، وقد عمدنا إلى تقسيم هذه الفترة إلى ثلاث حقب تجمع شتات أحداثها الاصطلاحات السائدة حول ماهية الجنون، وموقف المجتمع منه، وقد أثمر هذا الأمر عن انجلاء صورة واضحة المعالم لهذه الظاهرة، مع بروز تطور واضح في دلالة الاصطلاحات عبر هذه الحقب انعكست بدورها على الموقف الذي تبناه المجتمع منه.

إن سلامة المورد الذي بدأت به الشريعة الإسلامية في عهد رسول الله ﷺ قد أقصت عن المجتمع الإسلامي الكثير من الأمراض النفسية التي تنشب عن عدم توافق المرء مع مجتمعه، فاقتصر اصطلاح الجنون على مساحة محدودة شملت

المرضى العقليين الذين قد ابتلوا بهذا المرض. بالمقابل ومع تقادم الزمن وبعد الأحداث عن نقطة الشروع في العهد المحمدي بدأت الأمراض النفسية تتسلل إلى مجرى الحياة اليومية، فظهرت جملة من أعراض عدم التوافق والتنابذ بين المرء ومجتمعه فزادت مساحة المعاني الاصطلاحية للجنون، فدخلت تحت رايته زمر جديدة في كل حقبة، فتعددت الحالات التي بات المجتمع يطلق عليها هذه الصفة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولم يقتصر الجنون على المرضى العقليين ولكنه شمل طبقات جديدة ومتنوعة.

* الجنون في ميداني اللغة والاصطلاح:

اشتقت كلمة الجنون من الفعل الثلاثي «جنن» والذي يحمل بين طياته أكثر من معنى لغوي واصطلاحي فقولك: جن الشيء، يجنه، جنًّا: أي ستره، وكل شيء ستر عنك فقد جُن عنك، وسمي «الجن» بهذا الاسم لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار. ويقال: جن الليل، وجنونه، وجنانه، عندما يشار إلى شدة ظلمته وادلهمامه لأن اختلاط ظلامه قد ستر ما فيه عن الأبصار، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾[الأنعام:٧٦] الآية.

والجنن بالفتح هو القبر لستره الميت، ويطلق على الكفن لنفس المعنى، الجنين يطلق على الولد في البطن لأنه مستور.

ويطلق الجنون على كل أمر يدل على المكاثرة، وعظم الأمر؛ بحيث يثير عجب ناظره، قال الفراء: جنت الأرض، ومررت على أرض هادرة متجننة، وهي الأرض التي تهال من عشبها لذهابه كل مذهب. ويقال: جنون الطير، للإشارة إلى كثرة ترنمه في طيرانه، وجنَّ الذباب إذا كثر صوته.

إن المحمول الأول من الاشتقاقات اللغوية للجنون- والذي يئول بمعناه إلى الاستتار- يشير بوضوح إلى حقيقة الجنون الذي هو ستر العقل، وزوال بعض آثاره فيحدث الخلل في السلوك ينحرف عن حدود دائرة رجحانه. أما المحمول الثاني فيشير إلى بعض محمولات الجنون والتي تتأرجح بين إثارة العجب من مظاهر السلوك المستغرب لمن يعاني من آفة الجنون، وبين التطرف الذي يتسم به سلوك البعض بحيث يجعلهم في قا مة المجانين.

أما الجنون لدى علماء الأصول: فهو عبارة عن آفة في الدماغ تبعث صاحبه على الإقدام على ما يضاد مقتضى العقل، أو أنه اختلال بحيث يمنع من جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل. وقد قسم الفقهاء والأصوليون الجنون بميزان الشريعة إلى قسمين هما:

الأول: جنون أصلي: ويطلق عليه أيضًا الجنون المستمر، أو المطبق، أو المغلوب. ويكون الجنون موجودًا في هذه الحالة بأصل خلقة الإنسان، مستوعبًا جميع أوقات المريض، دون أن تتخلله نوبة انقطاع، وقد حد له الفقهاء حدًّا يرتبط بفترة استيعابه لوقت المريض، فإذا استمر شهرًا دون انقطاع أو صحوة تعيد المريض إلى دائرة العقلاء اعتبر صاحبه مصابًا بآفة الجنون المستمر.

الثاني: جنون عارض: ويطلق عليه أيضًا الجنون المتقطع، وهو أن يولد الإنسان بعقل متكامل، بيد أنه قد يلاقي ظروفًا خاصة، أو تطرأ عليه آفة فتؤدي إلى زوال عقله لفترة تتخللها إفاقة وعودة إلى دائرة العقل. ويتأرجح صاحب هذه الآفة بين أوقات إفاقة ثابتة، أو متفاوتة بحسب حالته.

أما الطب العقلي - في عصرنا الراهن - فقد ذهب إلى أكثر من مذهب في تفسير الجنون، فهناك النموذج الطبي الذي ينظر إليه تمامًا كغيره من الأمراض العضوية، لذا فهو في معياره ناجم عن اضطراب في وظيفة أو بنية الدماغ، شأنه شأن الأمراض الأخرى التي تنشأ عن اضطراب مماثل في عضو أو جزء من أجزاء الجسم.

أما علماء النفس فيعتبرون المرض النفسي والمرض العقلي مظهرين من مظاهر اضطراب الشخصية البشرية، وسوء توافقها مع المجتمع كنتيجة لوجود صراعات داخلية وتصدع في العلاقات الشخصية.

لم تغب عن أذهان المسلمين وجود مراتب متعددة تغيب خلالها بعض خصائص العقل وتستتر لدى البعض، فتورثهم خللاً في السلوك، لذا تعددت لديهم الأسماء التي تطلق على المجانين من هذا النوع، فمنها:

١ - الأحمق: والفعل منه: حمق، يحمق، حمقًا، وحماقة. قال الشاعر:

فعاقل فطن أعيت مذاهبه ... وجاهل حمق تراه مرزوقا

٢ - الأخرق: وهو الذي لا يحسن التقدير والتدبير.

٣ - الرقيع أو المرقعان: وهو الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه وعقله. قال الشاعر:

وما الناس إلا وعاة العلوم وسائرهم غنم في قطيع

وإنا بلينا ببله حمير ومحنة دهر رقيع رقيع

٤ - الممسوس: وهو الذي تخبطه الجن أو الشيطان من المس، ومنه قوله ﷻ: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] الآية.

٥ - المخبل أو المختبل: ويقال: رجل مخبل، ومخبول. قال الأعشى:

فكلنا مغرم يهذي بصاحبه ناء ودان ومخبول ومختبل

٦ - المهوس: والاسم الهوس، وهو ضرب من الجنون.

٧ - الهائم: وهو ذاهب العقل.

٨ - الأبله: والفعل منه بله وبلاهة، فهو أبله.

كذلك أطلق العرب صفة الجنون مجازًا على كثير ممن يعاني اضطرابًا في سلوكه لسبب ما، مثل: المتصابي، والسكران، وكانت العرب تسمي الشباب شعبة من الجنون.

* الجنون في عهد رسول الله ﷺ:

منذ أن صدع رسول الله ﷺ بدعوة المشركين إلى عبادة الله تعالى وهجر الأصنام فقد اتهمه قومه بالجنون، وقد نزلت أكثر من آية في القرآن الكريم ترد على ادعاءاتهم الباطلة؛ قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم:٥١] وورد في آية أخرى بمعرض الرد عليه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢] وكان السبب الأساسي لاتهامه بالجنون ﷺ أنه دعاهم إلى دين يُسفِّه دين أجدادهم ويخالف ما ألفوا عليه آباءهم، فناصبوه العداء ولم يجدوا سوى أن يتهموه بالجنون لكي لا تحدثهم أنفسهم الأمارة بالسوء باتِّباعه.

جعل رسول الله ﷺ العقل مناطًا للتكليف، واعتبر غيابه عارضًا يخلخل أهلية المسلم في أدائه للعبادات والمعاملات في المجتمع الإسلامي. وقد أرسى هذا الأمر من خلاله حديثه الشريف عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ قال: «رفع

القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل»، وفي رواية أخرى عن أم المؤمنين عائشة ﵂ : «وعن المبتلى حتى يبرأ»، وفي رواية أخرى عن الإمام علي - كرم الله وجهه-: «عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق».

وقد جعل الرسول ﷺ أمر إفاقة المجنون من مرضه متروكًا لمشيئة الباري ﷻ، ولم يوصده أمام أبواب الرحمة الإلهية من رأفته بأمته ﷺ، من أجل هذا بات الجنون في ميزان السنة النبوية من النوع الذي قد تتوفر له فرصة عودة العقل وزوال البلوى.

ويُلاحِظ المتتبع لأخبار المصطفى ﷺ وجود أكثر من خبر عمن ابتُلي بالجنون بيد أنه قد أفاق من غيبته ببركة دعوة مستجابة أو رقية بسورة من سور القرآن الكريم؛ منها الحديث الذي رواه خارجة بن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى النبي ﷺ فأسلم ثم أقبل راجعًا من عنده، فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: إنا حُدِّثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير، فهل عندكم شيء تداوونه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب فبرأ، فأعطوني مائة شاة، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «هل إلا هذا»- وقال مسدد في موضع آخر: «هل قلت غير هذا؟» قلت: لا. قال: «خذها فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق».

لقد بقي الجنون في عهده ﷺ كحالة عارضة قابلة للشفاء، ولم يوحِ الرسول الكريم لصحابته بأن المجنون قد أوصدت أبواب عقله، وغاب وعيه عن العالم الخارجي بطريق مسدود لا رجعة فيه، بل جعل طريق الأمل مفتوحًا على مصراعيه أمام إفاقته وعودته إلى دائرة العقلاء، ولو لفترة محدودة بفضل كرم البارئ ﷻ ورحمته التي وسعت كل شيء.

* الجنون في القرون الثلاثة الفاضلة:

استمد عهد الخلفاء المهديين من أنوار النبوة أحكامه واستمر في سيره الحثيث على الهدي النبوي الشريف، وقد عولج الجنون بنفس المنهج من حيث كونه علة تؤثر في أهلية الفرد المسلم الذي قد ابتلي به، واعتبر في أكثر من موقف سببا يناط به إسقاط التكليف ورفع الحرج.

ومن الروايات التي حفظتها لنا دواوين السنة النبوية ما نقل عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﭭ قال: أتي عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناسًا، فأمر بها عمر ﭬ أن تُرجم، فمر بها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت فأمر بها عمر ﭬ أن ترجم. قال: فقال: ارجعوا بها، ثم أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أما علمت أن القلم رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: بلى. قال: فما بال هذه تُرجم؟ قال: لا شيء، قال: فأرسِلها. قال: فأرسَلَها. قال: فجعل يُكبّر.

وفي رواية أخرى: أتي عمر بامرأة قد فجرت فأمر برجمها، فمر علي ﭬ فأخذها فخلى سبيلها، فأخبر عمر فقال: ادعوا لي عليًا، فجاء علي ﭬ فقال: يا أمير المؤمنين لقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يبرأ»، وإن هذه معتوهة بني فلان، لعل الذي أتاها أتاها وهي في بلائها. قال: فقال عمر: لا أدري، فقال علي ﭬ: وأنا لا أدري.

قال العلماء: قوله: «لعل الذي أتاها»: أي زنا بها «وهي في بلائها»: أي في جنونها، «فقال عمر: لا أدري»: أي إتيانه في حالة جنونها، «فقال علي ﭬ وأنا لا أدري»: أي إتيانه في حالة عدم جنونها ولعل المرأة المجنونة لم يصاحبها الجنون دائمًا بل أصابها مرة وتفيق مرة، فلذا قال عمر ﭬ لا أدري إتيانه في حالة جنونها، فأجاب عنه علي ﭬ وأنا لا أدري في حالة إتيانه عدم جنونها، فيبدو واضحًا بأن الإمامين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ﭭ قد درآ الحد عن هذه المرأة التي ابتليت بجنون عارض لعدم توفر قرينة لديهم على ارتكابها الفاحشة في فترة زوال عقلها أم صحوتها على أساس مبدأ درء الحدود بالشبهات.

بقي الجنون في بداية عهد الخلفاء الراشدين ولحين بدء عهد الأمويين مقتصرًا على الجنون الأصلي والعارض، إلا أن الأحداث التي تسارعت في تلك الفترة بين طرفي نقيض، وقف فيها على الطرف الأول الصحابة وتابعوهم الذين ينادون بالزهد وهجر الملذات التي جاء بها الملك الجديد، وعلى الطرف الثاني أنصار الأموال

التي تدفقت نتيجة لكثرة الفتوح وما جلبت معها من أبواب الفتن الدنيوية وملاذها.

في خضم هذه المتغيرات التي كانت تعصف بالمجتمع الإسلامي ترعرعت حركة زهدية على يد أتباع الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - جعلت من المقابر والجبانات ملاذًا لها من عصف الفتن التي كانت تدور رحاها في المدن والأمصار.

لقد أفرزت هذه الحقبة ظهور تعريف جديد للجنون ارتبط بتعريف ماهية العقل في ميزان الشريعة الإسلامية التي جعلت أفعال التقوى، والشكر، والإيمان، والإنابة، والتوكل، والتذكر، من أفعال العقل الكامل الذي يأتمر بأوامر القرآن الكريم، وينتهي بنواهيه وزواجره، لذا كانت الآيات القرآنية الكريمة تدعو أصحاب العقول والألباب إلى التزام طريق العقل الفطري لكي يصلوا إلى طريق طاعة البارئ ﷻ والأنس بقربه.

من أجل هذا فليس بمستغرب أن يوصم الرجل بالجنون إذا خالف فطرة العقل السليم ولم يسر على درب الهداية، والتقوى، والصلاح، وقد نُقِل حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ مر به رجل فقال بعض القوم: هذا مجنون. فقال رسول الله ﷺ: «هذا رجل مصاب، إنما المجنون المقيم على معصية الله ﷻ».

وقد مرَّ صلة بن أشيم بقوم قد اجتمعوا على رجل مقيد فقال: من هذا؟ قالوا: مجنون. فقال: لا تقولوا مثل هذا، إنما المجنون مثلي ومثلكم، نعمر الدنيا، ونُخرِّب الآخرة.

إذن لم يعد الجنون مقصورًا في هذه الحقبة على من غاب عقله دون رجعة أو لبرهة من الزمن ثم أفاق، بل أضحى يطلق مجازًا على من انغمس في الدنيا وملذاتها وترك وراءه الآخرة دون أن يلتفت إلى الخطاب الشرعي.

بالمقابل تطورت ظاهرة العزلة في المقابر والجبانات، وظهر على ساحة الحدث زمرة من الزهاد والمنقطعين فيها عن المجتمع بسبب الترف الذي يعيش الناس فيه، متجهين بسهام نقدهم اللاذع لما يحدث فيه، فأطلق عليهم لقب «عقلاء

المجانين» لسببين:

الأول: عدم تكيفهم مع المجتمع الجديد الذي ابتعد سيره عن المجتمع الإسلامي في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين المهديين.

الثاني: أنهم يعيشون نوبات من الصحوة والغيبة فيتحدثون فيهما بالحكمة والموعظة التي تنم عن عقل راجح، وحصافة رأي، وحكمة صقلتها الحياة، وهذا ما لا يتوقع من مجنون لم تكتمل قواه العقلية، ولم يستطع أن يتكيف مع العالم الخارجي بالشكل الذي يمكن أن يقيم جسورًا للتفاهم مع ما يدور فيه.

ولعل من أكثر عقلاء المجانين شهرة: «أبو وهيب بهلول بن عمرو بن المغيرة» الذي عاصر هارون الرشيد، وكثرت الأخبار المنقولة عنه في كتب التأريخ والسير. قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك: رأيت بهلولاً في بعض المقابر قد دلى رجله في قبر وهو يلعب بالتراب. فقلت له: ما تصنع ههنا؟ قال: أجالس أقوامًا لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني. فقلت: قد غلا السعر فهل تدعو الله فيكشف؟ فقال: والله ما أبالي ولو حبة بدينار، إن الله قد أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا.

يظهر جليًا من هذا الحوار رجاحة عقل بهلول المجنون وحصافته، مع تبريره بحجة مقبولة لهجرانه بنيان البلدة واستبداله بها المقابر لكي يكون بعيدًا عن المعاصي وأذية الإخوان، بيد أن الأمر لا ينتهي عند هذه النقطة؛ لأن بهلولاً لا يلبث أن يهرول مسرعًا فيتصرف ويسلك سلوك الصبيان والمعتوهين، أو يعبث بعصاه كمن اعتلى فرسًا شاهرًا سيفه على الأعداء فيجعلنا نقف ساهمين لا ندري بأية حضيرة نلحقه؟

أما أبو الحسن سليمان بن بدر المجنون فقد سُئل يومًا: أجننت؟ قال: أما عن غفلة فنعم، وعن المعرفة فلا. قيل: كيف حالك مع المولى؟ قال: ما جفوته مذ عرفته. قيل: ومذ كم عرفته؟ قال: مذ جعل اسمي في المجانين!

إذن يبدو بأن حدود العقل والجنون قد تبدلت لدى هؤلاء القوم الذين أطلق عليهم لقب «عقلاء المجانين»؛ لأن الجنون لم يعد يستر لديهم العقل من صحوته،

بل يستر عنهم الدنيا وملذاتها، وما تجر عليهم من ويلات تنشب عن معاقرة المعاصي والغفلة عن ذكر الله تعالى، لذا فالمجنون مستور عن الدنيا قريب من الله - بمعيارهم واصطلاحهم المجازي - أما العقلاء فهم ليسوا سوى مجانين يتهمون العقلاء الأصحاء - وهم قلة - بهذه الآفة.

من أجل هذا نجد شقران المجنون يصدع بالقول في الناس المزدحمين عليه - وهم ينظرون إليه نظرة العقلاء إلى معتوه - قائلاً: يا أيها الناس الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.

لقد التف حول راية عقلاء المجانين زمر من الزهاد والمنقطعين عن الدنيا ولذاتها الفانية، تظاهروا بالجنون لكي يسلموا من المجتمع الذي كان الترف قد بدأ ينخر في جسده، فضمنوا الأمن من مناصبتهم العداء، وانشغالهم بمجابهة مجتمعهم وهم قليل لا شوكة لهم، ولم تخلُ ساحتهم من نسوة تَبنَّت نفس الموقف، فعرفت منهن ريحانة الأبلية، وآسية البغدادية، وحيونة الأهوازية، وسلمونة العبادانية. تفرغت هؤلاء النسوة للعبادة وقيام الليل، واتخذن من المقابر والجبانات مساكن لهن بعيدًا عن المدن والأمصار التي كانت تعج بملاذ الدنيا وترفها.

نُقِل عن عقلاء المجانين جملة من الأشعار الزهدية التي تنم عن شعور مرهف، وهم في حالة من السمو الروحي، اقتطفنا من رياضها مناجاة سعيد المجنون للبارئ ﷻ مستسقيًا بعد أن انقطع الغيث:

آيا من كلما نودي أجابا ... ومن بجلاله ينشئ السحابا
ويا من كلم الصديق موسى ... كلامًا ثم ألهمه الجوابا
ويا من رد يوسف بعد ضر ... على من كان ينتحب انتحابا
ويا من خص أحمد باصطفاء ... وأعطاه الرسالة والكتابا

ثم قال: اسقنا، فسقوا.

وقالت ريحانة الأبلية (المجنونة):

أنت أنسي ومنيتي وسروري ... قد أبى القلب أن يحب سواكا
يا عزيزي وهمتي ومرادي ... طال شوقي متى يكون لقاكا

ليس سؤالي من الجنان نعيمًا غير أني أريدها لأراكا

وقد انصهر عقلاء المجانين تدريجيًا، في الفترة اللاحقة في طبقات الصوفية؛ بحيث لم نعد نجد لهم ذكرًا في الفترة التي تلت القرون الثلاثة الفاضلة، وكان هذا الأمر إيذانًا بظهور طبقة جديدة من المجانين في العصور التالية.

* الجنون في القرن الخامس وحتى القرن العاشر الهجري:

امتازت هذه الحقبة الزمنية ببزوغ مفاهيم واصطلاحات جديدة أفرزتها الطرق الصوفية التي بدأت تنتشر على رقعة العالم الإسلامي الفسيحة، فقد أرسى التصوف أركانه وبدأت اصطلاحات القوم تأخذ مكانها الفاعل في الحياة الثقافية للمسلم في تلك الفترة.

كانت علوم الصوفية - بمعيارهم - علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال لديهم إلا من صحح الأعمال، وقد وجد الصوفية في طريقهم لنيل الأحوال تجارب روحية جديدة بدأت تحقق تغييرًا في كثير من الأحاسيس الوجدانية، وبعضها بات ينعكس على السلوك، فظهر على قائمة اصطلاحاتهم: السُّكر، والغيبة، والشطح، والجذب، التي تجعل السلوك بعيدًا عن الحالات السوية وفق منظور الطب أو المجتمع.

وإذا كان البيمارستان قد أنشئ منذ زمن عبد الملك بن مروان لاستقبال المجانين ورعايتهم وعلاجهم، فإننا نلاحظ بأن هذه الفترة قد شهدت مرحلة جديدة في تأريخ الجنون تمثلت في ظهور طبقة جديدة عرف أصحابها «بالمجاذيب» الذين أرسوا اصطلاحًا جديدًا في ميدان الجنون.

وقد وضع الصوفية تعريفًا للمجذوب ينص على: **أنه من جلبه الحق إلى حضرته، وأولاه ما شاء من المواهب، بلا كلفة، ولا مجاهدة، ولا رياضة.**

* * *

التفسير العلمي

لقد اكتشف العلماء في الأربعينات من القرن العشرين أن البحار المالحة بحار مختلفة من حيث التركيب والخصائص، ولم يكن ذلك إلا بعد أن أقام الباحثون المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، فقاسوا الفروقات في درجة الحرارة ونسبة الملوحة ومقدار الكثافة ومقدار ذوبان الأكسجين في مياه البحار في كل المحيطات فأدركوا أن البحار مختلفة، ثم توصل العلماء إلى اكتشاف الحواجز (البرازخ) المائية وهي على نوعين:

النوع الأول: الحاجز بين بحرين مالحين:

«لقد اكتشفت الدراسات الحديثة أن البحار رغم أنها تبدو متجانسة إلا أن هناك فروقات كبيرة بين كتلها المائية، وفي المناطق التي يلتقي فيها بحران مختلفان يوجد حاجز بينهما، هذا الحاجز يفصل البحرين؛ بحيث إن كل بحر له حرارته وملوحته وكثافته الخاصة به». [أسس علم البحار، دايفس، صفحة ٩٢،٩٣].

فبين مياه البحر الأبيض المتوسط الساخنة والمالحة حواجز عند دخولها إلى المحيط الأطلسي ذي المياه الباردة والأقل كثافة، كما توجد مثل هذه الحواجز بين مياه البحر الأحمر ومياه خليج عدن، وهذا الذي وصل إليه العلم الحديث في هذا القرن هو صريح البيان القرآني في سورة الرحمن حيث قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] فالقرآن يتحدث عن بحرين مالحين مختلفين، والدليل على ذلك ما ذكره علماء التفسير من أن لفظ «البحر» إذا أطلق في القرآن دون تقييد فهو ماء البحر المالح، ثم إنه لو كان البحران متشابهين لكانا بحرًا واحدًا وذلك التفريق بينهما في اللفظ القرآني يدل دلالة علمية دقيقة على وجود اختلاف بينهما مع كونهما مالحين.

والدليل الآخر الذي أشارت إليه الآية القرآنية: أنها وصفت البحرين بأنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، ولقد اكتشف العلماء أن اللؤلؤ والمرجان يكونان فقط في البحار

المالحة ولا وجود لها في المياه العذبة أو في مناطق امتزاج المياه العذبة مع البحار.

في عام ١٩٤٢ أسفرت الدراسات العلمية لخصائص البحار عن وجود حواجز مائية تفصل بين البحار الملتقية، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠]. فـ«البرزخ»: أي الحاجز، ويؤكد ذلك قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١]. و«لا يبغيان»: أي لا يبغي ويطغى أحد البحرين على الآخر فيغير خصائصه، كما تبيّن للعلماء وجود اختلاط بين البحار المالحة رغم وجود هذا الحاجز (البرزخ)، وهذا ما دل عليه القرآن ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩]، فالمرج يعني: الاختلاط، أو الذهاب والإياب والاضطراب، لكن هذا الاختلاط يكون بطيئًا بحيث يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر يتحول إلى خصائص البحر الذي ينتقل إليه دون أن يؤثر في تلك الخصائص؛ إذ أن هذه الحواجز تحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة والأحياء المائية والحرارة وقابلية ذوبان الأكسجين في الماء.

النوع الثاني: الحاجز بين نهر عذب وبين بحر مالح:

١- كيفية اللقاء بين ماء النهر وماء البحر (وماء المصب):

لقد شاهد الناس منذ القدم مياه النهر تصب في البحر، كما لاحظوا أنها تفقد بالتدريج لونها المميز وطعمها الخاص كلما تعمقت في البحر، ولكن مع تقدم الاكتشافات العلمية قام العلماء بدراسة عينات من الماء حيث يلتقي النهر بماء البحر، فعملوا على قياس درجات الملوحة والعذوبة بأجهزة دقيقة، وقياس درجة الحرارة والكثافة، وجَمْع عينات من الكائنات الحية ثم القيام بتصنيفها، وتحديد أماكن وجودها، ودراسة قابليتها للعيش في البيئات النهرية والبحرية، ثم توصلوا إلى أن المياه تنقسم إلى ثلاثة أنواع هي:

(أ) مياه الأنهار وهي شديدة العذوبة.

(ب) مياه البحار وهي شديدة الملوحة.

(ج) مياه في منطقة المصب: مزيج من الملوحة والعذوبة تفصل بين النهر والبحر، فتزداد الملوحة كلما قربت من البحر، وتزداد العذوبة كلما قربت من النهر.

وهذا ما قرره القرآن الكريم حيث وصف البحرين (العذب والمالح) بأوصاف لم يكتشفها العلماء إلا في القرون الأخيرة، فمياه النهر وصفه بقوله: ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر:١٢] والماء العذب: هو الماء غير المالح، والفرات: أي شديد العذوبة وبهذا الوصف- أي الفرات- خرج ماء المصب الذي يمكن أن يقال عنه بأنه عذب إلا أنه ليس فراتًا.

أما ماء البحر: فوصفه القرآن بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢]، فالماء المالح هو ماء البحر، وأجاج: أي شديد الملوحة، وبالتالي لا ينطبق الوصفان على ماء المصب.

أما ماء المصب: فهو مزيج بين ماء النهر العذب الفرات وماء البحر المِلْح الأجاج، ووصفه القرآن بقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن:١٩] أي: النهر والبحر.

٢- الحاجز المائي المحيط بمنطقة المصب:

لاحظ العلماء أيضًا وجود حاجز مائي يحيط بمنطقة المصب ويحافظ على خصائصها المميزة لها، بل إن ماء النهر وماء البحر لا يلتقيان مباشرة في منطقة المصب بالرغم من حركة المدّ والجزر وحالات الفيضان والانحسار، وذلك لوجود الحاجز المائي المحيط بمنطقة المصب الذي يفصل بينهما دائمًا، لكن في مقابل عدم وجود لقاء مباشر بين النهر والبحر لاحظوا وجود امتزاج بطيء مع وجود المنطقة الفاصلة من مياه المصب، والحاجز المائي الذي يحيط بها. وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود هذا الحاجز بقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان:٥٣]، والبرزخ كما قال علماء التفسير: هو حاجز يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر، قال مجاهد: يلتقيان فلا يختلطان.

٣- منطقة المصب وخاصية الحجر (المنع):

لاحظ العلماء اختلاف الكتل المائية الثلاث: (ماء النهر، ماء البحر، ماء المصب) في درجة الملوحة والعذوبة، ووجدوا أن معظم الكائنات التي تعيش في البحر والنهر والمصب تموت إذا خرجت من بيئتها الخاصة بها، فما يعيش في النهر لا يعيش في البحر أو في المصب، وهكذا...

ثم قاموا بتصنيف البيئات الثلاث (النهر والبحر والمصب) باعتبار الكائنات التي

تعيش فيها، فوجدوا أن منطقة المصب تعد منطقة حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، فهي لا تعيش إلا في وسط مائي يتناسب في ملوحته وعذوبته مع درجة الضغط الأسموزي فيها، وتموت إذا خرجت من منطقة المصب.

وبالمقابل فإن منطقة المصب تعد أيضًا منطقة محجورة عن معظم الكائنات الحية التي تعيش في البحر والنهر؛ لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها وذلك بسبب اختلاف الضغط الأسموزي أيضًا، والعجيب أن القرآن الكريم وصف منطقة المصب بهذين الوصفين فقال: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] ونستطيع أن نفهم الحجر هنا في ضوء الاكتشافات الحديثة بأن الكائنات الحية في منطقة المصب تعيش في حجر ضيق ممنوعة من أن تخرج من هذا الحجر، كما وصفت منطقة المصب أيضًا بأنها محجورة؛ أي ممنوعة عن كائنات حية أخرى من أن تدخل إليها، فمنطقة المصب حسب الوصف القرآني هي «حجر» على الكائنات التي فيها، و«محجورة» عن الكائنات الحية الموجودة خارجها.

والذي نستخلصه: أن العلماء لاحظوا الفرق الجوهري الذي أشار إليه القرآن الكريم بين الحاجز الذي يفصل بين النهر والبحر وبين الذي يفصل بين البحار المالحة.

فالأول: منطقة المصب فيه تعد منطقة حجر على الكائنات الحية الخاصة بها، ومنطقة محجورة عن الكائنات الخاصة بالبحر والنهر، وهو ما وصفه البيان الإلهي في سورة الفرقان حيث قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

أما الحاجز الثاني: الذي يفصل بين البحار المالحة فإنه لا توجد فيه خاصية منع الكائنات الحية من الخروج أو الدخول إليه، وهذا هو الذي تحدثت عنه آيات سورة الرحمن فقال - جل ذكره -: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٠-٢٢] فليس هناك وصف ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] لهذا البرزخ، فنجد معظم الكائنات الحية تنتقل بين البحرين بكل سهولة؛ وذلك لأن الاختلاف في درجة الملوحة ليس شديدًا حتى يمنع انتقالها من بيئة بحرية إلى أخرى.

وهنا يقف عقل الإنسان متعجبًا أمام بيان الإعجاز القرآني وأمام هذا النظام

البديع الذي جعله الله تعالى لحفظ الكتل المائية الملتقية من أن يفسد بعضها خصائص البعض الآخر... ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:٩٣].

* مراجع علمية:

ذكرت الموسوعة البريطانية: «إن مصبات الأنهار هي أماكن حيث تلتقي الأنهار بالبحر، وكذلك يمكن أن تعرّف بأنها مناطق تخفيف التركيز المحسوب للماء المالح مع الماء العذب بشكل معتدل. إن مصبات الأنهار من الناحية البيولوجية أكثر إنتاجية من النهر أو البحر؛ لأن هذه المصبات لديها نوع خاص ومميز من دورة المياه التي تحبس المغذيات النباتية وتحث على الإنتاج الأولي، والمياه العذبة لكونها أخف من المياه المالحة، تؤدي إلى تشكيل طبقة فاصلة بحيث تطفو على سطح المصب. في الحدود بين المياه العذبة والمياه المالحة، يوجد هناك كمية من الاختلاط تسبَّبَ من تدفق المياه العذبة فوق المياه المالحة وبسبب الانحسارات والمد والجزر، وإن أي اختلاط زائد يمكن أن يتسبب من وقت لآخر من جراء الرياح القوية والأمواج الداخلية التي تتوالد على طول السطح البيني (سطح يشكل حاجزًا بين جسمين) بين المياه العذبة والمالحة».

كما ذكرت في مكان آخر: «إن الملوحة في المحيطات ثابتة ولكنها تتغير على طول الشاطئ عند تموه المياه المالحة مع المياه العذبة في نهاية الجداول والأنهار، هذه المياه الآسنة تُشكِّل حاجزًا فاصلاً بين الكائنات الحية البحرية والنهرية».

* وجه الإعجاز:

وجه الإعجاز في الآيات القرآنية الكريمة هو دلالتها على وجود حواجز بين البحار المالحة يسمح باختلاط بطيء؛ بحيث تفقد كمية المياه المنطلقة من بحر لآخر خصائصها وتكتسب خصائص البحر الذي دخلت فيه، كما دلّت على أن البحار والأنهار تلتقي وتتمازج مع وجود حاجز يمنع الاختلاط الكامل بينهما، وهذا ما كشف عنه علماء البحار في القرن العشرين عن منطقة المصبّ بين النهر والبحر والحواجز البحرية بين بحرين مختلفين.

* آيات الإعجاز:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

* التفسير اللغوي:

جاء في لسان العرب: يغشاه: غشيت الشيء تغشية إذا غطيته. لجّي: لُجة البحر: حيث لا يدرك قعره... ولجّ البحر: الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه. ولُجّ الليل: شدة ظلمته وسواده.

* فهم المفسرين:

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره للآية الكريمة ما يلي: «المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر، فلا يبصر مَنْ كان في هذه الظلمات شيئًا».

* مقدمة تاريخية:

لقد اعتقد الإنسان قديمًا بخرافات عديدة عن البحار والمحيطات، ولم تتوفر للبحارة آنذاك معرفة علمية حقيقية عن الأحوال السائدة في أعماق البحار حيث كانت المعلومات عن التيارات البحرية نادرة، وهذا ما حدا بالخرافات إلى الإحاطة بالبحار الراكدة التي لا يمكن أن تعبرها البواخر؛ حيث اعتقد الرومان القدماء بوجود أسماك مصاصة لها تأثيرات سحرية في إيقاف حركة السفن، ورغم أن القدماء كانوا على علم بأن الرياح تؤثر في الأمواج والتيارات السطحية إلا أنه كان من الصعوبة بمكان معرفة شيء عن الحركات الداخلية في البحار.

ويبين تاريخ العلوم أن الدراسات المتصلة بعلوم البحار وأعماقها لم تبدأ إلا في بداية القرن الثامن عشر عندما اخترعت الأجهزة المناسبة لمثل هذه الدراسات الدقيقة، ومن هذه الأجهزة التي استعملت لقياس عمق نفاذ الضوء في مياه المحيط هو «قرص سيتشي» (The Secchi disk) وهو عبارة عن قرص أبيض يتم إنزاله في الماء ليسجل العمق الذي تتعذر رؤيته كنقطة قياسية.

ومع نهاية القرن التاسع عشر تم استخدام الوسائل التصويرية التي تم تطويرها

خلال الثلاثينات من القرن العشرين، حيث استعملت الخلايا الكهروضوئية.

ويعود الفضل في تفسير ظاهرة الأمواج الداخلية للدكتور «إيكمان» (V.W.Ekman) في أوائل القرن العشرين.

* حقائق علمية:

- اكتشف العلماء أن البحار والمحيطات مغطاة بسحب ركامية كثيفة تحجب قسمًا كبيرًا من ضوء الشمس.

- تمتص مياه البحار ألوان الطيف الضوئي تدريجيًا كلما زادت هذه الألوان تعمقًا، فتنشأ مستويات من الظلمات داخل هذه البحار ويشتد الظلام بعد عمق ١٠٠٠ متر حتى إذا أخرج الإنسان يده لم يراها.

- كشفت علوم البحار الحديثة عن وجود أمواج عاتية في البحار العميقة.

- استطاع العلماء من مشاهدة الأسماك في البحار العميقة على عمق يتراوح بين (٦٠٠م - ٢٧٠٠م) والتي تستخدم أعضاء مضيئة لترى في الظلام وتلتقط فريستها.

* التفسير العلمي:

كشفت علوم البحار الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين عن أسرار مدهشة في أعماق البحار والمحيطات، وسنقتصر هنا على ذكر ظاهرتين هما: ظلمات البحر العميقة وحركة الأمواج الداخلية.

- الظاهرة الأولى: ظلمات البحر العميقة:

غالبًا ما تكون البحار والمحيطات مغطاة بسحب ركامية كثيفة تحجب قسمًا كبيرًا من ضوء الشمس، كما يظهر في أكثر صور الأقمار الاصطناعية، فتعكس هذه الغيوم كمية كبيرة من أشعة الشمس وتحجب قسمًا كبيرًا من ضوئها، وأما الضوء الباقي فيعكس الماء قسمًا منه، ويمتص القسم الآخر الذي يتناقص تناقصًا رأسيًا مع تزايد عمق المياه، وهذا ما أشارت إليه الموسوعة البريطانية.

وقد ذكر جيرلوف في كتابه (Marine Optics) أنه ينخفض مستوى الإضاءة في مياه المحيط المكشوفة إلى نسبة ١٠٪ من مستواه عند السطح على عمق ٣٥

مترًا، وإلى ١% على عمق ٨٥ مترًا، وإلى ٠.١% على عمق ١٣٥مترًا، وإلى ٠.٠١% على عمق ١٩٠مترًا، ويشتد الظلام بعد عمق ١٠٠٠ متر حتى إذا أخرج الإنسان يده لا يراها.

هذه الحقائق العلمية المدهشة ذكرها القرآن الكريم الذي أنزل على عرب في الصحراء لا يعرفون السباحة ولا خوض البحار والمحيطات؛ حيث جاء في الآية الأربعين من سورة النور قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠) فهذه الآية تتطابق مع تلك الحقائق؛ إذ قررت أن البحار العميقة غالبًا ما تعلوها السحب، وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ تدل على انعدام الرؤية ويؤكد ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ فاللجي هو الشديد الظلمة والعمق، والأسماك في ذاك العمق ليس لها عيون بل إنها مجهزة بنور بيولوجي كما ورد في الموسوعة البريطانية وهذا وجه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فهذه الأسماك قادرة على استبيان طريقها ومعرفته من خلال أعضاء منيرة خلقها الله تعالى في جسمها.

وقاع البحر المنحدر يتغير لونه بصورة تدريجية إلى الأزرق حتى يختفي تمامًا مع تزايد العمق، كما أن نفاذ ألوان طيف الضوء إلى البحار تتناسب عكسيًا مع ازدياد العمق، فكلما زاد العمق نشأت ظلمة حالت دون رؤية بعض ألوان الطيف الضوئي، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ ولم يقل (ظلمة) وقال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

لقد لاحظ الدكتور «وليام هي» (HAY) أن الصيادين قادرون على استخدام الاختلاف الظاهر في لون الماء لتحديد العمق بدقة ملحوظة، وأبسط جهاز علمي لقياس عمق نفاذ الضوء في مياه المحيط هو «قرص سيتشي» (The Secchi disk) الذي يتم إنزاله في الماء ليسجل العمق الذي تتعذر رؤيته كنقطة قياسية (أساسية).

- الظاهرة الثانية: حركة الأمواج الداخلية:

إن صورة طبقات الأمواج التي تعلو إحداها الأخرى على سطح البحر تأخذ

بالعقول، وهذه الظاهرة للأمواج معروفة تمامًا لدى البحارة والصيادين، ولكن الشيء الأشد غرابة الذي لم يعرفه الإنسان إلا قبل مائة سنة فقط، هو تلك الأمواج الداخلية الموجودة في أعماق البحار، والتي تتولد على امتداد السطح الفاصل بين طبقتين من المياه المختلفة من حيث الكثافة والضغط والحرارة والمد والجزر وتأثير الرياح كما ورد في الموسوعة البريطانية، والاختلاف في كثافة المحيط المفتوح أقل منه في المناطق الساحلية التي تصب فيها المياه العذبة من أنهار وجداول وغيرها، ويتشكل السطح الفاصل بين الكثافات المختلفة عند منطقة الهبوط الحراري الرئيسي فيفصل مياه السطح الدافئة عن مياه الأعماق الباردة، وقد يتراوح سمك طبقة المياه الدافئة من بضع عشرات إلى مئات من الأمتار.

وهذه الأمواج التي تتشكل على هذا السطح الفاصل بين الطبقتين المائيتين المختلفتين في الكثافة والملوحة والحرارة تشبه الموجات السطحية، ولكن لا يمكن أن تشاهد بسهولة من فوق سطح الماء، وتستهلك عملية تكونها جزءًا كبيرًا من الطاقة التي كان يمكن استخدامها لدفع سفينة ما إلى الأمام.

فنجد بعض السفن التي تبحر في هذه المياه تفقد فجأة قدرتها على التقدم، داخلةً فيما يعرف بظاهرة المياه الراكدة التي كان الفضل في تفسيرها ودراستها للدكتور السويدي فان إيكمان (V.W.Ekman) في أوائل القرن العشرين كما جاء في الموسوعة البريطانية. وقد قال ﷻ: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ والمعنى: أن الموج يغشى البحر اللجي وهذا ما أكده علماء البحار حيث قالوا بأن البحر اللجي العميق يختلف عن البحر السطحي، وأن الأمواج الداخلية لا تتكون إلا في منطقة الانفصال بين البحر السطحي والبحر العميق.

ولهذه الأمواج الداخلية أنواع مختلفة أهمها ما ينشأ في المضايق والقنوات، فمثلاً عند مضيق جبل طارق يتسبب التدفق الداخلي للتيار السطحي القوي، والتدفق الخارجي للتيار السفلي، في دخول الأمواج الداخلية من المحيط الأطلسي إلى المضيق كأنها أمواج متكسرة، مثل الأمواج المزبدة على الشاطئ، مما يتسبب في قدر كبير من الاضطرابات الداخلية.

إذن: هناك سحاب وهناك موج سطحي وأمواج داخلية، فإذا سقط الشعاع

الضوئي من الشمس، فإن السحاب يمتص بعضه فتحدث ظلمة، فإذا سقط على الموج السطحي عكس هذا الموج بعضه أيضًا، فإذا نزل الشعاع إلى الموج الداخلي انعكس وحدثت ظلمة، ثم إن كثافة الماء العميق تمتص ما بقي من أشعة الشمس على عمق ١٠٠٠ مترٍ، فيتم الظلام في هذه المنطقة أي في البحر اللجي العميق ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

* المراجع العلمية:

ذكرت الموسوعة البريطانية: «إن جزيئات الماء والأملاح الذائبة، والمواد العضوية، والأجسام الدقيقة العالقة تجتمع معًا لتسبب انخفاضًا في شدة الإشعاعات الشمسية المتاحة كلما ازدادت تعمقًا».

وتذكر الموسوعة البريطانية أيضا: «بشكل عام، أي فصيلة من الأسماك صنف (Osteichthyes) موجودة في أقصى أعماق المحيطات، عادة فوق الـ ٦٠٠ م وحتى إلى حد ٢٧٠٠ م (٢٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ قدم). الفصائل التي تمثل أكثر من دزينة (شكل) من العائلات السمكية البحرية، تتميز بأفواه كبيرة وبوجود عضو مضيء على بعض أو عدة أجزاء من الجسم، والأعضاء التي تنتج الضوء تقوم بجذب فريستها أو الأزواج الممكنة، هذه الميزات وغيرها من السمات الغريبة التي تتميز بها أسماك البحر العميق تظهر التكيفات التطورية مع الضغط الشديد والبرد وبالأخص بيئتهم المظلمة».

وأيضًا تذكر الموسوعة البريطانية: «الأمواج موجودة أيضًا في السطوح الداخلية للمحيطات، هذه السطوح تمثل أطباقًا من التغير السريع في كثافة الماء مع ازدياد العمق، والأمواج التي تصحبها تدعى الأمواج الداخلية، وسبب وجود هذه الأمواج الداخلية يكمن في تأثير قوى المد والجزر أو في تأثير الرياح أو تقلبات الضغط، أحيانًا يمكن لسفينة ما أن تسبب في حدوث أمواج داخلية إذا كانت هناك طبقة علوية قليلة العمق والملوحة».

ويذكر نفس المصدر (الموسوعة البريطانية): «كشف إيكمان عن نظريته ومواهبه التجريبية في دراسته لما يسمى بالماء الراكد الذي يؤدي إلى تحريك بطيء للقوارب لتصبح تتردد واقفة في مكانها بسبب انتشار طبقة من المياه العذبة فوق

هذا البحر والآتية من ذوبان الثلوج».

* وجه الإعجاز:

وجه الإعجاز في الآية القرآنية الكريمة هو تصريحها بوجود ظلمات في أعماق البحار متراكمة فوق بعضها البعض، ووجود أمواج داخلية في البحار والمحيطات العميقة والتي غالبًا ما تغطي هذه البحار والمحيطات سحب ركامية تحجب قدرًا مهمًا من أشعة الشمس، وهذا ما كشفت عنه دراسات علماء البحار في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]

من الأدعية المأثورة عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس» [سنن ابن ماجه].

وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر، اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم إني أعوذ بك من الكسل والمأثم والمغرم» [صحيح البخاري (٥٩٠٠)].

هذا الدعاء نردده دائمًا ولكننا لا نعلم الحقيقة العلمية التي تكمن في كلماته.

فالماء الذي اختصه الله تعالى بقضية الخلق في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] له إعجاز آخر في قدرته على التنظيف وإذابة المواد وسأذكر بعض خواص الماء: -

فهو يتكون من ذرتي هيدروجين مرتبطة مع ذرة واحدة من الأكسجين برابطة تساهمية قطبية، هذه القطبية (الناتجة عن فرق السالبية الكهربائية بين ذرات الهيدروجين والأكسجين) تعمل على تجميع جزيئات الماء بواسطة روابط هيدروجينية ضعيفة تكسبه خصائص فريدة عن المركبات المشابهة له في التركيب،

وتسبب تغيرات في خواصه الفيزيائية فدرجة غليانه مرتفعة ١٠٠٠° س والتوتر السطحي له كبير، وغيرها من الخواص التي لا مجال لذكرها في هذا البحث.

فالماء الذي اختصه الله تعالى والذي يسمى «بالمذيب العام» له قدرة كبيرة على إذابة كثير من المواد الأيونية؛ حيث إن جزيئات الماء القطبية تهاجم بلورة المركب إذا كان أيونيًا فيعزل أيوناته المتجاذبة داخل الشبكة البلورية وتنشأ قوى تجاذب بين جزيئات الماء القطبية والأيونات حيث تتغلب على قوى التجاذب بين الأيونات في البلورة فتنتشر المادة المذابة بين جزيئات الماء.

هذا الدعاء شبَّه الذنوب والخطايا بالأوساخ التي ينظفها الماء، فكيف تحدث عملية التنظيف بالماء؟

عندما تعلق البقع والأوساخ بالثوب تحدث قوى جذب بين القماش والأوساخ تسمى علميًا بقوى الالتصاق، والماء الذي اختصه الله تعالى بقدرة كبيرة على إذابة المواد بسبب الخاصية القطبية وخاصية التوتر السطحي له والتي تساعده في التغلغل داخل خيوط القماش (الخاصية الشعرية) فيخترق البقعة ويبلل القماش وبالتالي يذيب الأوساخ بعزل أيوناتها عن بعضها، فتضعف قوى التجاذب بينها إذا كانت من النوع الذي يذوب في الماء.

أما إذا كانت البقع دهنية ولا تذوب في الماء: فإن الماء ينقطع على شكل كرات ولا يبلل سطح النسيج؛ لأن قوى الالتصاق بين الماء والبقع أقل من قوى التماسك بين جزيئات الماء، لذلك يمكن غسلها بالماء والصابون حيث إن محلول الصابون يقلل التوتر السطحي للماء فينتشر محلول الصابون على الدهون ويتفاعل معها مكونًا مستحلبًا دهنيًا وتزداد قوى التجاذب بين الماء والبقع فتترك الأوساخ السطح العالقة به.

ولكن الدعاء أشار إلى طريقة أخرى للتنظيف وهي الثلج فكيف يكون الثلج وسيلة للتنظيف؟

كلنا نعلم أن الماء عندما يتجمد يصبح ثلجًا عند درجة الصفر المئوي وتتغير طريقة ارتباط الجزيئات فتصبح مثل حلقة البنزين.

فهناك بعض الأوساخ التي لا تزول بالماء أو بالماء والصابون؛ وذلك لأن قوى الالتصاق بين هذه البقع والقماش تكون كبيرة مثل: بقع الشمع أو العلك على القماش، فعند وضع قطعة من الثلج عليها فإن البرودة تعمل على تقارب جزيئات هذه المادة (تنكمش) فتقل قوى الالتصاق بينها وبين القماش مما يؤدي إلى انفصالها (ويمكن لكل منا تجربة ذلك في منزله).

أما البرد: فهو يتكون عند درجة حرارة أقل من الصفر المئوي فإذا كانت هناك أوساخ مستعصية فإن البرد يعمل عل انكماش جزيئات هذه الأوساخ بدرجة أكبر من الثلج فتنفصل وتزول.

هذا الدعاء الذي شبَّه الخطايا بالأوساخ التي يجب غسلها بالماء والتي لا تزول بالماء يزيلها الثلج، والتي لا تزول بالثلج يزيلها البرد، حتى لا يبقى شيء من خطايا الإنسان.

وقد قال الرسول ﷺ في حديث آخر: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» [رواه البخاري].

وهذا دليل آخر على أن الماء وسيلة تنظيف من الأوساخ والذنوب، وهنالك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن الوضوء وأهميته في غسل الخطايا والذنوب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات»، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» [رواه مسلم].

هذا الحديث يُبيِّن أن الخطايا يمحوها الله بماء الوضوء.

وعن الرسول ﷺ أيضًا أنه قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطرة ماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو آخر قطرة ماء،

فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطرة ماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب» [رواه مسلم].

وفي حديثٍ آخر: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره» [رواه مسلم].

وقد كان الإمام الشافعي ﷺ من الفراسة والشفافية بحيث كان يرى الذنوب تتساقط مع قطرات الوضوء.

فسبحان من علم النبي الأمي هذه الحقيقة العلمية!

نستطيع القول: إن الماء والثلج والبرد هي حالات فيزيائية للماء لها قدرة كبيرة على التنظيف، ولكل منها ميكانيكية خاصة في التنظيف.

أسأل الله تعالى أن يغسلني وإياكم من خطايانا بالماء والثلج والبرد.



عجائب البحار في القرآن

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٤٣، ٤٤].

إن العمل في القرآن الكريم لهو أشرف العمل؛ إذ أنه عمل في كلام الله تعالى، وإن حقيقة هذا الكتاب الخالد، وخفاياه، أنوار تضيء القلوب والعقول، وتفتح الأبصار والأفئدة، لتقود إلى مسالك الخير والهدى في الدنيا والآخرة.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة» فقلت: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعت به حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[الجن:١، ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

ففي رحاب القرآن نعمل ونجتهد، مستفيدين من خُطا من سبقنا، ومحاولين جاهدين الإلمام بجميع صور إعجاز القرآن، فالقرآن لم يترك شيئًا إلا وأشار إليه حتى تحدث العلماء وقالوا: «إن شئت الخياطة فاقرأ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢] وإن شئت الحدادة فاقرأ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[سبأ:١٠] وإن شئت البناء: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:٥] فالغزل: ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾[النحل:٩٢] فالنسج: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] والفلاحة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة:٦٣] والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف:١٤٨] والملاحة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ [الكهف:٧٩] والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ [يوسف:٣٦] والطبخ: ﴿فَجَآءَ

بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات:٢٦] والغسل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:٤] والنحت: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ [الشعراء:١٤٩] قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩].

وقرر السيوطي أن أنواع العلوم ليس منها باب ولا مسألة هي من أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها.

❊ ❊ ❊

في هذا المقال سوف نرى بأن القرآن يتحدث عن أنواع المياه بدقة فائقة، ويصنفها بما يتناسب مع درجة نقاوتها، فالقرآن يسمي الماء المقطر وهو ماء المطر بالماء الطهور، ويسمي الماء العذب الذي نشربه من الأنهار والآبار بالماء الفرات، ويسمي ماء البحر الذي يحتوي على نسبة عالية من الملوحة بالماء الأجاج، وقد ثبت علميًا الفوارق الكبيرة بين هذه الأنواع، وهذا ما سنعيش معه الآن من خلال الفقرات الآتية، ونود أن نشير إلى أن قطرة الماء الواحدة تحوي خمسة آلاف مليون جزيء ماء! فكم تحوي بحار الدنيا؟

❊ القرآن يتحدث عن الماء المقطر:

يقول ﷻ في مُحكم الذكر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ [الفرقان:٤٨] فقد تأملتُ هذه الآية طويلاً ووجدتها تتحدث بدقة عن مواصفات ما يسميه العلماء بالماء المقطر، فقد اكتشف العلماء أن الماء الذي نشربه يحتوي على الكثير من المواد والأحياء، فكأس الماء الذي نظنُّه نقيًا فيه ملايين الأحياء الدقيقة مثل: البكتريا والفيروسات، وفيه مواد معدنية مثل: الحديد والنحاس والألمنيوم والصوديوم والمغنسيوم والكالسيوم، وفيه أيضًا مواد عضوية مثل: الكربون والتراب وغير ذلك، وكل هذا موجود فيما نسميه ماء نقيًا!

لقد اكتشف العلماء أيضًا أن هذا الماء يمكن تنقيته بتسخينه حتى درجة الغليان؛ أي ١٠٠ درجة مئوية، ثم جمع البخار وتكثيفه وتبريده، والحصول على الماء المقطر الذي يكون نقيًا لدرجة كبيرة، ويقولون أيضًا: إن أفضل أنواع الماء المقطر هو ماء المطر، ولكن قبل سقوطه على الأرض وتلوثه بالملوثات الموجودة في الهواء.

لقد أفرزت حضارة هذا العصر الكثير من التلوث، حتى إن سقوط المطر ينظف الجو؛ لأن ماء المطر وهو ماء مقطَّر يتميز بشراهته لامتصاص المواد، فيمتص من الجو غاز الكبريت وغيره من المواد والمعادن مثل الرصاص السام، وهكذا يكون طعم ماء المطر حامضيًا. مع العلم أنه في الماضي كان ماء المطر نقيًا لأن الجو لم يكن قد تلوث.

عندما ينزل ماء المطر على الأرض يتسرب عبر التربة وبين الصخور ويسلك مسارات معقدة جدًا، وخلال رحلته يمتزج ببعض المعادن والأملاح الموجودة في الصخور، ويأخذ طعمًا قلويًا شيئًا ما. ولذلك نجد أن طعم الماء المقطر غير مستساغ؛ لأنه عديم الطعم، بينما طعم ماء الينابيع يكون مستساغًا.

ويصرح العلماء اليوم أن ماء المطر هو ماء مقطر، هذا الماء النقي له خصائص مطهرة وهو مزيل ممتاز للأوساخ، ويستطيع تطهير وتعقيم أي شيء، وقد صدق الله تعالى عندما سمَّى الماء النازل من السماء بالماء الطهور، وهي تسمية دقيقة من الناحية العلمية ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

* مواصفات ماء المطر:

والآن سوف نُعدِّد بعض خصائص الماء النازل من السماء وهو ماء المطر، يعتبر ماء المطر ماء مقطرًا مائة بالمائة فهو ناتج عن تبخر الماء من البحار وتكثفه على شكل غيوم ثم ينزل مطرًا. لذلك هو ماء نقي تمامًا. ماء المطر يستطيع نزع الأوساخ من على جلد الإنسان أكثر من الماء العادي، لذلك يعتبر هذا الماء مادة معقمة ومطهرة تستخدم في الطب، وهو خالٍ من الفيروسات والبكتريا، وهو أيضًا ماء يمتلك خاصية امتصاص المعادن والغازات والغبار وأي مادة تصادفه بنسبة كبيرة، لذلك هو مادة مطهرة للجوِّ أيضًا!

وبعد معرفتنا لهذه الصفات نجد أنها تجتمع في كلمة واحدة هي التي عبر بها القرآن عن حقيقة ماء المطر في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]. فكلمة (طَهَرَ) في اللغة تعني: إزالة الأوساخ والنجاسات والتنزه عنها كما في القاموس المحيط.

* الماء الفرات:

ولكن هنالك صفة جديدة لهذا الماء يحدثنا عنها العلماء؛ وهي أنه ماء يستطيع أن يجدد الخلايا في الجسم بشكل أكبر من الماء العادي، أما علماء الطاقة فيؤكدون أن ماء المطر يمتلك كمية أكبر من الطاقة، وهذا ما ينعكس إيجابيًا على الحالة النفسية للإنسان.

ولقد سمَّى الله تعالى ماء الأنهار والماء المختزن تحت الأرض والذي نشربه بالماء الفرات؛ أي المستساغ الطعم، بينما سمَّى ماء البحر بالأجاج للدلالة على ملوحته الزائدة، وسمَّى ماء المطر بالماء الطهور، وبذلك يكون القرآن أول كتاب يعطينا تصنيفًا علميًا للمياه.

وليس غريبًا أن نجد القرآن يحدثنا عن هذه الخصائص بشكل واضح في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال:11]. هذه الآية تتحدث عن ماء المطر من خلال قوله تعالى: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وتحدثنا عن خاصية التطهير الموجودة في هذا الماء في قوله ﷻ: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾، وتحدثنا عن خاصية الطاقة التي يمتلكها هذا الماء وتؤثر في الإنسان في إعطائه الدفع والقوة لتثبت قدماه عند لقاء العدو؛ أي الحديث هنا عن الطاقة التي يستطيع الإنسان بواسطتها المواجهة أكثر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

بينما نجد القرآن يفرق بين كلمة (طَهور) وكلمة (فُرات) في آياته؛ يقول تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾[المرسلات:27]. فالماء الذي نشربه من الأنهار والينابيع والآبار ماء عذب ومستساغ المذاق؛ لأنه يحوي كمية من المعادن مثل: الحديد الذي يجعل طعم الماء حلوًا. وهذا يناسبه كلمة ﴿فُرَاتًا﴾، و(الماء الفرات) في اللغة هو الماء المستساغ المذاق كما في المعاجم اللغوية. بينما الماء النازل من السماء هو ماء مقطر يمتلك خصائص التعقيم والتطهير وليس له طعم! لذلك وصفه البيان الإلهي بكلمة ﴿طَهُورًا﴾.

فالماء عندما ينزل من السماء يكون طهورًا ثم يمتزج بالمعادن والأملاح في الأرض ليصبح فراتًا. وحتى عندما يتحدث القرآن عن مياه الأنهار نجده يستخدم

كلمة ﴿فُرَاتًا﴾ ولا يستخدم كلمة ﴿طَهُورًا﴾ لأن ماء النهر العذب يحتوي على كثير من المعادن المحلولة فيه، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢]

* الماء الأجاج:

لقد استوقفني قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢] وتساءلتُ: لماذا أعطى الله تعالى لكل نوع من هذين النوعين صفتين: ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ - ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فنحن نعلم بأن ماء النهر ﴿عَذْبٌ﴾ فلماذا أضاف الله صفة ثانية وهي ﴿فُرَاتٌ﴾؟ وكذلك ماء البحر ﴿مِلْحٌ﴾ فلماذا أضاف الله له صفة ثانية وهي ﴿أُجَاجٌ﴾؟ وفي الوقت نفسه وصف الله تعالى ماء المطر بصفة واحدة فقط وهي ﴿طَهُورًا﴾ فهل هنالك تكرار في القرآن أم إعجاز؟

لقد وجدتُ بأن علماء المياه عندما يتعاملون مع الماء لا يكتفون بإطلاق صفة العذوبة أو الملوحة على الماء، فكل المياه التي نراها على الأرض سواء في الأنهار أو البحيرات أو مياه الآبار جميعها تحوي أملاحًا بنسبة لا نكاد نشعر بها، ولكنها لا تغيب عن الله تعالى وهو خالقها!

لذلك جاء البيان الإلهي بصفة ثانية وهي ﴿فُرَاتٌ﴾ أي: مستساغ المذاق بسبب انحلال بعض المعادن والغازات فيه، والتي تعطي الماء طعمه المعروف، وبالمقابل نجد أن صفة ﴿مِلْحٌ﴾ لا تكفي لوصف ماء البحر بشكل دقيق فأتبعها الله تعالى بصفة ثانية وهي ﴿أُجَاجٌ﴾ أي: زائد عن الحد، وهذه الكلمة من فعل (تأجَّج) أي: زاد وبالغ كما في معاجم اللغة العربية، ولكن هل تكفي صفة واحدة وهي ﴿طَهُورًا﴾ لوصف ماء المطر؟ نعم؛ لأن ماء المطر -كما رأينا- هو ماء نقي ومقطر ولا طعم له أو رائحة، ولذلك تكفيه صفة واحدة.

وماء البحر هو الماء الأجاج، وفي اللغة الفعل (أَجَجَ) يعني: زاد عن الحدِّ، وهذا ما نجده في مياه البحر التي تحتوي على درجة ملوحة زائدة، وصف الله تعالى ماء البحر بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ لأن كلمة ﴿مِلْحٌ﴾ وحدها لا تكفي، فالمياه العذبة تحتوي على نسبة من الملوحة، ولكننا لا نحس بها!

* وجه الإعجاز:

ويتجلى وجه الإعجاز في أن القرآن يستخدم كلمة ﴿طَهُورًا﴾ مع الماء النازل من السماء؛ لأنه ماء نقيٌّ، وهو ما يسميه العلماء بالماء المقطر ويعدُّونه مادة مطهرة، بينما كلمة ﴿فُرَاتٌ﴾ لا يستخدمها الله تعالى مع ماء السماء أبدًا، بل مع الماء الذي نشربه؛ لأن ماء الأنهار ليس نقيًا مائة بالمائة، بل هنالك بعض الأملاح والمعادن المنحلة فيه والتي تعطيه طعمًا مستساغًا.

ولو تأملنا حديث القرآن عن ماء البحر نجد كلمة ﴿أُجَاجٌ﴾ للدلالة على الملوحة الزائدة فيه، والقرآن لا يكتفي بإطلاق صفة الملوحة على ماء البحر، أي: لم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾ بل قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾. لأننا من الناحية العلمية إذا قلنا: إن هذا الماء يحوي أملاحًا فإن هذا لا يعني شيئًا لأن كل المياه على الأرض فيها أملاح بنسبة أو أخرى، ولذلك يجب أن نحدد نسبة الملوحة فيه، وهذا ما فعله القرآن.

هنالك شيء آخر وهو أن القرآن أول كتاب تحدث عن خاصية التطهير الموجودة في ماء المطر أو الماء المقطر، وهذه الصفة - كما قلنا - لم تُستخدم في القرآن إلا مع ماء السماء، بينما نجد كتب البشر لا تفرق بين الماء العذب والماء الطهور والماء الفرات، بينما القرآن ميَّز بينها ووضع كل كلمة في مكانها الدقيق.

فسبحان الذي أحكم آيات كتابه وكلماته وكل حرف من حروفه! والسؤال الذي نودُّ أن نوجهه لأولئك المشككين بإعجاز القرآن: لو كان القرآن من تأليف بشر هل استطاع التمييز بين هذه الكلمات في ذلك العصر؟؟

إذن نستطيع القول بأن القرآن تحدث عن مواصفات وخصائص الماء قبل أن يكتشفها علماء الفيزياء بقرون طويلة؛ أي أن القرآن هو أول كتاب يُفرِّق بين أنواع المياه، أليس هذا دليلاً ماديًا على أن القرآن صادر من الله تبارك وتعالى؟

* * *

سؤال طالما كرره بعض القراء حول حقيقة نسبة البر إلى البحر في القرآن، هل هي حقيقة قرآنية ثابتة، لنقرأ:

منذ ربع قرن تقريبًا اكتشف بعض الباحثين حقيقة عددية؛ حيث تحدث القرآن بدقة مذهلة عن نسبة البحر إلى البر، وقد وردتني العديد من التساؤلات حول صحة هذا الأمر، ولذلك فقد رأيتُ أن أجري إحصاء جديدًا حول عدد مرات تكرار كلمة ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ وعدد مرات تكرار كلمة ﴿ٱلْبَرِّ﴾ وذلك في القرآن كله.

لقد وردت كلمة ﴿بَحْرٍ﴾ في القرآن وذلك بصيغتها المفردة في ٣٢ آية، ووردت كلمة ﴿بِرّ﴾ بصيغتها المفردة في (١٢) آية، وهنالك آية وردت فيها كلمة ﴿يَبَسًا﴾ والتي تعني البر، فيكون المجموع ١٣.

وبالتالي يمكن أن نقول:

ـ عدد الآيات التي ذُكر فيها البحر في القرآن هو ٣٢.

ـ عدد الآيات التي ذُكر فيها البرّ في القرآن هو ١٣.

ـ مجموع الآيات التي ذُكر فيها البحر والبر هو ٣٢ + ١٣ = ٤٥ آية.

وإذا استعملنا النسب العددية؛ أي قمنا بحساب نسبة تكرار البحر في هذه الآيات، فإنه يجب علينا أن نُقسِّم عدد مرات تكرار آيات (البحر)؛ أي العدد ٣٢ على المجموع الكلي أي ٤٥، وستكون النسبة كما يلي: ٣٢ ÷ ٤٥ = ٧١ ٪

وستكون نسبة آيات البرّ ١٣ إلى المجموع الكلي وهو ٤٥ كما يلي: ١٣ ÷ ٤٥ = ٢٩ ٪

وبالتالي نخلص إلى نتيجة وهي أن نسبة البحر والبر في القرآن هي ٧١ %، و٢٩ % على الترتيب، وعندما نذهب إلى موقع وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» نلاحظ أنهم يحددون نسبة البحر على الأرض بنفس النسب الواردة في القرآن أي ٧١ % للبحر، و٢٩ % للبرّ.

وهذا تطابق مذهل يشهد على أن الله قد أحكم آيات كتابه وجعل في هذه الآيات تبيانًا لكل شيء فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

* آيات الإعجاز:

قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢]

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١]

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

* التفسير اللغوي:

قال ابن منظور في لسان العرب: مرج: له معنيان؛ الأول: الخلط، والثاني: مجيء وذهاب واضطراب.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: الميم والراء والجيم أصل صحيح يدل على مجيء وذهاب واضطراب.

وقال الزجاج: مرج: خلط يعني البحر الملح والبحر العذب، ومعنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾: أي لا يبغي المَلِح على العذب فيختلط.

أُجاج: ماء أُجاج أي مَلِح وقيل: مرّ وقيل: شديد المرارة، وقيل: الأُجاج: الشديد الحرارة.

قال الله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو الشديد الملوحة والمرارة مثل ماء البحر، الأُجاج - بالضم -: الماء الملح الشديد الملوحة. وأجيج الماء: صوت انصبابه.

الحجر: الحِجر والحَجر هو المنع والتضييق، قال ابن منظور: «لقد تحجرت واسعًا» أي: ضيقت ما وسَّعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك.

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: يسمى العقل حجرًا؛ لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي.

* فهم المفسرين:

(أ) الحاجز بين بحرين:

لقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن الحاجز الذي يفصل بين البحرين المذكورين

هو حاجز من قدرة الله تعالى لا يُرى؛ قال الإمام ابن الجوزي عن البرزخ هو: «مانع من قدرة الله لا يراه أحد» (زاد المسير ٩٠/٦) وقال بذلك أيضًا الزمخشري في (الكشاف ٩٦/٣)، والقرطبي في تفسيره (جامع الأحكام ٥٨/١٣)، والبقاعي في (نظم الدرر ٤٠٦/١٣).

(ب) حاجز بين نهر عذب وبحر مالح:

قال الطبري: يعني بالعذب الفرات: مياه الأنهار والأمطار، وبالملح الأجاج: مياه البحار، وإنما عنى بذلك أنه من نعمه على خلقه، يخلط ماء النهر العذب الفرات بماء البحر الملح الأجاج ثم يمنع الملح من تغيير العذبِ عن عذوبته وإفساده إياه بقضائه وقدره.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: يعني حاجزًا يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: يقول: وجعل كل واحد منهما حرامًا محرمًا على صاحبه أن يغيره.

وعن مجاهد قال: أي: حاجزًا لا يراه أحد.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾. قال مجاهد: البرزخ أنهما يلتقيان فلا يختلطان و«حجرًا محجورًا» أي: لا تختلط ملوحة هذا بعذوبة هذا فلا يبغي أحدهما على الآخر.

ونشير إلى أنه لم يتيسر للمفسرين الإحاطة بتفاصيل الأسرار التي قررتها الآيات لأنها كانت غائبة عن مشاهدتهم، ومن هنا يفهم تعدد أقوالهم في تفسير لفظ ﴿مَرَجَ﴾ ولفظ (البرزخ) ولفظ ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وذلك بسبب نقص العلم البشري طيلة القرون الماضية.

* مقدمة تاريخية:

لقد دلَّ الوصف التاريخي لتطور علوم البحار على عدم وجود أية معلومات علمية في هذا الموضوع، بل إن علوم البحار لم تتقدم إلا في القرنين الأخيرين، خاصة في النصف الأخير من القرن العشرين، فأعماق البحار كانت مجهولة بالنسبة للإنسان تكثر عنها الأساطير والخرافات، ثم بدأ علم المحيطات يأخذ مكانه بين العلوم الحديثة عندما قامت السفينة البريطانية «تشالنجر» برحلتها حول العالم

(١٨٧٢- ١٨٧٦ م) حيث توالت الرحلات العلمية لاكتشاف البحار.

في الأربعينات من القرن العشرين كشفت الدراسات البحرية التي أجريت في المحطات البحرية، أن البحار المالحة بحار مختلفة، وأن هناك حاجزًا وبرزخًا يفصل بين بحرين مالحين.

ثم تطورت دراسة علم المحيطات، وكان للأقمار الاصطناعية الأثر الأكبر في هذا التطور؛ حيث استطاع العلماء الحصول على صور للبرازخ وكذلك لمصبات الأنهار واختلاف درجات الحرارة والتلوّث.

* حقائق علمية:

- يوجد بين البحار المالحة حواجز مائية تحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر.

- يوجد اختلاط بن البحرين رغم وجود الحاجز لكنه اختلاط بطيء بحيث يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر آخر يتحول إلى خصائص البحر الذي ينتقل إليه دون أن يؤثر في خصائصه.

- بيّنت الدراسات البحرية أن المرجان يوجد فقط في المناطق البحرية ولا يوجد في مناطق المياه العذبة.

- تنقسم المياه إلى ثلاثة أنواع: (مياه الأنهار، مياه البحار، ومياه منطقة المصب).

- لا يوجد لقاء مباشر بين ماء النهر وماء البحر في منطقة المصب لوجود حاجز مائي يحيط بهذه المنطقة ويفصل بين الماءين.

- تعتبر منطقة المصب حِجْرًا على الكائنات التي تعيش فيها، ومحجورة عن الكائنات التي تعيش خارجها.

* * *

معوقون ناجحون

قال رسول الله ﷺ «إنّ الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة» [رواه البخاري].

الحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

أحمده ﷻ وهو القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨] وهو القائل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد سيد الأولين والآخرين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه رسالة قصيرة جمعتها في أحكام من ابتلاه الله ﷻ بفقد حاسة من حواسه، أو طرف من أطرافه أو جزء من كماله الإنساني... ولله الحكم والتدبير والمشيئة النافذة في خلقه سبحانه.

وقد أردت أن أجعل هذه الرسالة عزاءً وسلوى لكل مصاب، وبيانًا لأهم الأحكام الفقهية الواجبة عليه وعلى أهله، ومن يكفله ويرعاه، وبيان الواجب على كل مسلم نحو من ابتلاهم الله، وإني لأحتسب في ذلك من ربي الأجر والثواب فإن شكر الله على العافية أجر، ومشاركة الصابرين في صبرهم وحزنهم أجر، وتسلية المصابين في مصابهم أجر، وأسأل الله أن يجمع لي هذا كله بفضلٍ منه ورحمة؛ إنه هو السميع العليم.

* تعريف بالمعاق:

المعاق هو الذي أصابه نقص أو قصور عن الإنسان السوي في بدنه أو عقله. ويدخل تحت هذا التعريف أنواع كثيرة من المبتلين كمن فقد بصره، أو سمعه، أو بعضًا من ذلك، أو فقد القدرة على تحريك طرف من أطرافه أو أكثر، وكذلك من

فقد جزءًا من عقله يجعله دون الإنسان السوي، ويقال: إن نحوًا من عشرة في المائة من البشر يعانون نوعًا من أنواع الإعاقة، ومعنى هذا أنه يوجد في العالم اليوم أكثر من خمسمائة مليون إنسان معاق، وقدرت الإحصائيات أن (٨٠%) منهم يعيشون في البلدان الفقيرة والتي يسمونها بالعالم النامي والمتخلف.

* المعاق على الحقيقة هو الكافر بالله سبحانه:

اعلم أخي المسلم أن الكفر بالله هو أعظم آفة في الأرض، فإذا أردت أن تُعرِّف المعاق على الحقيقة فاعلم أنه الكافر؛ لأن الله خلق له سمعًا، وبصرًا، وفؤادًا ليؤمن به ويعبده، ويتبع صراطه المستقيم، فعطَّل كل ذلك وكفر بالله الذي خلقه وسواه وأعطاه السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فهذا حال الكافر الذي عطَّل سمعه وبصره وفؤاده فلم يستفد به إلا استفادة الحيوان بحواسه وذلك في الطعام، والشراب، والجماع، ولكن الحيوان مع ذلك أحسن حالاً منه؛ حيث إنه لم يعط أمانة التكليف، وأما الإنسان فإنه مخلوق مكلفٌ، ولذلك كان حاله إذا لم يقم بما كلفه الله به من الإيمان والعمل أسوأ حالاً من الحيوان عياذًا بالله.

أما المؤمن فإنه استفاد بحواسه وعقله الذي منحه الله إياه فاستعمله فيما خُلق له، وإذا قدَّر الله على المؤمن أن يسلبه واحدة من هذه الحواس أو الجوارح التي أعطاه فإنه يسقط عنه من التكليف بمقدارها وقدرها.

ثم إن العمى على الحقيقة ليس فقد البصر بل العمى الحقيقي هو فقد البصيرة والإيمان: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وإن الأعرج أو المشلول المقعد الذي لا يخرج لقتال، أو جهاد هو لا شك أحسن حالاً وأطيب منقَلَبًا من صاحب القدمين واليدين الذي استخدم هذه الجوارح في معاصي الله ﷻ، ولأن يكون المسلم فاقدًا لعضو لا يستعمله في معصية، خير ممن أوتِيَ هذه الجوارح وسَخَّرها في خدمة الشيطان.

فالمعاق حقيقة ليس من فقد جزءًا من عقله، أو حاسةً من حواسه، أو جارحة من جوارحه ما دام أنه قام فيما أبقى الله له من حاسة، وجارحة على طاعة الله، وإنما المعاق على الحقيقة من رزقه الله السمع والبصر والفؤاد والجوارح، فعطلها عن النظر في الإيمان واستعملها في معاصي الرب الرحمن، فنعوذ بالله من الكفر والخذلان.

أولاً: كل خلق الله حسن وبعض خلق الله أفضل من بعض:

وصف الله نفسه بأنه سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، وأنه رب العالمين، فكل العوالم من الملائكة، والإنس، والجن، والطير، وسائر المخلوقات الله ربهم وخالقهم؛ فهو بديع السموات والأرض، وهو رب الملائكة، والجن والإنس ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

وكل فرد من أفراد هذه المخلوقات خلقه الله فأحسن خلقه، فالبعوضة، والذبابة، والكلب، والحمار، والفراشة، والدودة، وكل دابة في غاية الإحكام، وإبداع الصنع مما يدل على كمال علم الله سبحانه وعظيم قدرته، وكما أن الله هو رب الذرة الصغيرة، فهو رب المجرة الكبيرة، وكل شيء من ذلك في غاية الإتقان والإحكام.

وقد اختص الله الإنسان من سائر المخلوقات بأكمل صورة وأحسنها، فجعله قائمًا على رجلين، وهذا أكمل من حال الزواحف، ومن مشى من الدواب على أربع مُكبةً على وجوهها، وجعل بَشرَته ظاهرةً بخلاف الطير والحيوان الذي يغطيه الريش، والشعر، أو الصوف، أو الوبر، وفضله على سائر الحيوانات بالعقل المدبر، وبتسخير غيره من الحيوان له ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

فالحمد لله أن خلقنا بشرًا، والحمد لله على ما أولانا من نعمه العظيمة، وإحسانه الكبير.

ثانيًا: حكمة الله في خلق الآفة والنقص:

خلق الله كل شيء ﷻ، وقد خلق الآفة والشر، وجعل النقص في بعض مخلوقاته لحكم عظيمة، ومن ذلك:

١ - العقوبة على المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] والفساد هنا هو الآفة والشر الذي يعاقب الله به عباده كالريح العقيم المدمرة، والبركان الثائر، والأمراض، والأسقام، والقحط، والطوفان، ونحو ذلك.

٢ - أن يعلم الناس قدرة الله عليهم، وأنه هو الذي يملك نفعهم وضرهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

٣ - أن يعلم الناس قدرة الله على خلق الخير والشر، وعلى أنه سبحانه يجازي بالإحسان إحسانًا، وأنه سبحانه يعاقب على الإساءة، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠].

فالله الذي خلق الجنة وجمع فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، بل ذخر فيها ما لا عين رأت من نعيم، وما لا أذن سمعت، وما لم يخطر على قلب بشر، فإنه ﷻ خلق الجحيم، وجعل فيها أنواع الشرور، والآلام، والأحزان، والعذاب والنكال فوق ما تتصوره العقول ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥، ٢٦].

٤ - أن يتذكر - من يعافيه الله - نعمة ربه وإحسانه فيشكره على ذلك، ويعلم فضل الله عليه وإحسانه إليه أن لم يصبه بما أصاب غيره.

٥ - أن يجعل الله لمن يصيب منه بابًا عظيمًا للظفر بمرضاته، والفوز بجناته، وتخفيف ذنوبه ورفع درجاته.

وحكمة الله من خلق الشر والآفة، والنقص حكمة عظيمة، فالله هو المحمود على كل صفاته، وأفعاله، وإنعامه.

ثالثًا: الواجب الشرعي على من ابتلاه الله بنقص أو آفة أو تعويق:

* يجب على كل من ابتلاه الله بآفة أو تعويق:

١ - الاعتقاد بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فإن القضاء مكتوب قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

فعلى المسلم الذي يصاب بأمر يكرهه أن يقول كما علمنا الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦، ١٥٧].

وإذا استقر في نفس المسلم الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الذي أصابه لا بد وأن يصيبه، وأنه أمر لا مفر منه، ولا مهرب منه لأن الله قد كتبه في الأزل؛ فإن نفسه تهدأ، وقلبه يسكن، ويكون هذا بداية ومقدمة للرضا بقضاء الله وقدره.

٢ - أن يوقن بأن الله إذا ابتلى المؤمن فلأنه يحبه ويؤثره على غيره ممن لم يبتله، ولذلك كان الرسل هم أشد الناس بلاءً، وأكثرهم تحملاً للأذى وصنوف الغم، والكرب العظيم، كما قال ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، إن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة» [رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٣)].

فقد ابتلى الرسل بالجبابرة المنكرين، والكفار المعاندين، والمكذبين الذين سبوهم وشتموهم، وأخرجوهم وتمالئوا على قتلهم، فمن الرسل من هُدِّدَ بالإحراق بالنار وأُلقي فيها، ومنهم من هُدِّد بالإخراج من بلده، ومن هُدِّد بالرجم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، ومن تآمر به المجرمون ليقتلوه، وشرعوا في تنفيذ إجرامهم، ومن ابتُلي في بدنه كأيوب عليه السلام حتى تأذى منه أولاده وزوجه فأهملوه، وتركوه، ومنهم ومنهم...

ومن الكفار من عاش سليمًا قويًا مجتمع الخَلْق، حتى قصمه الله مرة واحدة كما جاء في الحديث: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة» [متفق عليه].

وشجرة الأرز من أشد الأشجار قوة وصلابة، وقد جعلها الرسول ﷺ مثلاً للكافر الذي يبقى قويًا منيعًا متماسكًا حتى يموت، وهو كذلك، فيأتي الله موفورًا ذنبه، لم يأت عليه يوم يتذكر قدرة الله عليه فيستغفر، أو يتوب، وأما المؤمن فإنه لا يزال به البلاء يميله يمنةً ويسرةً حتى يأتي يوم القيامة وليس عليه ذنب.

والخلاصة: أن المؤمن إذا كان محلاً للبلاء من مرض، أو نقص، أو عاهة، فهو محل لرضوان الله وإيثاره له، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه» [رواه البخاري].

٣ - أن يعلم المصاب بنقص أو عاهة أو إعاقة أن الله يأجر المؤمن على كل مصيبة مهما صغرت ولو كانت شوكة يُشاكها كما جاء في الحديث: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ، ولا وصبٍ، ولا همٍ، ولا حزنٍ، ولا أذىً، ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّرَ الله بها من خطاياه» [متفق عليه].

وكلما عَظُمَ المصاب والبلاء، عظم الأجر والثواب كما جاء في الحديث القدسي: «من أذهبت حبيبتيه فصبر فاحتسب لم أرضَ له ثوابًا دون الجنة» وحبيبتيه يعني: عينيه. [رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٥٩)].

٤ - أن يعمل المؤمن المصاب على تجاوز هذا النقص والاستفادة بما بقي، وهذا باب عظيم جدًا للإحسان، وتفجير الطاقات.

ففقد البصر لا يعني نهاية الحياة، وتعطل القوى، وانسداد الأمل، بل إن تنمية بقية الحواس قد يُعوِّض فقد النظر، فإن تنشيط السمع، واللمس، وتقوية الفؤاد والقلب، إطلاقٌ لطاقات وإمكانيات سمعه ولمسه وذوقه وعقله، وكذلك الحال في فقد السمع، أو فقد طرف من الأطراف أو حاسة من الحواس، وفي الحديث: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا

وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» [رواه مسلم].

ومن معاني الحديث: أن المؤمن إذا أصابه شيء يكرهه فإن عليه أن يستعين بالله ولا يعجز؛ أي يستسلم إلى العجز، بل عليه أن يَجِدَّ وينشط، ويعمل في استكمال ما فاته من النقص.

وهذا الباب - أعنى محاولة إعانة من ابتلي بإعاقة على إعادة تأهيل نفسه ليبلغ بما بقي عنده من حواس وأطراف وإمكانيات غاية القدرة - هو ما تتنافس فيه اليوم مراكز تأهيل المعاقين في العالم، للوصول إلى أبلغ النتائج، وقد تحقق في هذا الصدد نتائج مذهلة؛ فالكتابة البارزة للمكفوفين، ولغة التخاطب بالإشارة للصم، واستخدامات الحاسوب (الكمبيوتر) لناقص القدرة العقلية (المتخلفين)، والرياضات البدنية المتقدمة للمعاقين، وكذلك استحداث آلات عظيمة لمساعدة المعاق؛ كالسيارات الخاصة، والدراجات الخاصة، والكراسي المتحركة، ونظم السكن والمرافق الميسرة، مما جعل حياتهم أعظم يُسرًا، وتمكين كثير من المعاقين أن يعتمدوا على أنفسهم، ولا يكونون عبئًا على غيرهم بل يسَّر لكثير منهم أن يكونوا أُناسًا فاعلين منتجين نافعين لغيرهم بعد أن كانوا عبئًا ثقيلاً على غيرهم، وهذا جميعه بفضل الله ورحمته، ومما أرشدنا رسول الله ﷺ إليه بقوله: «واستعن بالله ولا تعجز».

رابعًا: واجب السليم والمعافى نحو المعاق والمصاب:

هذه بعض من الواجبات الشرعية لمن عافاه الله من البلاء، وسلَّمه من الآفة نحو من ابتلاهم الله بإصابة وإعاقة:

١ - أن يشكر الله ﷻ ويحمده على العافية، وأن يعلم أن ما ابتلى الله به غيره يمكن أن يبتليه هو به، فإن الله قادر على كل شيء ﷻ، وأن ينزل عقوبته بمن يشاء وأن يبتلي من يشاء، وأنه ليس أحد بممتنع عن الله - جل وعلا - ولكنه - جل وعلا - يُصيب ويعافي ويبتلي عباده كما يشاء بالخير والشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

٢ - أن يدعو للمبتَلَى إذا كان من أهل الدين والتقوى أن يأجره الله ويثيبه ويعافيه

وأن يعوضه خيرًا مما أخذ منه.

٣- العطف على المبتَلَى، والظن أنه قد يكون عند الله خيرًا من غيره ممن عافاه الله، فرُبَّ عبد مدفوع على الأبواب لو أقسم على الله لأبره.

٤ - الإحسان إلى المبتَلَى، والمسارعة إلى نفعه وإعانته، فإن مساعدة المحتاج من أعظم أبواب الخير، وفي معرض الرسول لبيان أبواب الخير قال: «أن تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق» (متفق عليه).

والخَرقَ نوع من الإعاقة العقلية، وأن تصنع له يدخل فيه كل ما يصنع للأخرق من خدمة أو إحسان، فدلالة الأعمى على الطريق، ومساعدته على معيشته، والقراءة عليه، وتعليم الأصم، والعناية بالمقعد، ونحوهم من أعظم أبواب الخير والإحسان.

٥ - المريض المُعاق في حالة ضعف، وهذه الحالة قد تكون دافعًا لمن وفقه الله ﷻ للالتجاء إلى الله، والطمع فيما عنده، والأمل في التعويض عما فاته في هذه الحياة الدنيا الفانية في الآخرة بالباقية، كما أن شعور السليم الغني بالصحة والعافية والغِنَى قد يكون دافعًا للجهول المخذول أن يظن أنه مستغنٍ عن الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ومن أجل ذلك يجب أن نستفيد من حالة الضعف التي يتعرض لها الإنسان بالابتلاء، وذلك بالرجوع إلى الله ﷻ، والطمع فيما عنده، بل إن من أعظم حِكَم البلاء أن الله ﷻ يوجه به عباده إليه، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. والعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، ولا شك أن العمى والصم والعاهة نوع من العذاب.

وقال تعالى في الكفار الذين لم يتعظوا بما أخذهم الله به من الضر: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣]. أي: هلا إذ جاءهم بأس الله ورأوه في الدنيا تضرعوا ورجعوا إلى الله ﷻ، فعلموا أنه ربهم وإلههم ومولاهم، وأنه كما أنه قادر على نفعهم قادر على ضرهم، فاستفادوا من ذلك بالعودة إلى الله، وطاعة رسله.

فالسعيد من استفاد من دروس البلاء، والشقي من مر عليه البلاء فقال: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:٩٥] فجعل نزول الضر، كمجيء الخير لا ارتباط له بحكمة الخالق المدبر ﷻ.

من أجل ذلك: وجب على الدعاة إلى الله أن يكون وجودهم عند البلاء للتذكير بقدرة الرب ورحمته، وتوجيه القلوب إليه، وانتشال مَن كتب الله له السعادة من حمأة الكفر، والسخط على الله، أو التمرد عليه، والبقاء في الكفر والعناد مع نزول البلاء.

٦ - يجب على من عافاه الله ﷻ من البلاء الذي ابتلى به غيره ألا ينتقص المبتَلَى ولا يهزأ به، ولا يغتابه به، فسب المبتَلِي بالعَمَى أو الصمم أو العرج، أو نقص العقل ونحو ذلك كبيرة من الكبائر، وذكر المُبتَلَى بشيء من ذلك وهو غائب غيبة؛ لأن الغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره مما هو متصف به.

وأما إذا كان المعاق معروفًا بهذه الإعاقة وأنها علم عليه لا يتأذى بذكرها، فلا بأس أن يُعرف بها كما يقال عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وفلان الأعرج، وفلان الأعمش، ونحو ذلك.

خامسًا: واجب الأمة والجماعة نحو المعاق:

العناية بالمعوق فرض عين على من تجب عليه كفالته، وفرض كفاية على المسلمين، فالعناية بالمعاق والقيام بأمره من فروض الكفايات على الأمة إذا قام به بعضهم سقط الإثم عن الباقين وإذا لم يقم به أحد كان الجميع آثمين.

فكفالة العميان، والصُّم، والمشلولين، وسائر المعاقين واجب على مجموع الأمة، كما هو واجبهم نحو الفقراء والمساكين والمعوزين، فكما يجب على الأمة والجماعة سد حاجات هؤلاء يجب علينا كذلك سد حاجات ذوي هذه العاهات وإلا كان الجميع آثمين.

ولا شك أن واجب العناية بكل فرد منهم تقع أولاً على من أناط به الإسلام كفالته، وهم الأصول والفروع؛ فالآباء كافلون لأبنائهم؛ لأنهم فروعهم، والأبناء كافلون لآبائهم؛ لأنهم أصولهم، والأقارب والأرحام يجب أن يكفل بعضهم بعضًا،

فكما يتوارثون فإنهم يتكافلون.

وعلى كل مسلم أن يقوم بما أوجبه الله عليه في ذلك، ويجب على الأمة والجماعة المسلمة مساعدة كافل العاجز والقائم بشأنه، وخاصة إذا عجز عن كفالته، والقيام بشأنه وخاصة من يحتاجون ويعتمدون في كل شؤونهم على غيرهم؛ كالمشلول شللاً كاملاً الذي يحتاج إلى غيره في طعامه وشرابه، وطهوره، ولباسه وشأنه كله، فإن عبء هذا عظيم وثقله كبير على من حوله.

* وهذه بعض واجبات الجماعة، وفروض الكفاية نحو المعاق:

١ - وجوب مواساته، وتذكيره بالصبر، وعدم الجزع على ما فاته، والعمل على إصلاح ما يمكن أن يكون قد تهدَّم من نفسه، وانهدَّ من كيانه؛ فإن العاهة والإصابة تصيب النفس قبل أن تصيب البدن، وهدم النفس أبلغ من تهديم البدن، وقد يحصل مع تحطيم النفس زوالُ الإيمان، وتمكن الشك، ووجود السخط على الله، وبُغض قضائه وقدره، وهذا كفر يحطم النفس، ويزيل الإيمان، ومن وصل إلى ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة عياذًا بالله ﷻ.

والابتلاء قد يدفع كذلك إلى الجزع، وعدم الصبر، وقد يؤدي إلى الانتحار، أو العزلة والانهيار، وهذا كله بوار وخسران للدنيا والآخرة.

ولا شك أن السعي إلى إصلاح البدن، وتكميل النقص، وإعادة التأهيل للجسم دون النفس - عمل قاصر، بل هو من ضلال السعي؛ لأن الدنيا لا تغني عن الآخرة هذا لو اكتملت وزانت، فكيف والمعاق ربما تكون إعاقته قد حرمته جميع طيباتها من الصحة والمشي والرياضة، والاعتماد على النفس، والتمتع بمباهجها في الطعام والشراب، والنكاح، والسباحة، والذي فقد هذا كله أو أكثره يصبح من ضلال السعي معه أن يُعاد تأهيل ما تبقى من جسمه، وإهمال روحه وذاته وقلبه وإيمانه!!

ولذلك فإن أول واجبات الجماعة والأمة نحو المصاب بإعاقة تحجب عنه طيب الحياة، ومتعة الوجود هو تأهيل قلبه وإيمانه لتلقي الصدمة، والرضا بقضاء الله وقدره، والأمل فيما ادخره الله لعباده الصابرين، وتحقير أمر الدنيا، وأن متاعها قليل، وأيامها معدودة، وأن ما عند الله خير وأبقى.

ويجب أن يكون هذا تذكيرًا مستمرًّا من أجل تثبيت المصاب، وربط قلبه بالله والدار الآخرة.

٢- والواجب الثاني هو تأهيل هذا المصاب ليستفيد من بقية ما أبقى الله له من القوى، وتفجير ما لديه من طاقات، فإن يدًا واحدةً مُدربة قد تعمل عمل اليدين، والأعرج الذي يفجر طاقاته قد يأتي بما لا يستطيعه صاحب القدمين، ورب أعمى فقد البصر كان له من وعي القلب، وحدة الفهم، ورهافة السمع ما يجعله أكثر بصرًا من كثير من ذوي العينين، ورُب إنسان فقد القدرة على الاستمتاع بالنساء وجد في متعة العلم والقراءة وحلاوة الإيمان حلاوةً ولذةً لا يجدها من يتزوج كل يوم من الحسان، ورُب منقطع إلى عبادة الله وذكره يجد من حلاوة الإيمان ما يجعله يقول وهو رهين المحبسين؛ السجن والعمى: «إننا في لذة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

والخلاصة: أنه يجب إعادة تأهيل المعاق والمصاب في بدنه ليبلغ غاية ما يمكنه من الاستقلال بنفسه، والاعتماد عليها في طعامه وشرابه، وطهوره، وحاجاته الأساسية ما أمكن ذلك، وهذا بالتدريب والتعليم، وكذلك بالآلة، وقد ذكرنا أنه توفر للناس في وقتنا الحاضر من أساليب تعليم الصم والبكم والعميان والمتخلفين عقليًا ما يعوضهم عن فقد هذه المنافذ والمُدركات.

وكذلك قد تيسر من الوسائل المساعدة؛ كالكراسي المتحركة، والرافعات، والأثاث المناسب للمعاق ما يجعل المصاب بالشلل أعظم قدرة على القيام بخدمة نفسه، وحتى المصاب بالشلل الكامل لأطرافه كلها يوجد له من الأجهزة اليوم ما يساعده في الاعتماد على كثير من أمر نفسه.

إن تأهيل المصاب بتعليمه وتدريبه وتيسير الوسيلة المناسبة له واجب كفائي على الأمة، وهو كذلك باب من أبواب الخير والإحسان يجب أن تتنافس المنظمات الخيرية الأهلية، والمؤسسات الحكومية العامة في تحقيقه للمعاق، وخاصة أن برامج التأهيل قد تكون لبعض المرضى باهظة التكاليف، وكذلك بعض الأجهزة الخاصة لا يقدر عليها ذوو المرضى بأنفسهم، فالصرف من المال العام على هؤلاء، وإعطاؤهم من الزكاة والصدقات لهذا الأمر حق واجب.

٣- الواجب الثالث على الأمة وجوب إشراك هؤلاء المعاقين في الحياة العامة، وعدم عزلهم عن المجتمع والناس، وهذا يحقق منافع عظيمة:

(أ) تكريم المصاب من المجتمع، وإشراكه في الحياة العامة؛ كمساعدته لحضور الصلوات، وخاصة الجُمَع والأعياد، ودعوته في دعوات الأفراح والطعام وحضوره مجالس الناس ومنتدياتهم، وزيارة الناس له في منزله، كل هذا فيه شفاء لنفس المريض، وبُرءٌ لروحه، وهذا يساعد في إعادة تأهيله نفسيًا وجسديًا.

(ب) رؤية المعافى للمصاب يكسبه مجموعة عظيمة من الفضائل تكلمنا عنها في الفصل الرابع.

(ج) إن رؤية كلٍّ من المصاب للمعافى، والمعافى للمصاب، وتذكير كل منهما لما أوجبه الله ﷻ عليه، فيه مجال عظيم للبر والإحسان والخير، بل وسعادة النفس فسلامك على مصاب والدعاء له، وأخذك بيد أعمى ودلالته، وحملك ضعيفًا على دابته، وكلمة طيبة من المواساة يسمعها مبتلى منك، كل هذا من أبواب الخير، وكل هذا يمكن أن يحرم منه المسلمون لو أن كل مصابٍ أغلق عليه بابهُ، ولم يُسمح له أن يرى الناس أو يرونه، أو جمعوا في نادٍ واحد أو مكان واحد لا يرون إلا أنفسهم، ولا يحس بهم غيرهم، وهذا كله من الفساد في الأرض.

وللأسف أن كثيرًا من أهالي المصابين والمعاقين ممن حرموا الخير والأجر بل والرحمة يتبرءون من أولادهم، وفلذات أكبادهم المصابين أو يتنكرون لآبائهم وأمهاتهم فيسجلونهم في معاهد التأهيل، أو دور العجزة، والرعاية بغير أسمائهم الحقيقية حتى لا يُنسبوا إليهم، ويستحيون أن يُقال عنهم: إن لهم ولدًا معاقًا، أو أبًا مشلولاً، ومثل هؤلاء حرِيٌّ بهم أن يحرمهم الله رحمته في الدنيا والآخرة.

* وجود المعاق في الأمة بركة ونصر وخير:

وجود المعاق بين المسلمين بركة ونصر وخير؛ فهو باب من أبواب رحمة الله بعباده، فبهم ينتصر المسلمون ويُرْزقون، وبالإحسان إليهم والرحمة بهم يرحم الله عباده، ويُعظِم لهم الأجر والثواب.

فوجود الفقير رحمة للغني لأن إحسان الغني تهذيب لنفس الغني وتطهير

لماله، ورفع لدرجته عند الله، فلولا وجود الفقير لما زكت نفس الغني، ولما تطهر ماله، ولما وجد بابًا عظيمًا إلى الجنة، ولما نودي يوم القيامة من باب الصدقة أن تعال أيها المتصدق وادخل من هنا، فهل يكره العاقل مَن يكون سبب فلاحه ونجاحه وصلاحه؟! فلا يكره وجود الفقير إلا كافر جاهل يقول كما قال أسلافه عندما دُعوا للإنفاق على الفقراء: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس:٤٧]!!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧]، ولا شك أن الله ﷻ هو القادر على أن يجعل عباده جميعًا أغنياء، ولكن حكمته اقتضت وجود الغني والفقير ابتلاءً لهذا بالغنى، وابتلاءً لذلك بالفقر، فالغني يُبتلى ليشكر، ويحسن إلى من أمره الله بالإحسان إليه فتزكو نفسه، ويتخلق بالرحمة والشفقة، ويخرج من دائرة البخل والشح، ويتصف بالكرم والإحسان، وهذا تزكية لنفسه وكذلك يزكو ماله، وينمو ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وكذلك يكون له باب عظيم للأجر والثواب، فلو عرف الغني ماذا يعني وجود الفقير بالنسبة إليه لبحث عنه في كل مكان ولأحبه من كل قلبه لأنه سبب لرحمته، ورفع منزلته، وصلاح لنفسه، وكذلك يبتلي الله بعض عباده بالفقر ليصبروا ويتخلقوا بالتواضع، ويرغبوا فيما عند الله ويبتعدوا عن الحسد والحقد.

ووجود الضعفاء والمساكين والمعاقين والزَّمْنَى في المجتمع المسلم رحمةٌ عظيمةٌ، فهم باب عظيم من أبواب الخير يفتحه الله لعباده ليكون هناك تنافس في البر بهم، والإحسان إليهم ومساعدتهم، وليكون مرآهم تذكيرًا بالله، وقدرته على عباده، وأن له الحكمة التامة، والحجة البالغة، وليكون دعاء هؤلاء الضعفاء رحمة ونصرًا وعزًّا للمسلمين؛ فإن دعاءهم مستجاب عند الله. فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» [رواه أبو داود (٢٣٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٧٩)].

سادسًا: أخطار اتباع منهج الغرب وطريقته في تأهيل المعاقين:

مما يجب الحذر منه كل الحذر اتباع منهج الغرب (اللاديني) في تأهيل المعاقين، وذلك أن هذا المنهج يقوم وفق فلسفة الغرب وعقيدته في الحياة، وهي

أنهم يعيشون للدنيا فقط، ولا حياة بعد الموت وأن على الإنسان أن يستمتع بحياته إلى أقصى ما يستطيع، وأنه لا ينبغي له أن يضع أية عراقيل في طريق هذا الاستمتاع، بما يسميه قيودًا للدين، أو الخلق، أو الأعراف والتقاليد، ومن أجل ذلك نبذ الغرب الدين، والخلق، والتقاليد، وجميع الأعراف، ووضعوا بدلاً من ذلك كله القانون العام، وأطلقوا العنان لكل الشهوات، والحريات، وخاصة الجنسية، ومن أجل ذلك كانت إباحة الزنا والعري، والخمور، والرقص، والموسيقى، والشذوذ، وأزيلت كل العوائق التي تحول دون ذلك من فروض الدين، أو الحياء، أو التقاليد، وهذا المنهج لم يطبقه الغرب مع الأصحاء فقط، بل راح يطبقه مع المرضى كذلك، وعلماء النفس عندهم يرون أن أعظم تأهيل للمعاق هو فتح مجالات الاستمتاع بمباهج الحياة لما تبقى عنده من الحواس، وأن هذا سيجعله يحب الحياة من جديد؛ لأنه يجد فيها شيئًا يستحق أن يتشبث به؛ ولذلك تمسكت مراكز التأهيل بهذا النمط الغربي؛ كالعلاج بالموسيقى، والغناء، والأفلام والمتع المُحرمة.

وهذا جميعه يضر ولا ينفع، بل الصحة النفسية حقيقة إنما هي في غرس معاني الإسلام واليقين والإيمان، وإدخال السرور على قلب المريض مما يجعله يستمتع بالحلال حسب الإمكانيات التي يسَّرها الله له، وسيجد المؤمن دائمًا أن ما أبقاه الله له ليتمتع فيه بالحلال فيه عوضٌ عن الحرام، فالتمتع بقراءة الكتاب الكريم، وتعلم العلم النافع أعظم مما يتخيله من يظن أن في الموسيقى والغناء متعة، وصرف نظر المُعاق إلى أن يفني عمره في رسوم تافهة، وهوايات تقتل وقته، وتدمر نفسه؛ كألعاب الورق، والنرد من باب قتل وقته، وملء فراغه، كل هذا إشغال بالتافهات والمحقرات، وحجب للمعاق عن الأمور العظيمة النافعة؛ كالبراعة في العلوم الشرعية النافعة، أو العلوم الدينية المفيدة.

ولقد كان كثير من علماء الأمة الأفذاذ النابغين قد أصيبوا بعاهة من العاهات العظيمة، وقد أُلِّفت كتب كثيرة في أنواع المعاقين الذين كان لهم شأن عظيم في العلوم.

ولا شك أنه يجب التفريق بين ما توصل إليه بعض مخترعي الغرب من الوسائل النافعة في تعليم المعاقين كالكتابة البارزة، وإن كان الفضل الأول فيها

لأعمى من المسلمين اخترعها قبل (برايل) بمئات السنين، ولكنها لم تطبق على نطاق كبير، وكذلك لغة الإشارة للصم، وكذلك الوسائل والآلات الحديثة التي تساعد المعاق؛ كالكراسي الكهربائية والرافعات، وبرامج الحاسوب، ونحو ذلك، وكل هذا من الوسائل التي يجب الاستفادة منها.

وعلى كل حال يجب التفريق بين التأهيل النفسي وطرائق الغرب المنحرفة في هذا التأهيل، وبين استخدام الوسائل المادية والمخترعات الحديثة التي تنفع في تأهيل المعاق.

سابعًا: أهم الأحكام الفقهية للمعاق:

قواعد عامة:

* لا تكليف إلا بمستطاع: اعلم أنه ﷻ من رحمته وإحسانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، والوسع هو الجهد والطاقة، ومن أجل ذلك يجب على السليم من الواجبات ما لا يجب على المريض، وعلى المبصر ما لا يجب على الأعمى، وهكذا كل من فقد جارحة من جوارحه أو قوة من قواه، فإنه يسقط عنه من الواجبات الشرعية بحسب ما فقد من قدراته وإمكاناته واستطاعته.

* العقل مناط التكليف: اعلم أن العقل وهو القدرة على الفهم والإدراك هو مناط التكليف بالإيمان والإسلام وسائر العبادات، فمن فقد العقل فأصبح مجنونًا لا تمييز له فإن التكليف يسقط عنه، ولا يسقط التكليف إلا بفقد العقل كله، ويبقى من التكليف بمقدار ما بقي من العقل والإدراك.

* لا يسقط التكليف كله بفقد جزء من مناطه: ومعنى هذه القاعدة أن المكلف عليه أن يقوم بما يستطيع، فمن قطعت يده مثلاً إلى نصف الذراع وجب عليه في الطهارة غسل النصف الباقي إلى المرفق، ولا يسقط عنه أن نصف الذراع مقطوع، ومن كان لا يستطيع القيام لشلله النصفي فإنه يجب عليه أن يصلي جالسًا ما دام يستطيع الجلوس، كما قال ﷺ: «صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب» رواه البخاري.

فسقوط وجوب القيام عن العاجز عنه لا يسقط عنه القعود ما دام يستطيعه، فإذا لم يستطع القعود أيضًا انتقل إلى ما يستطيعه، وهو الصلاة على جنب، أو ظهر.

١ - الإيمان بالله أعظم تكليف وهو أفضل الأعمال:

سُئِل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم أي؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم أي؟ قال: «حج مبرور» [متفق عليه].

وهذا حديث يجعل الإيمان بالله أفضل الأعمال، وهذا العمل -أعني: الإيمان - هو في متناول كل معاق، مهما كانت إعاقته، إلا أن تكون زوالاً للعقل أو معظمه، ففقد السمع، والبصر، والأطراف، وجزء من العقل كل ذلك لا يمنع من الإيمان بالله، بل قد يبلغ الذين أصابهم شيء من هذه الآفات ما لم يبلغه السليم المعافى، والإيمان إذا اقترن بغيره من الأعمال أو الإسلام يعني عمل القلب، وليس الإيمان هو مجرد التصديق الذي يتساوى فيه كل مصدق بالله واليوم الآخر، ولكنه أعمال عظيمة في القلب فوق مجرد التصديق فالتوكل، والخشية، والتقوى، ومراقبة الله ومحبته، وتعظيمه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً بليغًا.

وهذه الأعمال القلبية جميعها يستطيعها المعاق في بدنه دون عقله، وهذا يعني أن المعاق في بدنه يملك أعظم تكليف كلف الله به عباده وهو الإيمان به ﷻ ورسالاته، وهذا الإيمان هو أفضل الأعمال على الإطلاق، فالمعاق يملك أن يقوم بأشرف أعمال الدين وأعظمها أجرًا وثوابًا ومنزلة عند الله، وهو الإيمان به ومحبته، ومخافته وتقواه، ورجاؤه، ومراقبته، والثناء عليه، وحسن الظن به، والرغبة فيما عنده، والأمل بلقائه ومحبة ذلك، كما قال ﷺ «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» [متفق عليه].

فليكن أول ما يتوجه إليه المصاب في بدنه أن يزداد إيمانًا ومحبة وقربًا من الله ﷻ وبذلك يكون ما اختاره وهُدي إليه من الإيمان بالله، والرفعة عنده أعظم مما فقده من قوة بدنية قد تكون صارفًا له عن الإيمان والطاعة.

٢ - لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾

[الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه» [رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٥٩)].

وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [متفق عليه].

ذِكرُ الله باللسان والقلب من أيسر الأعمال وأسهلها، وإذا كان السليم المعافى تشغله المشاغل عن ذكر الله، فإن الضعيف المعاق قد هيَّأ الله له فرصة عظيمة لذكره والانقطاع لعبادته، والتبتل إليه.

والذكر سهل يسير؛ لأنه حركة اللسان، فإن لم يستطع المعاق أن يحرك لسانه فليكن الذكر بالقلب، والذكر لا حدَّ لأكثره: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧، ١٨].

فليكن الشغل الشاغل، وقضاء الوقت لكل مسلم يريد الخير والمثوبة والأجر العظيم أن يظل لسانه رطبًا بذكر الله، ومن ابتلاه الله فقد هيأ له سببًا عظيمًا وفرصة عظيمة لعروج الروح، وعلو الشأن: «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه»، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠] الآية.

٣- الصلاة خير موضوع:

الصلوات الخمس المفروضة هي أعظم الفرائض بعد توحيد الله والإيمان به، وهي ركن الإسلام الثاني كما قال ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» [رواه مسلم].

وهي خير ما وضعه الله لأهل الأرض من الأعمال، وقد فتح الله باب التطوع فيها على مصراعيه، وسن رسول الله ﷺ صلوات كثيرة تطوعًا، ومن هذا التطوع السنن الراتبة قبل وبعد الصلوات اثنتا عشرة ركعة في اليوم: اثنتان قبل الفجر، واثنتان قبل الظهر، واثنتان بعدها، واثنتان قبل العصر، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء، وقد جاء في الحديث الصحيح: «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُنِيَ له

بهن بيت في الجنة» [رواه مسلم].

وأمر الله سبحانه بقيام الليل من الثلث إلى الثلثين، وهناك تحية المسجد، وصلاة الضحى، وصلاة الاستخارة، وهذه النوافل كلها من ذوات الأسباب، وهناك النفل المطلق، وهو لا حد له في ليل أو نهار مع ترك الأوقات التي نُهِيَ عن الصلاة فيها وهي: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس، وقبل الظهر عندما تكون الشمس في كبد السماء إلى أن تزول عن كبد السماء وهو وقت قليل لا يتعدى نصف ساعة، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وما عدا ذلك من الأوقات يصلي فيه المسلم ما شاء من الركعات تقربًا إلى الله وزُلفى.

وهذه الصلوات هي أعظم ما يُشْغل المسلم بها نفسه، والانشغال بها من أعظم الفرص المتاحة للمعاق في بدنه، فإن أجره أجر السليم الذي يتمكن من القيام، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: أريد مرافقتك في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «أوَ غير ذلك».. قال: هو ذاك: قال ﷺ: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [رواه مسلم].

فلو كان هناك عمل أفضل من إكثار الصلاة لحثَّ عليه رسول الله ﷺ، وهذا يدل على أن الصلاة أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله.

ومن أجل ذلك: أحث نفسي وإخواني ممن ابتلاهم الله بشيء في أبدانهم أن يستفيدوا من وقتهم بالصلاة، فإن هذا أعظم ما يمكن أن يحصله مسلم في حياته.

٤ - أهم أحكام الصلاة والطهارة:

والصلاة المفروضة لا تسقط بحال إلا إذا سقط مناط التكليف، وهو العقل، فالمجنون وحده هو الذي سقط عنه فرض الصلاة.

ورفعت المحاسبة عن النائم حتى يستيقظ، والمغمى عليه حتى يفيق، فإذا استيقظ النائم وجب عليه أن يصلي ما نام عنه، ولا يجوز لأحد أن يتعمد النوم عن الصلاة المكتوبة فإن هذا إثم عظيم، وجاء في السُنة وعيد شديد لمن ينام عن الصلاة المكتوبة، وكذلك المغمى عليه إذا أفاق وجب عليه أن يصلي ما فاته من الصلوات، وأما المجنون فإنه لا يصلي ما فاته في حال جنونه إذا رد إليه عقله لأن

التكليف يسقط عنه.

ومن أجل ذلك:وجب على المعاق بأي إعاقة غير فقد العقل أن يصلي الصلوات المكتوبة، وله أن يجمع الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء للمشقة، ويسقط عنه ما لا يستطيعه من واجبات الصلاة، فإذا لم يستطع القيام صلى جالسًا فإذا لم يستطع الجلوس صلى راقدًا، وإذا لم يستطع قراءة الفاتحة أمرها على قلبه فقط. وإذا لم يستطع ركوعًا أو سجودًا أومأ إيماءً.

فإذا لم يستطع أن يتوضأ وضوءًا كاملاً غسل ما يستطيعه من أعضاء الوضوء التي يجب غسلها أو بعضها، وإذا لم يستطع الوضوء كله تيمم، وإذا لم يستطع التيمم صلَّى على حاله، ويسقط عنه الأمران.

ويجب على من يقوم على كفالة المعاق أن يساعده في وضوئه، فإن لم يكن للمعاق مَن يساعده سقط عنه جميع ما لا يستطيعه.

ويجب على المعاق إزالة النجاسة عنه، وما لا يستطيعه لا يجب عليه، وإذا دخل الوقت وهو في نجاسة لا يستطيع إزالتها، وليس عنده من يساعده في إزالتها صلى على حاله، ولا تسقط عنه الصلاة بملابسة النجاسة له، هذا إذا كانت النجاسة ملابسة لبدنه، وأما إذا كانت النجاسة تتحول إلى كيس بجواره فلا بأس أن يصلي وهي متصلة به، وإن أمكن عزل (كيس البول، والغائط) عنه وقت الصلاة بنفسه أو بمساعدة من يساعده فحسن، وإن لم يمكنه ذلك فلا بأس أن يصلي والكيس معلق به.

وقد كانت بعض الصحابيات يصلين مع الرسول ﷺ في مسجده وتضع إحداهن الطست تحتها من شدة الاستحاضة، علمًا أن دم الاستحاضة نجس باتفاق، ومن أجل ذلك نقول إنه لا بأس أن يحضر المعاق صلاة الجماعة في المسجد، وإن كان كيس البول أو الغائط معلقًا بكرسيه، أو وهو يحمله تحت ثيابه، ومن لم يقدر على ستر عورته من المعاقين كالمحروق الذي لا يستطيع وضع شيء على بدنه فإنه يصلي وإن لم يستر عورته.

وكذلك الشأن في القبلة، فإن أمكن أن يتوجه إليها توجه وإن لم يستطع فليصلِّ

على حاله إلى أي جهة يستطيعها، وإن كان عند المعاق من يُعلِمه بدخول الوقت وإلا اجتهد وصلى.

والخلاصة: أن جميع شروط الصلاة من الطهارة، وستر العورة، ودخول الوقت، والقبلة يسقط عند عدم القدرة عليه، وتبقى الصلاة واجبة وإن سقطت شروطها لا تسقط، وإن سقطت معظم أركانها من القيام، وقراءة الفاتحة، والركوع والسجود، والجلوس فإن الصلاة لا تسقط كذلك، فعلى المصلي مهما كانت إعاقته أن يصلي حسب ما يستطيعه، ولا يجوز له أن يقول: ما دام أني لا أستطيع الطهارة، أو ستر العورة فإن الصلاة تسقط عني، بل الصلاة لا تسقط بحال إلا بضياع العقل فقط.

وليس الواجب على المعاق أن يصلي الصلاة المفروضة فقط ما دام أنه فاقد لبعض الشروط أو الأركان والواجبات، بل له كذلك أن يصلي النوافل، ويستزيد من التطوع.

❊ ❊ ❊

التعامل مع الوالدين

في جحر العقرب:

هذا أحد العلماء، وهو كَهْمَس بن الحسن الحنفي البصري. قال عنه الذهبي: من كبار الثقات، وكان رحمه الله برًّا بأمه، فلما ماتت حج، وأقام بمكة حتى مات.

فماذا بلغ من بِرِّه؟ قيل: إنه أراد قتل عقرب فدخلت في جحر، فأدخل أصابعه خلفها فضربته، فقيل له. قال: خفت أن تخرج فتجيء إلى أمي تلدغها! تلقّى لسعة العقرب بدلاً من أمه!

إن بر الوالدين من الأعمال الصالحة التي يُتقرّب بها إلى الله كما في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، والقصة في الصحيحين، وفيها: «فقال واحد منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل ليلة بلبنِ غنم لي فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنَّا لشربتهما ـ أي يضعفا ـ فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء».

وإن بر الوالدين مما يبلغ معه العبد المنزلة العالية عند الله، بل يبلغ منزلة عند الله بحيث لو أقسم على الله لأبرَّ الله قسمه، كما في قصة أويس القرني؛ حيث قال عنه النبي ﷺ: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبَرَأ منه إلا موضعَ درهم، له والدةٌ هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» [رواه مسلم]. وقد قال ذلك لعمر رضي الله عنه.

وفي رواية لمسلم: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم».

وإن برَّ الأمهات يبلغ بصاحبه الدرجات العُلا روى البخاري من حديث أنس

بن مالك أن الرُّبيّع بنت النضر - عمة أنس - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ - وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم - فإن كان في الجنة صبرتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». هو حارثة بن النعمان رضي الله عنه ويُقال: حارثة بن سُراقة، وترجم الحافظ ابن حجر في الإصابة لاثنين، بينما رجَّح في الفتح أنه واحد.

هذا الرجل أوصلَه بِرُّه إلى الجنة؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أدور في الجنة سمعت صوت قارئ، فقلت: من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان. قال: كذلكم البر، كذلكم البر. قال: وكان أبرَّ الناس بأمِّه». [رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين]. وهو كما قال.

فما البر؟

سُئل الحسن ما برّ الوالدين؟ قال: «أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به إلا أن تكون معصية». [رواه عبد الرزاق في المصنف].

من أجل هذه الفضائل المجتمعة في بر الوالدين حرص السلف على البر بآبائهم.

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يبرّ ابن صاحب أبيه بعد موت أبيه؛ فعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروَّح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة، وعمامةٌ يشد بها رأسه، فبينا هو يومًا على ذلك الحمار إذ مرَّ به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان ابن فلان قال: بلى فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامة أشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حمارًا كنت تروَّح عليه، وعمامةً كنت تشدُّ بها رأسك، فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه.بعد أن يولِّي»، وإن أباه كان صديقًا لعمر رضي الله عنه. [رواه مسلم].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه من أبرِّ الناس بأمه.

ومن أجل ذلك بكى الشعراء أمهاتهم وبكى الشعراء آباءهم لِمَا كانوا يرجون

من بِرِّهم والإحسانِ إليهم، ومن أجمل من رثى وبكى والديه الشاعر عمر بهاء الدين الأميري، ومما قالَه في والدَيْه:

أبـتي وأمـي مـوئلي ومَنـاري ... بكما اعتـزازي في الـورى وفَخَـاري
يـا شـعلتين مـنيرتين أضـاءتا ... قلـبي الفَتِـيَّ بأبـهجِ الأنـوارِ
يـا مقلـتينِ مـن الكـرى قـد فرّتـا ... سـهرًا علـيّ مخافـةَ الأكـدار
ما كنت أحسَبُ قبل تركِ جِماكُما ... أنـي أحبُّكمـا بـذا المقـدار

وقال في شأن أمِّه:

أنـتِ الـتي داريـتِني فَنَمَـوتُ في ... أحـضان عطفِـكِ خـاليَ الأكـدار
أنـتِ الـتي أنـشدتِني لحـنَ الوفـا ... وسـهرتِ مـن أجلـي إلى الأسـحار
أنـتِ الـتي قبّلـتِني وبَـسَمتِ لـي ... وضـممتِني وأنـا الـصغير العـاري
أنـت الـتي لقّنـتِني آي الهـدى ... والحـبَّ والإحـسانِ واسـمَ البـاري
أرشـدتِنِـي ونصحتِنـي ومنعتِنـي ... وعـدلـتِ بـي عـن منهـج الأشـرار

ولما ماتتْ أمُّه بكاها ورثاها، فلامُه بعضُ أصحابه، فقال:

يا صحبُ لا تعذلوني في البكاء وقدْ ... فقـدتُ أمـي، فقلـبي لـيس مـن حجـرِ
قلـبي قـد انتزعـت منـه حـشاشتُه ... في فجـأةٍ، والـردى لـونٌ مـن القـدرِ
ودّعتُهـا قبـل شهـرٍ في ارتقـابِ غـدٍ ... اللقيـا وعِـشنا معًـا بـالروحِ في سـفرَي
وعـدتُ في لهفـةٍ حـرّى لأصحبَهـا ... فمـا لهـا لا تُنـاديني: هـلا عُمـري
ولا تمـدُّ يـدًا نحـوي تُـعـانِقني ... ولا تُسـائل عمـا جـدَّ مـن خَبري

وقد حرّم الله أقل ما يكون من العقوق، وهو كلمة «أف» الموحية بالتّضجّر، المشعرة بالتذمُّر، قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ثم أمر ببرهما والإحسان إليهما فقال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ قال: إذا بلغا من الكبر ما كان يليان منك في الصغر فلا تقل لهما أف. [رواه ابن أبي شيبة].

وقال: حين ترى الأذى وتميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا ولا تؤذهما.

وقال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى آمرًا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق. انتهى.

وأمر الله عز وجل بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا مشركين، قال - تبارك وتعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨]

قال القرطبي في التفسير: نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت فيّ أربعُ آيات فذكر قصة، فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر. قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها.

وروي عن سعد أنه قال: كنت بارًّا بأمي فأسْلَمْتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بي، ويقال: يا قاتل أمه! وبَقِيَتْ يومًا ويومًا، فقلت: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت. فلا طاعة للوالدين في المعصية.

قال الحسن: إن منعته أمه عن العشاء في الجماعة شفقة لم يطعها. علّقه البخاري.

وقال عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٤، ١٥].

فتأمل الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وإن كانا على الشرك، بل وإن كانا يدعوان ابنهما إلى الشِّرك فالإحسان مطلوب وإن كانا على الشرك.

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت عليَّ أمي وهي مُشركة في عهد رسول

الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصِل أمي؟ قال: «نعم، صِلي أمك». [رواه البخاري ومسلم].

ومن هنا ينبغي التنبّه إلى أمر يقع فيه بعض الصالحين أو الصالحات: وهو الغلظة والجفاء في حق الوالدين أو أحدهما إذا كان لديه منكرات أو مُخالفات، وحُجّتهم في ذلك أنه يُنكر المنكر، وأنه يُغلظ عليه لأجل ما وقع فيه من مُنكر.

فأقول: أيهما أعظم: المنكرات والمخالفات والمعاصي أو الشرك بالله ﷻ؟ ونحن أُمِرنا أن نُحسن إلى والدينا وإن كان منهما ما كان.

ماذا لو تألَّفت قلب والدك ببرّه والإحسان إليه؟ ماذا لو تألَّفت قلبه بهدية؟ ماذا لو تألَّفت قلب والدتك بعمرة أو بهدية أو بزيارة، أليس أولى؟ أليس أسرع الطرق إلى القلوب هو الإحسان؟ هل أنت تُريد أن تنتصر لنفسك؟ أم أنك تُريد الهداية لهما وزوال المنكر؟ إن أولى الناس بحسن الصحبة وطيب المعاشرة هي الأم لما لها من حق عظيم، ثم الأب، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». كما في الصحيحين.

* * *

فن النصيحة

* مقدمة حول النصيحة..

- بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم..

- الدين النصيحة.. قلنا: لمن؟ قال: «لله ورسوله...».

- المؤمنون نصحة..

- لا يكاد إنسان يخلو من خطأ، كل بني آدم خطاء..

- التمس لأخيك تسعة وسبعين عذرًا..

- لا تنسينك مساوى الرجل ذكر محاسنه..

- لا يفركن مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر..

- وينبغي على المنصوح أن يقبل النصيحة..

- وأحيانًا عدم قبول النصح، وعدم الرضى بمعالجة الخطأ؛ إما تكبرًا عن قبول الحق، أو بُغضًا للناصح، أو حِرصًا على دنيا ومنصب ومال، قد يجر المرء إلى المهالك..

عند البخاري: أن الإسلام لما تمكن في المدينة، بدأ رسول الله ﷺ يبعث بالكتب إلى ما حوله يدعوهم إلى الإسلام، وكان أهل نجران نصارى، فكتب إلى أسقفهم: «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران سلم أنتم.. فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب..

أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام».

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فظع به وذعر به ذعرًا شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة ـ وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله ـ فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه.

فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ ليس لي في النبوة رأي ولو كان أمرًا من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي وجهدت لك.

فقال له الأسقف: تنح فاجلس. فتنحى شرحبيل فجلس ناحيته.

فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي، فقال له مثل قول شرحبيل.

فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحى فجلس ناحيته.

وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحيته.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعًا، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران بالصوامع.

فاجتمع أهل الوادي جميعًا، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، ومائة وعشرون ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه.

فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا نفرًا منهم على رأسهم شرحبيل بن وداعة وعبدالله الأصبحي وجبار بن فيض.. فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ

فلما وصلوا المدينة وهم نصارى، دخلوا على النبي عليه الصلاة والسلام في المسجد، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيًا أن نسمع ما تقول فيه.

فقال رسول الله ﷺ «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى».

فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ

﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦١]. فأبوا أن يقروا بذلك، وقالوا: بل عيسى ابن الله.

فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد دعاهم إلى الملاعنة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمرًا ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكًا متقويًا، فكنا أول العرب طعن في عينه ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا أدنى العرب منهم جوارًا، ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مُرسلاً فلاعناه لا يبق على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟

فقال: رأيي أن أحكمه بيننا وبينه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا.

فقالا له: أنت وذاك.

فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيرًا من ملاعنتك.

فقال: «وما هو؟».

فقال: حكمك فينا، فمهما حكمت فينا فهو جائز.

فقال ﷺ: «لعل وراءك أحدًا يثرب عليك؟».

فقال شرحبيل: سل صاحبي.

فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل.

فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم. وواعدهم من الغد، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي الأمي رسول الله لنجران أن كان عليهم حكمه في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل عليهم...» إلى آخر الكتاب.

حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، ومع الأسقف أخ له اسمه بشر بن معاوية، فبينما هما يسيران على الدواب ويقرءان الكتاب إذ عثرت ببشر ناقته، فقال:

تعس فلان؛ يعني رسول الله ﷺ.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، قد والله تعست نبيًا مرسلاً، والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره.

فقال له بشر: وما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟

فقال له: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شرفونا ومولونا وأخدمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

فقال له بشر: لا جرم، والله لا أحل عنها عقدًا حتى آتي رسول الله ﷺ.

قال: وصرف وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه.

فقال له: افهم عني، إنما قلت هذا ليبلغ عني العرب، مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه، أو رضينا بصوته، أو نخعنا لهذا الرجل بما لم تنخع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا.

فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبدًا.

ثم ضرب بشر ناقته وهو مولى الأسقف ظهره، وهو يقول:

إليك تغدو قلقًا وضينها

معترضًا في بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها

حتى أتى رسول الله ﷺ ولم يزل معه حتى قُتل بعد ذلك على الإسلام.

- الناس طبائع: منهم الغضوب، ومنهم البارد، ومنهم الذكي، ومنهم الغبي، والمتعلم والجاهل، ومنهم حَسن الظن وسيئ الظن.

فالعبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الإشارة

- إن اللبيب الذي بالإشارة يفهم..

- وعندما يتعامل المرء مع الناس ينبغي أن يعلم أنهم ليسوا سواء في طريقة

النصح، بل حتى في إنكار الخطأ إذا وقع منهم..

- في الصحيحين: الأعرابي لما بال في المسجد لم يعنف عليه..

- معاوية بن الحكم..

- معاذ لما أطال الصلاة..

- في البخاري: أسامة لما قتل الرجل..

الدرس الرابع:

- لا بد من إحسان النية عند النصيحة..

- كما ينبغي أن تتعامل مع المخطئ على أنه مريض يحتاج إلى علاج لا أنه عدو يكبت.

- والطبيب الناصح هو الذي يهتم بصحة مرضاه أكثر منهم هم أنفسهم..

في الصحيحين يقول ﷺ: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها».

* القاعدة الأولى: لا تكن متصيدًا لكل شيء مدققًا على كل أحد في الصغيرة والكبيرة.

- ليس الذكاء والفطنة أن تستطيع اللوم، وإنما هو أن تتجنبه.

- أحيانًا قد تحتاج في بعض الأمور أن تتعامى عن بعض الأشياء، خاصة الأشياء الدنيوية والحقوق الخاصة.

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

- يقول أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين..

- واللوم مثل السهم القاتل الذي يوجه إلى المنصوح؛ لأنه يشعره بنقصه.

- وكان منهج النبي ﷺ.. التسامح عمومًا.

- هل عندكم طعام.. إني إذًا صائم..

- كلثوم بن الحصين، وكان من أصحاب الشجرة يقول: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر، وألقى الله عليّ النعاس، وطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة النبي ﷺ فيفزعني دنوها منه؛ مخافة أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحوز راحلتي عنه، حتى غلبتني عيني في بعض الطريق، فزاحمت راحلتي راحلته ورجله في الغرز، فلم أستيقظ إلا بقوله: «حس» فقلت: يا رسول الله استغفر لي. قال: «سر».

- أهدت له امرأة قطيفة ففرح بها.. وكان محتاجًا إليها..

- إن ابني هذا ارتحلني..

- يا عائشة: «تسابقيني»..

- ما عندنا إلا الخل، «نعم الإدام الخل»..

- صلى جابر عن يساره فأخذه إلى يمينه..

- جاءته أم قيس بغلام لها يحنكه، فبال في حجره..

- بعض الناس يحرق أعصابه، ويُكبِّر القضايا، وبعض الآباء والأمهات كذلك..

- أحيانًا بعض الناس بسوء تصرفه يجني على نفسه، مدرس قال له أحد الطلاب كلمة نابية..

- ولا تفتش عن الأخطاء الخفية..

اقبل معاذير من يأتيك معتذرًا ... إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترًا

- أبو يعلى ورجاله، عن البراء: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورها: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته».

- الترمذي وأبو داود عن ابن مسعود: «ألا لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

- كن أنت متقبلاً للنصح أصلاً غير متكبر عنه، أصلاً لا تفتح مجالاً لشك الناس فيك..

- عبد العزيز الخريجي، ليس هناك لحية..

- إنها صفية..

- وإذا أخطأت فاعترف بخطئك ولا تُكابر؛ فكل بني آدم خطاء..

❊ ❊ ❊

طرائف الشعراء

من طرائف الشعراء، قول أحد الشعراء:

روى أولو الأخبارِ عن رجلٍ سيارِ
أبصر في صحراءِ فسيحة الأرجاءِ
دبًا عظيمًا موثقًا في سرحة معلقا
يعوي عواء الكلبِ من شدةٍ وكربِ
فأدركته الشفقه عليه حتى أطلقه
وحلّه من قيده لأمنه من كيده
ونام تحت الشجرة منام من قد أضجره
طول الطريق والسفر ونام من فرط الضجر
فجاء ذاك الدب عن وجهه يدب
فقال هذا الخل جفاه لا يحل
أنقذني من أسري وفك قيد عسري
فحقه أن أرصده من كل سوء قصده
فأقبلت ذبابه ترن كالربابه
فوقعت لحينه على شفار عينه
فجاش غيظ الدب وقال لا وربي
لا أدع الذباب يسيمه عذابا
فأسرع الدبيبا لصخرة قريبه
فقلها وأقبلا يسعى إليه عجلا
حتى إذا حذاه صك بها محذاه
ليقتل الذباب قتلا بلا إرابا
فرضّ منه الرأس وفرق الأضراسا

وأهلك الخليلا بفعله الجميلا
وهذه الروايه تنهى عن الغوايه
في طلب الصداقه عند أولي الحماقه
إذ كان فعل الدب هذا لفرط الحب
وجاء في الصحيح نقلا عن المسيح
عالجت كل أكمه وأبرص مشوه
لكنني لم أطق قط علاج الأحمقِ

***

ألم تتعب ملذاتك وقد تعبت جنيهاتك
ألم تقنع وقد ماتت من التجوال رحلاتك
وقد ضجت من الأختام أعوامًا جوازاتك
وقد ملأت بنوك الأرض أموالاً حوالاتك
ألم تتعب وقد أحييت ليالي الكون سهراتك
ودور الرقص والحانات تثريها فتوحاتك
وقد نقلتك من نصر إلى نصر بطولاتك
وكم شمخت ولا فخر على الكاسات كاساتك
وكم هطلت على الشادين والساقين خيراتك
فردهم يا رعاك الله فالإكرام عاداتك
تمرغ في وحول الجهل ولتكثر مماقاتك
وأمتعهم وزد في الرقص فالساحات ساحاتك
وجدوا بذل إذا ما أومأت حينًا صديقاتك
وزد يا حاتم الطائي إن زادت جماعاتك
لكي تعلو وتدحرهم كلي تزهو جينهاتك
وتشمخ في نحور الغير من عز شعاراتك
ومن كرٍّ إلى فرٍّ تسير بنا انتصاراتك

وتخفق فوق دور الرقص والعبارات راياتك
ألم تتعب وقد تعبت من اللذات أوقاتك
وملتك المطارات التي منها انطلاقاتك
رضا عن تحت أقدام الجميلات اتجاهاتك
بلاد الشرق رغم البعد تملؤها سلالاتك
ألم تتعب أجبني إنها هذر إجاباتك
من ستفيق يا من عز من منفاك إلافتك
متى ستعود من بحر به غرقت تجاراتك
تعود غدا وقد دفنت من الشهوات عاداتك
متى يا فارس البلدان تفحمنا اعتذاراتك
بمثلك يسعد الأقصى وقد ردته ثاراتك
بمثلك تفخر الدنيا بما صنعته صولاتك
أعدت لنا عروش المجد لا ماتت مروءاتك
وعدت مظفرًا بطلاً تمجدنا احتفالاتك
وتملأ فخارًا ما تقوم به مهماتك
ألم تخجل لقد خجلت بأن تلقاك جرآتك
وقد تفنى حياتك قبل أن تفنى ملذاتك

* * *

مطريات

قال: ما الشيء الذي يهوي كما تهوي القدم؟

قلت: شعبي.

قال: كلا، هو جلدٌ ما به لحمٌ ودم.

قلت: شعبي.

قال: كلاّ، هو ما تركبه كل الأمم.

قلت: شعبي.

قال: فكّر جيدًا. فيه فمٌ من غير أسنان، و لسان موثّق لا يشتكي رغم الألم.

قلت: شعبي.

قال: ما هذا الغباء؟! إنني أعني الحذاء!

قلت: ما الفرق؟ هما في كل ما قلت سواء!

لم تقل لي: إنه ذو قيمةٍ، أو إنه لم يتعرض للتهم.

لم تقل لي: هو لو ضاق برجلٍ ورّم الرِجل ولم يشك الورم.

لم تقل لي: هو شيءٌ لم يقل يومًا: (نعمْ)!

❊ ❊ ❊

قلت للحاكم: هل أنت الذي أنجبتنا؟

قال: لا، لست أنا.

قلت: هل صيّرك الله إلهًا فوقنا؟

قال: حاشا ربنا.

قلت: هل نحن طلبنا منك أن تحكمنا؟

قال: كلا.

قلت: هل كان لنا عشرة أوطان، وفيها وطنٌ مستعمل زاد على حاجتنا فوهبنا

لك هذا الوطنَ؟

قال: لم يحدث، ولا أظن هذا ممكنًا.

قلت: هل أقرضتنا شيئًا على أن تخسف الأرض بنا إن لم نسدد ديْننا؟

قال: كلا.

قلت: ما دمت إذن لست إلهًا، أو أبًا، أو حاكمًا مُنتخبًا، أو مالكًا، أو دائنًا، فلماذا لم تزل، يا ابن الكذا، تركبنا؟

... وانتهى الحلم هنا.

أيقظتني طَرَقاتٌ فوق بابي: افتح الباب لنا يا ابن الزنا.

افتح الباب لنا.

إن في بيتك حلمًا خائنا!

كتب الطالب: حاكِمَنا مُكْتئبًا يُمسي، وحزينًا لضياع القدس.

صاح الأستاذ به: كلاّ، إنك لم تستوعب درسي.

(ارفع) حاكمنا يا ولْدي وضع الهمزة فوق (الكرسي).

هتف الطالب: هل تقصدني، أم تقصد عنترة العبسي؟!

أستوعبُ ماذا؟!

ولماذا؟!

دع غيري يستوعب هذا واتركني أستوعب نفسي.

هل درسك أغلى من رأسي؟!

* * *

ضرب المرأة

أكدت منظمة (هيومن رايتس ووتش) في تقرير لها عن العنف تجاه المرأة الفرنسية، أن المعلومات المستقاة من العاملين الاجتماعيين والأكاديميين ورجال الشرطة حول انتشار العنف الأسري، تؤكد معاناة عشرات النساء، والمعدلات المبلّغة لا تعكس المستوى الحقيقي لانتشار الظاهرة بفرنسا؛ حيث أكدت آخر الإحصائيات أن ٩٥ بالمائة من ضحايا العنف بفرنسا النساء.

وتجدر الإشارة أن هذا العنف تعاني منه دول أوروبا وأمريكا؛ حيث أكدت الإحصائيات أن ٣٠ بالمائة من النساء الأمريكيات يتعرضن للعنف الجسدي من قبل أزواجهن أيضًا.

❊ ❊ ❊

اعتقلت يابانية في الثانية والثلاثين من العمر لإقدامها على قتل زوجها السيئ الطباع، وتقطيع جثته والتخلص منها بنثر أجزائها في مناطق مختلفة من طوكيو كما ذكرت الـ (سي. إن. إن).

وقد اعترفت الزوجة القاتلة كواري ميهاشي بقتل زوجها يوسوكي الموظف في شركة وساطة مالية والبالغ الثلاثين من العمر عبر تحطيم رأسه بزجاجة خمر خلال استغراقه في النوم فجر الثاني عشر من كانون ديسمبر.

وفي الأيام التالية عثر على الجذع العاري من جثة القتيل ملفوفا في حقيبة بلاستيكية متروكة في أحد الشوارع. وظن المارة في بادئ الأمر أن ما رأوه هو دمية قديمة متروكة. ثم عثر على الساقين والحوض في حديقة منزل غير مأهول.

وعلى أثر اعترافات الزوجة حدد رجال الشرطة مكان وجود رأس زوجها في حديقة عامة في أحد أحياء وسط طوكيو.

وبررت الزوجة القاتلة جريمتها بأعمال العنف الزوجية المتكررة التي عانت

منها طوال ستة أشهر. وقد تزوج هذا الثنائي في مارس ٢٠٠٣.

(خاص): تنظم دار الإفتاء المصرية، «مؤتمر العلماء العالمي نحو حظر انتهاك جسد المرأة»، وذلك خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٣ نوفمبر الجاري بقاعة مؤتمرات الأزهر بمدينة نصر، ويشارك في المؤتمر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر والدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف المصري، والسفيرة مشيرة خطاب الأمين العام للمجلس القومي للمرأة، والداعية الإسلامي الدكتور يوسف القرضاوي، وعدد من الشخصيات الإسلامية والطبية في مجال النساء والتوليد والفقه والشريعة من مختلف دول العالم الإسلامي.

وأوضح الدكتور علي جمعة مفتي مصر أن الهدف من المؤتمر هو إظهار الموقف الإسلامي من حماية الإنسان وتحريم العدوان عليه بأي شكل من الأشكال وخاصة فيما يتعلق بالمرأة، ولفت إلى أن المؤتمر يهدف إلى بيان الموقف الشرعي الصحيح من قضية ختان الإناث، بعد أن أصبحت هذه القضية واقعًا مريرًا لدى بعض الدول العربية والإسلامية، بحسب قوله.

وأشار إلى أن المؤتمر سوف يصدر رأيًا قاطعًا وفتوى رسمية تخرج بإجماع المشاركين حول موقف الشرع من انتهاك جسد المرأة في أي عمل محرم، وكذا الرأي الصحيح فيما يتعلق بعملية الختان للإناث.

***

تعدد الزوجات

قضية تعدد الزوجات بأعين الأمم المعاصرة (نصرانية ترى التعدد ضرورة)، [موضوع طويل ولكن أرجو قراءته حتى نهايته، فقد تضمّن حقائق و... و...].

أولاً: هذه القضية أجلب عليها أعداء الإسلام بخيلهم ورَجِلهم زاعمين أن هذا الفعل – أي التعدد – وحشية لا ترتضى وشهوانية غير مقبولة، وانتقاص لحقّ المرأة لا يُستساغ، وظُلْمٌ لها، و... إلخ تلك الافتراءات.

ثانيًا: التعدد من منظور عصري:

«كيف يجوز أن يجرؤ الغربيون على الثورة ضد تعدد الزوجات المحدود عند الشرقيين ما دام البغاء شائعًا في بلادهم؟ فلا يَصحُّ أن يُقال عن بيئة: إن أهلها (موحِّدون للزوجة) ما دام فيها إلى جانب الزوجة الشرعية خدينات من وراء ستار!

ومتى وَزَنَّا الأمور بقسطاس مستقيم ظهر لنا أن تعدد الزوجات الإسلامي الذي يَحفظ ويَحمي ويُغذي ويَكسو النساء أرجح وَزْنًا من البغاء الغربي الذي يسمح بأن يَتَّخِذ الرجل امرأة لمحض إشباع شهواته، ثم يقذف بها إلى الشارع متى قضى منها أوطاره». (ليس هذا من قول أحد دعاة الإسلام، إنما هو من قول «أني بيزانت» زعيمة التيوصوفية العالمية، وذلك في كتابها: الأديان المنتشرة في الهند. فاعتبروا يا أولي الأبصار!).

قال «اليوتنان كولونيل كادي»: إن تعدد الزوجات تُجيزه الشريعة الإسلامية بشروط محدودة، وبالفعل نرى العالم كله يستعمله.

وقال أيضًا: من الواضح أن الفرنسي الثري الذي يُمكنه أن يتزوّج باثنتين فأكثر، هو أقل حالاً من المسلم الذي لا يحتاج إلى الاختفاء إذا أراد أن يعيش مع اثنتين فأكثر وينتج عن ذلك هذا الفرق: أن أولاد المسلم الذي تعدّدت زوجاته متساوون ومُعْتَرَف بهم، ويعيشون مع آبائهم جهرة بخلاف أولاد الفرنسي الذين يُولدون في فِراشٍ مُخْتَفٍ فهم خارجون عن القانون.

وهذا ما دعا (الصِّين) أن تعتزم إدخال تعديلات على قوانين الزواج الحالية في محاولة للحدّ من ظاهرتي: تنامي العلاقات غير الشرعية، والعنف بين المتزوّجين.

ولذا يقول المسؤول البرلماني الصيني «هو كانج شينج»: إن التشريع الحالي بحاجة إلى تحديث، وإن هناك حاجة إلى إجراء تغييرات لتسهيل إيجاد علاقة زواج ونظام أسري أكثر تحضّرًا في الأمة.

نظام أسري أكثر تحضّرًا!!!!

ويُفيد الدّارِسُون لوضع المجتمع الصيني أن نسبة الطلاق المرتفعة في الصين قد حَفَزَتِ السلطات على اقتراح (تجريم!) إقامة أي علاقة خارج الزواج، وإرغام مرتكبي الزنا على دفع تعويضات لشركائهم في الزواج، وإلزامهم بقضاء ثلاث سنوات منفصلين قبل إيقاع الطلاق.

نشرت صحيفة الحياة في العدد (١٣٠٩٩): أن أستاذة «لاهوت» في جنوب أفريقيا دَعَتْ إلى السماح للبيض بتعدد الزوجات، لمواجهة ارتفاع معدل الطلاق في البلاد، وهو من أعلى المعدلات في العالم.

وتقول الأستاذة «لاندمان»: ليس هناك سوى عدد محدود للغاية من الرجال في العالم، فقد قُتِل بعضهم في الحروب، والآن حان الوقت كي تختار المرأة زوجًا من بين الرجال المتزوجين، وأن تتفاوض مع زوجته على أن تُصبح فردًا من أفراد أسرته (بتصرّف عن الصحيفة).

ها نحن نراهم يعتبرون التعدد حَلاً لارتفاع معدل الطلاق، وقلّة الرجال!!

فأحكام الجاهلية المعاصرة مبنيّة على الفساد! وصدق الله الذي سمّى حُكم غيره حُكمًا جاهليًا فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فما خالف حُكم الله فهو حُكمٌ جاهلي أيًا كان.

ثالثًا: الإسلام والتعدد:

كلمة حق في موضوع التَّعدد سمعتها من أحد دعاة الإسلام؛ حيث قال: الإسلام لم يُنشئ التعدد، وإنما حَدَّه. ولم يأمر بالتعدد على سبيل الوجوب، وإنما رخَّص فيه وقيَّدَه. ا.هـ.

نعم. لقد جاء الإسلام والرجل يتزوج بما شاء مِن النساء، حتى أسلم بعض أهل الجاهلية وعنده عشر نسوة!! فحدد الإسلام العدد بأربع نسوة فقط.

ولما حدد الله التعدد بأربع لم يُوجبه على عباده بل أباحه لهم بشروطه من العدل والاستطاعة، إذا لم يكتفِ الرجل بزوجة واحدة، أو كانت زوجته عقيمًا لا تُنجب، إلى غير ذلك، فإن الشريعة الإسلامية توجد له مخرجًا وتفتح له آفاقًا، فَلَهُ أن يتزوّج أخرى تُناسبه دون أن يلجأ للوقوع في أعراض الآخرين، وما يلي ذلك من غشّ للمجتمع، واختلاط في الأنساب، وما يعقب ذلك من حسرة الضمير، وتأنيب النفس اللوامة.

أو يلجأ للتخلُّص من زوجته لتتاح له الفرصة بالزواج بأخرى أيريدون أن تكون الحياة الزوجية جحيمًا لا يُطاق؟ فيلجأ الأزواج حينئذٍ إلى قتل زوجاتهم غيلة، وقد حدث هذا في بلاد الحضارة المادية!!

(في تقرير لمكتب البحث الفيدرالي الأمريكي عام ١٩٧٩م قدّر أن (٤٠%) من النساء اللاتي يتعرضن للموت يقتلهن أزواجهن!).

(وتقرير للوكالة الأمريكية المركزية للفحص والتحقيق: هناك زوجة يضربها زوجها كل ١٨ ثانية في أمريكا).

أيريدون ضرب وقتل الزوجات أم يُريدون أن يبقى عدد من النساء بلا أزواج؟

فمن المعلوم أن النساء أكثر من الرجال، وأن الحروب والحوادث تطحن الرجال فترمّل النساء، فمن للأرامل والمطلقات، إن لم تكن قضية التعدد حلاً من الحلول؟

ولذا لما توفِّيَ زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب جاء عمر يعرضها على أبي بكر وعثمان حتى تزوجها رسول الله ﷺ. [رواه البخاري].

وهذا باب واسع للمواساة في الإسلام، وحكمة بالغة في مشروعية التعدد وإن غضبت النساء! أو زمجر أعداء دين الله.

أليست المرأة يسوؤها أن تبقى مطلقة؟ ويَشُقّ عليها أن تظل أرملة؟ ويعييها أن تطول أيمتها؟

ولكنها عاطفة المرأة التي تسبق عقلها في كثير من الأحيان، والإنصاف عزيز!

فما دام الأمر كذلك إذا تأيّمت أو ترمّلت أو طُلّقت فلماذا لا ترضى بالتعدد كحلٍّ لمشكلة اجتماعية قد تقع هي فيها يومًا من الأيام؟ وقد تكون ضحيّتها هي فليس أحد من البشر مخلّدًا. وقد قيل لِخَيْرِهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

إذًا لتفترض المرأة أن زوجها مات أو قُتل أو أنها طُلّقت.. فكيف يكون مصيرها؟

أترضى أن تكون قعيدة بيتها؟ أم يكون عرضها عرضة لكلّ لائك؟

عندها تصيح - وقد لا تُسمع - المجتمع ظالم ظالم ظَلَمَ المُطلّقة، ما ذَنْبُها؟ ألا ترحمون!

ونسبة النساء أعلى من نسبة الرجال، وسوف يأتي زمان يُصبح الرجل الواحد في مقابل خمسين امرأة.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك أنه قال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحد بعدي سمعه منه؟: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويُشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيّم واحد». [رواه البخاري ومسلم].

وفي حديث أبي موسى: «ويُرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يَلُذْنَ به من قِلّةِ الرجال وكثرة النساء». [متفق عليه].

إذًا هذه نتيجة حتمية للحروب وكثرة القتل التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ، والتي عبّر عنها بالهَرْج، حتى لا يدري القاتل فيما قَتَل، ولا المقتول فيما قُتِل!

جاء ذلك في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتِل»، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: «الهرج. القاتل والمقتول في النار».

وقد حدث ما يُشبه هذا قبل أكثر من ثلاثمائة سنة! فقد نقص عدد رجال الألمان بعد حرب الثلاثين سنة كثيرًا، فقرّر مجلس حكومة (فرانكونيا) إجازةَ أن يتزوّج الرجل بامرأتين!!

(إنه لم يَقُم الدليل حتى الآن بأي طريقة مُطْلَقَة على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شرٌّ اجتماعي وعقبة في طريق التّقدّم وفي استطاعتنا أيضًا أن نُصرّ على أنه في بعض مراحل التّطور الاجتماعي عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها - كأن يُقتل عدد من الذكور ضخم إلى حدّ استثنائي في الحرب مثلاً - يُصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية، وعلى أيّة حال فليس ينبغي أن نَحْكم على هذه الظاهرة بمفاهيم العصور القديمة المتأخرة؛ لأنها كانت في أيام محمد ﷺ مقبولة قبولاً كاملاً، وكانت مُعتَرفًا بها من وجهة النظر الشرعية، لا بَيْنَ العرب فحسب، بل بين كثير من شعوب المنطقة أيضًا).

(هذا نص ترجمة ما قالته الكاتبة الإيطالية «لورافيشيا فاغليري» فَلِمَ لَم تُشنّ عليها الغارات، وتُوصم بالتّخلّف والرجعية؟! أَلأنّها إيطالية ذات دمٍ أزرق وعيونٍ زرقاء؟!!).

(وإذا طرأت على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب، ولم يكن لكل رجل في الباقين إلا زوجة واحدة، وبَقِيَتْ نساء عديدات بلا أزواج، ينتج عن ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة، ولا يكون عددهم مساويًا لعدد الوفيات وتكون النتيجة أن الأمة «الموحِّدة للزوجات» تفنى أمام الأمة المعددة للزوجات).

(هذا ما قاله الفيلسوف الإنجليزي «سبنسر» في كتابه: أصول الاجتماع).

فإذا كان الأمر كذلك، فَمَنْ لامرأةِ المقتول، خاصة إن كانت حديثة عهد بعرس! وقد حدث هذا في عهد النبي ﷺ في قصة غسيل الملائكة، وفي قصة الشاب الأنصاري وإليك بيانهما:

أما قصة غسيل الملائكة حنظلة، فقد روى الحاكم في المستدرك أن حنظلة بن أبي عامر تزوج فدخل بأهله الليلة التي كانت صبيحتها يوم أحد، فلما صلى الصبح لَزِمَتْهُ «جميلة» فَعَادَ فكان معها، فأجنب منها ثم إنه لحق برسول الله ﷺ فقُتِل يوم أحد وغسّلته الملائكة.

وأما قصة الشاب الأنصاري، فقد رواها الإمام مسلم في صحيحه من طريق أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين في ناحية البيت فالتفت فإذا حيَّة فوثبت لأقتلها فأشار إليَّ أن اجلس، فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة».

فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رُمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بِحَيّةٍ عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يُدرى أيهما كان أسرع موتًا الحيّة أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال: «إن بالمدينة جِنًا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان».

فهذه من الشواهد على أن هناك من ترمّلت في أوج سعادتها، وأول أيامها، وعزّ شبابها، فَلَمْ تبقَ مع زوجها سوى ليلة أو ليالٍ.

فمن لها بعد ذلك؟؟

ماذا لو كانت ابنتك؟ أو أختك؟ أو قريبتك؟

ماذا كنت تتمنّى لها؟

ألست تطلب لها الستر، ولو في ظل رجل مُعدِّد؟

بلى والله.

فلماذا الاعتراض على حُكم أحكم الحاكمين؟

وأنتِ أيّتها المرأة ماذا لو كنت أنت المترمّلة؟

أما كنت تبحثين عن ستر الله، ولو مع مُسنٍ معدِّد؟

إن لسان حال كثيرات ممن فاتهن قطار الزواج ونعق الشيب بمفارق رؤوسهن يقولن: مرحبًا بزوج أيًا كان ذلك الزوج، بل إننا نسمع آهات الكثيرات منهن وقد فاتهن الزواج وهُنَّ يتحسرن على ردِّ من تقدّم إليهن، ويشتكين هِجران الناس لأبواب آبائهن، فلا أحد يطرق الباب ولا أحد يخطبهن.

فيا ضيعة الأعمار لا تتعوّض!

ويَنْقِمن بلسان الحال أو المقال على من تتشبّث بزوجها!! ولا ترضى أن يُشاركها فيه غيرها.

فَعَلامَ عدم الرضا عن حُكمِ شَرع لمصلحتك، بل ولمصلحة بنات جنسك؟

أمّا الغربيون فسُنّتهم التعدد، ولكن مع العشيقات والخليلات، فيتّخذ أحدهم عشرات الخليلات، وربما لم يُعاشر زوجته زمَنًا طويلاً فتلجأ هي الأخرى إلى تعديد الأخدان.

حدّثني طبيب مسلم يُقيم في فرنسا أن دار حوار بينه وبين طبيبة فرنسية حول الخيانات الزوجية، فسألها: لو كنتِ مع زوجك فأغمضتِ عينيك، هل تأمنيه ألاّ يخونك؟!! فقالت: لا، ولا هو يأمنني!

فمباح لهم اتّخاذ العشرات، وحرام علينا تزوّج ثانية أو ثالثة أو رابعة!!

وهناك طائفة من الأمريكان يُسمّون «شيعة المورمون» وهم نصارى، ويقولون بتعدد الزوجات ومن منسوبي تلك الطائفة من يتزوّج عشر نساء!! بل كان لقائدهم «يونج» عشرون زوجة!! وللرجل منهم أن يجمع بين الأخوات، وبين الأم وابنتها.

والسؤال: لِمَ لَمْ نسمع يومًا من الأيام مَنْ ينتقد تلك الطائفة، أو يُشنّع عليها؟

لِتُعلم حقيقة الهجوم الصارخ على التعدد، وأنه جزء من الهجمة الشرسة على دين الإسلام، لا على التعدد نفسه.

حلال للنصارى من كل جنس، حرام على بني الإسلام!!

أو قُل: هو الكيل بمكيالين، والوزن بميزانين.

ولا لوم على من كان أعشى البصيرة أنْ سقط في حُفَر الضلال، أو تردّى في هوّة التّبعية، أو خنق نفسه بِربقة التقليد الأعمى!

ومــا علــى العنبــر الفــوّاح مِن حرجٍ أنْ مات مِــن شَـمِّــه الـزبّـال والجُعَل

طُرفة:

حدثني أخي وقد ألقى محاضرة تعريفية عن الإسلام في جامعة في فنزويلا فسألته فتاة عن الحجاب فأجابها ثم سألته أخرى عن تعدد الزوجات، ولماذا يكون للرجال دون النساء؟

فأجابها على الفور: لِمَن يكون الولد؟

فطأطأت رأسها، وضحك عليها زملاؤها وزميلاتها!

فاتني التنبيه إلى أمر مهم، وفاتتني الإشارة إلى أمر بالغ الأهمية ذلكم هو مناقشة قضية التعدد، لا يجوز مناقشة قضية التعدد هل تؤيد أو تُعارض؟ بل ذلك كفر بالله العظيم؛ إذ هو متضمن لردّ ما شرعه الله العليم الحكيم، ولكن يجوز أن نُناقش هل يُناسب التعدد فلانًا من الناس؛ أي قضية شخص بعينه.

فقد لا يُناسب التعدد شخصًا بعينه، إما لعدم استطاعته القيام بحق الزوجات، أو لعدم القدرة على العدل، وأذكر أن إحدى الأخوات سألتني سؤالاً حول هذه القضية قالت فيه:

مع علمنا أن الله ﷻ عادل وأحكم الحاكمين أود أن أقرأ رأيك في التعدد بالزوجات بعد أن كنت أعلم أنه لا يحق للزوج أن يتزوج بامرأة أخرى إلا إذا كان له سبب الإباحة وهي أسباب مختلفة أذكر منها ما أتذكره وأرجو أن تعدل علي وتخبرني الباقي:

- المرض.
- النشوز.
- حال النساء المؤمنات وإن زاد تعدادهم عن الرجال في زمن معين.
- عدم قدرة المرأة على أداء واجباتها الزوجية (يتبع المرض).

أما إذا كانت المرأة من اختيار الزوج ولا تقصر في واجباتها، وليس بها ما ينفر، فهل يحق للرجل التعدد في زمننا هذا وبالطريقة التي بات الرجال يتبعونها، فلا ترى

المرأة إلا وأن أصبحت الزوجة الأخرى، ويقال: إن الرجل اشتهى أخرى؛ فأين غض البصر؟ وأين واجب الزوج في أن يقضي شهواته في بيته حتى إن غلبه الأمر أن يعود إلى بيته؟

فكان أن أجبتها آنذاك: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، بارك الله فيك ورزقنا وإياك الفقه في الدِّين، قضية التعدد أختي الفاضلة ليست بالصورة التي تصورتيها، وهي تحتاج إلى تفصيل:

أولاً: ليُعلم أن هذه قضية محسومة بكتاب الله، فلا يجوز أن يُقال: ما رأيك بقضية التعدد. هل تصلح أو لا؟ وهناك فرق بين التعدد كقضية عامة وتشريع رباني، وبين التعدد ومناسبته لشخص بعينه.

فالأول عرضه ومناقشته كفر بالله؛ لأنه ردّ للتشريع الرباني، والثاني وارد؛ إذ لا يصلح التعدد لكل إنسان، وفرق بين القضيتين.

ثانيًا: التعدد كان ولا يزال معروفًا عند أمم الأرض، وقد سمعت أحد دعاة الإسلام يقول: الإسلام لم يُنشئ التعدد، وإنما حَدَّده، ولم يأمر بالتعدد على سبيل الوجوب، وإنما رخّص فيه وقيَّدَه. انتهى كلامه.

نعم، لقد جاء الإسلام والرجل يتزوج بما شاء مِن النساء، حتى أسلم بعض أهل الجاهلية وعنده عشر نسوة!! فحدد الإسلام العدد، ولما حدد الله التعدد بأربع لم يُوجبه على عباده بل أباحه لهم بشروطه من العدل والاستطاعة.

إذا لم يكتفِ الرجل بزوجة واحدة لقضاء وطره، أو كانت زوجته عقيمًا لا تُنجب، أو أراد تكثير سواد الأمة، إلى غير ذلك.

فإذا احتاج الإنسان إلى هذا الزواج الثاني أو الثالث أو الرابع فإن الشريعة الإسلامية توجد له مخرجًا وتفتح له آفاقًا، فَلَهُ أن يتزوّج أخرى تُناسبه دون أن يلجأ للوقوع في أعراض الآخرين، وما يلي ذلك من غشّ للمجتمع، واختلاط في الأنساب، وما يعقب ذلك من حسرة الضمير، وتأنيب النفس اللوامة، ودون أن يلجأ للتخلّص من زوجته لتتاح له الفرصة بالزواج بأخرى، كما هو الحال عند النصارى.

بالإضافة إلى أن عدد النساء أكثر من الرجال في حالات الحروب -مثلاً- وفي

آخر الزمان، فإن النبي ﷺ أخبر عن ذلك بقوله: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويُشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيّم واحد». [رواه البخاري ومسلم].

وفي حديث أبي موسى: «ويُرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يَلُذْنَ به من قِلّةِ الرجال وكثرة النساء». [متفق عليه].

فالله لم يشرع التعدد عبثًا بل شرعه لعباده لحكمة ومصلحة، وليس رخصة يُلجأ إليها عند الضرورة أو الحاجة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

لتتصور المرأة أنها ترمّلت أو طُلّقت. فمن لها؟

الشاب ـ غالبًا ـ يُريد شابة مثله، والمتزوّج لا تُريده زوجته يتزوّج عليها!

فمن للمطلقة؟ ومن للأرملة؟

وماذا لو كانت هي المطلقة أو الأرملة؟

أليست تعتبر تمسّك الزوجات بأزواجهن أنانية؟

إذًا فلننظر إلى التعدد من عدة جوانب، ولا يُعكّر على قضية التعدد أن أساء استخدامها بعض أو كثير من الناس؛ فبعض الناس يتزوّج بأخرى ليُؤدّب الأولى!

إذًا صارت الزوجة الثانية (عصا)!!! وما أن تنتهي مرحلة التأديب والتلويح بالزوجة الثانية يُطلقها وتعود إلى بيت أهلها مطلقة!

أو يتزوّج ليتباهى بذلك، أو يتزوّج لمصلحة شخصية أو مقاصد مادية، أو غير ذلك من مقاصد الناس اليوم.

إن مقاصد الشريعة أعظم من ذلك، إنه يجب على من أراد التعدد أن يُحسن النية في هذا الزواج سواء كانت الثانية أو الثالثة أو الرابعة؛ بأن يكون قصده: إعفاف نفسه وإعفاف زوجاته، وتكثير سواد أمة محمد ﷺ القائل: «تزوجوا الودود الولود فإني مُكاثرٌ بكم الأمم». وستر عورة وكفالة أيتام في حجر أرملة، ونحو ذلك.

فقد تزوّج النبي ﷺ لهذه المقاصد، فلم يتزوّج بكرًا سوى عائشة رضي الله عنها ولم

يتزوّجها لكونها بكرًا، بل جاءه الملك بصورتها في قطعة حرير، [كما في صحيح البخاري ومسلم].

فإذا تزوّج الرجل زوجة ثانية أو ثالثة فلا ينبغي للمرأة أن تُقيم الدنيا وتُقعدها على زوجها، وإنما عليها الصبر والاحتساب؛ لأن الزوج لم يرتكب أمرًا مُحرَّمًا، بل مارس حقًّا من حقوقه المشروعة.

وبعض النساء - إن لم يكن كثير منهن - تعلم بوقوع زوجها في فاحشة الزنا وربما تحمّلت وسكتت، لكن أن يتزوَّج عليها زوجها فهذه قضية لا تُغتفر!

إنه يجب أن تتحمّل وتسكت في قضية التعدد، وتُقيم الدنيا ولا تقعدها في قضية الفاحشة وواجب على الزوج إذا عدّد العدل بين الزوجات في النفقة والمبيت.

وأما من تزوّج عليها زوجها فإنها تُنصح بالصبر، فقد تزوّج النبي ﷺ على زوجاته وصبرن حتى أن سودة رضي الله عنها وهبت ليلتها لعائشة؛ خشية أن تُطلَّق هي رضي الله عنها وطمعًا أن تبقى أُمًّا للمؤمنين وزوجة للنبي ﷺ في الدنيا والآخرة.

وعلى هذه الزوجة التي تزوَّج عليها زوجها أن تؤدي الواجبات التي عليها، وتسأل الحقوق التي لها، والغالب أن الزوج لا يتزوَّج إلا إذا كان هناك تقصير أو نقص.

وقد تقول بعض النساء: ماذا ينقصه؟ ما قصّرت في شيء! ونحو ذلك.

فهل كانت تتعاهد مواضع عينه أن لا تقع على قبيح؟

وهل كانت تتعاهد مواضع أنفه فلا يشمنّ منها إلا أطيب ريح؟

وهل كانت تتعاهد جوعه ونومه؟ فإن الجوع مَلهَبة، وتنغيص النوم مَغضبة! كما قالت تلك المرأة الحكيمة لابنتها ليلة زفافها.

والمُلاحظ أن الزوجة بعد الأطفال - خاصة مع كثرتهم - تتغيَّر، وربما انصرفت إلى أطفالها والاهتمام بهم عن الاهتمام بنفسها أو بزوجها، والذي كان ينبغي أن توازن بين الأمور؛ فلا تُهمل نفسها، ولا تُهمل زوجها، ولا تُهمل أطفالها، فتُعطي كل ذي حق حقَّه.

وإنما أطلت للفائدة.

***

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فهذا ملخص نافع -إن شاء الله- في أحكام تهم الذي تزوج أكثر من زوجة، كتبته تيسيرًا على المعددين، وتقريبًا للفقه بين المسلمين بعد طلب بعض الفضلاء لكثرة الجهل في أحكام القسم بين النساء عند الخَلْق إلا من رحم الله، وقد انتقيته من كتب الحديث وشروحها وكتب الفقه والنوازل والقواعد الفقهية. والله أسأل أن يجعله طريقًا لنيل رضاه ومُقرِّبًا لجنات النعيم يوم لقاه، وصلى الله وسلم على رسول الله.

١- يجب العدل بين الزوجات، قال ربنا -جل في عُلاه-: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣] وقد روى أحمد والأربعة من طريق همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بِشير بن نَهيك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل». قال أبو عيسى: وإنما أُسند هذا الحديث همام بن يحيى عن قتادة، ورواه هشام الدستوائي عن قتادة قال: كان يُقال: ولا نعرف الحديث مرفوعًا إلا من حديث همام، وهمام ثقة حافظ. ا.هـ. وفي العلل الكبير قال: حديث همام أشبه. ا.هـ. قلت: وهذا مصير من الترمذي إلى ترجيح المرفوع وهو الصواب إن شاء الله، فالحديث ثابت.

والعدل الواجب هنا في القسم والسكن والكسوة والنفقة، وهل العدل في الواجب من ذلك فقط، أم يشمل العدل في الواجب والمستحب والمباح؟

فعلى القول الأول: يجب العدل في الواجب من النفقة والملبس والمسكن فما فضل بعد ذلك من مال أو ملابس أو حلي أو سعة في مسكن فهذا كله لا ينافي العدل؛ لأن ما زاد نفل، والنفل فضل، وهذا اختيار شيخنا ابن باز، ونص عليه أحمد -رحمهما الله- [انظر المُغني (١٠/٢٤٢)]، وهو قول أكثر أهل العلم وجمهورهم، ولهذا قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في فتح الباري على قول البخاري باب العدل بين النساء، وذكر الآية: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:١٢٩] قال ما نصه: أشار بذكر الآية إلى أن المنتهى فيها العدل بينهن من كل جهة، وبالحديث إلى أن المراد بالعدل التسوية بينهن بما يليق بكل منهن، فإذا وفَّى لكل واحدة منهن كسوتها ونفقتها والإيواء إليها لم يضره ما زاد على ذلك من ميل قلب أو تبرع بتحفة. ا.هـ.

والقول الثاني: العدل واجب في كل ما يقدر عليه مما يجب عليه أو يستحب أو يباح وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية كما نقله صاحب الإنصاف، وكذلك اختيار الشيخ ابن عثيمين - رحمهما الله - وقال بعض أهل العلم: التسوية في مثل هذا تشق، فلو وجب لم يمكنه القيام به إلا بحرج فسقوط وجوبه أقرب.

وعدم العدل بين الزوجات من كبائر الذنوب، ولهذا توعد عليه في الآخرة بسقوط شقه والجزاء من جنس العمل فلما مال في الدنيا عن العدل جاء بهذه الصفة يوم القيامة على رءوس الأشهاد.

وأما العدل في المحبة والجماع، فعامة العلماء على عدم وجوبه؛ لأنه ليس في ملكه، ولهذا قال ابن القيم في «الهدي» (١٥١/٥): لا تجب التسوية بين النساء في المحبة، فإنها لا تملك، وكانت عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، وأُخذ من هذا أنه لا تجب التسوية بينهن في الوطء لأنه مُوقف على المحبة والميل وهي بيد مقلب القلوب، وفي هذا تفصيل وهو أنه إن تركه لعدم الداعي إليه وعدم الانتشار فهو معذور، وإن تركه مع الداعي إليه ولكن داعيه إلى الضَرَّة أقوى فهذا مما يدخل تحت قدرته وملكه، فإن أدى الواجب عليه منه لم يبق لها حق ولم يلزمه التسوية، وإن ترك الواجب منه فلها المطالبة به. ا.هـ.

وقد روى أبو داود والنسائي من طريق حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبدالله بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [ورواه حماد بن زيد عن أيوب فأرسله لم يذكر فيه عائشة وهو المحفوظ].

والنبي ﷺ كان يحب عائشة أكثر من سائر أزواجه، وهذا أمر مشهورعنه ﷺ وفي الصحيح عن عمرو بن العاص لما سأل النبي ﷺ أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قال: من الرجال؟ قال: «أبوها» الحديث.

وبوَّب البخاري: باب حب الرجل بعض نسائه أفضل من بعض على حديث ابن عباس، والجماع تابع لشهوة النفس وانبعاثها ومحبتها.

وحيث قلنا: لا يجب العدل في الجماع لكن يجب أن يعفها ويعاشرها

بالمعروف، وكذلك لا يجب العدل في مقدمات الجماع من أنواع الاستمتاعات، لكن يستحب ذلك، وروي عن بعض السلف أنه كان يعدل بين نسائه حتى في القُبل.

٢ - القسم يكون بين الزوجات يوم لهذه ويوم لتلك، فإن أحب أن يقسم يومين يومين أو ثلاثة ثلاثة فقيل: يجوز له ذلك، وقيل: بل لا بد من رضاهن فيما زاد على اليوم، وهذا أرجح؛ لأن في العمل به إزالة الوحشة عنهن لقرب عهده بهن، اللهم أن يكون للزوج غرض صحيح في الزيادة على اليوم لا يمكن إدراكه إلا بذلك، فيجوز والحالة هذه بلا رضاهن.

٣ - القسم يكون للمريضة والحائض والنفساء، فلا يسقط حقهن في القسم لأجل ما عرض لها، وكذا يقسم لمن آلى منها أو ظاهر منها أو رتقاء أو مُحرمة، وكذا يقسم لكتابية ومجنونة إلا أن تكون غير مأمونة؛ لأنه لا يحصل الأنس بها ولا لها، وكذا يجب القسم على الزوج المريض والعنِّين والمجنون إلا أن يكون غير مأمون؛ لأنه لا يحصل منه أنس، وأصل المسألة أن النبي ﷺ يقول في مرضه: «أين أنا غدًا؟» [رواه البخاري]. ولأن القسم القصد منه السَكن والأنس، وهو حاصل بالمبيت.

٤ - إذا مرضت إحدى زوجاته ولم يوجد لها متعهد أو ممرض واحتاجت لتعهد زوجها فإنه يمكث معها ويقضي للباقيات بعد البرء، فإن ماتت تعذر القضاء؛ لأنه إنما يحسب من نوبتها، وإذا تعذر القسم للمريضة من أجل كونها في المستشفى، فإنه لا قسم لها ولا يقضي لها بعد خروجها من المستشفى كسفرها في حاجتها بإذنه على القول الراجح.

٥ - القسم عماده بالليل، والنهار تبع له، ولهذا قالت عائشة ﵂: «قُبض رسول الله ﷺ في بيتي وفي يومي»، وإنما قبض النبي ﷺ نهارًا، والنهار يتبع الليلة الماضية، وأما من كان معاشه بالليل كالحارس ونحوه فقسمه يكون بالنهار.

٦ - الزوجة المغمى عليها يسقط حقها في القسم لتعذر حصوله لها ولا قضاء لها.

٧ - لا قسم للناشز ولا المطلقة الرجعية.

٨ - يجوز الدخول على نسائه نهارًا والمكث قليلاً ولو في غير نوبتهن، ولهذا قال البخاري: باب دخول الرجل على نسائه في اليوم ثم أسند حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن».

ولفظه عند أبي داود: «كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم في مكثه عندنا، وكان كلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها». ولفظ البيهقي (٧/٣٠٠): «يطوف علينا جميعًا فيقبل ويلمس ما دون الوقاع...».

وهذا الدخول للحاجة من دفع نفقة أو عيادة، أو سؤال عن أمر يحتاج إلى معرفته، أو زيارة لبعد عهده بها، وكذلك للتأنيس والمباشرة والتقبيل من غير جماع. وهذا كما ترى لا ينافي العدل بل هو العدل، ولهذا قال ابن القيم في «الهدي» (١٥٢/٥) في حكمه ﷺ في قسم الابتداء والدوام بين الزوجات، وذكر من فوائد حديث عائشة: «أن الرجل له أن يدخل على نسائه كلهن في يوم إحداهن ولكن لا يطؤها في غير نوبتها».

وأما الدخول ليلاً لغير صاحبة النوبة فقد صرح العلماء بتحريمه إلا لضرورة تستدعي ذلك؛ كحريق ومرض مفاجئ، ونحو ذلك من الضرورات أو الحاجات المُلحَّة.

٩ - يجوز للرجل جماع نسائه كلهن في ساعة واحدة ولو كان في نوبة إحداهن فقد روى البخاري من طريق هشام الدستوائي عن قتادة عن أنس قال: كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن (إحدى عشرة)، قال قتادة: قلت لأنس: أوَ كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أُعطي قوة ثلاثين. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس: (تسع نسوة). وبوب عليه البخاري: من طاف على نسائه في غسل واحد، وجاء نحوه عن عائشة قالت: «كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرمًا ينضخ طيبًا». أخرجه البخاري أيضًا، فمثل هذا جائز كما ثبت به الخبر عن النبي ﷺ، فإذا كان هذا بإذن صاحبة النوبة أو كان عادة للإنسان أنه ربما وطئ نسائه كلهن في نوبة إحداهن فلا بأس؛ إذ لا جور في ذلك بل هو عدل، وقد كان هذا من عادة سيد الخلق ﷺ، فإن اغتسل بعد كل جماع

فحسن، وإن توضأ فهو حسن، وأقل الأحوال أن يغسل ذكره حتى لا تختلط المياه لاختلاف الأرحام.

١٠ - إذا تزوج البكر على الثيب (زوجته أو زوجاته السابقات) قطع الدور وأقام عند البكر سبعة أيام ثم قسم، وإذا تزوج ثيبًا على زوجته أو زوجاته السابقات قطع الدور وأقام عندها ثلاثة أيام ثم قسم، فإن أرادت الثيب الجديدة أن يمكث عندها سبعًا فلها ذلك إذا رضي الزوج، فإن سبَّع لها سبَّع لسائر زوجاته، ففي الصحيحين عن أنس ﷺ أنه قال: «من السنة إذا تزوج الرجل البكر على الثيب أقام عندها سبعًا وقسم، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثًا ثم قسم». قال أبو قلابة الراوي عن أنس: لو شئت لقلت: إن أنسًا رفعه إلى النبي ﷺ.

وفي صحيح مسلم: أن النبي ﷺ لما تزوج أم سلمة أقام عندها ثلاثًا، فأراد أن يخرج فأخذت بثوبه، فقال لها: «إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبَّعت لك، وإن سبَّعت لك سبعت لنسائي وإن شئت ثلَّثت ثم درت». قالت: ثلِّث. ا.هـ. [من مجموع الألفاظ عند مسلم].

ومعنى قوله: «ليس بكِ على أهلكِ هوان» يعني بـ (أهلك) نفسه عليه الصلاة والسلام، ومعنى (هوان) أي: هون، يريد: أنك عزيزة وغالية، ولكن هذا القسم هو الحق.

وتخيير الزوج الثيب بين ثلاث وسبع ليس بواجب بل هو سُنة، ولا يجب على الزوج مشاورة البواقي فيما تختار الثيب الجديدة؛ لأن النبي ﷺ لم يشاور زوجاته في ذلك.

فإن قيل: لم زاد الثيب أربعة أيام وقضى البواقي سبعًا؟ قيل: هذا من العدل؛ لأنه أخَّر حقهن وزاد الأولى أربعًا.

فإن قيل: لِمَ خص البكر بسبع والثيب بثلاث؟ قيل: الحكمة ظاهرة لوجهين:

أولاً: قوة الرغبة في البكر غالبًا. (وفي هذا مراعاة للرجل).

ثانيًا: استيحاش البكر من الرجال غالبًا، فزيد في المدة للاستئناس. (وفي هذا مراعاة للمرأة).

١١ ـ وإذا تزوج بكرًا على بكر، ويتصور هذا لو عقد على بكر وتردد عليها من غير جماع، ثم تزوج بكرًا أخرى فهل حكمه كحكم من تزوج بكرًا على ثيب؟

الجواب: نعم، ويكون معنى قوله: «تزوج البكر على الثيب» من باب الأغلب، مع أن هذه الصورة نادرة.

١٢ـ تجب الموالاة في سبع البكر وثلاث الثيب، ولو فرَّق لم تحسب أصلاً على القول الراجح.

١٣ ـ بعد انقضاء أيام البكر أو الثيب يدور على باقي نسائه وتصبح الجديدة آخرهن نوبة.

١٤ ـ إذا سافر بجديدة وقديمة بقرعة أو برضى البواقي تمم للجديدة حق العقد، ثم قسَّم بينها وبين الأخرى.

١٥ـ إذا أقام الزوج عند الثيب سبعًا فأقام بغير اختيارها في الأربع الزائدة، فإنه يقضي للباقيات الأربع الزائدة فقط؛ لأن مكثه عندها بغير رضاها فلم تؤاخذ به.

١٦ ـ وإذا تزوج بكرين في عقد واحد، كما لو عقد له رجل على ابنته وابنة أخيه (ابنتي عم) فإنه يقرع بينهما، فإذا خرجت قرعة إحداهن مكث عندها سبعًا ثم الأخرى سبعًا، وإن تقدم عقد إحداهما على الأخرى فزفت إليه قبلاً فهي المقدمة بلا قرعة.

١٧ ـ إذا تزوج امرأة بكرًا أو ثيبًا وليس عنده غيرها، فلا يتعين عليه التسبيع أو التثليث؛ لأنه لم ينكحها على غيرها، وهي طِلق له دهرها، فلم تقع المشاحة في الزمن حتى يلزمه التسبيع أو التثليث على القول الراجح.

١٨ ـ لو تزوج وهو في سفر ومعه بعض نسائه قسم للجديدة ثلاثًا أو سبعًا (بحسب حالتها) ثم عدل بينها وبين المستصحبات في السفر.

١٩ ـ إذا سافر الزوج بنسائه كلهن أو بدونهن فلا إشكال، وكذا إذا سافر بواحدة أو أكثر وترك البعض ورضي المقيمات بذلك فلا إشكال أيضًا، فإن أبين فلا بد من القرعة، فمن خرجت قرعتها سافر بها سواء في يومها أو في يوم غيرها، وإذا عاد من سفره قسم لهن ولم يقض للمقيمات.

ففي الصحيحين عن عائشة ﷺ قالت: «كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه». قال ابن القيم في «الهدي» (١٥١/٥): إذا أراد السفر لم يجز أن يسافر بإحداهن إلا بقرعة، وقال: إنه لا يقضي للبواقي إذا قدم، فإن رسول الله ﷺ لم يكن يقضي للبواقي. ا.هـ.

أما إذا خرج بدون قرعة بإحداهن أو بعضهن فإنه إذا قدم يقضي للبواقي حقهن متواليًا، ويحسب عليه مدة غيابه بما فيها الذهاب والإياب، وقولنا: يقضي حقهن متواليًا؛ لأن هذا حق مجتمع في ذمته فليقضه من غير تأخير، ومن ضرورة ذلك التوالي ولا يسقط عليهن إلا بإذنهن.

قال في الإنصاف: إذا رضي الزوجات بسفر واحدة معه، فإنه يجوز بلا قرعة، وإذا لم يرض الزوج بها وأراد غيرها أقرع. ا.هـ.

قلت: فإن خرج سهم التي لم يردها أولاً لزمه السفر بها.

٢٠ - إذا سافر بزوجتين بقرعة عدل بينهما، فان ظلم إحداهما قضى لها بالسفر، فإن لم يتفق قضى في الحضر من نوبة التي ظلمها بها.

٢١ - لو استصحب واحدة بقرعة وأخرى بلا قرعة عدل بينهما أيضًا، ثم إذا رجع قضى للمخلفة من نوبة المستصحبة بلا قرعة.

٢٢ - إذا سافر الزوج بامرأة لحاجتها فإنه يقضي للبواقي.

٢٣ - إذا سافرت الزوجة في حاجة لها ولزوجها جميعًا فلا يسقط حقها في القسم، فيقضي لها إذا عادت وضم حاجتها إلى حاجته لا يضرها.

٢٤ - إذا خرجت القرعة لإحداهن في السفر لم يجز السفر بغيرها، فإن أبت صاحبة القرعة فله إكراهها على السفر معه، فإن أبت فهي ناشز عاصية وللزوج استئناف القرعة مرة أخرى.

٢٥ - من لا يمكن اصطحابها في السفر لمرض أو نحوه فإنه يخرج بالأخرى، فإن كن أكثر من اثنتين أقرع بينهن؛ لأن القرعة إنما تكون مع استواء حالهن وصلاحيتهن للسفر وهذه قاعدة القرعة.

٢٦ - إذا سافرت المرأة في حاجة لها بإذن الزوج فلا قسم لها، فإذا عادت لا

يقضي لها على القول الراجح، وإذنه لها لدفع الإثم عنها، وأما إذا سافرت في حاجة له - أي للزوج - بإذنه، فإنه يقضي لها إذا عادت، وأما إذا سافرت في حاجة لها بلا إذن الزوج، فهي عاصية ناشز لا قسم لها ولا نفقة.

٢٧ - لو سافر ببعض نسائه بقرعة فأراد إبقاء إحداهن أو بعضهن في بعض المنازل في السفر فبالقرعة.

٢٨ - لو خرج مسافرًا وحده ثم نكح في سفره لم يلزمه القضاء للباقيات؛ لأنه تجدد حقها في وقت لم يكن عليه تسوية، وإن خرج لأجل النكاح احتسب عليه مدة الغياب بعد حق المنكوحة.

٢٩- إذا سافر بإحدى زوجاته بقرعة إلى محل ثم بدا له غيره أو أبعد منه فله أن يصحبها معه لأن حكمه حكم سفر القرعة.

٣٠ - إذا تزوج امرأة وأراد السفر بها لم يجز إلا بقرعة بينها وبين نسائه، ويحتمل أن له السفر بلا قرعة، ووجه ذلك: أن القسم قسمان؛ ابتدائي واستمراري، وهذه الجديدة قسمها ابتدائي بنص الحديث تستحقه بلا قرعة، وشرط القرعة تساوي جهات الاستحقاق، وهذه لها البداءة كما لو تزوجها ومكث أيامًا ثم سافر بها قبل انقضاء حق العقد فلم يحتج إلى القرعة فكذا في مسألتنا، ويتداخل حق العقد مع حق السفر، فإن قدم من سفره قبل مضي مدة ينقضي بها حق العقد أتمه في الحضر.

٣١ - للمرأة أن تهب ليلتها لإحدى ضراتها، فإن لم يقبل الزوج فإنه يقسم للواهبة ويرد هبتها، وإن قبل فلا يجوز للزوج جعلها لغير الموهوبة، وإن وهبتها للزوج فله جعلها لمن شاء منهن، وفي حال هبتها لضرتها إذا كانت ليلة الواهبة تلي ليلة الموهوبة قسم لها ليلتين متواليتين، وإن كانت لا تليها، فهل له نقلها إلى مجاورتها؟ الصحيح عدم الجواز إلا بإذن البواقي؛ لأن في ذلك تأخير حق غيرها، وتغيير لليلتها بغير رضاها، (وهو اختيار صاحب المغني) وللزوج إن وهبته إحدى نسائه ليلتها له أن يجعلها مرة لإحدى نسائه ومرة لأخرى، أو يجعله مشاعًا بينهن، ومعنى مشاعًا بينهن أن وجود الواهبة كعدمها فيبقى القسم للأخريات بينهن.

وأصل المسألة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة ﵂: «أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة».

وللواهبة أن ترجع متى شاءت في المستقبل دون الماضي؛ لأن الأيام تتجدد، فهي هبة في شيء لم يقبض، فحقها يتجدد، أما الماضي فقد قبض ولا رجعة لها فيه.

وقولنا: «للواهبة أن ترجع متى شاءت» هذا ما لم يكن صلحًا بينهما، كما لو كره الزوج المقام معها أو عجز عن حقوقها أو بعض حقوقها فخيرها بين الطلاق وبين المقام معه على أن لا حقَّ لها في القسم والوطء والنفقة أو في بعض ذلك بحسب ما يتفقان عليه، فإن رضيت بذلك لزم، وليس لها المطالبة بعد الرضا وليس لها الرجوع بعد ذلك، فإن هذا الصلح جرى مجرى المعاوضة، وهذا هو الصواب الذي لا يسوغ غيره. ا.هـ. [انظر: زاد المعاد (١٥٣/٥)].

٣٢ - لو وهبت نوبتها لامرأة معينة وأذن الزوج وأبت الموهوبة فيقسم للموهوبة ولا يشترط رضاها.

٣٣ - إذا شق القسم على الزوج المريض فإنه يستأذن زوجاته في المكث عند إحداهن كما فعل النبي ﷺ فإذا أذنَّ له مكث عند إحداهن، فإذا أبين إلا أن يدور أو تشاحنَّ ولم يكن به قدرة على الدوران فإنه يقرع فأيتهن خرج سهمها مكث عندها، وعلم مما تقدم أنه إذا كان مرضه لا يمنعه من القسم فيجب عليه القسم.

٣٤ - القسم في أثناء السفر في النزول والمسايرة في الطريق.

٣٥ - إذا رغبت المريضة والنفساء ونحوهن في تأخير قسمهن ثم القضاء بعد متواليًا لم يجز إلا برضى الزوج وإذن سائر نسائه.

٣٦ - من كان له امرأتان في بلدين فعليه العدل بينهما، لأنه اختار المباعدة بينهما فلا يسقط حقهما، فإما أن يمضي إلى الغائبة في أيامها، وإما أن يقدمها إليه فإن امتنعت من القدوم مع الإمكان فهي ناشز لا حق لها في القسم، وإن أحب أن يقسم بينهما في بلديهما ولم يمكن القسم ليلة ليلة جعل القسم على حسب ما يمكن؛ كشهر أو أكثر أو أقل.

٣٧ - يجوز للمرأة أن تبذل قسمها لزوجها بمال فتعاوضه على ليلتها على القول الراجح، وأما بذلها مالاً لزوجها ليزيدها في القسم على حساب ضراتها فحرام لأنه رشوة.

٣٨ - من أتاها زوجها ليبيت عندها فأغلقت بابها دونها ومنعته من الاستمتاع، أو قالت: لا تدخل عليَّ فهي ناشز لا قسم لها.

٣٩ - تجزي أضحية واحدة عن الرجل ونسائه، ولهذا ضحى النبيﷺ بأضحية واحدة عنه وعن أهل بيته، وأما الهدي في الحج فعلى كل واحدة هدي إذا تمتعت أو قرنت.

٤٠ - لا يجوز أن تؤخذ بويضة المرأة ثم تلقح بماء زوجها ثم توضع في رحم ضرتها.

٤١ - لو مات الزوج فلزوجاته أن يغسلنه، فإن وضعت إحداهن وهو على السرير فلا يجوز لها أن تغسله لخروجها من العدة وحلِّها للأزواج.

٤٢ - إذا مات المعدد يُحِد جميع نسائه وهذا لاخفاء به، لكن عند بعض النساء اعتقاد فاسد أنه إذا ولدت إحداهن بعد موته ولدًا فإنها ترفع الإحداد عن نفسها وعن سائر ضراتها، وهذا باطل، فالبواقي على إحدادهن حتى يخرجن من العدة على حسب حالهن.

٤٣ - إذا حبس الزوج فهو باقٍ على نصيبه منهن وهن كذلك، فإذا أمكن خروجه إليهن أو ترددهن إليه فذاك ولو تباعد ما بين ذلك فهو على ترتيب النوبات.

وختامًا أقول: والعاقل من الأزواج صاحب الدين يستطيع صيانة دينه ونفسه وعرضه دون كثير عناء، والأحمق منهم لا يزيده ما ذكرت إلا بلاء وفتنة وحيرة، والموفق من وفقه الله، والمهتدي من هداه الله، والصلاة والسلام على رسول الله.

الشيخ/ أبي محمد عبد الله بن مانع العتيبي.

❊ ❊ ❊

ماليزيا تدعو للتعدد:

أقر مجلس ولاية تيرينجانو بشمال شرق ماليزيا منح مكافآت خاصة للرجال المسلمين المتزوجين من ٤ نساء بينهن امرأتان على الأقل تعولان أطفالاً في خطوة تهدف إلى تشجيع الشبان على الإقبال على الزواج من الأرامل والأكبر سنًا بغرض رعايتهن.

ونقلت صحيفة «بريتا هاريان» الماليزية عن رئيس لجنة شؤون المجتمع بالولاية «وان حسن» القول: «إن هذه المكافأة لا تمنح سوى للرجال الذين يتزوجون نساء يعولن أطفالاً». وأضاف: «إذا تزوج الرجال من عذارى فلن يمنحوا المكافأة».

وأشار إلى حرص الحكومة على كشف ذلك السر من أجل المساعدة على إقامة حياة عائلية سعيدة في ظل تعدد الزوجات، مُشددًا على ضرورة وضع الرجال الذين يتزوجون من نساء أكبر منهم سنًا كمثل يُحتذى به أمام الآخرين.

وللرجال الحق في الزواج حتى ٤ نساء شريطة حصولهم على إذن شفوي من زوجاتهم الأخريات.

أندونيسيا:

نظمت مئات الإندونيسيات المنقبات من حزب «تحرير إندونيسيا» مسيرات سلمية أمس في شوارع وسط العاصمة الإندونيسية جاكرتا مؤيدة لتعدد الزوجات؛ حيث رفعت المنقبات المتظاهرات لافتة تقول: «الشريعة الإسلامية تسمح بتعدد الزوجات».

وأيدت أعلى هيئة إسلامية في إندونيسيا كما ورد في جريدة القبس الكويتية خطة للحكومة لمنع الوزراء والمشرعين وغيرهم من المسئولين الحكوميين من تعدد الزوجات، وجاءت الخطوة بعد أن تزوج الداعية الإسلامي عبد الله جيمنا ستيار الذي يحظى بشعبية واسعة بزوجة ثانية مما أثار جدلاً مجددًا بشأن تعدد الزوجات في دولة يقطنها أكبر عدد من السكان المسلمين في العالم.

أسرة هادئة، الأب في مكانة مرموقة، الوضع المادي مرتفع، أعطوا من الدنيا ما

ترجوه وتتمناه كل أسرة وزيادة، كانوا لُحمةً واحدة، حتى جاءت هذه الفكرة المشئومة...

تقول الأخت - وهي صغيرة في السن وتعتبر أكبر الإخوة -: تغير والدي وتغير أسلوبه وكأنه يوطئ لشيء لا ندري ما هو!!!

فجأة صرخ في وجه والدتي: سأتزوج عليك!! بكل عنجهية وغرور وسيطرة غير عادلة.

انهارت الأم كأي زوجة تُفاجأ بهذا الخبر الذي جاءها بأسلوب غير مناسب وكأنه عقوبة!! رغم أن الأم لم تقصر فكانت طائعة هادئة، وربة بيت ممتازة.

شد وحط بينهما، ومحاولات يائسة انتهت بسفر لأبيها للشام وجاء بالضرة والضرر معها، وكانت الضرة صغيرة في السن، وهذا الأب كبير في سنه مقارنةً بها.

ولا أخفيك أنه كان يعدل في المبيت، ولكنه جار جدًّا في الأخلاق، ففي يوم الجديدة تتغير أحواله للسعادة وفي يومنا يأتي عبوسًا قمطريرًا!! شرسًا والله يا أخي..

صرت لا أطيق رؤيته، وتلفظت عليه!! وقلت له: أنت عندك مراهقة متأخرة.

استغفرت الله وقاطعتها، وبينت لها الخطأ، ثم عادت لتقول: أمي حالتها النفسية سيئة جدًّا، أنا أصبت بحالة نفسية، الآن فقط أبكي ولا أستطيع مواجهة الناس وحدي لا بد أن يكون معي أحد يساعدني، لم أستطع الذهاب للجامعة وتسجيل محاضراتي إلا لما كانت بجواري واحدة من أخواتي التي هي أصغر مني ولكني أخاف..

وعندها تقريبًا حالة رهاب اجتماعي ليست باليسيرة، والله المُستعان.

أخوها في المتوسط أصبح يُدخن وبدأ انحرافه من شدة المشاكل والصياح لم يعد يطيق البيت، ودراسته انخفضت حالتها واستاءت!!!

بيتنا أصبح جحيمًا بمجرد أن يأتي والدنا كلنا ندخل غرفنا، فقط تذهب له أمي وتجلس معه، ونحن لا نطيق رؤيته!! أكره والدي.

وهنا أقول: التعدد نعمة ساقها الله لمن يحتاجها، وللأسف أسأنا استخدامها، حتى أصبح لفظ التعدد يجر وراءه مصطلح الجريمة والظلم والجور.

حالة هذه السائلة كانت أكثر من سيئة نفسيًا، ووالدتها التي تفكر في الطلاق كثيرًا، وإخوانها الذين لم يعودوا يُصلون ولا يدرسون وانحرفوا للمشاكل الكثيرة!!

أهذا مقصد الشرع من التعدد؟!

وهناك من أعرف ممن تزوج قيمهم -والدهم -وبعدها ودَّعهم ولم يعد حتى ينفق عليهم!!

طبعًا لم أترك الأخت بدون رد وإنما أجبتها بما نفعها -إن شاء الله -وهدأ الأمر كثيرًا.

قضية التعدد الجائر، غزت كثيرًا من الأسر، وأصبحت رمزًا للتفكك الأسري، وغلب التعدد السيئ على التعدد الجيد الذي أجادت بعض الرجال التعامل معه!! والله المستعان.

هذا رأيي فما رأيكم في مثل هذا النموذج؟ وهل هذا ينطبق على التعدد في زماننا هذا ككل، أم الظلم والجور لم تعلُ لتصبح ظاهرة؟

أترك لكم الجواب...

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، واشكروه إذ هداكم للإسلام وعلمكم الحكمة والقرآن، وتمسكوا بهذا الدين فإنه عصمة أمركم، وإياكم وتحريف الغالين وشُبه المبطلين، وانتحال المغرضين، وكونوا على بصيرة مما يخططه لكم أعداء الدين لتعرفوا بذلك خير الخيرين وشرَّ الشرين.

عباد الله، تحدَّثتُ أمامكم في خطبة مضت عن تأخير الزواج وخطورة ذلك على الفتيان والفتيات، وإنني اليوم أتحدث عن موضوع يُسهم في معالجة تلك القضية ويقدِّم حلاً لمن بُلي بهذه البلية.

إن الحديث عن موضوعٍ هو تشريع شرعه الله وسُنَّة سنَّها رسول الله ﷺ وسار عليها أصحابه الكرام من بعده، ولقد كان مألوفًا في سلف هذه الأمة، ولكننا في هذا الزمان وحينما انتكست فِطَرُ بعض الناس وأصبح الزنا خُلقًا وسجية عند بعض الشعوب وواقعةً لا يعاقب عليها القانون في كثير من الحالات. في هذا الزمان أصبح موضوع خطبتنا جريمة لا تغتفَر، وهمجية ورجعية يُستَحيَا منها أمام الشعوب

المتحضرة المتقدمة.

إن موضوعنا إذا أمعنًا فيه النظر دليل كمال هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان، ودليل على شموليته وسعة أحكامه. إن موضوعنا رغم أنه شرع وسنة فقد أصبح في بعض الدول المنتسبة للإسلام جريمة نكراء وداهية دهياء.

إن قوانين تلك الدول لا تمانع أن يتزوَّج الرجل بزوجة واحدة، ويتَّخذ ما شاء غيرها من العشيقات والأخدان، ولكن الويل كلّ الويل لمن يكتشف وفي عصمته أكثر من زوجة. إن ما شرعه الله وسنة رسول الله ﷺ جريمة منكرة في قانون القوم!!

عباد الله، موضوع خطبتنا هو تعدّد الزوجات، تلكم السُنَّة التي نفر منها كثير من الناس تقليدًا وتشبُّهًا بأعداء الله، وهي قضية محسومة لا جدال فيها ولا مماراة، نصَّت عليها الأدلة في هذه الشريعة الغراء، يقول الله- تبارك وتعالى: - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ولقد عدَّد رسول الله ﷺ مِن الزوجاتِ، وفَعله الصحابة ﷺ، واستمرَّ عملُ النّاسِ على هذا في كل عصرٍ ومصر.

يُحسِن الرجل إلى المرأة حين يضمّها إليه مع زوجته الأولى؛ لأن بقاءها بدون زوج خطرٌ عليها من كل جانب، ولم يُعرف عن سلف هذه الأمة ظاهرةُ تأذِّي الزوجة بزواج الرجل من أخرى، وإنما ظهرت هذه البوادر في عصرنا الحاضر بعد أن ضَعُفت العقيدة في النفوس وجهِل الكثير من الناس أحكام الإسلام، بل وتأثروا بمن انحرف عن جادة الصواب، وظهرت آثار المسلسلات الهابطة والكتابات الماجنة والصيحات الخادعة والنداءات المزوّقة، واستمرت تنخر في أدمغة الناس حتى نجح الأعداء في إبعاد كثير من المسلمين عن هذا التشريع العادل.

عباد الله، ألسنا مسلمين؟! ألا نؤمن بعلم الله وحكمته وعدله ورحمته؟! ﷻ لا يشرع إلا لحكمة، ولا يُرغِّب إلا بما هو في صالح العباد، علِموا ذلك أو جهلوا، ودِيننا دين الفطرة السليمة ينأى بنا عن الرذائل ويوجِّهنا نحو الفضائل.

عباد الله، لو أردنا في هذه العجالة أن نستقصي الحكمة من شرعية تعدد الزوجات لطال بنا المقام، ولكن إليكم بعضها على سبيل الإيجاز:

معاشر الأحبة، إن تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية ورحمة بالمرأة ورعاية لها قبل أن يكون مغنمًا وكسبًا للرجل، وهذه حقيقة مشاهدة مدركة في العيان، يشاهدها كلُّ ذي بصر وبصيرة، فإن نسبة النساء في أي مجتمع تفوق نسبة الرجال، فغير خافٍ عليكم كثرة ولادة الإناث وتعرّض الرجال للموت والفناء أكثر من النساء، لأنهم يتعرضون للحوادث المختلفة وللحروب الطاحنة وكدح الحياة في الأعمال الشاقة، إذا كان الحال ما ذكر فإن اقتصار الرجل على امرأة واحدة سبب في إهمال العدد لكثير من النساء، فيصبحن نهبًا للضياع وأكثر تعرضًا للفتن.

ثم إن مرض أو عقم الزوجة أو توقفها عن الإنجاب والرجل محتاج إلى الذرية بحكم فطرته، فإن ذلك يدعوه إلى الزواج بامرأة أخرى، وعمله هذا خير من طلاقه للأولى وتشرّدها.

ثم إن ما يتمتع به الرجل من قوة جنسية قد لا تسدّ المرأة الواحدة حاجته مع ملاحظة ما يطرأ عليها من حيض وحمل ونفاس مانع من التمتع بها.

وفي شرعية التعدّد تحقيق لمصلحتهم وسلوكهم طريق الاستقامة والعفة، وهو كذلك حفاظ على شرف المرأة وتحقيق لرغبتها خاصة لمن فاتهنّ قطار الزواج بسبب الدراسة أو التدريس، فكونها عند زوج يرعاها ويلبي غريزتها ويتحقّق لها معه السكن والمودة، حتى وإن كانت ثانية أو ثالثة خير لها من أن تبقى عانسًا بدون زواج، فتصبح فريسة للهموم والأفكار، خاصة في زمان تنوعت فيه سبل الإغراء وراجت فيه أسواق الفساد.

أما مصلحة المجتمع من هذا التشريع فظاهرة في تقوية لحمته وترابطها وتماسك بنيانه وقوته، ويوم أن يكثر سواد الأمة وتتقوى الروابط بين أفرادها فإنه يتحقق لها الشيء الكثير، فلا شك أن العنصر البشري عامل مهم في بناء الحياة في مختلف مناحيها، ولا يخفى ما تحدثه الحروب من أضرار جسيمة، وهي إنما ترفع بعد قدرة الله بسواعد فتية وكثرة كاثرة، وإن هذا التشريع كفيل - بإذن الله - في زيادة وكثرة العنصر البشري، وهو كذلك أمن بعد رحمة الله من كثير من الجرائم الأخلاقية، فسبحان من عَلِم فحكم!

عباد الله، لقد ثبت عند البخاري وغيره أن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن

عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: فتزوّج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء.

إن في ذلك ترغيبًا وأيّ ترغيب في اتباع سُنَّة رسول الله ﷺ لمن قدر عليه، وهو سُنَّة في حقه، والتعدد -يا عباد الله- هو الأصل، فإن تخلّف العدل صار إلى واحدة، ولكن ليُعلم -يا عباد الله- أنه ليس كلّ إنسانٍ مؤهّلاً لذلك، فإن إقدام بعض الناس على التعدد مع عدم توافر الشروط سبب في كثير من المشكلات التي لم تكن في الحسبان، فلا بد من معرفة شروط التعدد قبل العزم عليه، وهي أربعة شروط:

الأول: العدد، فلا يجوز بأيّ حال الزيادة على أربع نسوة كما هو ثابت بنص الكتاب والسنة.

الثاني: القدرة المالية والجنسية، وهذا شامل للوطء وللطعام والشراب والكسوة والمسكن، أو ما يلزم من أثاث يناسب المرأة، وهذا متروك للعرف والعادة، ولقد دلت آية التعدد على اشتراط ذلك حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣] قال الشافعي: «﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي: أن لا تكثر عيالكم».

الشرط الثالث: العدل بين الزوجات، وقد صرحت به الآية، والعدل المطلوب هو ما كان مستطاعًا عليه مقدورًا على تحقيقه، وهو العدلُ بينهن في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والبيت والمعاملة، أما ما لا يستطاع كالميل القلبي وما يتبعه من الوطء فلا يلزم العدل فيه؛ لقوله ﷺ: «اللهمّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان والحاكم].

ومن فرَّط في هذا الشرط فإنه على خطر عظيم وعقوبة بشعة تنتظره يوم القيامة، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» [رواه أحمد والترمذي].

فليحذر الذين لا يعدلون بين نسائهم ممن هجروا هجرًا متواصلاً وجعلوها كالمعلقة، فضيعها ولم ينفق عليها، وأهمل أولاده منها لسنوات وسنوات. إن هذا ظلم كبير وأمر لا يقره الشرع المطهر، وربما كان أمثال هؤلاء سببًا لنفرة الناس من التعدد.

أما الشرط الرابع: أن لا يجمع بين من يحرم الجمعُ بينهن، فلا يجمع بين الأختين ولا بين المرأة وعمتها أو خالتها لا من النسب ولا من الرضاعة.

وقال العلماء: وقاعدة ذلك: «أنه لا يجوز الجمع بين امرأتين لو قدِّر أن إحداهما ذكر لم يحلّ له أن يتزوج بالأخرى».

عباد الله، إن التعدد شريعة محسومة لا نملك أمامها إلا التسليم وإن خالفت هوى أنفسنا، فالله- تبارك وتعالى - يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

***

وقفات مع رجل عقيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

لا شك أن الولد نعمة جليلة من أعظم النعم التي يمن الله بها على الإنسان، وهو زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] وله مصالح وفوائد كثيرة في الدارين لايحصيها إلا الله؛ من الصلة والبر والدعاء للوالدين والإحسان إليهما، واتصال النسب، وإحياء الذكر، والقيام بشؤونهما أحياءً وأمواتًا، وغير ذلك من المنافع العظيمة.

وقد يمنع الله الولد عن بعض الناس ويجعله عقيمًا، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠]

وقد يلحق العقيم هم وحزن من جراء فقد الولد، وهذا أمر طبيعي من الفطرة لا يؤاخذ عليه المرء شرعًا، ولا يلام على ذلك، فإن صبر واحتسب الأجر على الله وأحسن الظن بربه جوزي أجرًا عظيمًا، وإن جزع وتسخط وأساء الظن بربه فاته خير عظيم وباء بالإثم الكبير.

وسعي العقيم في تحصيل الولد وبذل الأسباب لا ينافي التوكل على الله، ولا ينقص الإيمان، والإنسان مفطور على حب الولد، ويشترط في ذلك أن تكون الأسباب نافعة سواء كانت أسباب عادية مباحة مجربًا نفعها؛ كالتداوى بالعقاقير الطبية، أو أسباب شرعية دل الشرع عليها كالرقية ونحوها، ولا يجوز بحال تعاطي الأسباب المحرمة من السحر والدجل والأوهام، وغير ذلك مما تُذهب دين العبد وتفسد عقله وتضيع ماله.

والواجب على العقيم: أن يربط قلبه بالله ويتعلق به، ويكل الأمر إليه، ويوقن أن النفع والضر بيده، وأن الكون تحت يده يتصرف به كيف شاء، وأن جميع هذه الأسباب مهما كانت لا تؤثر بنفسها بل يصرفها الله، فان شاء أنفذها، وإن شاء أمسكها، فلا يتعلق بالمخلوق ولا يلتفت قلبه إلى شيء من الأسباب.

والدعاء من أعظم الأسباب في حصول الولد، فليكثر العقيم منه ولا بأس بطلب الدعاء من الرجل والصالح، وأن يحسن الظن بربه ويوقن بالإجابة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] وقال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، وليعظم الرجاء بربه وينصرف إليه بكلية قلبه ويدعو دعاء المضطرين، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل:٦٢]، وليعلم أن الفرج قريب، وأن الله قادر على كل شيء، خالق الأسباب والمسببات، خلق عيسى بلا أب، ورزق مريم بلا سبب، وأعطى زكريا الولد وزوجه عقيم وقد بلغ من الكبر عتيًا، وأطفأ نار إبراهيم ذات اللهب، فيالله العجب، ما أعظم عطاياه وأجزل نعمه وألطفه بعباده!

ولما رأى زكريا عليه السلام سعة قدرة الله ولطفه وكرمه ورعايته لمريم عليها السلام برزقها فاكهة الشتاء بالصيف وفاكهة الصيف بالشتاء، طمع في الولد وقال: إن الذي قدر على ذلك لقادر على أن يصلح زوجي ويرزقني ولدًا على الكبر، وكان أهل بيته قد انقرضوا، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران:٣٨] قال ابن عباس: «كان ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة». وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم:٣٩].

أخي العقيم: فأقبل على ربك بالمناجاة ولا تيئس من رحمة الله، وتصدق وأحسن وأكثر من التوبة والاستغفار، واعلم أن الله قادر في أي وقت على أن يرزقك الولد مهما طال الوقت كما رزق غيرك، وقد شاهدنا قصصًا عجيبة وأحوالاً في هذا الباب، وإياك والاعتماد على كلام الأطباء والثقة على أنه من المسلمات التي لا تتغير والوقوف عند ذلك، فهم يصفون الحال المشاهدة وفق مقاييس الخلق العاجز، ويتكلمون في الأسباب العادية وقدرة الله فوق ذلك، وكم رأينا من قال فيه الأطباء لا يولد له فرزقه الله الولد.

وإذا كان سبب العقم ناتجًا عن الزوجة فالمشروع للزوج الإحسان إليها وإكرامها وعدم تعييرها بذلك والصبر على إمساكها ودوام عشرتها، وإن رأى طلب الولد بالزواج بأخرى فحسن وقد أوصى النبي ﷺ بذلك فقال: «تزوجوا الولود الودود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» مع الإحسان إلى الزوجة الأولى وعدم تسريحها، وذلك من المعروف الذي أوصى الله به.

والمرأة التي تبقى تحت زوج عقيم وهى خالية من العقم لها أجر عظيم وثواب جزيل على صبرها عن طلب الولد وذهاب شبابها وزهرة عمرها بلا ولد، لا سيما إذا صلحت نيتها وكانت راغبة في صلاح الزوج وحسن خلقه وكمال عقله، ويجوز لها طلب الطلاق وفسخ العقد لذلك كما قضى بذلك عمر رضي الله عنه.

ويجب على من كان عالمًا بعقمه إذا تقدم لامرأة إبلاغها بعقمه، ويأثم بترك ذلك؛ لأن ذلك غرر نهى الشرع عنه، وكذلك المرأة العقيم يجب عليها البيان.

وهذه أمور تُهوِّن على العقيم وتسليه إذا تفكر فيها وتأملها:

١ - أن يوقن أن ما من أمر قضاه الله وقدره إلا لحكمة بالغة، فالله سبحانه حكيم في أقواله وأفعاله وتقديره لا يقضي شيئًا عبثًا، فإذا تفكر في فقد ولده انه أمر قدر عليه لحكمة ولو خفيت عليه حصل له التسليم التام والرضا بذلك، وهذه حالة إيمانية عظيمة من استشعرها هان عليه الأمر.

٢ - أن ذلك من البلاء الذي يُبتلى فيه المؤمن في الحياة الدنيا ليرى الله صدقه من كذبه، وإيمانه من نفاقه، وتسليمه من تسخطه، وكل يُبتلى بنوع من البلاء وقد ابتُلي بأغلى شيء فليصبر.

٣- ما يترتب على الصبر من عظم الجزاء ودخول الجنة، فالجزاء من جنس العمل، فكلما عظم البلاء عظم الجزاء، فإذا كان النبي ﷺ قال: «من فقد حبيبه فصبر دخل الجنة» وأخبر أن فقد البنات حجاب من النار، فكيف بمن حرم الولد ابتداء فصبر على ذلك، ما أعظم جزاءه وأحسن عاقبته.

٤ - أنه ربما صرف الله عنه الولد لطفًا به، ودفع عنه أعظم الشرَّين لعلم الله السابق أنه لو رزق ولدًا لكان فتنة له في دينه وشغلاً عن طاعته، وعذابًا له، وهمًّا

كما قصَّ الله سبحانه عن غلام الخضر حينما قتله قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠] أي: فعلمنا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على الكفر. قال مطرف: «فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له فيما يحب». وكم والد فتن بولده وصار وبالاً عليه وشغله عن دينه، والله المستعان.

٥ - إن كان الله أخذ منه الولد فقد بسط له في الوقت وبارك فيه، فالتفرغ للعبادة والدعوة وطلب العلم والعمل الصالح نعمه عظيمة حرم منها الكثير، وكم من شغل برعاية ولده عن فعل الخير، وكذلك فقد الولد فيه سعة في المال والرزق، والولد مهلكة للمال فليستثمر ذلك في بذل المال وإنفاقه في وجوه البر والإحسان، وكم رأينا من العلماء والصالحين الذين فقدوا الولد وبارك الله في علمهم وعطائهم، ولله في خلقه شئون.

٦ - أن هذا الأمر لم يخصه الله به بل كتبه على طائفة كثيرة ممن قبله أو بعده يشاركونه في فقد الولد، وأن الله كما فاوت بين الناس في الرزق فجعل منهم الغني والفقير، فاوت أيضًا بينهم في هذا الباب؛ فجعل منهم عقيمًا ومنهم ولودًا، والتفكر في هذا يهون الأمر عليه ويسليه.

فينبغي على العقيم أن يوطن نفسه على ذلك، وأن يُكيِّفها على حسب ظرفه ويسلى عن التفكير في عقمه ولا يسترسل وراء الوساوس، ويشغل نفسه بكل مفيد، ولا يبقى فارغًا يتخطفه الشيطان، فإن الشيطان حريص على تخذيل المؤمن وتحزينه، ويدخل على كل مؤمن بما يناسبه.

فإن شق العقم عليه ولم يستطع دفعه وصار يُشكِّل له هاجسًا مؤلمًا في حياته وأحس بفقد مشاعر الأبوة؛ فليكفل ولدًا صغيرًا يرعاه في حجره يملأ عليه حياته ويشبع رغبته ويشعره بنوع من الأبوة، ويكسر روتين السكون والملل بينه وبين زوجته، فربما كان هذا حلاً ناجحًا، وقد جربه أناس فانتفعوا به مع حصول الأجر العظيم، ولا يلتفت أبدًا إلى كلام الناس وانتقادهم ما دام فعله في حدود

الشرع وظهر نفعه.

وأخيرًا: فإن من اللطائف أن أهل الجنة لا توالد بينهم، ولا يكون لهم ولد كما حكى ذلك طائفة من أهل العلم، ويشهد لهذا القول عموم الأدلة والنظر الصحيح، فإن قانون الجنة وطبيعة الحياة فيها وأحوال أهلها تخالف قانون الدنيا وأحوال أهلها، فالجماع في الجنة وجد للذة، والجماع في الدنيا وجد للتناسل وغيره، والأزواج في الجنة مطهرون من كل شيء خلافًا لأزواج الدنيا، والأزواج في الجنة أبكارٌ دائما خلافًا لأزواج الدنيا، وأهل الجنة أتراب أسنانهم ثلاث وثلاثون لا ينقصون ولا يزيدون خلافًا لأهل الدنيا، ويبقى في الجنة فضل فينشئ الله خلقًا جديدًا لذلك، ولو كانوا يتوالدون لما بقي فضل، ويلحق الله بالمؤمنين ذريتهم في الدنيا ولم يذكر لهم ذرية في الآخرة، وكل ما روي في السنة في إثبات الولد في الجنة منكر لا يصح منه شيء، والله أعلم بالحال، وحال أهل الجنة أكمل الأحوال ونعيمهم أحسن النعيم، فتسلَّ بذلك واتخذه عزاء لك، وأحسن صلتك بخالقك تفز بجنة ربك.



الهاتف الجوال

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، أولي العقول الناضجة، والأفهام السديدة، والآراء الرشيدة، ومن سلك نهجهم، واتبع آثارهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن لنعم الله - تعالى - على عباده آثارًا عظيمة، ومنافع عديدة، استغلها أولو الألباب الواعية، فوظَّفوها في طاعة الله ﷻ، ولم يخرجوا بها إلى غير ما وُضعت له، وهؤلاء هم الذين يُشكر سعيهم؛ لأنهم قابلوا نعمة الله - تعالى - عليهم بشكرها قولاً وعملاً، قابلوها قولاً بكثرة حمد الله - تعالى - والثناء عليه بألسنتهم، مع قلوب خاشعة مطمئنة بذكر الله وشكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ «الرعد:٢٨» وقابلوها بشكرها عملاً، عندما استخدموها فيما أباحه الله لهم، فلم يتجاوزوا الحدود التي حدَّها الله - تعالى - لهم، ممتثلين قول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ «البقرة:١٨٧» وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ «البقرة:٢٢٩».

شعار الواحد منهم قول عمرو بن الجموح رضي الله عنه: «أتوب إلى الله سبحانه وأستغفر الله من ناره وأثني عليه بآلائه بإعلان قلبي وإسراره».

وصنف آخر من الناس لم يعرفوا كيف يتأدبون مع النِعم؛ إذ استغلوها في غير ما وُضعت له؛ فطغوا وأسرفوا، وأصابهم من جرَّاء ذلك عذاب الله - تعالى - الذي توعَّد به من يقابل نعمته بالجحود والكفران: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى

لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الطلاق:٨]

ومن نعم الله - تعالى - على الناس في هذا الزمان: أن يَسَّر لهم الاتصال بالبعيد دون مشقة أو عناء، ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل أصبح المرء يستطيع أن يكلِّم مَنْ يريد في كل وقت، وفي أي مكان في كثير من الأحيان، عن طريق ما يُعرف بالهاتف الجوال، ولكن المؤسف والمؤلم أن ترى فئاتٍ من الناس لا يُحسن التعامل مع هذا الهاتف، إذ يقع كثيرًا في أمور محظورة شرعًا، أو مستهجنةٍ عرفًا.

وقد رصدت في هذه العجالة عددًا من الأمور، أذكرها نصحًا للأمة، فلعلها أن توقظ نائمًا، أو تنبِّه غافلاً، أو تذكر ناسيًا، وما توفيقي إلا بالله.

فأقول: من الأضرار الناتجة عن الاستخدام السيئ للهاتف الجوال ما يلي:

١ - أن بعض الناس يجعل رنة الهاتف الجوال على نغمات موسيقية، ومعلوم أن الموسيقى محرمة شرعًا؛ إذ هي داخلة في الغناء والطرب المحرم بإجماع العلماء، ولا يعتد بشذوذ من شذ في ذلك.

ولا شك أن من يجعل رنة هاتفه على النغمات الموسيقية لم يُقدِّر هذه النعمة الإلهية حقَّ قدرها، إذ لو قدرها لما قابل موليها والمنعم بها بهذه المعصية وذلك المنكر، الذي أخبر النبي ﷺ أنه سيكون في أمته من يستحله، كما أخرج البخاري في كتاب الأشربة من صحيحه وغيره أن النبي ﷺ قال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَّ والحرير والخمر والمعازف...» الحديث.

قوله: «الحِرَّ»: الزنا. ومعنى: «يستحلون..» يعتقدون ذلك حلالاً، أو يسترسلون في فعل الزنا، ولبس الحرير، وشرب الخمر، واتخاذ المعازف كالاسترسال في الحلال. [فتح الباري (١٠/٥٥)].

ولا يظنن هذا المتخذ للمحرمات أن فَتْحَ باب الدنيا وزينتها له دليل على أن الله - تعالى- راضٍ عنه، كلا، بل ربما كان ذلك سببًا لهلاكه لو استمر في المعصية، فإنه سبحانه يقول: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥].

قال القرطبي: «﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ بمعنى تركوا ما ذكِّروا به. ومعنى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: من النعم والخيرات؛ أي كثَّرنا لهم ذلك، والتقدير عند أهل العربية: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقًا عنهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ معناه: بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك العطاء لا يبيد، وأنه دال على رضاء الله ﷻ عنهم، ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ أي: استأصلناهم وسطونا بهم، ﴿بَغۡتَةٗ﴾ معناه فجأة، وهي الأخذ على غِرَّة، ومن غير تقدم أمارة، فإذا أخذ الإنسان وهو غارٌّ غافل فقد أُخذ بغتة، ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ والمبلس: الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جوابًا لشدة ما نزل به من سوء الحال».

قال الحسن: «والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد، فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه». [الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٧٤، ٢٧٥)].

٢ - اصطحاب الجوال إلى المسجد دون التأكد من إغلاقه، وهذا يؤدي إلى حصول الأذى في بعض الأحيان عندما تظهر رنات الهاتف في المسجد؛ حيث تزعج المصلين، وتشوش عليهم، والحلُّ هنا أن يترك المصلي هاتفه في البيت أو السيارة، ولا يتسبب في إلحاق الأذى بغيره؛ لأن إيذاء المسلم محرم.

٣ - أن بعض الناس يصطحب الجوال معه إلى المسجد الحرام، ويتحدث به، ويستقبل المكالمات دون حياء من الله - تعالى - والدافع له إلى ذلك اتساع المسجد، وكثرة الناس، بحيث لا ينتبه له أحد، وهذا التصرف فيه قلة أدب مع الله ﷻ؛ لأن المسجد الحرام يُحترم كما يُحترم غيره من المساجد، بل له مزيد إجلال وتعظيم كما تدل على ذلك الدلائل المتعددة من الكتاب والسنة.

٤ - العبث بهذا الهاتف داخل المسجد وإن لم يكن هناك مهاتفة، وهذا الفعل فيه قلة اهتمام صاحبه بالمكان الذي دخل فيه، وكان الواجب عليه أن يترك عند أول دخوله للمسجد كلَّ أشغال الدنيا وهمومها، ويفرغ بالَه كلَّه

للصلاة وتعظيم الله - جل وعلا - كما كان ذلك منهج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان.

٥ - اتخاذ هذا الهاتف لأجل المفاخرة والتقليد دون حاجة، والمفاخرة والتقليد بلا بصيرة عَمَلان مذمومان؛ لأن المفاخرة تؤدي إلى العجب والكِبر والبطر، والله - تعالى - يقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حُلة تعجبه نفسه، مرجّل رأسه يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». ومعنى «يتجلجل» أي: يغوص وينزل.

وأما التقليد فمذموم؛ لأنه يعني محاكاة الغير دون وعي أو بصيرة بمدى الحاجة إلى الشيء المقلَّد فيه، وقد عاب الله ﷻ في القرآن قومًا احتجوا على باطلهم بأنهم وجدوا آباءهم كذلك، وأنهم مقتدون بهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥]، فدلّ ذلك على أن تقليد الغير بلا عِلْم ولا بصيرة مذموم على وجه العموم، ويختلف حكم التقليد بحسب الشيء المقلَّد فيه، ويستثنى من الذم من قلَّد العلماء المهتدين، ومن بذل جهده في اتّباع ما أنزل الله، وخفي عليه بعضه، فقلَّد فيه من هو أعلم منه، فهذا محمودٌ غير مذموم، ومأجور غير مأزور. [إعلام الموقعين ٢/١٦٥].

٦ - تمكين المراهقين والمراهقات من اتخاذه والعبث به، ومعلوم أن تمكين هؤلاء منه فيه ما فيه من المساوئ؛ إذ قد وصل الأمر ببعض هؤلاء من المراهقين والمراهقات إلى أن يتخذ كلُّ واحدٍ صديقًا أو عشيقًا، بسبب ضعف الوازع الديني، وعدم الحاجة إلى هذا الهاتف.

والواجب على أولياء الأمور: أن يتقوا الله - تعالى - فيهم، وأن يبعدوا عنهم الأسباب التي تؤدي إلى انحرافهم، فإنه سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

٨- استعمال بعض الناس للهاتف الجوال أثناء قيادتهم سياراتهم، وهذا يُعرِّض - بلا شكٍ - قائد السيارة للخطر؛ لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإما أن يشتغل بقيادة السيارة، وينظر في طريقه نظرة فاحصة، أو يشتغل بتكليم صاحبه، وينتبه لما يقوله، ومحاولة الجمع بينهما صعب جدًّا، لذا فالأولى والأحرى بالمسلم العاقل أن يتجنب أماكن الخطر، وطرق العَطَب، ويحرص على حماية نفسه وأنفس المسلمين الذين يسيرون معه، فإن ذلك منهج المؤمنين، أصحاب الوعي والبصيرة، الذين لا تعميهم الأهواء والشهوات، ولا تصدهم المغريات عن العضِّ بالنواجذ على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وفقني الله وإياكم لطاعته، وجنبنا معصيته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

❋ ❋ ❋

الشخصية الجذابة

كل مسلم ومسلمة يحب الخير والبر والمعروف والإحسان ومكارم الأخلاق، أما القلوب فهي قلوبنا جميعًا، فنحن بحاجة لفن التعامل مع بعضنا البعض.

بحاجة إلى تعميق روابط الإخوة الإسلامية ومعانيها، نحن بحاجة - أيها الأحبة - إلى تحقيق القاعدة الشرعية: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [كما في حديث أنس المتفق عليه].

بحاجة إلى الحوار الهادئ والتعامل المهذب والاحترام المتبادل، إلى أن نظهر محاسن هذه العقيدة لنصبح نحن المسلمين قدوات لبعضنا، ومفاتيح خير لغيرنا من أهل الملل والنحل.

بحاجة إلى أن نكسب قلوب بعضنا، وأن نكسب قلوب أهل الأديان الأخرى بصدق التوحيد وحسن المعاملة وجميل الأخلاق لتذوق طعم الإيمان ولتعرف حقيقة الإسلام.

نريد أن نكسب القلوب ليس بالمجاملة ولا بالمداهنة، ولا بتمييع ديننا ولا بتمزيقه، ولا بالتنازل عن المبادئ والأهداف، وإنما بمكارم الأخلاق، كما قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»» [والحديث عند أحمد في المسند].

ولماذا كسب القلوب؟

ليس من أجل الدنيا، ولا متاعها ولا زخرفها، ولا من أجل أنفسنا وإظهار محاسنها وتواضعها، لا والله، بل ولا من أجل تملق الناس وطلب محامدهم وثنائهم، إنما من أجل ربنا تعبدًا وتقربًا، فإن الله يحب معالي الأخلاق، ويبغض سفسافها، واتباعًا لحبيبنا وقدوتنا ﷺ فقد كان أحسن الناس خُلُقًا.

وكسب لحب وقرب نبينا يوم القيامة كما قال - صلوات الله وسلامه عليه -: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؛ أحاسنكم أخلاقًا». حسَّنَه الترمذي.

وتطبيقًا لتعاليم شرعنا وآداب ديننا قولاً وعملاً، وسرًّا وعلنًا، فقد قال ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن».

وشوقًا للجنان، وتثقيلاً للميزان يوم أن نلقى الله فقد قال ﷺ: «فأكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» صححه الترمذي وقال غريب. وقال ﷺ: «وما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسن».

وتخلقًا وتأدبًا وإيمانًا، فقد قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، والله ﷻ يقول عن رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

إذًا فهذه الفضائل وأمثالها مما يحثنا ويشجعنا على اكتساب محاسن الأخلاق وتطبيع نفوسنا عليها، إخلاصًا لوجه الله، وطلبًا لرضاه، فهي عبادة عظيمة وقربة من أجل القُربات، فإن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم. كما في حديث عائشة، وصححه الألباني رحمه الله.

إذًا فهذا طريقنا للقلوب هذا هو طريقنا للقلوب خططته لكثرة شكاية الناس بعضهم من بعض؛ فالزوج يشكو من سوء تعامل زوجه، والطالب يتظلم من أخلاق أستاذه، والموظف يتسخط من رئيسه ومديره، والمكفول يئن ويتوجع من سوء تصرف كفيله، حتى الصاحب لم يسلم من صاحبه وخليله.

فبحثت عن العلاج فكان هذا الموضوع، إذًا فهو رسالة إلى كل مسلم ومسلمة، إلى كل الطيبين والطيبات، إلى كل المعلمين والمعلمات، إلى كل الأزواج، إلى كل موظف، إلى كل مسلم يسافر خارج البلاد، إلى كل أحد يحب أن يرى الألفة والمحبة ترفرف على المجتمع الإسلامي.

أيها المسلمون؛ لنحرص على مكارم الأخلاق والتحلي بها، وذلك بالصبر ومجاهدة النفس وترويضها؛هذا أولاً.

وثانيًا: بصحبة الصالحين والنظر في سيرهم وأخلاقهم.

وثالثًا: بمداومة القراءة والاطلاع في كتب الأخلاق؛ كـ«الأدب المفرد» للبخاري، و«مكارم الأخلاق» لأبن أبي الدنيا وللخرائطي، وكتب الشمائل وأخلاق النبي ﷺ.

ومن أجمل الكتب المعاصرة التي وقفت عليها في هذا الموضوع «الأخلاق الفاضلة» للرحيلي وهو كتاب جميل، و«هذه أخلاقنا» للخازن دار، و«سوء الخلق» للحمد، وغيرها كثير.

إذًا فلنحرص على التحلي بالأخلاق ومن يتصبر يُصبره الله، فإن أردت الوصول للقلوب، بل وإلى رضاء علام الغيوب ﷻ فتنبه لهذه النقاط الثلاث الماضية، ثم احرص على سماع هذا الموضوع وإسماعه مرات ومرات فإنما العلم بالتعلم، واستعن بالله وأكثر الدعاء والتضرع إليه: «اللهم كما أحسنت خَلقي فأحسن خُلقي» كما كان ﷺ يقول، [كما عند أحمد وصححه الألباني].

وقل: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء» [كما في الترمذي وهو صحيح].

.وقل أيضًا: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» [كما في صحيح مسلم].

فهذا أحسن الناس خلقًا والذي أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا يترك ﷺ الدعاء والتضرع إليه أن يعينه على تهذيب نفسه والتحلي بأحسن الأخلاق، فكيف بي وبك؟ بل كيف بنا جميعًا؟ فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بالله جل وعلا.

* **العقيدة والأخلاق:**

للأخلاق صلة وثيقة بالإيمان والعقيدة، قال ابن القيم رحمه الله: «الدِّين كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلقِ زاد عليك في الدين».

يقول صاحب رسالة جميلة بعنوان «صلة الأخلاق بالعقيدة والإيمان»: «إن المتمعن في أحوال الناس يجد كثيرًا من المسلمين يغفل عن الاهتمام والاحتساب في هذا الجانب، وقد يجهل الصلة الوثيقة بين محاسن الأخلاق وقضية الإيمان والعقيدة، فبينما تجد الشخص يظن أنه قد حقق التوحيد ومحض الإيمان تراه منطويًا على ركام من مساوي الأخلاق والنقائص التي تخل بإيمانه الواجب أو تحرمه من الكمال المستحب؛ كالكبر والحسد وسوء الظن والكذب والفحش والأثرة وغير ذلك، وقد يكون مع ذلك جاهلاً بضرر هذه الأمور على عقيدته

وإيمانه، أو غافلا عن شمولية هذا الدين لجميع مناحي الحياة، كما قال تعالى. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢ ١٦٣]، إن تحقيق التوحيد - الكلام لا زال لصاحب الرسالة- وتكميل الإيمان ليس باجتناب الشرك الأكبر فحسب، بل باجتناب كل ما ينافي العقيدة وكل ما يخل أو يقدح في كمال التوحيد والإيمان» إلى آخر كلامه هناك.

إذًا فليست العقيدة متونًا تُردد، ونصوصًا تُحفظ، بل لا بد أن تتحول إلى واقع عملي في الحياة، والتعامل بين الناس، ولما حصل هذا التصور عند بعض الناس ظهر انفصام نكد، وازدواجية بين مفهوم الإيمان ومقتضياته يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى

* واقعنا ومكارم الأخلاق:

إن الناس اليوم في عرض الأرض وطولها بحاجة إلى من يقف معهم ويعينهم، وإلى من يزيل عنهم الهم والقلق، إلى من يدلهم إلى طريق السعادة والراحة النفسية، بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة والأمان.

حتى وإن قامت الحضارات، وصُنعت المخترعات، وتوالت الإنجازات فكل ذلك من أجل سعادة الإنسان وتكريمه، لكن مع الأسف البشرية اليوم تغرق في بحر الدنيا، يلهث الكثيرُ منهم وراء المال والتجارة، وراء الشهوات والملذات، وراء الرياسة والريادة بأي طريق وبأية صورة ومهما كان الثمن، المهم الوصول للمراد، وهذا هو الواقع الغالب على الناس اليوم إلا ما شاء الله.

في خضم هذا اللهثان وفي وسط هذا الإغراق يتلفت البعض ليبحث عن المُثل وعن المبادئ وعن الأخلاق والآداب في صفوف الناس، ربما سمع عن التبشير وهو شعار أعلنه المُنصِرون وتسموا به، بل وتمثلوه وللأسف.

يقول أحد الإخوة: «في يوم من الأيام كنت أراجع طبيبًا في أحد المستشفيات، وكنت أرى حسن تعامله وإظهار حرصه بالمريض وحالته، تبادر إلى ذهني أنه أحد المُنَصِّرين، فقد كنت أقرأ وأسمع عن وسائلهم وأساليبهم، يقول: لكني قطعت هذا الخاطر أخذًا بحسن الظن خاصة وأنه عربي، وفي بلد مسلم، لكني عرفت فيما بعد

أنه يدين بالنصرانية وربما كان مُنصرًا أو مُبشرًا كما يقولون». انتهى كلامه.

أيها الإخوة والأخوات: أليس المسلمون أولى بهذا التسمي «التبشير»، وبهذه الأخلاق؟

ألم يقل الحق ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦]؟

ألم يقل ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»؟

ألسنا كمسلمين أولى بهذا التلطف والتودد للناس؟

ألسنا أولى بالتحلي بالأخلاق وبث الأمل في النفوس؟

لماذا هذا الجفاء والإعراض؟ وهذا التنفير والانقباض عند بعض المسلمين؟

لقد أثرت الماديات والحضارات في أخلاقنا وتعاملنا مع بعضنا بشكل كبير، حتى ظن البعض أنه لا يمكن الجمع بين التقدم الحضاري والكسب المادي وبين التحلي بالأخلاق والآداب، حتى قال أحدهم:

لإن كانت الدنيا أنالتك ثروةً ... وأصبحت منها بعد عسرٍ أخا يسرِ

لقد كشف الإثراء عنك خلائقا ... من اللؤم كانت تحت سترٍ من الفقرِ

فإننا لا نكاد نسمع عن ذي شرف أو تاجر أو منصب وقد تحلى ببعض الأخلاق والآداب إلا ويتذاكره الناس إطراءً ومدحًا وتعجبًا أن يكون بمثل هذا المكان ويتمتع بمثل هذه الأخلاق.

أيها الإخوة: إن من ينظر ويقرأ عن دين الإسلام خاصةً في باب الآداب والأخلاق والمعاملات ليعجب أشد العجب من عظمة هذا الدين ودقة مراعاته للمشاعر والعواطف، وحرصه على نشر المحبة والمودة.

اسمعوا لهذا الحديث عن عائشة ﵂ قالت، قال النبي ﷺ: «إذا أحدث أحدكم في صلاته فليأخذ بأنفه ثم لينصرف» صحيح عند أحمد.

لماذا يأخذ بأنفه، وما علاقة الأنف بما صنع؟

إنها عظمة هذا الدين ودقة العناية بمشاعر النفس، والحفاظ على أحاسيسها، يأخذ بأنفه ليوهم من بجواره أن به رعافًا فلا يفتضح أمره فيُحرج ويخجل.

قال الخطابي في «بذل المجهود شرح سنن أبي داود» قال: «إنما أمره أن يأخذ

بأنفه ليوهم القوم أن به رعافًا، وفي هذا الباب من الأخذ بالأدب في ستر العورة وإخفاء القبيح والتورية بما هو أحسن وليس داخلاً في باب الرياء والكذب، وإنما هو من باب التجمل واستعمال الحياء وطلب السلامة من الناس».

أرض للناس جميعًا مثل ما ترضى لنفسك إنما الناس جميعًا كلهم أبناء جنسك
غير عدل أن توخى وحشة الناس بأنسك فلهم نفس كنفسك ولهم حس كحسك

من ينظر للواقع يرى العجب في الإفلاس الأخلاقي الذي تعيشه كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم، بل هناك من انبهر بالحضارة الغربية فنقلها للمسلمين بقضها وقضيضها وإيجابها وسلبها، ونحن مع دعاة التقدم والحضارة في الاستفادة من التكنولوجيا والصناعة وكسب المهارات والخبرات.

لكننا وعلى لسان كل مسلم صادق وغيور، لا لاستيراد العادات والتقاليد الغربية والانحلال الخلقي باسم الحرية وحقوق المرأة، أما إقحام الفضيلة والستر والعفاف ومكارم الأخلاق في التقدم والتخلف المزعوم فخدعة مكشوفة لا تنطلي إلا على غافل ساذج في فكره دَخَل أو في قلبه مرض.

إن في أخلاقنا وآدابنا كمسلمين بل وعاداتنا وتقاليدنا كعرب ما يملأ قلوبنا بالفخر والاعتزاز والرفعة والسيادة، **فالله اختار لنا مقامًا عزيزًا ومكانًا شريفًا فقال** جل وعز: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣].

فأسألكم بالله هل هذا المقام يناسب ما يفعله بعض الغافلين والغافلات من تقليدٍ بأهل الكفر والشرك في عاداتهم ولباسهم وسيئ أخلاقهم؟

فأنت أيها المسلم يجب أن تكون متبوعًا لا تابعًا، وقائدًا لا منقادًا بصفاء عقيدتك وثبات مبدئك، وتعاليم دينك السمحة، وحُسن أخلاقك.

فَلِمَ لا نعتز بالشخصية الإسلامية؟

وَلِمَ لا نعلن للعالم كله أننا أهل دين وخُلق؟ وأن لنا صبغة خاصة تميزنا عمن سوانا؟ هي: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[البقرة:١٣٨]

* الدعاة الصامتون:

إننا نملك كنزًا عظيمًا هو كنز الإيمان، لكنه الإيمان حقيقة لا صورة، الإيمان الذي لامست حلاوته شغاف القلوب فظهرت تلك الحلاوة على جوارح ذلك المسلم، أقواله وأفعاله وصفاته، فيوم ذاق طعم الإيمان عرف حقيقة الاستقامة والالتزام فأثر ذلك في سلوكه وصدقه ومعاملته.

يذكر التاريخ لنا أن الإسلام وصل إلى جنوب الهند وسيلان وجزر المالديف وسواحل الصين والفلبين وإندونيسيا وأواسط أفريقيا عن طريق تجار مسلمين لكنهم مسلمون بحق، لم يؤثر فيهم بريق ولمعان الدينار والدرهم، بل تجسد الإسلام في سلوكهم وأمانتهم وصدقهم، فأعجب الناس بهذه الأخلاق، فبحثوا وسألوا عن مصدرها، فدخلوا الإسلام عن رغبة واقتناع.

إن من أكبر وسائل التأثير في النفوس هو التميز في الأخلاق المتمثل في القدوة الصالحة، بل هو أعظم وسيلة لنشر الإسلام في كل مكان.

ومن تتبع سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وجد أنه كان يلازم الخلق الحسن في سائر أحواله، وخاصة في دعوته إلى الله تعالى، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله أفواجًا، بفضل الله تعالى ثم بفضل خُلقه عليه الصلاة والسلام.

فكم دخل في الإسلام بسبب خُلقه العظيم؟

فهذا يُسلم ويقول: «والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ».

وذاك يقول: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا» تأثر بعفو النبي ﷺ، ولم يتركه على تحجير رحمة الله التي وسعت كل شيء بل قال له: «لقد تحجرت واسعًا».

والثالث يقول: «فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه».

والرابع يقول: «يا قومي أسلموا، فإن مُحمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة».

والخامس يقول: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ».

والسادس يقول بعد عفو النبي ﷺ عنه قال: «جئتكم من عند خير الناس» ثم يدعو

قومه للإسلام فأسلم منهم خلق كثير.

والأمثلة كثيرة في سيرته ﷺ.

كلُّ الأمور تزول عنك وتنقضي … إلا الثناءَ فإنه لك باقي
ولو أنني خيرتُ كلَّ فضيلة … ما اخترت غير محاسن الأخلاقِ

ذكر لي أحد الإخوة: «أن شبابًا من العرب في إحدى الدول الغربية استأجروا غرفًا من عجوز غربية، فلما انتهت مدة الإيجار رفضوا التسديد، وهربوا بحجة أنها كافرة، وأنهم - أي الكفار هم الذين نهبوا أموالنا كعرب».

سبحان الله بأي منطق وأي عقلية يتعامل هؤلاء؟ إنه الهوى والجهل بتعاليم وآداب هذا الدين، ألم يعقد العلماء أبوابًا في كتب العقيدة والفقه في معاملة المسلم لغير المسلم؟ ومعاملة المحارب للمسلمين وغير المحارب؟

كيف نريد أن نفخر بالإسلام ونحن أول من جهل أحكامه وتخلف عن آدابه؟

قال محدثي: وكنت أرغب الإيجار من هذه العجوز فرفضتْ، خاصة عندما علمت أنني مسلم، وقالت أنتم أيها المسلمون لصوص، يقول: وسألتها عن سبب هذا الاتهام؟ فحدثتني بقصتها مع هؤلاء الشباب، قال: فحرصت على تغيير هذه الصورة عنا كمسلمين، وبعد محاولات وإغراءات وتعهدات بالدفع مقدمًا وافقت على تأجيري ووافقت رغم ارتفاع السعر، وسكنت ولا زلت أقدم لها العون وأظهر لها آداب الإسلام وأجاهد نفسي على التحلي بالفضائل مع تذكيرها في بعض الأحيان بأن هذا من آداب الإسلام، وأن ديننا يحثنا على هذه الأخلاق.

يقول: فلما حان رحيلي وعند لحظة الوداع، فإذا بها تقول لي ودمعتها على خدها: «يا بني وصية لك أن لا تموت إلا على هذا الدين».

رحم الله علي بن أصمع لما حضرته الوفاة جَمَع بنيه فقال: «يا بني عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حَنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم».

أيها الأخ. إنما الدنيا حديث، فإن استطعت أن تكون منها حديثًا حسنًا فافعل، إننا بحاجة إلى من يُجسدون مبادئ الإسلام في سلوكهم، ويترجمون فضائله وآدابه في حركاتهم وسكناتهم حتى مع الكفار.

فمن أهم مظاهر علاقة المسلم بالكافر غيرِ المحارب للمسلمين كف الأذى والظلم وعدم التعدي عليه وعلى حقوقه، والتزام مكارم الأخلاق معه من الصدق والأمانة وغيرها من أخلاق الإسلام الحميدة، وجواز إيصال البر والمعروف إليه.

ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب أهدى حُلة له إلى أخ له مشرك بمكة كانت قد جاءته من النبي ﷺ.

وفي البخاري أيضًا أن ابن عمر ذُبحت له شاة في أهله فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودي؟».

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وإنما الإشارة لها لارتباطها بالأخلاق، لكن تنبه واحذر كل الحذر أن تختلط عليك الأمور، ففرِّق بين حُسن المعاملة ومكارم الأخلاق والبر والإحسان للكافر غير المحارب وبين الموالاة والمحبة والمودة له، أو تفضيله على أحد من المسلمين أو مجاملته على حساب دينك وعقيدتك كتهنئتهم أو إهدائهم بمناسبة أعيادهم أو نحو ذلك، فإن ذلك كله حرام لا يجوز، وضابط ذلك النصوص من الكتاب والسنة، وأقوال أئمة السلف - رضوان الله عليهم أجمعين - فإن ما عنيت بهذا الموضوع معاملة المسلم للمسلمين، أما معاملته للآخرين من أهل الملل والنحل فله أصوله وضوابطه.

* الأخلاق تصنع الأعاجيب:

إن النفس أيًا كانت ومهما بلغت من الانحلال والفساد والتجبر والعناد فإن فيها خيرًا كثيرًا قد لا تراه العيون أول الأمر، فقط شيء من العطف على أخطائهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية به.

لنحاول - أيها الإخوة - تلمس الجانب الطيب في نفوسهم، ابدأهم بالسلام، ابتسم لهم، أثنِ على الخير الذي فيهم، وقبل ذلك كن صادقًا ومخلصًا غير متصنع ولا مُجامل، عندها ستتفجر ينابيع الخير في نفوسهم، وسيمنحونك حبهم وثقتهم مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك، لقد جُرِّب ذلك كثيرًا.

أذكر أنني قابلت أحد هؤلاء فسلمت وابتسمت وأثنيت على صفة طيبة فيه، وأنا صادق، فلن يعدم إنسان مزية حسنة تكون مفتاحًا لقلبه، فانكشف لي قلب لين رقيق سرعان ما سالت دمعات على وجه تلطخ بسواد المعصية والشهوة، وكان قد شكا جفاء بعض الناصحين وتعجلهم عليه.

أيها الإخوة: كم نخطئ عندما نحكم على الآخرين بمجرد النظر للظاهر، فهذا عمرو بن العاص يحدث عن نفسه فيقول: «لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله مني، ولا أحب إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته».

وبعد أن أسلم وعرفه عن قرب انقلب الحال فقال: «وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه» [كما في صحيح مسلم].

إننا نظلم أنفسنا ونظلم الآخرين عندما نحقد على هؤلاء ونتخوف منهم، والحل هو أن تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف على الآخرين، والصبر عليهم.

وباختصار: إنها الأخلاق وفن التعامل مع الناس.

يا أهل القرآن، ألم نقرأ في القرآن قول الحق ﷻ ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]

ألم نقرأ قول الحق: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣]

في الآية الأولى قولٌ حسن، وفي الثانية أحسن.

فأين نحن من قول الحسن فضلاً على قول أحسن الحسن، ورسول الله ﷺ يقول:

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» كما في صحيح مسلم.

فإذا كانت الرحمة والإحسان تصل إلى هذه الدرجة من الرفق وحسن التعامل حتى مع الحيوان، فكيف بالرحمة والإحسان مع بني الإنسان؟

قال أحد الإخوة: «في موسم للأمطار وأنا على سيارتي مررت بغدير ماء لم أنتبه له، فتراشقت المياه على الجانبين، كان النصيب الأكبر منها لشباب جلسوا على عتبة أحد الأبواب، ويا ليت شعري لو رأيت حالهم قد تبدلت، فالثياب البيضاء كأنها سوداء، والشعرات السوداء خضبت بالطين والماء، فرجعت إليهم فلم أنتبه إلا على أصوات السب واللعان ومناداتي للرفس والطعان، يقول فرجعت إليهم مُسلِّمًا معتذرًا متأسفًا، فيا سبحان مقلب القلوب، تحول السب واللعان إلى ترحيب وسلام، ودعوة إلى الطعام بل إلى إخاء ووئام» انتهى كلامه.

فيا أيها الأحبة، أقول باختصار: إنها الأخلاق تصنع الأعاجيب، نخطئ كثيرًا عندما نعتزل بعض الناس لأننا نشعر أننا أطهر منهم روحًا، أو أطيب منهم قلبًا، أو أذكى منهم عقلاً.

قال رجل لعبد الله بن المبارك: عظني، قال ابن المبارك: «إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك».

وليس معنى هذا أن نتخلى عن مبادئنا ومُثلنا السامية، أو نتملق أو نجامل، لا ولكنها الحكمة والموعظة الحسنة وفن التعامل مع الآخرين، هذا مقتبسٌ من رسالة بعنوان «أفراح الروح».

أيها المُحب، انظر لفن التعامل ومحاسن الأخلاق ماذا تفعل، هذا عكرمة بن أبي جهل ورث عداوة الإسلام عن أبيه وقاتل المسلمين في كل موطن، وتصدى لهم يوم فتح مكة ثم فر إلى اليمن، بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، فتأتي زوجه أم حكيم بعد إسلامها لرسول الله تطلب الأمان لزوجها فيقول لها -بأبي هو وأمي ﷺ «هو آمن»، ويقول لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه؛ فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت».

فيأتي عكرمة بين يدي المصطفى ﷺ فيقول عكرمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، وأنت أبر الناس وأصدق الناس، وأوفى الناس، أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.

لمسة حانية من نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم نقلت ابن فرعون هذه الأمة إلى صف أولياء الرحمن، وجعلته يندم هذا الندم ويعزم هذا العزم، ويتحول هذا التحول، إنها الأخلاق تصنع الأعاجيب.

* همسة في أذن موظف:

أيها الموظف، أيًا كان موقعك، وفي أي مكان كنت، إنك لم تجلس على هذا الكرسي الذي أنت عليه إلا من أجل خدمة الناس، وقضاء حوائجهم وأداء الأمانة التي تحملتها، أفلا ترى أنك بحسن الاستقبال والابتسامة وإظهار الاهتمام بالمراجع وحاجته تملك قلوب الآخرين حتى وإن لم تقضى حاجتهم، وربما خرجوا من عندك بنفس راضية ولسان يلهج بالثناء والدعاء، بل ربما أثنوا عليك ورفعوا ذكرك بكل مجلس، كل هذا وأنت لم تقضى حاجتهم، بل ملكتهم بحسن الأخلاق، فكيف لو استطعت قضاء حاجتهم وتيسير أمرهم.

أيها الحبيب، انظر إلى هذه النتيجة التي وصلت إليها كسبت القلوب، والذكر الحسن، وقبل ذلك كله كسبت رضاء الله تعالى ﷻ، ألم يقل ﷺ: «ابتسامتك في وجه أخيك صدقة»؟

ألم يقل ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»؟

ألم يقل ﷺ: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»؟

ألم يقل ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»؟

ألم يقل ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس»؟

إذًا فأنت أيها الموظف في عبادة وأنت على مكتبك، فقط استعن بالله وأخلص النية لله، واتَّصف بمكارم الأخلاق، واحرص على نفع الناس وستجد التوفيق في الدنيا والآخرة؛ ذكر حسن وجميل وحب وتقدير هذا في الدنيا، وأجر كبير من العليم الخبير في الآخرة، كل هذا من خلال عملك ووظيفتك، أجر وغنيمة والموفق من وفقه الله.

وربما قلت: الناس لا يرضيهم إلا تلبية رغباتهم، وتنفيذ ما يريدون، بل ربما قلت: إن ميزان الناس اليوم في الحكم على الآخرين هو مصالحهم الشخصية.

فأقول لك: نعم هذه هو واقع الحال، ونحن لا نُبرّئ أنفسنا، ولك أخي الحبيب - هب أنك بذلت لهم ما استطعت وتخلقت معهم بأحسن الأخلاق ولم يرضوا عنك، أليس حسبك أن يرضى الله عنك، فإنه يعلم أنك قدمت وبذلت ما بوسعك، إذًا فأجرك على الله.

وإن لم يرضَ الناس فتذكر دائمًا أن من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، فاحرص على فضائل الأخلاق وفن التعامل مع الناس، فإن الرسول ﷺ يقول: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا» [كما في البخاري ومسلم].

يا من رزقه الله مكانة ووجاهة، اعلم أن زكاتها الشفاعة والإعانة للمحتاجين على أن لا يبخس بها حق الآخرين، فإن الشفاعات من أعظم العبادات إذا قُصد بها وجه الله.

كتب الحسن بن سهل كتاب شفاعة فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا عَلام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءتنا، ثم أنشد يقول:

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفع

فإذا ملكت فجُد فإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كله أن تنفع

* همسة إلى المعلمين والمعلمات:

أيها المعلمون والمعلمات: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين، حتى النملة في جحرها، ليصلون على معلم الناس الخير» [كما في الترمذي].

«ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا» [كما في صحيح مسلم].

وإني لأظنك أيها المعلم وأنتِ أيتها المعلمة من معلمي الناس الخير، وممن يدعو إلى الهدى، فأنتم تجلسون الساعات بل الأيام والشهور والسنوات مع أولاد وبنات المسلمين، ولله در ابن المبارك وهو يقول: «نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منا إلى كثير من العلم».

وأفضل وأيسر وأحسن طريق عرفته في التعليم هو التواضع وفن التعامل ومكارم الأخلاق مع الطلاب والطالبات، ولا يستطيعه إلا من رزقه الله الإخلاص

بعلمه وتعليمه، نسأل الله الكريم من فضله.

احترام الطلاب والطالبات، وإشعارهم بالحب والاهتمام بمشاكلهم وهمومهم، والتجاوز عن أخطائهم، والابتسامة والصبر والرفق بالتوجيه مع قوة المادة العلمية، كلها من علامات الشخصية الناجحة للمعلم والمعلمة، أما الشدة وكتم الأنفاس وشد الأعصاب ورفض المناقشة والتمسك بالرأي وعدم التنازل عنه بحجة قوة الشخصية أمام الطلاب والطالبات فهي أوهام لا تزيد الطين إلا بلة، فإن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، [كما في صحيح مسلم].

أيها المعلمون والمعلمات، رسول الله ﷺ يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» [كما في صحيح مسلم].

والقلوب التي تجلس أمامكم كل نهار مهما بلغت من الغفلة والقسوة فهي أحوج ما تكون إلى الرفق والعطف، فإن الرفق وحسن الأخلاق واللمسات الحانية والكلمات العذبة مفاتيح عجيبة في التأثير والتوجيه، فكم عَبرة أجهشتها ودمعة أسالتها، ولكنه -وأقوله مرة وثالثة وعاشرة- الإخلاص لله، فمن يؤته فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة واللبيب بالإشارة يفهم.

هل يمكننا تغيير أخلاقنا؟

ربما يقول البعض: لقد شببت على الشيء فلا أستطيع أن أغير أخلاقي، وهناك من يرى أن الأخلاق ثابتة في الإنسان لا تتغير فهي غرائز فُطِرَ عليها، وطبائع جُبِلَ عليها، وهناك من يرى أنها تتغير فليس ذلك صعبًا ولا مستحيلاً.

والحق أن الأخلاق على نوعين: فمنها ما هو غريزي فطري، ومنها ما يكتسب بالممارسة والمجاهدة، ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا والمواعظ، ولما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] ولما قال ﷺ «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه».

ومن نظر إلى الحيوان وحاله قبل التدريب وبعده أدرك أن الأخلاق عند الإنسان سهلة التغيير لمن رُزق الهمة والعزيمة، وحمل نفسه على مكارم الأخلاق

وفضائلها.

يقول ابن حزم ﵀ متحدثًا عن تجربته مع نفسه وعن محاولاته في التخلص من عيوبه، وعن النتائج التي حصل عليها من جرَّاء ذلك يقول: «كانت فيَّ عيوب فلم أزل بالرياضة والاطلاع على ما قالت الأنبياء - صلوات الله عليهم - والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآداب النفس أعاني مداواتها حتى أعانني الله ﷿ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنِّه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بالأمور هو الإقرار بها - أي الإقرار بالعيوب - ليتعظ بذلك متعظ يومًا إن شاء الله»، ثم أخذ ﵀ يعدد بعض العيوب في نفسه، ولولا خشية الإطالة لذكرتها لعظيم الفائدة، من أرادها فلينظر في كتابه: «الأخلاق والسير في مداواة النفوس».

ثم قال: «ومنها - أي: العيوب - حقد مفرط قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزني أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبدًا». انتهى كلامه ﵀.

ويقول أحد الإخوة: «وقع في قلبي شيء عظيم على أحد إخواني لخير أعطاه الله إياه، فما زال الشيطان بي ونفسي الضعيفة وكنت أهتم وأغتم وأكثر التفكير والخواطر خاصة وأنني كنت متهيئًا لهذا الخير الذي آتاه الله أكثر منه».

❊ ❊ ❊

السحر

* السحر وأنواعه:

وقف الإسلام من السحر موقفًا حاسمًا، فسدَّ كل طريق يؤدي إليه، وحرَّم تعلمه وتعليمه وممارسته؛ منعًا لضرره، وحسمًا لمادة الخرافة أن تتسلل إلى عقول المسلمين فتعطلها عن التفكير الصحيح، والتخطيط القائم على قانون الأسباب والمسببات الذي قام عليه نظام الكون.

فالسحر كما أخبر الله عنه طريق للفساد وسبب للضرر بين العباد، وهو فوق ذلك كله سبب للكفر بالله سبحانه والخروج عن دينه وشرعه.

والسحر في اللغة: صرف الشيء عن وجهه، وفي اصطلاح الشرع: عرَّفه ابن قدامة بأنه: «عزائم ورقى وعُقَد يؤثر في القلوب والأبدان، فيُمرض ويقتل، ويُفرِّق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه». وعرَّفه أبو بكر الرازي بأنه: «كل أمر خفي سببه، وتُخيِّلَ على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخُدَع».

واختلاف التعريفين مردُّه أن كلاً منهما قائم على مذهب يختلف عن الآخر، فتعريف ابن قدامة قائم على أن للسحر حقيقة، أما تعريف الرازي فهو قائم على مذهب من لا يرى للسحر حقيقة وأنه مجرد خدع وتمويهات وتخييل.

والقول الأول هو قول أهل السنة والجماعة، قال الإمام النووي: «والصحيح أن السحر له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء...» وقال الإمام القرطبي رحمه الله: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة». وقال الإمام ابن القيم: «وقد دل قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق:٤] وحديث عائشة رضي الله عنها على تأثير السحر وأن له حقيقة».

ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾«البقرة:١٠٢»، ووجه الدلالة من الآية: أن الله أخبر فيها أن للسحر آثارًا محسوسة كالتفريق بين المرء وزوجه، وأن له ضررًا مباشرًا يحصل بإذن الله، وهي آثار محسوسة لا يمكن إنكارها، مما يدل على أن للسحر حقيقة، وليس مجرد خُدَع وتخيلات!! والواقع المشاهد يقرر هذا ويؤيده.

أما القائلون بأن السحر لا حقيقة له وهو قول عامة المعتزلة وآخرين فيتلخص رأيهم في أن السحر مجرد تمويه وتخييل فلا تأثير له لا في مرض، ولا حَلٍّ، ولا عَقْدٍ، وبناءً عليه فإنهم يجعلون السحر نوعًا واحدًا وهو سحر التخييل.

يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: «إن السحر في الحقيقة لا يوجب المضرة؛ لأنه ضرب من التمويه والحيلة»، ويقول أبو منصور الماتريدي: «والأصل أن الكهانة محمول أكثرها على الكذب والمخادعة، والسحر على التشبيه والتخييل»، ويقول ابن حزم: «وقد نص الله ﷻ على ما قلنا فقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ لطه:٦٦ فأخبر الله تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخييلاً لا حقيقة...» والاستدلال بهذه الآية مدفوع؛ إذ ليس فيها أن السحر لا يكون إلا من قبيل التخييل، بل غاية ما تدل عليه الآية أن سحر السحرة في زمن فرعون والذي وقع في ذلك الموطن كان من ذلك القبيل، لا أن كل أنواع السحر كذلك.

* أنواع السحر وأقسامه:

تتعدد أنواع السحر بتعدد الاستعانات التي يستعين بها الساحر في تحقيق غرضه، فمن السحرة من يزعم الاستعانة بالكواكب، ومنهم من يستعين بالجن، ومنهم من يستعين بالنفخ في العقد، ومنهم مَن قصارى أمره خفة اليد وسرعة الحركة، وإليك تفصيل هذه الأنواع:

النوع الأول: السحر الذي يستعان فيه بالكواكب؛ كسحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم، وهؤلاء كانوا قومًا صابئين يعبدون الكواكب السبعة، ويعتقدون أنها المدبرة للعالم، وأن حوادث العالم كلها من أفعالها، وقد قادهم هذا الاعتقاد الباطل إلى اعتقاد أن لها إدراكات روحانية فإذا قوبلت ببخور خاص ولباس خاص على

الذي يباشر البخور مع إقدامه على أفعال خاصة، وألفاظ يخاطب بها الكواكب كانت روحانية الفلك مطيعة له، فمتى ما أراد شيئًا فعلته له على حد زعمهم. وقد بعث الله إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم.

وتأتي الاستعانة بالكواكب على أنواع منها:

١ - نوع يسمى بالطلاسم: وهو عبارة عن نقش أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب - على زعم أهلها - في جسم من المعادن أو غيرها تحدث به خاصية معينة.

٢ - نوع يعتمد النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها، معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرًا حال انفراده، كما أن له تأثيرًا حال اجتماعه بغيره على الحوادث الأرضية من غلاء الأسعار ورخصها، ووقوع الحوادث، وهبوب الرياح ونحو ذلك.

٣ - نوع يعتمد النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين، معتقدين التأثير في اقتران القمر بكل منزل منها ومفارقته، وأن في تلك المقارنة أو المفارقة سعودًا أو نحوسًا أو تأليفًا أو تفريقًا وغير ذلك.

٤ - نوع يفعله من يستخدم الأرقام لحروف أبجد هوز، المسمى بعلم الحرف، وهو أن يكتب حروف أبجد هوز... إلخ. ويجعل لكل حرف منها قدرًا معلومًا من العدد، ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها، ويجمع جمعًا معروفًا عنده ويطرح طرحًا خاصًا ويثبت إثباتًا خاصًا، وينسبه إلى الأبراج الاثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان.

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله عن سحر الكلدانيين: «ومعلوم أن هذا النوع من السحر كفر بلا خلاف؛ لأنهم كانوا يتقربون فيه للكواكب كما يتقرب المسلمون إلى الله، ويرجون الخير من قبل الكواكب، ويخافون الشر من قبلها كما يرجو المسلمون ربهم ويخافونه، فهم كفرة يتقربون إلى الكواكب في سحرهم بالكفر البواح».

النوع الثاني: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم شياطين الجن، فإن اتصال بني

آدم بهم ممكن، وهذا الاتصال يحصل بشيء من الرقى والدخن والتجريد، وعندما يتحقق الاتصال تحصل الاستعانة ثم الإعانة، لكن ذلك لا يكون دون الشرك بالله تعالى.

النوع الثالث: الشعبذة، ومبناها على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بشيء معين دون سواه. فصاحب الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئًا آخر بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدًّا، ولو أنه لم يفعل ما يصرف به أنظار الناس، لتفطنوا لكل ما يفعله، ولا يبعد أن يكون سحر سحرة فرعون من هذا النوع، فهو تخييل وأخذ بالعيون كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦].

النوع الرابع: العقد والنفث فيه- النفخ مع ريق خفيف - قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤] والنفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن في كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، وذلك إذا كان المسحور غير حاضر، أما إذا كان حاضرًا فينفثن عليه مباشرة، وهذا كله بعد أن تتكيف نفس الساحر بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري. ومن هذا النوع سحر لبيد بن الأعصم اليهودي للرسول ﷺ.

* آثار السحر ومفاسده:

للسحر آثار مدمرة في الفرد والمجتمع، وقد أجمل القرآن مفاسد السحر فذكر في مقدمتها الكفر بالله سبحانه، والتفريق بين المرء وزوجه، وإدخال الضرر على العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢] يقول القرطبي في تفسير الآية: «ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب، بالحب والبُغْض، وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام، وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة» ا.هـ.

وإليك أخي القارئ - بعضًا مما ذكره أهل الاختصاص من آثار السحر ومفاسده:

١ - سحر التفريق: بتفريق المرأة عن زوجها، وتفريق الزوج عن زوجته عن طريق الاستعانة بالشياطين والجن؛ بحيث يجعل الرجل القوي لا يقدر على مباشرة زوجته، ويجعل المرأة تتمنع على زوجها وتأبى قربه، قال الحافظ ابن كثير: «وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء المنظر أو الخَلْق أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة». وهذا السحر من أخطر الأنواع لما ينتج عنه من فساد الأسر، وفشل الحياة الزوجية.

٢ - سحر الجنون: وأعراضه الشرود والذهول والنسيان والهبل والخبل، ويجمع ذلك كله عدم القدرة على التحكم في نفسه وتصرفاته، وسبب هذا اقتران الشيطان بالمصاب وتأثيره في مخه، ولا يخفى أن ليس كل جنون هو بسبب اقتران الشيطان بالإنسان وسيطرته على مخه، وإنما هناك أنواع أخرى أسبابها عضوية، ويرجع في تشخيص كل حالة إلى ذوي الاختصاص.

٣ - سحر المرض: وهذا النوع من السحر يأخذ شكل مرض من الأمراض، إلا أن سحر المرض يختلف عن الأمراض العضوية في أنه ربما انتقل من موضع في الجسم إلى آخر دونما سبب محسوس، يقول جمال عبد الباري: «ومن الحالات التي رأيتها حالة مهندس كيميائي، عند إجراء الفحوصات الطبية عليه يتضح أنه مصاب بالضغط والسكر وحصى في الكلى، وفي اليوم التالي يجري فحوصات طبية فيجد نفسه سليمًا تمامًا والتقارير التي معه تقول هذا». وهذا النوع - أعني سحر المرض أصيبت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فعنها أنها أعتقت جارية لها عن دبر منها؛ أي تكون حرة بعد موت سيدتها، ثم إن عائشة رضي الله عنها مرضت بعد ذلك ما شاء الله، فدخل عليها سندي نسبة إلى السند - فقال: إنك مطبوبة - مسحورة -، فقالت: مَن طبني؟ فقال: امرأة من صفتها كذا وكذا، وقال: في حجرها صبي قد بال، فقالت عائشة: ادعوا لي فلانة، لجارية لها تخدمها، فوجدوها في بيت جيران لها في حجرها صبي قد بال، فقالت: حتى أغسل بول هذا الصبي فغسلته، ثم جاءت، فقالت لها عائشة: أسحرتيني؟ فقالت: نعم، فقالت: لِمَ؟ قالت: أحببت العتق» [رواه مالك في الموطأ].

٤ - سحر المحبة: يقوم الساحر بطلب من المتقدم إليه ليعمل له سحرًا يحبب زوجته أو غيرها فيه، أو ليعمل للزوجة سحرًا يحبب زوجها أو غيره فيها، وذلك بأخذ أثر من آثار المسحور، فتظهر أعراض هذا السحر المرضية، وقد ينقلب السحر على الساحر فيكره الزوج زوجته كما يكره كل النساء معها، لأن السحر قد يكون مزدوجًا بحيث يعمل ليحب زوجته ويكره من سواها فيكره أمه وأخته وعمته وخالته، وقد ينقلب فيكره أيضًا زوجته.

* ومن أعراض هذا السحر:

الشغف والمحبة الزائدتان، الرغبة الشديدة في كثرة الجماع، عدم الصبر عنها، التلهف الشديد لرؤيتها، طاعته لها طاعة عمياء.

ومن ظهرت عليه هذه الأعراض فليس بالضرورة أن يكون مصابًا بسحر الحب، فقد تظهر على غيره ممن بلغ به العشق والهيام مبلغًا عظيمًا، وعليه فينبغي فحص الحالة عند مختص.

٥ - سحر التهيّج: وهذا السحر من أفحش ما يكون إذ يجمع بين السحر وطلب الفاحشة، حيث يسعى الساحر إلى تهييج قلب طرف ذكرًا كان أو أنثى لمجامعة الطرف الآخر، يذكر ابن قيم الجوزية في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في الباب الثامن والعشرين «فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام» قصة لهذا النوع من السحر، فقال: «توفي شاب - كان صالحًا بارًا بأبيه - وسبب وفاته أن امرأة أحبته فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأله الزيارة وكان لها زوج، فألحت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فوعدتها العطاء الجزيل في تهيجه، فعملت لها في ذلك، فبينما هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط - فسد عقله - فقام مُسرعًا فصلى واستعاذ والأمر يشتدُّ، فقال: يا أبت أدركني بقيد، فقال: يا بني ما قصتك؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور، ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره». ا.هـ بتصرف يسير.

٦ - سحر الخمول: ومن أعراضه الانطواء والعزلة والصداع الدائم فيحب المسحور الوحدة والصمت الدائم والشرود الذهني والسكون المفرط.

٧ - سحر الهواتف: بحيث يرسل الساحر جنيًا ويكلفه بأن يشغل هذا الإنسان في منامه ويقظته فيتمثل له الجني في المنام بالحيوانات المفترسة التي تنقضُّ عليه، ويناديه في اليقظة بأصوات أناس يعرفهم أو لا يعرفهم، وتكثر عليه الأحلام المفزعة، والوساوس، والشكوك وغير ذلك.

* علاج السحر وإبطاله:

لعلاج السحر وإبطاله طرق متعددة ذكرها ابن القيم في «الطب النبوي»:

أحدها: - وهو أبلغها - استخراجه وإبطاله كما صحَّ أن النبي ﷺ عندما دلَّه ربه سبحانه على موضع سحره استخرجه، فلما استخرجه ذهب ما به حتى كأنما نشط من عقال. فهذا من أبلغ ما يعالج به المسحور، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ.

الثانية: إبطاله بالرقية الشرعية بقراءة آيات من القرآن، روى البيهقي في «الدلائل» عن عائشة ﵂، في قصة سحر لبيد للنبي ﷺ وفيه: «فأتاه جبريل بالمعوذتين فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وحلَّ عقدة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة حتى فرغ منها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وحلَّ عقدة حتى فرغ منها وحل العقد كلها».

ومما ذكره أهل العلم من آيات الرقية الشرعية لحل السحر قراءة آية الكرسي، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وآيات السحر التي في سورة الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢].

والآيات التي في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ

ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس:٧٩-٨٢] والآيات التي في سورة طه، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٥-٦٩].

الثالثة: العلاج باستعمال أدوية مباحة نص عليها رسول الهدى ﷺ؛ منها: التصبح كل يوم بسبع تمرات من عجوة المدينة، فعن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر» رواه البخاري. والعجوة: ضرب من أجود تمر المدينة وألينه. والاصطباح: تناول الشيء صباحًا.

الرابعة: العلاج بالحجامة في المحل الذي يصل إليه أذى السحر. قال ابن القيم: «الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر؛ فإن للسحر تأثيرًا في الطبيعة وهيجان أخلاطها وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدًا».

الخامس: استعمال ورق السدر مع الرقية، يقول القرطبي في تفسيره: «روي عن ابن بطال قال: وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو - يشرب - منه ثلاث حسوات - جرعات - ويغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به - إن شاء الله تعالى - وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله».

وقال الشيخ ابن باز: «ومن علاج السحر - بعد وقوعه - أيضًا وهو علاج نافع للرجل إذا حبس عن جماع أهله، أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقها بحجر ونحوه، ويجعلها في إناء ويصب عليها من الماء ما يكفيه للغسل، ويقرأ فيها آيات الرقية الآنفة الذكر، وبعد القراءة على الماء يشرب منه، ويغتسل بالباقي، وبذلك يزول الداء إن شاء الله». ا.هـ بتصرف من رسالة في حكم السحر والكهانة للشيخ ابن باز رحمه الله.

كان ذلك تعريفًا بالسحر وأنواعه وأضراره ومفاسده، وهي مفاسد جمة،

وأضرار عظيمة، تستدعي من الفرد والمجتمع الوقوف ضدها، والتعاطي بفاعلية مع هذه الظاهرة بمعالجة أسبابها، وبيان أضرارها؛ حيث لم يعد السحر ظاهرة فردية متخفية، وإنما غدا - في كثير من البلاد - ظاهرة تستقطب الكبار من رجال السياسة والأثرياء والجهلة والدهماء، وأصبح الساحر - وهو الكذاب الدجال - شخصية لها وزنها، وكل ذلك يُعد انقلابًا في القيم، وتغييرًا في الحقائق، وانحرافًا في السلوك، ينبغي الوقوف أمامه والتصدي له بالعلم والمعرفة، والبحث في حيل السحرة وكشفها للعامة، وبيان جهلهم ودجلهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فذلك حري بتنفير الناس عنهم، وانفضاض الجمع من حولهم.

* * *

* السحر:

كشفت دراسة حديثة صدرت عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القاهرة أن ٥٥ في المائة من النساء المترددات على الدجالين متعلمات، مقابل ٢٤ في المائة ممن يجدن القراءة والكتابة، والنسبة الباقية من الأميات.

وقد كشفت الدراسة والتي قام بها الباحثان «نجيب إسكندر ورشدي منصور» أن العرب ينفقون ما لا يقل عن عشرة مليارات دولار (٦٠ مليار جنيه) على أعمال السحر فقط ويشارك فيها الفقراء والأثرياء ورجال الأعمال، وأشارت الدراسات إلى أن الأمر لم يعد مقصورًا فقط على البسطاء والجهلاء وفقًا لما ورد بموقع «الباب الأخضر».

وتشير الدراسة أيضًا إلى أن هناك دجالاً لكل ألف مواطن عربي خاصة أن هناك عشرات الآلاف من الدجالين والمشعوذين يروجون لقدرتهم على علاج الأمراض وتحضير الأرواح، كما حددت الدراسة أعداد الدجالين على مستوى العالم العربي من المحيط إلى الخليج بالتحديد نصف مليون دجال ومشعوذ، وأشارت الدراسة إلى أن الناس لا يلجئون للخرافة والشعوذة إلا حينما يصابون وتضيق في وجوههم أبواب الأمل ويفقدون الثقة في الحاضر والماضي، ويحاولون

البحث في آفاق المستقبل بطرق خفية وغيبية.

وفى المغرب والتي تعد مع سلطنة عمان معقلاً للمشعوذين والدجالين، هناك ما يقرب من عشرين ألف قارئة كف وفنجان، وفي الكويت أظهرت دراسة اجتماعية أن نسبة ١٥% من فتيات المرحلة الجامعية يؤمن بالأبراج ويحرصن على متابعتها سواء عبر المجلات أو القنوات الفضائية والإذاعات أو الإنترنت.

أما على المستوى المصري فقد أشارت الدراسة أن المصريين يؤمنون بـ٢٧٤ خرافة تجلب السعادة، وتزيد الرزق، وتمنع عنهم مكائد الشيطان من الإنس والجن ومتوارثة منذ آلاف السنين، وأن ٦٠% من النساء العقيمات يترددن على الدجالين والمشعوذين، وأن ٩٣% من نساء الريف يؤمن بالمشاهرة، و٦٢% من الفتيات يؤمن بعدم التحديق في المرآة ليلاً، و٥٠% لازلن يؤمن في صحة فرضية معتقد قرص ركبة العروسة ليلة دخلتها، ليلحقن بها لعالم الزوجية، وأن ٩٠% من المصريين يؤمنون فيما يسمى بالربط الجنسي، و٨٠% يرتدون الأحجبة أسفل ملابسهم ويضعونها تحت الوسادات.

***

الحقد وصفاء النفوس

الحمد لله أهل المغفرة والتقوى، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، نعمه لا تُحصى، وآلاؤه ليس لها منتهى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أخشى الناس لربه وأتقى، دل على سبيل الهدى، وحذَّر من طريق الردى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، معالمِ الهدى ومصابيح الدُجى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد:

قسَّم الله تعالى أعمال العباد إلى أعمال قلوب وأعمال أبدان، ورتب على هذه وهذه أجورًا أو أوزارًا، ولو تأملت في كثير من النصوص لوجدت أعمال القلوب أعظم من أعمال الأبدان، قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجلان تحابا في الله.. ورجل قلبه معلق بالمساجد.. ورجل دعته امرأة ذات منصب.. ورجل ذكر الله خاليًا..».

وكذلك خطايا القلوب قد تهلك العبد وتخفضه أسفل سافلين: قصة قزمان: قاتلت عن أحساب قومي. وأول من تُسعّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، نعم تُسعّر لأنهم لم يعتنوا بقلوبهم.

وخطايا القلوب متنوعة: منها ما هو لازم للشخص لا يتعدى ضرره إلى الناس، ولا يفضي به لمعاصٍ أخر؛ كالإعجاب بالعمل مثلاً، أو محبة ثناء الناس، أو الرياء، ومنه ما يجر إلى معاصٍ أُخر؛ كالحقد، والضغينة، والحسد.

ولن أتكلم اليوم عن جميع خطايا القلوب؛ وإنما سأتكلم عن خطيئة هي أول خطيئة وقعت في السماء، وسبب أول خطيئة وقعت على الأرض، وهي الخطيئة التي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وهي الخطيئة التي منعت أبا جهل من

الإيمان، ومنعت عبد الله بن أبي بن سلول، وهي الخطيئة التي حالت بين اليهود وبين الإسلام، وهيجت المنافقين على المسلمين، وهي الخطيئة التي جعلت ابن آدم يقتل أخاه، وجعلت أبناء يعقوب يلقون يوسف في الجُب.

كم هذه الخطيئة التي فرقت بين الأبناء وآبائهم، والإخوان وإخوانهم، وزرعت الشقاق بين الزملاء والموظفين؛ إنها الحسد أبرز صفات اليهود: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩].

قال ابن عباس: «كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قومًا قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٨٩]».

كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نُطأطئ رءوسنا، فوصف الله تعالى حالهم فقال: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف:٣١، ٣٢].

وأبرز صفات المنافقين ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران:١٢٠].

نعم، الحسد لم يسلم منه حتى أبناء الأنبياء وهم إخوة يوسف: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف:٨، ٩] ويلقى يوسف في الجب، ويفرق بينه وبين أبيه أربعين عامًا بسبب الحسد.

والحسد سبب أول خطيئة وقعت في السماء، وبسبب الحسد سفك أول دم حرام على الأرض، قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٢٧-٣١].

فالحاسد لا يرضيه إلا أن تزول نعمك، فإذا زادت نعمتك عظمت حسرته، وإن كبر جاهك جلت مصيبته، وإن أحبك الناس ظهرت غيبته، فهو عدو في ثياب الصديق، أشد من العدو الواضح.

جامل عدوك ما استطعت فإنه ... بالرفق يطمع في صلاح الفاسد
واحذر حسودك ما استطعت فإنه ... إن نمت عنه فليس عنك براقد
إن الحسود وإن أراك تودداً ... منه أضر من العدو الحاقد
ولربما رضي العدو إذا رأى ... منك الجميل فصار غير معاند
ورضا الحسود زوال نعمتك التي ... أوتيتها من طارف أو تالد
فاصبر على غيظ الحسود فناره ... ترمي حشاه بالعذاب الخالد
أو ما رأيت النار تأكل نفسها ... حتى تعود إلى الرماد الهامد
تضفو على المحسود نعمة ربه ... ويذوب من كمد فؤاد الحاسد

قال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: «لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين، والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم» [أخرجه الترمذي].

وقال ﷺ: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. فقال ﷺ: «أو غير ذلك، تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض» [رواه مسلم].

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن الحسد هو داء الأمم، فقال: «إنه سيصيب أمتي داء الأمم». قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد، حتى يكون البغي ثم الهرج» [أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد جيد].

وأخبر ﷺ بانتفاء الإيمان عن الحاسد، فقال: «لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد» [رواه النسائي].

وأخبر ﷺ أن الحسد باق إلى قيام الساعة، فقال ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكمًا عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتُتركن القلاص فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» [رواه مسلم].

أيها الأحبة الكرام: المرء إذا رأى نعمة عند آخر فلا يخلو من أمور؛ إما أن يتمنى مثلها مع بقائها عند الأول أو يتمنى زوالها من صاحبه وانتقالها إليه، أو يتمنى - والعياذ بالله - زوالها من صاحبه حتى ولو لم تنتقل إليه، مثل ما ذكروا أن قومًا حسدوا الأحنف بن قيس.

لله در الحسد ما أعدله   بدأ بصاحبه فقتله

وليست القضية في وقوع الحسد في القلب، إنما القضية في إظهاره والانجراف معه، فما خلا جسد من حسد، ولكن الكريم يخفيه واللئيم يُبديه.

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أيحسد المؤمن؟

قال: لا أم لك! أنسيت إخوة يوسف؟

نعم يحسد، ولكن غمَّه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدًا ولا لسانًا، فالمؤمنون يسلمون من غائلة الحسد، ويعلمون أن أفضال الله يقسمها الله كما يشاء.

كان الأنصار هم سكان المدينة، ولكن عندما جاء إليهم المهاجرون بادلوهم الحب فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وكيف لا يعيش الأنصار بهذه المشاعر، وهم يعلمون بفضل صفاء النفوس.

«يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة»، وإذا بالرجل ذاته.

الحديث: إسناده صحيح على شرط الشيخين، مسند أحمد (٣/ ١٦٦)، وأخرجه أيضًا عبدالرزاق في مصنفه: كتاب الجامع، باب الرخص والشدائد، حديث

(٢٠٥٥٩)، قال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي البزار، إلا أن سياق الحديث لابن لهيعة (٨/ ٧٩)، وصحح إسناده الضياء في المختارة (٧/ ١٨٧)، وابن كثير في التفسير (٤/ ٣٣٨) سورة الحشر الآية (٩).

من سلم قلبه للمؤمنين، طاب حديثه والحديث معه، وأنس به الجليس، تحبه النفوس، وتشتاق إليه الأرواح والقلوب، طيّب المعشر، لينٌ متواضع، برٌّ رحيم، عطوف كريم، إن تحدث لم يؤذ، وإن نزل بقوم نزل السرور بساحتهم، وإن ارتحل ارتحل من غير أذىً أو أذية، كالنحلة تلقُط خيرًا وتلقي شهدًا.

كيف لا يحظى بهذه المنزلة، ويفوز بتلك البشارة، كيف لا ينعم في الأولى بالراحة والسرور، وفي الأخرى بالجنة والخلود مع المقربين الشهود، والنداء الرباني لم يزل يتردد في كل حين: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

أخرج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب، صدوق اللسان»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد».

كم من مريض قلب، يتقطع حسرة وألمًا، لأن زيدًا ربح في تجارته، وعمرًا نجح في دراسته، وآخر بورك له في زواجه!

كم من الناس يعيش همًّا وغمًّا وعناءً وحُرقة، يتقلب على فراشه والغيظ يعتصره يأكل معه الحسد ويشرب، وينام معه الكره والبغض ويستيقظ، لأن فقيرًا اغتنى، ومريضًا شفي، أو عقيمًا رزق.

سبحان الله!!

أيا حاسدًا لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب

نعم، ربما عجز الشيطان من أن يجعل المسلم يعبد صنمًا، أو يؤلّه حجرًا أو

شجرًا، أو يعظم قبرًا أو ضريحًا، لكنه يملأ قلبه حسدًا وحقدًا، خاصة بين الأمثال والأقران:

- تَحاسُد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ.

- وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته؛ لذا حذر النبي ﷺ من الحسد وبين قبيح أثره على جميع الأعمال، فقال ﷺ: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». نعم يأكل الحسنات...

❊ ❊ ❊

التعامل مع الأطفال

أوضحت دراسة حديثة أجرتها جامعة «كوينزلاند للتكنولوجيا» في أستراليا بأن احتضان الطفل عند البكاء يساعد على نموه عصبيًا وعاطفيًا، مشيرة إلى أن الأطفال في هذا العمر يحتاجون إلى التجاوب الكبير من آبائهم وأمهاتهم عند البكاء، وذلك نظرًا إلى أهمية ذلك على نموهم.

جاء ذلك على لسان «كارين ثورب» الباحثة بالجامعة، والتي أوضحت أن الكثير من الآباء لا يعرفون كيف يهدئون أطفالهم الرضع عند البكاء في الأسابيع الأولى من ولادتهم، وقد يكون المغص سببًا لبكاء الأطفال، ولكنه لا يستمر إلى ما بعد ١٢ أسبوعًا من عمر المولود، بحسب ما ورد بموقع «السبيل».

ويبكي الطفل لأنه وسيلة التعبير الوحيدة عن مشاعره فهو لا يتكلم لإبداء ما يريده، فيبكي إما لأنه جوعان يطلب طعامه من الرضاعة، أو أنه يحتاج إلى من يكون بجواره حيث يشعر أنه وحيد، أو لأنه مبتل يريد أن يغير حفاضته ويشعر بالنظافة مثل الكبير، أو لأنه يعاني من مغص.

وتأتي الدراسات العديدة لتؤكد أنه يجب على الآباء والأمهات ألا يستهينوا أبدًا ببكاء الطفل، مشيرة إلى أن الأطفال الرضع الذين يبكون باستمرار دون مبرر، أكثر عُرضة للإصابة بمشكلات ذهنية وسلوكية في سنوات الطفولة اللاحقة.

***

التشدد في الدين

يُروى في ذلك مِن أخْبَار الصالحين بَعض مَا يُستَنْكَر، ففي خَبَر امْرأة عَابِدَة زاهِدَة، أطالَتِ السَّهَر، فقال لها زَوجُها: ألا تَنَامِين؟ فقالت: كيف يَنَام مَن عَلِم أنَّ حَبيبَه لا يَنَام؟

وفي خَبَر آخر تُحدِّث به ابنة أحد الصَّالِحين، قالت: كنت أقول لأبي: يا أبتاه ألا تَنام؟ فيَقُول: يا بُنَيَّة كيف يَنَام مَن يَخَاف البَيَات. ونحو ذلك.

وهذا لا شكَّ أنه خِلاف السُّنَّة، فقد كان مِن هَدِيه ﷺ أنّه يَنام ويَقوم، ويأكل الطَّيّبات، ويتزوّج النِّسَاء.

جَاء ثَلاثة رَهْط إلى بُيُوت أزْوَاج النبي ﷺ يَسْأَلُون عَن عِبادَة النبي ﷺ، فلمَّا أُخْبِرُوا كأنّهم تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأين نَحْن مِن النبي ﷺ قد غَفَر الله لَه مَا تَقَدَّم مِن ذَنْبِه ومَا تَأخَّر؟ قال أحَدُهم: أمَّا أنَا فإني أُصَلِّي الليل أبَدًا، وقال آخَر: أنَا أصُوم الدَّهْر ولا أُفْطِر، وقال آخَر: أنَا أعْتَزِل النِّسَاء فلا أتَزَوَّج أبَدًا. فجاء رسول الله ﷺ فَقَال: «أنتم الذين قُلْتُم كَذا وكَذا؟ أمَا والله إني لأخْشَاكُم لله وأتْقَاكُم لَه، لَكِنِّي أصُوم وأُفْطِر، وأُصَلِّي وأرْقُد، وأتَزَوَّج النِّسَاء؛ فَمَن رَغِب عن سُنَّتِي فَلَيْس مِنِّي» رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لِمُسْلِم: وقَال بَعْضُهم: لا آكُل اللَّحْم.

ولَمَّا دخل النبي ﷺ على عائشة وعِنْدَها امْرَأة. فَقَال: «مَن هَذه؟» قالت: فُلانة - تَذْكُرُ مِن صَلاتِها - قَال: «مَه! عَليكم بِمَا تُطِيقُون، فو الله لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا» [رواه البخاري ومسلم].

وفي رواية لِمُسْلِم: قالت عائشة: فَقُلْتُ: هذه الْحَولاءُ بنتُ تُويت، وزَعَمُوا أنَّها لا تَنامُ الليل. فقال رسول الله ﷺ: لا تَنامُ الليل! خُذُوا مِن العَمَل مَا تُطِيقُون، فوالله لا يَسْأمُ الله حَتى تَسْأمُوا».

ودَخَل النبي ﷺ الْمَسْجِد، فإذا حَبْلٌ مَمْدُود بَيْن السَّارِيَتَين، فقال: «مَا هَذا الْحَبْل؟» قَالوا: هَذا حَبْل لِزَيْنَب، فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِه. فقال النبي ﷺ: «لا. حُلُّوه.

لِيُصَلِّ أحَدُكم نَشَاطَه، فإذا فَتَرَ فَلْيَقْعُد» [رواه البخاري ومسلم].

قال بعضُ الحكماء: إنَّ لِهَذه القُلوب تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ الوَحْشِ؛ فَتَألَّفُوهَا بالاقْتِصَادِ في التَّعْلِيم، والتَّوسُّطِ في التَّقْدِيم، لِتَحْسُنَ طَاعتُها، ويَدُوم نَشَاطُها.

وكان ابن عباس يَقُول لأصْحَابه إذا دَامُوا في الدَّرْس: أَحْمِضُوا؛ أي: مِيلُوا إلى الفَاكِهَة وهَاتُوا مِن أَشْعَارِكم، فإنَّ النَّفْس تَمَلّ.

فما يُذْكَر مِن أَخْبَار الصَّالِحين -إنْ صَحَّتْ -في هذا الباب فهو خِلاف السُّنَّة، وخِلاف هَدْي النبي ﷺ ثمّ هو خِلاف الطَّبِيعَة البشرية؛ فإنَّ مِن كَمَال الإنسان أن يَنَام، ثم إن في النَّوْم قُوَّة على الطاعة والعِبادة شأن النَّفْس كشأن أجاوِيد الْخَيْل، إن أُنْهِكَتْ هَلَكَتْ، وإنْ أُجِمَّتْ جَرَتْ.

ولا تَسْتَجِمّ الْخَيْلُ حَتى نُجِمَّهَا ... فَيَعْرِفهَا أعْدَاؤنا وهي عُطَّفُ
لذلك كَانت خَيْلُنا مَرةً تُرى ... حِسَانًا، وأحْيانًا تُقَاد فَتعجَفُ

وثَمّ تنبيه آخر هو في قَوْل القائل:

أمَا والله لَو عَلِم الأنَام ... لِمَا خُلِقُوا لَمَا هَجَعُوا ونَامُوا
لَقَد خُلِقُوا لأمْرٍ لَو رَآتْه ... عُيُون قُلُوبِهم تَاهُوا وهَامُوا
مَمَات ثُم قَبْر ثُم حَشْر ... وتَوْبِيخ وأهْوَال عِظَامُ

وأعْرَف الْخَلْق بالله وبِما خُلِقوا له هم الأنْبِيَاء عليهم الصلاة والسلام، فالأنبياء والرُّسُل أعْرَف الْخَلْق بالله، وهُم أنْذَرُوا وبشَّروا، وخوّفُوا وحذَّرُوا، عَلِمُوا ما يَجِب لله وما يَكُون بعْد الْمَوْت، وهُم مع ذلك يَنامُون ويأكُلون ويشْرَبُونَ وقد عَاب الْمُشْرِكُون على الأنْبِياء أكْلَهم وشُرْبَهم! ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧].

فأتَاهُم الْجَواب مِن العَزِيز الوَهَّاب: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠] إذْ هَذه طَبِيعَة البَشَر التي لا يَنْفكُّون عَنْها.

فكأن قَوْل القائل:

أمَا والله لَو عَلِم الأنَام ... لِمَا خُلِقُوا لَمَا هَجَعُوا ونَامُوا

كأن فيه إزْرَاء بِمَنْصِب النُبُوَّة؛ إذ قد عَلِم الأنْبِيَاء لِمَا خُلِقُوا وقَد نَامُوا وهَجَعُوا، وأكَلُوا وشَرِبُوا، وتَزوَّجُوا النِّسَاء، قال ربّ العِزّة سُبْحَانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد:٣٨] قال الإمَام القُرطبي في تَفْسِير الآية: أي: «جَعَلْنَاهُم بَشَرًا يَقْضُون مَا أحَلَّ الله مِن شَهَوات الدُّنْيَا، وإنَّمَا التَّخْصِيص في الوَحْي». ا.هـ.

هذه إشارة إلى ما تضَمَّنَتْه هذه الأبيات، وما تضمّنه قَول بَعض الصَّالِحِين والصَّالِحَات مما تقدَّم.

وقد يُقال: هذه أخْبَار أوْرَدَها بعضُ أهْل السِّيَر في كُتُبهم.

فأقول: وهل اشْتَرَط أهل السِّيَر والتَّراجم صِحّة ما يُورِدُونه ويَنقُلُونه؟ فإنّهم قد يُورِدُون مِن الأخْبَار ما يَصِحّ وما لا يَصِحّ، وقد يَنْشَط العَالِم فيتعقّب ويُنقد، وقد لا ينشَط لذلك، والْمُؤمِن يَنْشُد الْحَقّ، والْحِكْمَة ضالَّة الْمُؤمِن أنّى وَجَدَها فهو أحَقّ بِها.

❊ ❊ ❊

التخطيط للحياة

* العادات السبع لكبار الناجحين:

إن (العادات السبع) للناجحين عادات مترابطة بشكل عضوي، تعتمد إحداها على الأخرى، ويتلو بعضها بعضًا بصورة طبيعية، فالعادات الثلاث الأولى مرتبطة بالشخصية، وهي تساعد صاحبها على تحقيق أهدافه اليومية، وهو ما يحقق له الاستقلالية، والاعتماد على النفس، والعادات الثلاث التي تليها هي التعبير الخارجي الظاهر عن الشخصية، وهي توصل صاحبها إلى تحقيق المنفعة المشتركة. أما العادة السابعة فهي تساعد على مواصلة عملية التقدم والنمو، والمحافظة عليها.

العادة الأولى: كن مبادرًا، أي: بادر ولا تنتظر.

إن هذه العادة تعني أن تتحمل مسؤولية مواقفك وأعمالك. إن الناجحين قوم مبادرون، يُنمُّون في أنفسهم القدرة على اختيار ردود أفعالهم تجاه المواقف والأحداث، ويجعلونها ثمرة للقيم التي يحملونها، والقرارات التي يتخذونها، لا تابعة لأمزجتهم وأوضاعهم، إنهم يتمتعون بـ (الحرية) في اختيار مواقفهم حيال أي وضع داخل أنفسهم أو خارجها.

إنك كلما مارست حريتك في اختيار مواقفك واستجاباتك وردود أفعالك أصبحت أكثر مبادرة وإيجابية، وسبيل ذلك:

أ - أن تكون هاديًا لا قاضيًا.

ب - أن تكون مثالاً يُحتذى لا ناقدًا.

ج - أن تكون مبرمجًا لا برنامجًا.

د - أن تغذي الفرص وتجيع المشكلات.

هـ - أن تحافظ على الوعود لا أن تختلق الأعذار.

و - أن تركز على الدائرة الضيقة للتأثير الممكن، لا على الدائرة الواسعة للأمور التي تهمك ولا سيطرة لك عليها.

تطبيقات العادة الأولى:

١ - حاول - لمدة ثلاثين يومًا - أن تعمل في دائرة التأثير، أي: في حدود إمكاناتك واستطاعتك، حافظ على مواعيدك، كن جزءًا من الحل لا جزءًا من المشكلة.

٢ - تذكر موقفًا حدث لك في الماضي تصرفت فيه بشكل انفعالي يعتمد على رد الفعل وقرر مسبقًا أنك ستتصرف في مواقف مماثلة بشكل حكيم يعتمد على المبادرة والإيجابية.

٣ - انتبه إلى أسلوبك في الكلام، هل تستعمل عبارات انفعالية تعتمد على ردود الفعل، مثل: لا أستطيع.. يجب عليَّ.. لو أني فعلت كذا وكذا.. إلخ، وبذلك تُحمِّل مسؤولية مشاعرك وتصرفاتك شخصًا آخر، أو تلقيها على الظروف، إن كانت هذه هي الحال فابدأ باستعمال أسلوب أكثر مبادرة وإيجابية، تعبر فيه عن مقدرتك على اختيار مواقفك وردود أفعالك وعلى إيجاد حلول أخرى.

٤ - حدد ما يقع في دائرة إمكانك، أي: ما تستطيع فعله، وركز اهتمامك وجهودك عليه لمدة أسبوع، ولاحظ نتيجة ذلك في عملك، أو قل وتذكر قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

العادة الثانية: ابدأ والنهاية أمام عينيك؛ أي: **ليكن هدفك واضحًا منذ البداية.**

هذه عادة القادة الناجحين، ابدأ يومك بأهداف واضحة تريد تحقيقها، وأعمال محددة تسعى لإنجازها. إن الناجحين يعلمون أن الأشياء توجد في الذهن قبل أن توجد في الواقع، لذلك فهم يكتبون أهدافهم ويجعلونها مرجعًا عند اتخاذ قراراتهم المستقبلية، إنهم يحددون بدقة وعناية أولوياتهم قبل الانطلاق لتحديد أهدافهم.

أما المخفقون فيسمحون لعاداتهم القديمة، ولأناس آخرين، وللظروف المحيطة بهم أن تُملي عليهم أهدافهم، أو تؤثر في أولوياتهم، إنهم يتبنون القيم والأهداف السائدة في مجتمعهم، وتقاليدهم، وثقافتهم، دون فحصها للتأكد من صحتها، أو مناسبتها لهم، ويشرعون في تسلق سلم النجاح الذي يتخيلونه، فإذا

وصلوا إلى آخر درجة فيه اكتشفوا أنه مستند على غير الجدار المطلوب!

إن التصور الثاني، أي: الوجود الفعلي المادي، يتبع التصور الأول، أي: الوجود الذهني، كما يتبع إنشاءُ مبنى على الأرض وجود مخطط البناء، فإذا كان المخطط صحيحًا، وممتازًا، وتم التنفيذ بالشكل المطلوب كان البناء ممتازًا.

تطبيقات العادة الثانية:

١ - تأمل الفرق بين القيادة والإدارة، واعزم على الاتجاه الذي تريد المضي فيه، والغايات التي تريد الوصول إليها في حياتك.

٢ - تخيل أنك متّ بعد ثلاثة أعوام من الآن، وقام للحديث عنك أربعة أشخاص: واحد من أفراد أسرتك، وآخر صديق لك حميم، والثالث زميل في عملك، والرابع إمام المسجد الذي تصلي فيه (التصرف الأخير هذا من عندي، لأن المؤلف قال: راعي الكنيسة). اكتب ما تود أن يقوله عنك كل واحد من هؤلاء، واجعل ما كتبته من ضمن أهدافك.

٣ - حدد مشروعًا عليك القيام به في المستقبل القريب. طبق مبدأ (التصور، أو الوجود الذهني) واكتب النتائج التي تود الوصول إليها، والخطوات التي ينبغي سلوكها لتحقيق تلك النتائج.

العادة الثالثة: قَدِّم الأهم على المهم (رتب أولوياتك):

تتصل هذه العادة اتصالاً وثيقًا بـ (إدارة الوقت)، وبترتيب الأمور المشار إليها في العادة الثانية، التي ينبغي عليك القيام بها بحسب أهميتها.

لقد تبين من الدراسات التي أجريت في هذا المجال أن (٨٠) بالمائة من النتائج المرجوة هي حصيلة (٢٠) في المائة من الجهود المركزة المبذولة في سبيل تحقيقها، لذلك علينا -إذا أردنا استثمار وقتنا بالشكل الأمثل- أن نقلل من اهتمامنا بالأمور المستعجلة القليلة الأهمية، وأن نخصص وقتًا أطول للأمور المهمة التي قد لا تكون بالضرورة مستعجلة.

إن الأمور المستعجلة الطارئة تتطلب منا اتخاذ إجراء مستعجل حيالها وهو ما يُضَيِّع علينا الوقت اللازم للقيام بالأمور الحيوية المهمة، التي هي -بطبيعتها- غير

مستعجلة، ويمكن تأخيرها قليلاً دون حصول ضرر يذكر من هذا التأخير.

لذا علينا أن نكون مبادرين في إنجاز الأمور المهمة غير المستعجلة وعندما نستطيع أن نقول: (لا) لغير المهم نستطيع أن نقول: (نعم) للمهم، وإذا لم نفعل هذا فإن الأمور الطارئة العاجلة ستملأ علينا وقتنا، وقد تفسِدُ في المآل حياتنا، وهذا ما يؤدي إليه التخطيط اليومي دون التخطيط الأسبوعي أو الشهري؛ لأن التخطيط اليومي يتعامل مع القضايا والمشكلات التي تتطلب حلولاً سريعة، دون أن يكون لها نفع في تحقيق الأهداف الكبرى على المدى البعيد. أقول: فكيف بمن لا يخطط حتى ليوم واحد، وما أكثرهم بيننا!!

ولمزيد من الإيضاح لا بأس أن نرسم ما يمكن أن يُسمّى المربعات الأربعة لإدارة الوقت وحسن الاستفادة منه، ونلاحظ أن الجهد الأكبر، والوقت الأوفر، والعناية الأكثر يجب أن تُعطى للمربع رقم (٢).

تطبيقات العادة الثالثة:

١ ـ اكتب عملاً واحدًا مهمًا تحسن القيام به في حياتك الشخصية (كممارسة الرياضة البدنية إذا لم تكن ممارسًا لها، وكالإقلاع عن التدخين إذا كنت مدخنًا) وآخر في عملك الوظيفي (كالوصول قبل بدء الدوام بربع ساعة مثلاً)، ثم ضع جدولاً للأسبوع القادم مبنيًا على أولوياتك.

٢ ـ ارسم (المربعات الأربعة) الخاصة بك، وقدّر كم من الوقت تنفقه في كل مربع، ثم سجل لمدة ثلاثة أيام (كل ساعة) ما قمت به في المربع الذي يناسبه، راجع ما سجلت، وعدّل سلوكك ومخططاتك لينال المربع الثاني من وقتك النصيب الأوفى.

٣ ـ ابدأ بالتخطيط لحياتك على أساس أسبوعي، واكتب أهدافك، وارسم الخطط لتحقيقها وليكن ذلك كتابة أيضًا.

* * *

التشاؤم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل» قال: قيل: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة». ما التشاؤم؟ الشأم، والشؤم ضد اليُمن الذي هو البركة، ويقال رجل مشؤوم؛ أي جرَّ الشؤم عليهم، ورجل ميمون؛ أي جرَّ الخير والبركة واليُمن على قومه. [انظر لسان ومعجم العرب ومعجم مقاييس اللغة].

والعرب تقول: جرى له الطائر بكذا من الخير والشر، قال أبو عبيدة: الطائر عندهم الحظ، وهو الذي تسميه العامة البخت، يقولون هذا يطير لفلان؛ أي يحصل له. قلت: ومنه الحديث: «فطار لنا عثمان بن مظعون» أي: أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم، وفي حديث رويفع بن ثابت: «حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش، والآخر القدح» أي: يحصل له بالشركة في الغنيمة. وقال الحليمي: «التشاؤم: سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حُسن ظن به، والمؤمن مأمور بحُسن الظن بالله تعالى على كل حال».

والمقصود بالحديث: من يجر النقص والشؤم على نفسه، وما يسمى بالنظرة السوداوية إلى النفس بأنه مشؤوم وسيئ الحظ.

❋ آثاره:

١ - باب الوساوس والشيطان، قال ابن القيم: اعلم أن من كان معتنيًا بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدر، فتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويُعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه، فإذا سمع سفرجلاً أو أهدي إليه تطيَّر به، وقال سفر وجلاء. وإذا رأى ياسمينًا أو سمع به تطير به وقال يأس ومين، وإذا

رأى سوسنة أو سمعها قال سوء يبقى سنة، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطيَّر به وتشاءم بيومه.

٢ - حياته نكد وكدر وعنت، والمتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال، سيئ الخلق، يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشد الناس خوفًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيق الناس صدرًا، وأحزنهم قلبًا، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه من حظ، ومنعها من رزق، وقطع عليها من فائدة.

٣ - صاحبه دائمًا في المؤخرة، صاحبه لا يرتقي نحو تحسين أحواله، وتصحيح مفاهيمه، ومعرفة نقاط الضعف من القوة في جميع تصرفاته، فإذا أخفق في تجارة أو أصيب بمصيبة أو تجمد في وظيفة أرجع هذا كله لسوء الحظ، وبالتالي لا يرجع إلى نفسه والتي بإمكانه أن يصحح مسارها ويتدارك ما قصر فيه، بل يبقى كئيبًا كسيفًا عاجزًا، في مؤخرة الركب، لا يعرف التطور ولا يرغب في التغيير، ولا يسعى لمعرفة الأسباب فضلاً أن يأخذ بها.

٤ - النظرة الحادة للناس؛ نظرته للآخرين قاسية، يحكم عليهم دون رعايةٍ منه للظروف، أو تحرٍ للعدالة والإنصاف، فيعمى عن جدهم واجتهادهم وصبرهم ومثابرتهم وجميع حسناتهم، وينسج حولهم بخياله ما يشتهيه من الأخطاء والنقائص، ويحمل كلامهم تفسيرات من نفسه ليس لها أصول ولا قواعد ولا متعلقات، ويعتبر نفسه دائمًا هو الضحية.

٥ - يرى أن أسباب الشقاء انعقدت فيه، فيتصور أن الناس كل الناس يعيشون حياة السعادة كل السعادة دون تعب ولا كدر ولا حزن ولا هم ولا نصب، وأن جميع هذه الأشياء قد اجتمعت فيه، وما علم هذا القائل لنفسه أن هذه الحياة طبعت على كدر وعنت يستوي فيها الغني والفقير، والعظيم والحقير، والصغير والكبير: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

٦ - يصاب بعمى الألوان، ولا يزال الشيطان بهذا المسكين يجعله يذوق الحسرات ويشعر بالمرارة حتى في حال فوزه وربحه ونجاحه، فإذا ما ربح ألفًا نظر إلى غيره بأنه ربح خمسة فيزداد حسرةً وأسفًا... إلخ، فيصاب بعمى الألوان وبالأصح بعمى القلوب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]

قد حبس نفسه طوعًا في كآبة وكدر، وبدلاً من بذل الجهد في معرفة مصالحه وأحواله ونقائصه ونقاط ضعفه، تجده يصرف جهده وطاقته في مراقبة الناس فيتولد عنده الهم كما قيل: (من راقب الناس مات همًّا).

٧ ـ احتراق قلبه والحقد على كل من حوله، ثم تنشأ عنده الغيرة وتنفذ إليه من هذا الطريق، ولا تزال تأكل قلبه حتى يبغض كل من حوله. وهنا نقطة التحول من البناء إلى الهدم والتخريب قد يئول به إلى نسف المجتمع كله، قال كما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا». وروى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». ولو راجع نفسه وتدبر كتاب ربه لوجد العلاج، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ «الشورى:٣٠» ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ «الروم:٤١» فيتأمل بكامل هدوء فيجد أنه باستطاعته أن يتدارك آثار إخفاقه ويعوض ما خسره فيه بقليل من الجد والنشاط.

٨ ـ ضعف البدن، فالمتشائم يهزل ويضعف؛ لأنه يأكل نفسه بنفسه حسرةً وحسدًا، ويرى أنه لا فائدة من المعالجة، أو مقاومة أدواء النفس.

٩ ـ خور الهمة، إن من لا يرى إلا الإخفاق ولا يفكر إلا بالخيبة، سينتهي حتمًا ويتوقف عن كل نشاط وتتحول همته إلى الدناءات.

١٠ ـ يتصور أن الأمة كل الأمة مشغولة به وبإلحاق الضرر فيه، وأن الناس يخططون لإيذائه، فيتخلق بالخلق السيئ من الحقد والحسد والبغضاء، وحب الأذى للآخرين، والتخريب والغيرة.

١١ ـ العزلة والانطواء، والتعاظم في الباطن.

١٢ ـ يصبح صاحبه عبدًا للخزعبلات والخرافات.

١٣ ـ نفق يقوده إلى الشرك بالله تعالى. قال ابن القيم: «التطير هو التشاؤم من

الشيء المرئي أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيصير قلبه متعلقًا بغير الله عبادة وتوكلاً فيفسد عليه قلبه وإيمانه».

وحاله يبقى هدفًا لسهام الطيرة ويساق إليه من كل أوب ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة، فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المُسَكِّن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة، فالفأل يُفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك، فلهذا استحب الفأل وأبطل الطيرة.

* أسباب التشاؤم:

١ -عدم الرضا بقضاء الله وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنه لم يكن أكبر منه، فأنت تجد رجلين أصيبا بمصيبة واحدة أحدهما فرح مسرور، والآخر مغموم مقهور محسور.

٢ -عدم مشاهدة نعمة الله عليه في نفسه وأهله، روى الترمذي وابن ماجه عن عبيد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «من أصبح منكم معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا».

٣ -سوء الظن بالله -جل وعلا -والاعتراض على أمره وحكمه وحكمته، فيرى أن فلانًا أعطى ما لا يستحق من المال والولد، وأنه أحق بهذا منه.

٤ -جعل الدنيا أكبر همه، روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من كانت الآخرة همه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه؛ جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

٥ -النظر إلى من فوقه ومن فُضِّل عليه، روى البخاري عن أبي هريرة عن

رسول الله ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه». وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»، قال أبو معاوية: وهذا هو العلاج الناجح لهذه العقبة الخبيثة.

٦ - سوء الظن بالآخرين وأنهم لا يستحقون ما حصلوا عليه فهم لا يفضلونه بشيء.

٧ - الجهل وضعف العقل.

٨ - ضعف الإيمان وقلة ذكر الله تعالى.

* ملف المتشائمين:

ولم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس:١٨، ١٩]، وكذلك حكى الله سبحانه عن قوم فرعون فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١]. حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية: ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن الجديرون الحقيقون به ونحن أهله، وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا: هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم كما يقوله المتطير لمن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال تعالى عن أعداء رسوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٧٨]

فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه، وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى، وأجاب عن تطير أعداء رسول الله بقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأجاب عن الرسل بقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾. وأما قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم»، وفي رواية: «شؤمهم عند الله ومن قبله»؛ أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله». وقال أيضًا: «إن الأرزاق تتبعكم وهذه كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]؛ أي ما يطير له من الخير والشر

فهو لازم له في عنقه».

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال: يا رسول الله ومنا أناس يتطيرون، فقال: «ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدقه». فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه.

* علاج التطير:

وقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال: «ذلك شيء يجده أحدكم فلا يصدقه»، وفي أثر آخر: «إذا تطيرت فامض» أي: امض لما قصدت له ولا يصدنك عنه الطيرة، واعلم أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبالِ به ولم يعبأ به شيئًا لم يضره البتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فالطيرة باب من الشرك، وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته يكبر ويعظم شأنها على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره، فأوضح رسول الله لأمته الأمر، وبيَّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل له عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه، والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته، فقطع الرسول علق الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهله البتة.

وقال الماوردي: «ينبغي لمن مُنيَ بالتطير أن يصرف عن نفسه دواعي الخيبة وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطانًا في نقض عزائمه، ومعارضة خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب، وإن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب، فلا يثنيه عنها ما لا يضير مخلوقًا ولا يدفع مقدورًا، وليمض في عزائمه واثقًا بالله تعالى إن أُعطي، وراضيًا به إن مُنع». والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الأيتام واللقطاء

قضايا الأطفال من أكثر القضايا اهتمامًا على مستوى العالم، ولما للطفل من أهمية كنواة لأي مجتمع، فقد حشدت الجهود الكبيرة لإتاحة الفرصة له؛ لينال حقوقه الأساسية، وينشأ النشأة السليمة اللائقة في محيط أسري ومجتمعي متكامل، وتتباين المجتمعات في تقديم هذه الجهود بحسب اختلاف المنطلقات العقدية والفكرية التي يقوم عليها المجتمع.

ولئن كانت النظرية الاقتصادية البحتة تسيطر على بعض المجتمعات خلال تعاملها مع مثل هذه القضايا الإنسانية، فإن الإسلام لا يقر هذه الأسس؛ لأنه ينظر إلى الإنسان نظرة تكريم خصه الله بها بما نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧١-٧٣] وهو سجود إكرام وإعظام واحترام كما ذكر المفسرون.

من المعروف أن اليتيم هو طفل اليوم، وهو رجل الغد، وستكون سلوكياته المستقبلية أسيرة التربية التي تلقاها في صغره، فإذا أخذ اليتيم حظه من التربية السليمة في صغره أينعت ثمارها وارفة في غده على مجتمعه، لذلك لا عجب أن نجد ذلك الاهتمام المبكر برعاية الأيتام في الإسلام، فمن اليتيم وما حقوقه؟ وما فضل رعايته؟ وما الأسس التي تقوم عليها رعايته في الإسلام؟ كل ذلك ستتعرفه من خلال هذا المقال.

* تعريف اليتيم:

اليتم هو: الانفراد، واليتيم: الفرد، وكل شيء مفرد يعز نظيره فهو يتيم، وأصل اليتيم الغفلة، وبه سمي اليتيم يتيمًا؛ لأنه يُتغافل عن بره، كما قيل: إن اليتم الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم؛ لأن البر يبطئ عنه، ويقال أيضًا في سيره يتم: أي إبطاء أو ضعف

أو فتور، فكلمة اليتيم في أصلها اللغوي تدور على الانفراد والضعف والبطء والحاجة، وهي صفات في واقع الحال لليتيم في الغالب. وتقول العرب: اليتيم الذي يموت أبوه، والعجيُّ الذي تموت أمه، ومن مات أبواه فهو لطيم. إلا أن اسم اليتيم يطلق تجاوزًا لكل من فقد أحد والديه أو كليهما، ويقال للصبي: يتيم إذا فقد أباه قبل البلوغ، فهو يتيم حتى يبلغ الحلم، ويقال للمرأة يتيمة ما لم تتزوج، فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتم.

أما اليتيم في الشرع: فهو من فقد أباه وهو دون البلوغ، أخذًا من حديث الرسول: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل»، مع اختلاف بين الفقهاء - رحمهم الله - في وقت انقطاع حكم اليتيم عنه، لما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «إن الرجل لتنبت لحيته، وأنه لضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم»، وهذا في أحكام التصرف المالي، أما اسم اليتم فهو ينقطع بالبلوغ لما ورد في السابق.

* فضل رعاية اليتيم:

لقد اهتم الإسلام بشأن اليتيم اهتمامًا بالغًا من حيث تربيته ورعايته ومعاملته وضمان سبل العيش الكريمة له، حتى ينشأ عضوًا نافعًا في المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ «الضحى:٩»، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ «الماعون:١،٢»، وهاتان الآيتان تؤكدان على العناية باليتيم والشفقة عليه؛ كي لا يشعر بالنقص عن غيره من أفراد المجتمع، فيتحطم ويصبح عضوًا هادمًا في المجتمع المسلم.

ومما يؤكد على عناية الإسلام باليتيم والتأكيد المستمر على الحرص عليه وحفظه، هو ورود كلمة اليتيم ومشتقاتها في ثلاث وعشرين آية من آيات القرآن العظيم، وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسية كلها تدور حول: دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله، وفي نفسه، وفي الحالة الزواجية، والحث على الإحسان إليه، ومراعاة الجانب النفسي لديه.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى

ﭐﻟۡﻘُﺮۡﺑَﻰٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ «البقرة:٨٣» فالإحسان إلى اليتيم متعين كما هو للوالدين ولذي القربى، قال ابن كثير عن تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ «الضحى:٩»: «فلا تقهر اليتيم: أي: لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم».

لقد كان أرحم الناس باليتيم وأشفقهم عليه النبي ﷺ حتى قال حاثًا على ذلك: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئًا، كما أمر ﷻ بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعد ذلك من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ «النساء:١٠»، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ «الإسراء:٣٤»، وعدّ الرسول آكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟، قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

واستمرارًا لحرص الإسلام على أموال اليتامى، أمر باستثمارها وتنميتها حتى لا تستنفذها النفقة عليهم، فلقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا من ربى يتيمًا له مال فليتجر به، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة». كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «اتجروا في مال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة»، ومن هنا يلزم الولي على مال اليتيم استثمارها لمصلحة اليتيم على رأي كثير من أهل العلم بشرط عدم تعريضها للأخطار.

وجماعًا لكل ما سبق: أمر الرسول بكفالة اليتيم، وضمه إلى بيوت المسلمين، وعدم تركه هملاً بلا راعٍ في المجتمع المسلم، فلقد أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئًا، كما عدَّ رسول خير بيت من المسلمين بيتًا فيه يتيم يُحسن إليه، فلقد ورد أن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت

في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه».

كما جعل الإحسان إلى الأيتام علاجًا لقسوة القلب، فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»، ورتب على ذلك الأجر العظيم؛ حيث يكسب المرء الحسنات العظام بكل شعرة على رأس ذلك اليتيم، فعن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مَرَّت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» وفرق بين إصبعيه السبابة والوسطى.

ولقد تمثل المجتمع المسلم تلك التوجيهات عمليًا بدءًا من عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حتى يومنا الحاضر، فلقد ثبت في كتب الأحاديث والسير أن هناك العديد من الصحابة والصحابيات كفلوا أيتامًا ويتيمات وضموهم إلى بيوتهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو بكر الصديق، ورافع بن خديج، ونعيم بن هزال، وقدامة بن مظعون، وأبو سعيد الخدري، وأبو محذورة، وأبو طلحة، وعروة بن الزبير، وسعد بن مالك الأنصاري، وأسعد بن زرارة، وعائشة بنت الصديق، وأم سليم، وزينب بنت معاوية ﷺ، وغيرهم كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

كما عني المسلمون قديمًا وحديثًا برعاية الأيتام فرادى وجماعات، كما قامت الدول الإسلامية المتعاقبة، أمراؤها وأغنياؤها وأفرادها بوقف الأوقاف الكثيرة عليهم، ومن ذلك ما ورد في إحدى وثائق الأوقاف التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك وفيها: «أن يُكسى كل من الأيتام المذكورين في فصل الصيف قميصًا ولباسًا وقبعًا ونعلاً في رجليه، وفي الشتاء مثل ذلك، ويزاد عليه جبة محشوة بالقطن».

كما ورد من مآثر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله أنه أمر بعمارة كتاتيب ووضع فيها معلمين لكتاب الله ﷻ يعلمون فيها الأيتام، ويجرى عليهم الجراية الكافية لهم. كما ورد ذكر الرحالة ابن جبير في رحلته إلى دمشق، أنه شاهد محضرة كبيرة للأيتام لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الأيتام لكسوتهم وما

يحتاجون إليه، كما أن الظاهر بيبرس أنشأ مكتبًا للسبيل بجوار مدرسته، وقرر لمن فيها من الأيتام خاصة الخبز في كل يوم، والكسوة في فصلي الشتاء والصيف، إضافة إلى توفير أدوات التعليم لهم من أقلام ومداد وألواح.

* أسس رعاية الأيتام في الإسلام:

إن رعاية الأيتام في الإسلام لا تنطلق من فراغ أو عاطفة عابرة أو رحمة مؤقتة، بل تقوم على عدد من الأسس القوية تنطلق منها جميع أوجه رعاية الأيتام المتنوعة ومن ذلك:

١ - الإنسان مخلوق مكرم ومكانته محترمة في الإسلام:

لقد أسجد الله ملائكته للإنسان حين خلقه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧١-٧٤] وهذا السجود سجود إكرام وإعظام واحترام كما ذكر المفسرون. وجنس الإنسان مكرم، وله منزلة خاصة بين مخلوقات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] ولقد كرم الله ﷻ هذا المخلوق البشري على كثير ممن خلق، كرمه بهيئته، وتسويته، وفطرته، وخلافته في الأرض، وبتسخير الكون له، وكرمه بإعلان ذلك التكريم وتخليده في كتابه العزيز، ومن هنا فالإنسان مكرم له منزلته المحترمة، وله كرامته المصونة المحترمة، واليتيم له حق هذا التكريم، ومما يزيد في تكريم اليتيم الضعف الذي يعيشه.

٢ - المجتمع المسلم مجتمع متراحم متماسك متواد:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] الآية، وقال تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧] ويصف الرسول المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، وذلك فيما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى». وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وذكر

جرير بن عبد الله ﷺ قول الرسول: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

٣ - إن جزاء الإحسان في الإسلام الإحسان:

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠)، أي هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، إلا أن يحسن خالقه إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم. روى شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»، وتنجلي حكمة من خلال تأمل هذه الآية الكريمة وربطها بالأساس الذي نحن بصدده، قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩)، فجعل كافل اليتيم اليوم إنما يعمل لنفسه لو ترك ذرية ضعافًا، فإنه ستعامل ذريته الضعاف بما عامل ذرية غيره، فليعاملوا الأيتام الذين تحت أيديهم، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم، فإن كان خيرًا كان الخير بالخير والبادئ أكرم، وإن كان شرًّا كان الشر بالشر والبادئ أظلم.

٤ - المجتمع المسلم مجتمع متعاطف متكاتف متعاون:

لقد حض الإسلام وحرص على جعل المجتمع المسلم متآزرًا متعاونًا يشد بعضه بعضًا، وذلك من خلال الحثِّ المتواصل لأفراده على خدمة بعضهم بعضًا، وتفريج كرب إخوانهم المسلمين، وإدخال السرور على أنفسهم، وعده رسول الله ﷺ من أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «أفضل العمل أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضي عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا». كما جعل عون الرجل لأخيه المسلم صدقة يتصدق بها عن نفسه في كل يوم، فعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «في ابن آدم ستون وثلاثمائة سلامى أو عظم أو مفصل، على كل واحد في كل يوم صدقة، كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة...».

ولقد وصف رسول الله حال المؤمن مع أخيه المؤمن في المجتمع بأبلغ عبارة وأدق وصف، وذلك فيما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه».

ويتواصل الحث من الرسول لأفراد المجتمع المسلم بأن يتعاونوا ويكونوا في خدمة بعضهم بعضًا، والتساعد لقضاء حوائج بعضهم بعضًا، روى جابر رضي الله عنه حديثًا عن الرسول ﷺ وفيه: «.. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»، ويا له من عون للإنسان عندما يكون الله في حاجته، ولكن ذلك لا يتحقق إلا حينما يكون المسلم في حاجة أخيه المحتاج لأي نوع من أنواع الحاجة.

ولقد وجَّه الرسول أمته إلى نفع الناس وإدخال السرور على أنفسهم وكشف كربهم، وعدَّ من يفعل ذلك بأنه أحب الناس إلى الله، كما أخبر ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تُدخله على مسلم، أو يكشف عنه كُربة...»، ولا شك أن من أشد الكُرب اليتم وما يستتبعه من ضعف وضرر وضياع إذا لم يتعهد ذلك اليتيم بالحفظ والرعاية.

٥ - وجوب تقديم الرعاية الشاملة لليتيم من قِبَل الدولة:

ذلك أن اليتيم يدخل ضمن الرعية التي يعد إمام المسلمين راعيًا لهم.

* * *

أحكام الجنائز

الموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حي فلا يملك لها ردًا، ولا يستطيع أحد ممن حوله دفعًا، وهي تتكرر في كل لحظة وتتعاقب على مر الأزمنة، يواجهها الجميع صغارًا وكبارًا، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، مرضى وأصحاء، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:8] نهاية الحياة واحدة، الجميع يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:185] إلا أن المصير بعد ذلك مختلف: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:7] وقد خلق الله الموت والحياة لشأن عظيم وأمر جسيم، فقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:2]

وقد وصف ﷻ شدة الموت في أربع آيات:

فقال في الأولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق:19]

وقال في الثانية: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام:93]

وقال في الثالثة: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:83]

وقال في الرابعة: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة:26]

ولعظم ما نحن مقدمون عليه وصائرون إليه، قال رسول الله ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا». ففي الموت عظة وتذكير وتنبيه وتحذير وكفى به والله الذي لا إله إلا هو من تقرير، والموت هو الخطب الأفظع والأمر الأشنع والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنه الحادث الهادم للذات والقاطع للراحات والجالب للكريهات فإنه أمر يقطع أوصالك، ويفرق أعضاءك، ويهدم أركانك، ولكننا نسيناه أو تناسيناه، وكرهنا ذكره ولقياه، مع يقيننا أنه لا محالة واقع وحاصل ولا مفر منه ولا حائل.

أيها الأحبة: قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «كان هدي النبي ﷺ في الجنائز أكمل الهدي، مخالفًا لهدي سائر الأمم مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما

ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يعامل به الميت، وكان من هديه في الجنائز: إقامة العبودية للرب- تبارك وتعالى- على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ﷺ ووقوف أصحابه صفوفًا يحمدون الله ويستغفرون للميت ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه في حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه ثم يتعاهده بالزيارة له في قبره، والسلام عليه والدعاء له كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا». انتهى.

أيها المسلمون: يُستحب تلقين المحتضر: لا إله إلا الله؛ لقوله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» رواه مسلم. وذلك لتكون هذه الكلمة الطيبة آخر كلامه، ويختم له بها فقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره مرفوعًا: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنة» ولأن الشيطان يعرض للإنسان في حالة احتضاره ليفسد عقيدته، فإذا لقن هذه الكلمة العظيمة، ونطق بها فإن ذلك يطرد عنه الشيطان، ويذكره بعقيدة التوحيد.

ثم إذا مات العبد فإنه يسرع في تجهيزه: من تغسيله وتكفينه، والصلاة عليه ونقله إلى قبره؛ لقول النبي ﷺ: «لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله» رواه أبو داود. قال ابن القيم رحمه الله: «وكان من هديه ﷺ: الإسراع بتجهيز الميت إلى الله وتطهيره وتنظيفه وتطييبه وتكفينه في الثياب البيض». قال: «وكان يأمر بغسل الميت ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر بحسب ما يراه الغاسل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان يأمر من ولي الميت أن يحسن كفنه، ويكفنه بالبياض، وينهى عن المغالاة في الكفن».

والرجل يتولى تغسيله الرجال، والمرأة يتولى تغسيلها النساء، ويجوز للرجل أن يغسل زوجته، وللمرأة أن تغسل زوجها، ومن تعذر غسله لعدم الماء أو لكون جسمه محترقًا أو متقطعًا لا يتحمل الماء، فإنه يُيمم بالتراب، وإن تعذر غسل بعضه غسل ما أمكن غسله منه، ويمم عن الباقي.

والسقط إذا كان له أربعة أشهر غُسِّل وصُلي عليه؛ لقوله ﷺ: «والسقط يُصلى

عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

فإذا غُسِّل الميت وكُفن، فإنه يُصلى عليه، والصلاة عليه جماعة أفضل لفعله ﷺ وفعل أصحابه.

قال ابن القيم ﵀: «ومقصود الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤] لما نهى الله نبيه عن الصلاة على المنافقين كان دليلاً على أن المؤمن يُصلى عليه قبل الدفن، ويُقام على قبره بعده، ودلت الآية أيضًا على أن الصلاة على المسلمين من أكبر القربات وأفضل الطاعات، ورتب الشارع عليها الجزاء الجزيل كما في الصحاح وغيرها، ودلت الآية على أن الصلاة عليه كانت عادة النبي ﷺ وأمرًا متقررًا عند المسلمين». انتهى.

وكلما كثر المصلون كان أفضل؛ لما روى مسلم في صحيحه: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه». وله من حديث ابن عباس: «وما من مسلم يموت، فيقوم على قبره أربعون رجلاً لا يُشركون بالله شيئًا إلا شفعوا فيه».

ومن فاتته الصلاة على الميت قبل دفنه صلى على قبره، لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عباس: أن النبي ﷺ صلى على قبر، وذلك أن امرأة سوداء كانت تَقُم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها فقالوا: ماتت، فقال: «أفلا كنتم آذنتموني؟» قال: فكأنهم صغروا أمرها، فقال: «دلوني على قبرها» فدلوه، فصلى عليها.

ثم بعد الصلاة على الميت يُبادر بحمله إلى قبره، ويستحب للمسلم حضور الصلاة على أخيه المسلم وتشييع جنازته إلى قبره، بسكينة وأدب وعدم رفع صوت لا بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين» [متفق عليه].

ويسن توسيع القبر وتعميقه، ويوضع الميت فيه موجهًا إلى القبلة على جنبه

الأيمن، ويسد اللحد عليه سدًا محكمًا، ثم يهال عليه التراب. ويرفع القبر عن الأرض قدر شبر، ويكون مسنمًا، أي: محدبًا، وذلك ليرى فيعرف أنه قبر فلا يوطأ، ولا بأس أن يجعل علامة عليه؛ بأن يوضع عليه حجر ونحوه ليعرفه من يريد زيارته للسلام عليه والدعاء له.

ولا تجوز الكتابة على القبور، لا كتابة اسم الميت ولا غيرها، ولا يجوز تجصيصه ولا البناء عليه، ولا تجوز إضاءة المقابر بالأنوار الكهربائية ولا غيرها؛ لحديث جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه» [رواه مسلم]. ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدًا، ولعن زوارات القبور، وكان هديه أن لا تهان القبور وتوطأ، وألا يجلس عليها ويتكأ عليها، ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها، أو تتخذ أعيادًا وأوثانًا.

وكان ﷺ إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنها لأمته، وشَرع لهم وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وكان هديه ﷺ أن يقول ويفعل عند زيارتها من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميت من الدعاء والترحم والاستغفار، فأبى المشركون من بعض الفرق الضالة إلاّ دعاء الميت والإشراك به والإقسام على الله به وسؤال الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه، بعكس هديه ﷺ، فإنه هدي توحيد وإحسان إلى الميت، وهدي هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت.

أيها المسلمون: هناك بعض البدع تحصل من بعض الناس إذا مات لهم ميت فمن هذه البدع المحدثة: القراءة عند الجنائز، أو عند القبور، قراءة الفاتحة أو قراءة شيء من القرآن، يزعمون أن ذلك ينفع الميت، وهذا بدعة؛ لأنه لم يكن من سنة الرسول ﷺ. ومن بدع الجنائز بل من عوائد الكفار ومن يقلدهم من جهلة المسلمين إلقاء أكاليل الزهور على القبور، ومن عوائد الكفار ومن يقلدهم من جهلة المسلمين

اليوم: إعلان الإحداد على الأموات، ولبس السواد، وتنكيس الأعلام، وتعطيل الأعمال الرسمية من أجل ذلك، والوقوف والصمت بضع دقائق لروح الميت وما أشبه ذلك من عوائد الجاهلية الباطلة، فيجب على المسلمين الحذر من تقليدهم والتشبه بهم ومن البدع ما يسمى بإحياء ذكرى الأربعين، وهو أنه بعد (٤٠) يومًا من وفاة الميت، تحيا هذه الليلة وربما تم توزيع بعض الصدقات ونحو ذلك وهي بدعة سيئة فرعونية الأصل، لا أصل لها في دين الإسلام.

أيها المسلمون: إن الذي ينفع الميت بعد موته هو ما شرعه الرسول ﷺ من المبادرة بقضاء ديونه، فإن المسلم مرتهن بدينه حتى يُقضى عنه، وتنفيذ وصاياه الشرعية، والدعاء له والتصدق عنه، والحج والعمرة عنه، قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له».

ومما يجب أن يعلم أنه يحرم على النساء اتباع الجنائز وزيارة القبور؛ لحديث أُم عطية ﵂ قالت: «نهينا عن اتباع الجنائز». والنهي يقتضي التحريم، وعن ابن عباس ﵄: «أن رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور». [رواه الخمسة وصححه الترمذي]، فالمرأة لا تزور القبور لا قبر النبي ﷺ ولا قبر غيره، وإنما زيارة القبور خاصة بالرجال. فاتقوا الله عباد الله ولا تنسوا الموت فتغفلوا عن العمل.

وأمرنا الله بالصبر عند المصائب، ووعد الصابرين بجزيل الثواب، ونهى عن التسخط والجزع، وتوعد على ذلك بأليم العقاب، فنهى سبحانه عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنشور، من لطم الخدود، وشق الجيوب، وحلق الرءوس، ورفع الصوت بالندب والنياحة، وتوابع ذلك. أما البكاء الذي لا صوت معه وحزن القلب فلا بأس بهما، وقد قال النبي ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يُرضى الرب» [رواه البخاري].

وتُستحب تعزية المصاب بالميت، وحثه على الصبر والاحتساب، ولفظ التعزية أن يقول: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك. قال ابن القيم رحمه الله: وكان من هديه ﷺ تعزية أهل الميت، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء ويقرأ له القرآن لا عند قبره ولا غيره، وكل هذا بدعة حادثة مكروهة، وكان من هديه السكون والرضا بقضاء الله، والحمد لله والاسترجاع. ويبرأ ممن خرق لأجل

المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالندب والنياحة، أو حلق لها شعره، وكان من هديه أن أهل الميت لا يُكلفون الطعام للناس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعامًا يرسلونه إليهم، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشيم والحمل عن أهل الميت، فإنهم في شغل بمصابهم عن إطعام الناس.

عن ابن عمر ﷺ قال: أخذ النبي ﷺ بمنكبي ثم قال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» [رواه البخاري في صحيحه]. وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك» [رواه البخاري].

وإذا كان الموت هو مصيرنا، والقبر هو مضجعنا، فإنه لا بد من الوقوف على بعض أحكام الجنائز، وتعرف صحيحها من بدعها المحدثة، فإنه ما من بيتٍ إلا والموت داخله قَصُر الزمان أو بَعُد، وقد جاء الإسلام بأحكام عظيمة وسنن وواجباتٍ تتعلق بخروج المسلم من هذه الحياة لا بد من معرفتها والوقوف عندها، فقد كان هدي النبي ﷺ في الجنائز أكمل الهدي، مخالفًا لهدي سائر الأمم، مشتملاً على الإحسان للميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وأول هذه الأحكام: زيارة المريض حال مرضه، وتذكيره بالآخرة، وأمره بالوصية والتوبة، وتلقينه الشهادة ليكون آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله.

قال أنس ﷺ: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم» فنظر إليه أبوه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [رواه البخاري]. وزاد الإمام أحمد في روايته: فلما مات قال النبي ﷺ: «صلوا على صاحبكم».

أيها المسلمون: وجاءت الوصية النبوية الحكيمة بتلقين المحتضر قول: لا إله إلا الله كما روى ذلك مسلم في صحيحه، وذلك لتكون هذه الكلمة الطيبة آخر كلام العبد من هذه الدنيا، ويختمَ له بها، روى الإمام أحمد وغيره أنه ﷺ قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله؛ دخل الجنة». فإذا مات العبد سُنّ تغميضه

وتسوية أطرافه وتغطيته، ثم الإسراع بتجهيزه؛ من تغسيلٍ وتكفينٍ وصلاةٍ عليه ثم دفنه؛ لما روى أبو داود في سننه أنه ﷺ قال: «لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله». فلا يجوز تأخير دفن الميت إلا لعذر، وقد كان من هديه ﷺ الإسراع في دفن الميت وذلك بتطهيره وتطييبه وتكفينه في ثياب بيض، ثلاثٌ للرجل وخمسٌ للمرأة.

وكان ﷺ يأمر بغسل الميت ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر حسب ما يراه الغاسل، ويأمر بالكافور والأشنان ونحوه في الغسلة الأخيرة، وكان يأمر من وَلِيَ الميت أن يحسن كَفنه ويكفّنه في البياض، وينهى عن المغالاة في الكفن، والرجل يتولى تغسيله الرجال، والمرأة تغسلها النساء، ومن تعذّر غسلُه لعدم الماء أو لمرض بجسده كالحروق ونحوها فإنه ييمم بالتراب، وإن تعذر غسلُ بعضه غُسلَ ما أمكن منه وييمم عن الباقي، ويجوز للرجل أن يغسّل زوجته، وللزوجة أن تُغسّل زوجها.

والجنين الساقط من بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر غسّلَ وصُلي عليه؛ لقوله ﷺ: «والسقط يصلى عليه، ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة» [رواه أحمد وأبو داود].

فإذا غُسّل الميت وكُفّن فإنه يصلي عليه جماعة؛ لفعله عليه الصلاة والسلام وفعل أصحابه، وكلما زاد العدد كان أفضل، ومقصود الصلاة عليه الدعاء له، لما روى مسلم في صحيحه: «ما من ميتٍ يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفّعوا فيه». وله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما من مسلم يموت فيقوم على قبره أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شُفّعوا فيه».

والصلاة على موتى المسلمين - عباد الله - من أفضل الطاعات وأعظم القربات، وقد رتب الله تعالى عليهما الجزاء العظيم، ومن فاتته الصلاة على الميت قبل دفنه صلى على قبره صلاة الجنازة، لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ صلى على قبر امرأةٍ سوداء كانت تقم المسجد، ففقدها فسأل عنها فقالوا ماتت، فقال: «أفلا كنتم آذنتموني». قال: «فكأنهم صغّروا أمرها»، فقال: «دلوني على قبرها»، فدلّوه، فصلى عليها.

والصلاة على الميت - عباد الله - يكون بأربع تكبيرات، يقرأ في الأولى بعد

التعوذ بالفاتحة، من غير استفتاح لأن هذه الصلاة مبنية على التخفيف، ولهذا ليس فيها ركوع ولا سجود ولا قراءة زائدة على الفاتحة، ويصلي على النبي ﷺ في الثانية كالتشهد، ويدعو بعد التكبيرة الثالثة للميت بالدعاء المأثور عن النبي ﷺ إن كان يحفظه، فإن لم يكن فبأي دعاء دعا جاز إلاّ أنه يخلص الدعاء للميت. ثم يكبر التكبيرة الرابعة ويسلم تسليمة واحدة عن يمينه، ولو سلّم تسليمة ثانية فلا بأس لورود ذلك عن النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ثلاث خلال كان رسول الله ﷺ يفعلهن تركهن الناس؛ إحداهن التسليم على الجنازة مثل التسليم على الصلاة» [أخرجه البيهقي ورواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن]. ويرفع يديه مع كل تكبيرة، وله الزيادة على أربع تكبيرات، فقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كبر على جنازة خمس تكبيرات، ولهذا ينبغي للأئمة أحيانًا أن يكبروا على الجنازة خمس تكبيرات إحياءً للسنة، فماذا يقول بعد التكبيرة الثالثة والرابعة، يمكنه أن يجعل بعد التكبيرة الثالثة دعاءً عامًّا لجميع موتى المسلمين، وبعد الرابعة يخصص الدعاء للميت، ثم يكبر الخامسة ويسلم. ولا بأس بالزيادة على خمس تكبيرات إلى ست وإلى سبع وإلى ثمان وإلى تسع تكبيرات، فكل هذا ثبت بالآثار الصحيحة من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد: «وهذه آثار صحيحة فلا موجب للمنع منها، والنبي ﷺ زاد على الأربع بل فعله هو وأصحابه من بعده» انتهى.

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر يوم أحد بحمزة فسجي ببردة ثم صلى عليه فكبر تسعًا». أخرجه الطحاوي في معاني الآثار بسندٍ حسن. وكم عباد الله في الصلاة على الأموات من أجور لو أخلصنا فيها النيات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراطٌ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، والقيراطان: مثل الجبلين العظيمين» [متفق عليه].

أيها المسلمون: وبعد الصلاة يُبادر بحمله إلى قبره، ولا يجوز نقله إلى بلدٍ آخر بل يدفن حيث مات إلا أن يوصي بذلك. والسُّنَّة تشييع جنازة الميت حتى توضع في قبرها بسكينة وأدب وعدم رفع صوت، لا بقراءةٍ ولا بذكرٍ ولا بغير ذلك، ويُسَنُّ

توسيع القبر وتعميقه ولحده، ويوضع الميت فيه موجهًا إلى القبلة على جنبه الأيمن، ويسدّ عليه اللحد سدًّا محكمًا، ثم يُهال عليه التراب، ويرفع القبر عن الأرض قدر شبر ويكون مسنّمًا - أي: محدبًا - فلا يمتهن، ولا بأس أن يجعل عليه علامةٌ ليعرفه قريبه الذي يريد زيارته للسلام عليه والدعاء له.

ويحرم البناء على القبور واتخاذها مساجد وأضرحة ومزارات يصلى عندها ويتقرب إلى الله عندها، فقد قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتد غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [رواه مالك في الموطأ]. ولا تجوز الكتابة على القبر، لا كتابة اسم الميت ولا غيرها ولا يجوز تجصيصه ولا إضاءته لحديث جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله أن يُجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه» [رواه مسلم]، وفي لفظ: «نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يُكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن تُوطأ» [رواه الترمذي].

وقد بعث عليًا رضي الله عنه إلى اليمن وأمره أن لا يدع تمثالاً إلا طمسه ولا قبرًا مشرفًا إلا سواه. [رواه مسلم]. ونهى ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد وإيقاد السرج عليها واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة عندها أو اتخاذها أعيادًا، ولعن زوارات القبور من النساء، وكان هديه ﷺ أن لا تُهان القبور ولا تُوطأ، وأن لا يجلس عليها، ولا يتكأ عليها ولا تُعظّم بحيث تتخذ مساجد فيُصلى عندها وإليها، أو تتخذ أعيادًا أو أوثانًا، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا».

وكان من هديه ﷺ إذا زار قبور أصحابه أن يزورها للدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنها لأمته وشرع لهم أن يقولوا إذا زاروها: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» [رواه مسلم]. والإسلام بريء من فعل بعض الفرق الباطنية من الصوفية والرافضة من دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم أو عندهم؛ فإنه من الشرك الأكبر المخرج من الملة. نعوذ بالله من الخذلان.

ومن البدع المحدثة هذه الأيام: القراءة عند الجنائز أو عند القبور، قراءة الفاتحة أو شيء من القرآن بزعم أن ذلك ينفع الميت، وهو بدعة حادثة لم تكن من سنته ﷺ ولا فعلته القرون المفضلة. ومن البدع المحدثة كذلك والتي عمت بها البلوى في العصور المتأخرة: إعلان الإحداد على الأموات، ولبس السواد، وتنكيس الأعلام، وتعطيل الأعمال الرسمية من أجل ذلك، فكل ذلك من الجهل والهوى والتقليد للكفرة وأشياعهم، والله المستعان.

ويجب المبادرة إلى قضاء ديون المسلم الميت؛ لأنه مرتهن بدينه حتى يُقضى عنه، وتنفيذ وصاياه الشرعية، والدعاء له، والتصدق عنه، والحج والعمرة عنه، فقد قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٌ صالح يدعو له». [رواه مسلم]. ومما يجب أن يُعلم - يا عباد الله - أنه يُكره للنساء اتباع الجنائز لحديث أم عطية ﵂ قالت: «نهانا رسول الله ﷺ عن اتباع الجنائز ولم يُعزم علينا» [متفق عليه]. ويُحرم عليهنّ زيارة القبور؛ لحديث ابن عباس ﵄ : «أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور. [رواه الخمسة].

وقد شرع الله سبحانه لأهل الميت الصبر عند مُصابهم وَوَعَدَهم على ذلك بجزيل الأجر والثواب، ونهى عن التسخط والجزع وتوعد على ذلك بأليم العقاب، بل لقد جعل النياحة على الميت من الكفر الذي يجب الحذر عنه، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت» [رواه مسلم]. واعتبر ﷺ كما عند البخاري ومسلم لطم الخدود وشق الجيوب من دعوى الجاهلية، أما البكاء الذي لا صوت معه وحُزن القلب بلا تسخط فلا بأس بهما، وقد قال ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب». [رواه البخاري]، ولا ينافي الصبر أن تمتنع المرأة من الزينة كلها إحدادًا على وفاة ولدها أو قريبها.

* * *

الإعجاز الرقمي

* مقدمة:

مصطلح «الإعجاز العددي للقرآن» مصطلح مطاط، يستعمل في معانٍ صحيحة، وفي معانٍ باطلة، فأما المعاني الصحيحة، فمنها:

١ - استخراج بعض اللطائف القرآنية المتعلقة بالأعداد نحو قولهم ذُكرت الملائكة في القرآن ٨٨ مرة، وذكرت الشياطين في القرآن نفس العدد من المرات، وذكرت الحياة في القرآن ١٤٥ مرة، وذكر الموت في القرآن نفس العدد من المرات، وذكر الناس في القرآن ٣٦٨ مرة، وذكرت الرسل في القرآن نفس العدد من المرات، وذكر إبليس في القرآن ١١ مرة، وذكر التعوذ منه في القرآن نفس العدد من المرات، وذكرت المصيبة في القرآن ٧٥ مرة، وذكرالشكر في القرآن نفس العدد من المرات، ونحو ذلك، فلا مانع أن يُعد هذا التوافق العجيب وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني يضاف إلى وجوه الإعجاز العديدة للقرآن الكريم، ويُستفاد من هذا الوجه في محاورة أهل الكتاب، فيُقال لهم: إن القرآن أنزل على نبيٍ أمي لا يكتب ولا يحسب، ولا كان في زمنه حواسيب لإحصاء الكلمات، ومع ذلك وجد في القرآن هذا التوافق العجيب الذي يؤكد أنه ليس بقول بشر.

٢ - ومن المعاني التي لا بأس بها أن تذكر كلطيفة قرآنية ما وافق من الأعداد حقيقة علمية ثابتة في العلوم الطبيعية وليست نظرية قابلة للأخذ والرد، ومثاله قول بعضهم: كلمة البحر ذكرت في القرآن الكريم ٣٢ مرة، وذكرت كلمة البر في القرآن الكريم ١٣ مرة، ونسبة ٣٢ إلى ١٣ هي بالضبط نفس نسبة الماء إلى اليابسة في الكرة الأرضية، فسبحان الله!

أما المعاني الباطلة، فمنها:

١ - استعمال الأعداد في التنبؤ بأحداث غيبية، أو ادعاء دلالة القرآن على زمن وقوعها مثل ادعاء دلالة القرآن على تاريخ أحداث ١١ سبتمبر، وكثيرا ما يرتكب

مروجو هذه الخزعبلات بعض المغالطات، كاستعمال التاريخ النصراني لكون التاريخ الإسلامي لم يسعفهم في تحقيق مُرادهم، ومن عدهم لبعض الآيات أو السور في حسبة معينة، وإهمالها في حسبة أخرى لتتوافق مع أغراضهم، وهذا المسلك باطل من جهة أنه كهانة وادعاء لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، وباطلٌ أيضًا من جهة أنه مسلك اليهود من قبل، قال الإمام ابن كثير في تفسير ﴿الٓمٓ﴾ في أول سورة البقرة:

وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا دَالَّة عَلَى مَعْرِفَة الْمُدَد، وَأَنَّهُ يُسْتَخْرَج مِنْ ذَلِكَ أَوْقَات الْحَوَادِث وَالْفِتَن وَالْمَلاحِم فَقَدْ اِدَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ وَطَارَ فِي غَيْر مَطَاره، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيث ضَعِيف وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَدَلّ عَلَى بُطْلان هَذَا الْمَسْلَك مِنْ التَّمَسُّك بِهِ عَلَى صِحَّته، وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار صَاحِب الْمَغَازِي: حَدَّثَنِي الْكَلْبِيّ عَنْ أَبِي صَالِح، عَن اِبْن عَبَّاس، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله بْن رَبَاب قَالَ: مَرَّ أَبُو يَاسِر بْن أَخْطَب فِي رِجَال مِنْ يَهُود بِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَتْلُو فَاتِحَة سُورَة الْبَقَرَة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ فَأَتَى أَخَاهُ اِبْن أَخْطَب فِي رِجَال مِن الْيَهُود فَقَالَ: تَعْلَمُونَ وَالله لَقَدْ سَمِعْت مُحَمَّدًا يَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ الله تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾، فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْته؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَشَى حُيَيّ بْن أَخْطَب فِي أُولَئِكَ النَّفَر مِن الْيَهُود إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، أَلَم يُذْكَر أَنَّك تَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ الله عَلَيْك: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؟ فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «بَلَى» فَقَالُوا: جَاءَك بِهَذَا جِبْرِيل مِنْ عِنْد الله؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالُوا: لَقَدْ بَعَثَ الله قَبْلك أَنْبِيَاء مَا نَعْلَمهُم، بَيَّنَ لِنَبِيّ مِنْهُمْ مَا مُدَّة مُلْكه وَمَا أَجَل أُمَّته غَيْرك.

فَقَامَ حُيَيّ بْن أَخْطَب وَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ فَقَالَ لَهُمْ: الأَلِف وَاحِدَة وَاللام ثَلاثُونَ وَالْمِيم أَرْبَعُونَ فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَة، أَفَتَدْخُلُونَ فِي دِين نَبِيّ إِنَّمَا مُدَّة مُلْكه وَأَجَل أُمَّته إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَة؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْره؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: مَا ذَاكَ؟ قَالَ: «المص». قَالَ: هَذَا أَثْقَل وَأَطْوَل، الأَلِف وَاحِدَة وَاللام ثَلاثُونَ وَالْمِيم أَرْبَعُونَ وَالصَّاد تِسْعُونَ فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلاثُونَ وَمِائَة سَنَة. هَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّد غَيْره؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ مَا ذَاكَ؟ قَالَ: «الر». قَالَ: هَذَا أَثْقَل وَأَطْوَل الأَلِف وَاحِدَة، وَاللام ثَلاثُونَ، وَالرَّاء مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلاثُونَ

وَماتَتَا سَنَة. فَهَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّد غَيْره؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: مَاذَا؟ قَالَ: «المر». قَالَ: هَذِهِ أَثْقَل وَأَطْوَل، الأَلِف وَاحِدَة وَاللام ثَلاثُونَ وَالْمِيم أَرْبَعُونَ وَالرَّاء مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ لَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُك يَا مُحَمَّد حَتَّى مَا نَدْرِي أَقَلِيلاً أُعْطِيت أَمْ كَثِيرًا.

ثُمَّ قَالَ: قُومُوا عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ أَبُو يَاسِر لأَخِيهِ حُيَيّ بْن أَخْطَب وَلِمَنْ مَعَهُ مِن الأَحْبَار: مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ قَدْ جَمَعَ هَذَا لِمُحَمَّدٍ كُلّه إِحْدَى وَسَبْعُونَ، وَإِحْدَى وَثَلاثُونَ وَمِائَة، وَإِحْدَى وَثَلاثُونَ وَمِائَتَانِ، وَإِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ، فَذَلِكَ سَبْعمِائَة وَأَرْبَع سِنِينَ؟ فَقَالُوا: لَقَدْ تَشَابَهَ عَلَيْنَا أَمْره، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَؤُلاءِ الآيَات نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] فَهَذَا الْحَدِيث مَدَاره عَلَى مُحَمَّد بْن السَّائِب الْكَلْبِيّ وَهُوَ مِمَّنْ لا يُحْتَجّ بِمَا اِنْفَرَدَ بِهِ، ثُمَّ كَانَ مُقْتَضَى هَذَا الْمَسْلَك إِنْ كَانَ صَحِيحًا أَنْ يَحْسِب مَا لِكُلِّ حَرْف مِنْ الْحُرُوف الأَرْبَعَة عَشَر الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَذَلِكَ يَبْلُغ مِنْهُ جُمْلَة كَثِيرَة، وَإِنْ حُسِبَتْ مَعَ التَّكَرُّر فَأَطَمّ وَأَعْظَم، وَاَللَّه أَعْلَم. ا.هـ.

٢ - ومن المعاني الباطلة أيضًا استغلال بعض المبتدعة والزنادقة لورود عدد معين في القرآن، من أجل تعظيم ذلك العدد، وإحداث عبادات مبتدعة مرتبطة بهذا العدد، كهذا الدكتور الضال الذي ادعى أن العدد (١٩) له خصوصية في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ولأن حروف البسملة تسعة عشر، ثم أخذ يستعمل الحاسب في استخراج أشياء من هذا القبيل ككون الحرف الفلاني تكرر في السورة الفلانية كذا مرة، وهذا من مضاعفات الـ ١٩، ثم خلص في النهاية إلى أن المسلمين عليهم أن يصوموا ١٩ يومًا ويتقربوا بـ (١٩) من كذا وكذا من العبادات، وهذا لا ريب أنه من البدع والضلالات، وبوسع كل إنسان لو فتش وحسب أن يستخرج مثل ما استخرج هذا المبتدع ولكن لأعداد أخرى.

٣ - وكذلك تعظيم بعض الجماعات الإسلامية للعدد (٤٠) لأنه ورد في قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ فاستحبوا تخصيص هذا العدد بأشياء من الخير تفعل (٤٠) يومًا أو مرة، ونسي هؤلاء أن النفساء كانت تترك الصلاة في زمن النبي ﷺ أربعين ليلة أيضًا.

فالخلاصة: أن هذا المسلك مسلك بدعي، ولو كان فيه خير لسبقنا إليه أصحاب محمد ﷺ، وورود العدد أو مضاعفاته في القرآن لا يعني إحداث عبادات متعلقة به، ولا يعني التعظيم لهذا العدد، فلا مزية له على غيره. هذا ما لديّ، والله تعالى أعلم.

ذكر الله ﷻ في آياته أشياء كثيرة، وجاء العلماء ودققوا فيها فوجدوا توافقًا غريبًا، فوجدوا أن: كلمة الدنيا قد ذكرت في القرآن ١١٥ وذكرت الآخرة ١١٥، وقد ذكرت الملائكة في القرآن ٨٨، وذكرت الشياطين ٨٨، وقد ذكرت الحياة في القرآن ١٤٥ وذكر الموت ١٤٥، وقد ذكر النفع ٥٠، وذكر الفساد ٥٠، وقد ذكرت الناس ٣٦٨، وذكرت الرسل ٣٦٨، وقد ذكر إبليس ١١، والاستعاذة من إبليس ١١، وقد ذكرت المصيبة ٧٥، وذكرت الشكر ٧٥، وقد ذكرت الإنفاق ٧٣، وذكرت الرضا ٧٣، وقد ذكرت الضالون ١٧، وذكرت الموتى ١٧، وذكرت كلمة المسلمين ٤١، وذكرت الجهاد ٤١، وقد ذكرت الذهب ٨، وذكرت الترف ٨، وقد ذكرت السحر ٦٠، وذكرت الفتنة ٦٠، وقد ذكرت الزكاة ٣٢، وذكرت البركة ٣٢، وقد ذكرت العقل ٤٩، وذكرت النور ٤٩، وقد ذكرت اللسان ٢٥، وذكرت الموعظة ٢٥، وقد ذكرت الرغبة ٨، وذكرت الرهبة ٨، وقد ذكرت الجهر ١٦، وذكرت العلانية ١٦، وقد ذكرت الشدة ١١٤، وذكرت الصبر ١١٤، وقد ذكرت محمد ﷺ ٤، وذكرت الشريعة ٤، وقد ذكرت الرجل ٢٤، وذكرت المرأة ٢٤، وقد ذكرت الصلاة ٥، وقد ذكرت الشهر ١٢ وقد ذكرت اليوم ٣٦٥، وقد ذكرت البحر ٣٢، وقد ذكرت البر ١٣.

فقد ذكرت كلمة البحار - أي: المياه - في القرآن الكريم ٣٢ مرة، وذكرت كلمة البر - أي: اليابسة - في القرآن الكريم ١٣ مرة. فإذا جمعنا عدد كلمات البحار المذكورة في القرآن الكريم وعدد كلمات البر، فسنحصل على المجموع كالتالي: ٤٥، وإذا قمنا بصنع معادلة بسيطة كالتالي:

مجموع كلمات البحر/ مجموع كلمات البر والبحر =

(٣٢ / ٤٥) ١٠٠ = ٧١,١١١١١١١١١١٪

ومجموع كلمات البر / مجموع كلمات البر والبحر =

(١٣ / ٤٥) ١٠٠ = ٢٨,٨٨٨٨٨٨٨٨٨٩٪

وهكذا بعد هذه المعادلة البسيطة، نحصل على هذا الناتج المُعجز الذي توصل له القرآن من ١٤ قرنًا، فالعلم الحديث توصل إلى أن نسبة المياه على الكرة الأرضية = ٧١,١١١١١١١١١١ ٪ ونسبة اليابسة على الكرة الأرضية = ٢٨,٨٨٨٨٨٨٨٨٨٩ ٪ وإذا جمعنا العدد الأول مع العدد الثاني فإننا نحصل على الناتج = ١٠٠٪ وهي مجموع نسبة الكرة الأرضية بالفعل، فما قولك بهذا الإعجاز! هل هذه صدفة؟ من علَّم محمدًا هذا الكلام كله؟ من علم النبي الأمي في الأربعين من عمره هذا الكلام؟ ولكني أقول لك: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٣-٥]

***

أسرار الرقم سبعة في القرآن الكريم، ولماذا اقتضت مشيئة الله ﷻ اختيار هذا الرقم بالذات؟

هذا الرقم يملك دلالات كثيرة في الكون والقرآن وأحاديث المصطفى ﷺ حتى تكرار هذا الرقم في كتاب الله جاء بنظام محكم، وهذا البحث يقدم البراهين على ذلك، فلا يوجد كتاب واحد في العالم يتكرر فيه الرقم سبعة بنظام مشابه للنظام القرآني، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذا الرقم وأنه رقم يشهد على وحدانية الله تعالى.

فعندما ندرك أن النظام الكوني قائم على الرقم سبعة، ونكتشف الرقم ذاته يتكرر بنظام في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرنًا، فإن هذا التشابه يدل على أن خالق الكون هو مُنَزِّل القرآن ﷻ

إن هذا البحث لا يمثل كل أسرار هذا الرقم، بل هنالك أشياء كثيرة يصعب حصرها تتعلق بالرقم سبعة، ولكن عدد الصفحات المخصص لهذا البحث اتسع لأهم الحقائق حول هذا الرقم، ويمكن للقارئ الكريم أن يتتبع بقية أجزاء هذه السلسلة المبسطة في معجزة الرقم سبعة ليكشف الكثير من الحقائق الرقمية التي

تثبت أن القرآن هو كتاب الله تعالى أنزله بعلمه ورتَّب كل شيء فيه بشكل لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله.

* الرقم سبعة في الكون:

عندما بدأ الله خلق هذا الكون اختار الرقم سبعة ليجعل عدد السماوات سبعة وعدد الأراضين سبعة، يقول ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، حتى الذرة التي تعد الوحدة الأساسية للبناء الكوني تتألف من سبع طبقات إلكترونية ولا يمكن أن تكون أكثر من ذلك، كما أن عدد أيام الأسبوع سبعة، وعدد العلامات الموسيقية سبعة وعدد ألوان الطيف الضوئي المرئي هو سبعة، ويجب ألا يغيب عنا أن علماء الأرض اكتشفوا حديثًا أن الكرة الأرضية تتكون من سبع طبقات.

* الرقم سبعة في الأحاديث الشريفة:

كثيرة هي الأحاديث النبوية الشريفة التي نطق بها سيد البشر محمد ﷺ كثيرة، وقد كان للرقم سبعة حظ وافر في هذه الأحاديث، وهذا يدل على أهمية هذا الرقم وكثرة دلالاته وأسراره، فعندما تحدث الرسول الكريم عن الموبقات والكبائر حدد سبعة أنواع فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات...» [البخاري ومسلم].

وعندما تحدث عن الذين يظلهم الله ﷻ يوم القيامة حدد سبعة أصناف فقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» [البخاري ومسلم].

وعندما يتحدث عن الظلم وأخذ شيء من الأرض بغير حقه، فإنما يجعل من الرقم سبعة رمزًا للعذاب يوم القيامة، يقول عليه الصلاة والسلام: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أراضين» [البخاري ومسلم].

وعندما أخبرنا عليه الصلاة والسلام عن أعظم سورة في كتاب الله قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [البخاري].

وفي السجود يخبرنا الرسول الكريم ﷺ عن الأمر الإلهي بالسجود على سبعة أعضاء فيقول: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعظُم» [رواه البخاري ومسلم].

أما إذا ولغ الكلب في الإناء فإن طهوره يتحدد بغسله سبع مرات إحداهن

بالتراب، وعندما تحدث عن القرآن جعل للرقم سبعة علاقة وثيقة بهذا الكتاب العظيم فقال: «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف» [رواه البخاري ومسلم]. وهذا الحديث يدل على أن حروف القرآن تسير بنظام سُباعي مُحكم، والله تعالى أعلم.

وقد تحدث الرسول ﷺ عن جهنم يوم القيامة فقال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام» [رواه مسلم].

وفي أسباب الشفاء أمرنا الرسول الكريم ﷺ أن نضع يدنا على مكان الألم ونقول سبع مرات: «أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» [رواه مسلم]. حتى عندما يكون الحديث عن الطعام نجد للرقم سبعة الحضور، يقول ﷺ: من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر» [رواه البخاري ومسلم]. أما الحديث عن الصيام في سبيل الله نجد من الأجر الشيء الكثير الذي أعده الله للصائم، يقول رسول الله ﷺ: «ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا» [رواه البخاري ومسلم].

وعندما قدم أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يخبره عن المدة التي يختم فيها القرآن فقال عليه الصلاة والسلام: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك» [البخاري ومسلم]. كما كان الرسول ﷺ يستجير بالله من عذاب جهنم سبع مرات فيقول: «اللهم أجرني من النار» [رواه النسائي]. كما كان عليه الصلاة والسلام يستغفر الله سبعين مرة.

يقول الرسول ﷺ عن مضاعفة الأجر: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف» [رواه مسلم].

هذه الأحاديث الشريفة وغيرها كثير تدل على أن النبي ﷺ قد خصَّ هذا الرقم بالذكر دون سائر الأرقام بسبب أهميته. فهو الرقم الأكثر تكرارًا في أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام.

* الرقم سبعة والحج:

نعلم جميعًا أن عبادة الحج تمثل الركن الخامس من أركان الإسلام، في هذه العبادة يطوف المؤمن حول بيت الله الحرام سبعة أشواط، ويسعى بين الصفا

والمروة سبعة أشواط أيضًا، وعندما يرمي الجمرات فإن الرسول الكريم ﷺ قد رمى سبع جمرات أيضًا، وقد ورد ذكر هذا الرقم في الآية التي تحدثت عن الحج والعمرة، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦]

والعجيب أن رقم هذه الآية هو (١٩٦) وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة مرتين، فهو يساوي سبعة في سبعة في أربعة، أي: ١٩٦ = ٧ × ٧ × ٤.

* الرقم سبعة في القصة القرآنية:

تكرر ذكر الرقم سبعة في القصص القرآني، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه للتفكر في خالق السماوات السبع فيقول لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥] أما سيدنا يوسف عليه السلام فقد فسر رؤيا الملك القائمة على هذا الرقم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف:٤٣]

وقد ورد ذكر الرقم سبعة في عذاب قوم سيدنا هود الذي أرسله الله إلى قبيلة عاد فأرسل عليهم الله الريح العاتية، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة:٦،٧] وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام ورد ذكر الرقم سبعين وهو من مضاعفات الرقم سبعة، يقول تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]

وقد ورد هذا الرقم في قصة أصحاب الكهف، يقول ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]

إذن هناك علاقة بين تكرار القصة القرآنية والرقم سبعة.

* الرقم سبعة ويوم القيامة:

لا يقتصر ذكر الرقم سبعة على الحياة الدنيا، بل نجد له حضورًا في الآخرة.

إن كلمة (القيامة) تكررت في القرآن الكريم سبعين مرة؛ أي عددًا من مضاعفات السبعة، فالعدد سبعين هو حاصل ضرب سبعة في عشرة: ٧٠ = ٧ × ١٠.

وكلمة (جهنم) تكررت في القرآن كله سبعًا وسبعين مرة، أي من مضاعفات السبعة: ٧٧ = ٧ × ١١. وعن أبواب جهنم السبعة يقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٣، ٤٤]. أما عن عذاب الله في ذلك اليوم فنجد مضاعفات الرقم سبعة، يقول ﷻ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠]

ولا ننسى بأن الله تعالى قد ذكر الرقم سبعة عند الحديث عن كلماته فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧]

* الرقم سبعة والصدقات:

ورد ذكر هذا الرقم في مضاعفة الأجر من الله تعالى لمن أنفق أمواله في سبيل الله، يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

ورد ذكر الرقم (سبعين) وهو من مضاعفات السبعة في سورة التوبة في استغفار الرسول ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠].

وفي القرآن الكريم سبع سور بدأت بالتسبيح لله تعالى، وهي: الإسراء، الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى.

* الرقم سبعة وحروف القرآن:

لقد اقتضت حكمة البارئ ﷻ أن ينزل هذا القرآن باللغة العربية، وجعل عدد حروف هذه اللغة ثمانية وعشرين حرفًا، أي عددًا من مضاعفات السبعة: ٢٨ = ٧ × ٤.

وأول مرة ورد هذا الرقم لعدد آيات سورة الفاتحة التي افتتح الله تعالى بها هذا القرآن،

وقد خاطب الله ﷻ سيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام فقال له: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]. والسبع المثاني هي سورة الفاتحة، وهي أول سورة في القرآن الكريم، وهي سبع آيات، وعدد الحروف الأبجدية التي تركبت منها هذه السورة هو (٢١) حرفًا أي: ٢١ = ٧ × ٣

في القرآن الكريم هنالك سورة مميزة ميزها الله تعالى عن غيرها فوضع في أوائلها حروفًا مميزة مثل: (الم ـ الر ـ حم ـ يس ـ ق...) إن عدد هذه الافتتاحيات

المميزة عدا المكرر أربعة عشر؛ أي من مضاعفات السبعة: ١٤ = ٧ × ٢

وإذا أحصينا الحروف التي تركب منها هذه الافتتاحيات عدا المكرر (أي: عددنا الحروف الأبجدية التي تركبت فيها الافتتاحيات المميزة في السور ذات الفواتح)
وجدنا أيضًا أربعة عشر حرفًا، أي: ١٤ = ٧ × ٢

هذه الحروف موجودة كلها في سورة الفاتحة، إذن عدد الحروف المميزة في سورة السبع المثاني هو (١٤)، وعدد هذه الحروف مع المكرر يصبح (١١٩) حرفًا في هذه السورة، وهذا العدد من مضاعفات السبعة: ١١٩ = ٧ × ١٧

هنالك عبارة تتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد:٤]. وقوله أيضًا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان:٥٩]. هذه العبارات تكررت في القرآن كله سبع مرات بعدد السماوات السبع، كما أن عبارتي ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ قد تكررتا في القرآن كله سبع مرات بالضبط.

في القرآن الكريم لكل سورة عدد من الآيات، وقد بحثت عن السور التي عدد آياتها من مضاعفات السبعة فوجدتها بالضبط (١٤) سورة، أي سبعة في اثنين، والعجيب أن أول سورة عدد آياتها سبع هي سورة الفاتحة ورقمها (١) في القرآن، وآخر سورة عدد آياتها سبع هي سورة الماعون ورقمها (١٠٧) في القرآن. وعند ضم هذين العددين أي (١) و(١٠٧) نحصل على عدد جديد هو (١٠٧١)، وهذا العدد يقبل القسمة على سبعة كيفما قرأناه من اليسار أم من اليمين، لنرى ذلك:

١ - قراءة العدد من اليسار: ١٠٧١ = ٧ × ١٥٣.

٢ - قراءة العدد من اليمين: ١٧٠١ = ٧ × ٢٤٣.

ولو قمنا بعَد السور الواقعة بين هاتين السورتين - أي الفاتحة والماعون - لوجدنا (١٠٥) سور وهذا العدد من مضاعفات السبعة: ١٠٥ = ٧ × ١٥.

والعجيب أن عدد حروف اسم كل سورة يساوي سبعة! فعدد حروف كلمة (الفاتحة) سبعة، وعدد حروف كلمة (الماعون) سبعة أيضًا.

* تكرار الرقم سبعة في القرآن:

إذا فتشنا بين كلمات القرآن ومن خلال المعجم المفهرس لألفاظ القرآن عن الرقم سبعة فإننا نلاحظ أن الرقم سبعة هو الأكثر تكرارًا بعد الرقم واحد، فمادة (سَبَعَ) تكررت (٢٨) مرة أي (٧ × ٤) وعلى صيغ متنوعة: (سبع، سبعًا، سبعة، سبعون...) وفي هذه الفقرة نختار كلمة (سبعة) لنجد أنها تكررت في القرآن كله (٤) مرات في الآيات الآتية:

١ - ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦].

٢ - ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤].

٣ - ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢].

٤ - ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

إذن كلمة (سبعة) تكررت في القرآن أربع مرات في الآيات: البقرة (١٩٦)، الحجر (٤٤)، الكهف (٢٢)، لقمان (٢٧).

إن العدد الذي يمثل أرقام الآيات هو (٢٧٢٢٤٤١٩٦) من مضاعفات السبعة لمرتين فهو يساوي: ٧ × ٧ × ٥٥٥٦٠٠٤.

إذن رتب الله تعالى بقدرته وحكمته أرقام هذه الآيات بحيث تقبل القسمة على سبعة لتكون دليلاً ماديًا على أن كل شيء في هذا القرآن مُحكم: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

في الآيات الأربعة السابقة آيتان تحدثت الأولى عن عذاب الله وتحدثت الثانية عن كلمات الله وهما:

١ - ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحجر:٤٤].

٢ - ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان:٢٧].

وقد جاءت أرقام هاتين الآيتين: (٤٤ _ ٢٧) لتشكل عددًا من مضاعفات السبعة ثلاث مرات!! ٢٧٤٤ = ٧ × ٧ × ٧ × ٨.

هنالك شيء آخر وهو أن رقم أول آية من الآيات الأربعة هو (١٩٦) وهذا

العدد من مضاعفات السبعة مرتين: ١٩٦ = ٧ × ٧ × ٤.

والآيات الثلاث الباقية وهي: (٤٤ - ٢٢ - ٢٧) تشكل عددًا من مضاعفات السبعة لمرتين أيضًا: ٢٧٢٢٤٤ = ٧ × ٧ × ٥٥٥٦.

و ناتج القسمة (٥٥٥٦) مجموع أرقامه يعطي عددًا من مضاعفات السبعة! ٦ + ٥ + ٥ + ٥ = ٢١ = ٧ × ٣.

* الرقم سبعة (أول مرة وآخر مرة):

لقد ورد ذكر الرقم (٧) في القرآن الكريم لأول مرة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[البقرة:٢٩]. وآخر مرة ورد ذكر هذا الرقم في القرآن في سورة النبأ من قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

والآن إلى الحقائق التالية حول هاتين الآيتين:

الحقيقة الأولى: عدد السور من سورة البقرة وحتى سورة النبأ هو (٧٧) سورة، وهذا الرقم من مضاعفات السبعة: ٧٧ = ٧ × ١١

إن عدد الآيات من الآية الأولى وحتى الأخيرة حيث ورد الرقم سبعة هو (٥٦٤٩) من مضاعفات السبعة أيضًا: ٥٦٤٩ = ٧ × ٨٠٧

الحقيقة الثانية: من بداية سورة البقرة وحتى نهاية سورة النبأ يوجد بالضبط (٥٧٠٥) آية وهذا العدد من مضاعفات السبعة: ٥٧٠٥ = ٧ × ٨١٥

إذن عدد السور جاء من مضاعفات السبعة، وعدد الآيات جاء من مضاعفات السبعة أيضًا، والحديث في الآيتين عن الرقم سبعة.

الحقيقة الثالثة: أن عدد الآيات من بداية القرآن وحتى الآية حيث ذكر الرقم (٧) لأول مرة يساوي (٣٥) آية وهذا العدد من مضاعفات السبعة: ٣٥ = ٧ × ٥

كذلك عدد الآيات من بداية القرآن وحتى آخر مرة ورد فيها هذا الرقم هو (٥٦٨٤) وهذا العدد من مضاعفات السبعة لمرتين: ٥٦٨٤ = ٧ × ٧ × ١١٦

الحقيقة الرابعة: أن عدد الآيات من بداية سورة البقرة وحتى الآية حيث ورد الرقم (٧) لأول مرة هو (٢٨) آية أي: ٢٨ = ٧ × ٤

أما آخر مرة ورد هذا الرقم كما رأينا في سورة النبأ، يوجد بعد هذه الآية لنهاية سورة النبأ (٢٨) آية بالضبط أي (٧ × ٤).

الحقيقة الخامسة: ما عدد الآيات من بداية القرآن وحتى نهاية سورة النبأ؟ يوجد من بداية القرآن وحتى نهاية سورة النبأ حيث ذكر الرقم (٧) آخر مرة، عدد الآيات هو (٥٧١٢) وهذا العدد من مضاعفات السبعة: ٥٧١٢ = ٧ × ٨١٦

كما تجدر الإشارة إلى أن عدد حروف كلمة (البقرة) هو (٦) حروف، وعدد حروف كلمة (النبأ) هو (٥) حروف وبصف هذين الرقمين يتشكل العدد (٥٦) من مضاعفات السبعة: ٥٦ = ٧ × ٨

أما الرقم (٧) فقد ورد أول مرة في القرآن بالصيغة الآتية (سبع) عدد حروف هذه الكلمة (٣) أحرف، وآخر مرة ورد هذا الرقم في القرآن بالصيغة الآتية ﴿سَبْعًا﴾ وعدد حروف هذه الكلمة هو (٤) حروف. إن مجموع هذين الرقمين هو سبعة: ٣ + ٤ = ٧

بقي أن نشير إلى أن عبارة ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وعبارة ﴿السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ تكررتا في القرآن الكريم سبع مرات بعدد السماوات السبع. وأن كلمة ﴿جَهَنَّمَ﴾ تكررت في القرآن

(٧٧) مرة وهذا العدد يساوي: ٧٧ = ٧ × ١١

ولا ننسى بأن الله تعالى قد جعل لجهنم سبعة أبواب وقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[الحجر:٤٣، ٤٤]. وأن كلمة ﴿الْقِيَامَةِ﴾ تكررت في القرآن كله (٧٠) مرة من مضاعفات الرقم سبعة: ٧٠ = ٧ × ١٠

* الذرة في القرآن:

وردت الذرة في القرآن الكريم ست مرات في الآيات التالية:

١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠].

٢ - ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[يونس:٦١]

٣ - ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا

أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

٤ - ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

٥ - ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

٦ - ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

نلاحظ أن كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ قد تكررت ست مرات في أربع سور من القرآن، توجد مجموعة من الحقائق الرقمية لتوافق أرقام هذه السور الأربعة مع الرقم سبعة، وقبل عرض هذه الحقائق يجب أن نتذكر بأن الذرة تتألف من سبع طبقات!

أول مرة وردت كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ في القرآن في سور النساء التي رقمها (٤) في المصحف، وآخر مرة ذكرت كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ في سورة الزلزلة رقمها (٩٩)، وعند صفّ هذين الرقمين ٤ - ٩٩ يتشكل العدد (٩٩٤) وهو من مضاعفات السبعة: ٩٩٤ = ٧ × ١٤٢

إن أرقام الآيتين أيضًا تشكل عددًا من مضاعفات السبعة، فرقم الآية الأولى حيث وردت كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ هو (٤٠)، ورقم الآية حيث وردت هذه الكلمة لآخر مرة في القرآن هو (٨) وعند صفّ هذين الرقمين يتشكل العدد (٨٤٠) وهو من مضاعفات السبعة: ٨٤٠ = ٧ × ١٢٠

إن مجموع أرقام السور الأربعة أيضًا من مضاعفات السبعة لمرتين:

٤ + ١٠ + ٣٤ + ٩٩ = ١٤٧ = ٧ × ٧ × ٣

من الملاحظ أن هنالك سورًا وردت فيها كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ مرتين، وسورًا وردت فيها هذه الكلمة مرة واحدة، فهل من نظام محكم؟

في سورة النساء ويونس وردت كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ مرة، وفي سورتي سبأ والزلزلة وردت كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ مرتين، وإلى الحقائق الآتية:

١ - مجموع أرقام سورتي النساء ويونس هو عدد من مضاعفات السبعة:

٤ + ١٠ = ١٤ = ٧ × ٢

٢ - مجموع أرقام سورتي سبأ والزلزلة أيضًا من مضاعفات السبعة:

٣٤ + ٩٩ = ١٣٣ = ٧ × ١٩

٣ - مجموع ناتجي القسمة في الحالتين هو:

٢ + ١٩ = ٢١ = ٧ × ٣

٤ - إذا عبرنا عن كل سورة من هذه السور الأربع برقم السورة وعدد مرات تكرار كلمة ﴿ذَرَّةٍ﴾ فيها نجد: النساء (٤/١)، يونس (١٠/١)، سبإ (٣٤/٢)، الزلزلة (٩٩/٢)، وعند صفّ هذه الأرقام يتشكل العدد (٢٩٩٢٣٤١١٠١٤) وهو من مضاعفات السبعة فهو يساوي:

٧ × ٤٢٧٤٧٧٣٠٠٢

وهكذا لو أبحرنا في أي كلمة من كلمات كتاب الله ﷻ لرأينا عجائب لا تنتهي، وصدق الرسول الكريم ﷺ عندما قال: «ولا تنقضي عجائبه» رواه الترمذي. ولا نعجب إذا علمنا أنه في كل آية بل في كل كلمة من كتاب الله تعالى معجزة مبهرة ونظام محكم يدل على عظمة الخالق تبارك وتعالى.

* خاتمة:

رأينا من خلال الصفحات السابقة بعض أسرار الرقم سبعة، فهو رقم جدير بالاهتمام والدراسة، ونحب أن نشير إلى أن القرآن مليء ومليء بالحقائق الرقمية التي تؤكد وجود نظام سباعي يشمل سور وآيات وكلمات وحروف القرآن العظيم، ولا نبالغ إذا قلنا: في كل حرف من حروف القرآن معجزة تستحق التدبر والتبصر.

وتأمل معي هذا النداء الإلهي الخالد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]. و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الابتسامة

أعرفه منذ سنين، فهو أحد زملائي في عملي على كل حال، لكن هل تصدق أنني إلى الآن لا أدري هل نبتت له أسنان أم لا؟! دائم التجهم والعبوس وكأنه إذا ابتسم نقص عمره أو قلّ ماله!!

قال جرير بن عبد الله البجلي: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي.

* الابتسامة أنواع ومراتب:

فمنها البشاشة الدائمة، أن يكون وجهك صبوحًا مبتهجًا دائمًا، فلو كنت مدرسًا ودخلت الفصل على طلابك فالقهم بوجه بشوش، ركبت طائرة ومشيت في الممر والناس ينظرون إليك كن بشوشًا، دخلت بقالة أو محطة وقود، مددت له الحساب، ابتسم.

في المجلس ودخل شخص وسلم بصوت عالٍ، ومر بنظره على الجالسين؛ ابتسم، دخلت على مجموعة وصافحتهم؛ ابتسم.

وعمومًا: الابتسامة لها من التأثير الكبير في امتصاص الغضب والشك والتردد ما لا يشاركها غيرها، فالبطل هو الذي يستطيع التغلب على عواطفه والتبسم.

كان أنس بن مالك رضي الله عنه يمشي مع النبي ﷺ يومًا.. والنبي ﷺ عليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فلحقهما أعرابي، أقبل هذا الأعرابي يجري وراء النبي ﷺ يريد أن يلحق به، حتى إذا اقترب منه جبذه بردائه جبذة شديدة، فتحرك الرداء بعنف على رقبة النبي ﷺ، قال أنس: حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته.

فماذا يريد هذا الرجل؟! لعل بيته يحترق وأقبل يريد معونة، أو أحاطت بهم غارة من المشركين... اسمع ماذا يريد، قال: يا محمد.. (لاحظ لم يقل: يا رسول الله).

قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

نعم، كان ﷺ بطلاً لا تستفزه مثل هذه التصرفات، ولا يعاقب أو تثور أعصابه على التفاهات، كان واسع البطان، قويًا يضبط أعصابه، دائم الابتسامة حتى في أحلك الظروف، يفكر في عواقب الأمور قبل أن يفعلها.

وماذا يفيد لو أنه صرخ بالرجل أو طرده! هل سيشفى جرح عنقه! أو يصلح أدب الرجل! كلا. إذن ليس مثل الصبر والتحمل.

نعم بعض الأمور نثور لها ونغضب، وعلاجها شيء آخر تمامًا، وصدق ﷺ لما قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

كان النبي الكريم ﷺ يجذب الناس بالتبسم والبشاشة، فلقد خرج المسلمون إلى غزوة خيبر، وفي أثناء القتال وقع من حصن اليهود جراب فيه شحم - قربة كاملة مملوءة سمنًا - حمله عبد الله بن مغفل رضي الله عنه على عاتقه فرحًا ومضى به إلى رحله وأصحابه، فلقيه الرجل المسئول عن جمع الغنائم وترتيبها، فجذب الجراب إليه وقال: هاتِ هذا نقسمه بين المسلمين، فتعلق به عبد الله: لا والله، لا أعطيكه، أنا أصبته، قال: بلى، وجعلا يتجاذبا الجراب، فمر بهما رسول الله ﷺ.. فرآهما وهما يتجاذبان الجراب، فتبسم ﷺ ضاحكًا، ثم قال لصاحب المغانم: «لا أبًا لك، خل بينه وبينه» فتركه فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه فأكلوه.

وأخيرًا.. تبسمك في وجه أخيك صدقة.

قال: السماء كئيبة وتجهما	قلت: ابتسم، يكفي التجهم في السما
قال: الصبا ولى فقلت له: ابتسم	لن يرجع الأسف الصبا المتصرما
قال: التي كانت سمائي في الهوى	صارت لنفسي في الغرام جهنما
خانت عهودي بعدما ملكتها	قلبي فكيف أطيق أن أتبسما
قلت: ابتسم واطرب فلو قارنتها	قضيت عمرك كله متألما
قال: العدى حولي علت صيحاتهم	أَأُسَرُّ والأعداء حولي في الحمى
قلت: ابتسم، لم يطلبوك بذمهم	لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما!

قـــال: الليـــالي جـــرعتني علقمًـــا ... قلـت: ابتـسم ولـئن جرعـت العلقمـا

فلعـــل غـــيرك إن رآك مُرَنِّـــمًا ... طـــرح الكآبـــة خلفـــه وترنمـــا

أتـــراك تغـــنم بـــالترنم درهمًـــا ... أم أنـــت تخـــسر بالبـــشاشة مغنمًـــا

فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى ... متـلاطـم ولـذا نحـب الأنـجـمـا

* * *

الشات في القنوات الفضائية

شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظهور القنوات الفضائية وانتشارها على نطاق واسع؛ مما أدى إلى تحول العالم إلى قرية كونية صغيرة تربطها شبكة اتصالات واحدة عبر الأقمار الصناعية، كما تنامت قوة الإعلام الفضائي، وزادت المنافسة بين القنوات الفضائية على استقطاب المشاهدين أمام الأجهزة المرئية، وذلك من خلال ما تبثه من برامج تستهدف كل الفئات العمرية.

ولو نظرنا إلى وقائع الإعلام العربي لرأيناه في حالة يُرثى لها؛ حيث هذه القنوات بمثابة ثكنات فضائية تعمل على انقلاب اجتماعي في حياتنا، في الانقلاب العسكري يكون الأمر منوطًا بفرقة أو سرية بينما في الثورة الإعلامية يكون السلاح هو الفضائيات التي تنتشر كالسرطان، وفي طليعة هذه الثورة هي الكليبات ومعها سلاح آخر هو الشات أو الدردشة عبر الفضائيات.

قبل فترة كان مجرد السماع أن هناك مشهدًا لقبلة ساخنة في فيلم سينمائي يعتبر حدثًا جللاً، تقوم له الدنيا ولا تقعد وكان الأمر يناقش في البرلمانات العربية، أما اليوم فقد أصبح هذا جزءًا من التاريخ الغابر، بثورة الفضائيات ظننا أن المصيبة تأتينا من الأفلام فجاءتنا من الفيديو كليب والشات، وتحولت بعض الأغنيات أو الكليبات لتنافس أشد القنوات الإباحية الغربية فجورًا.

ولأن معظم أوقاتي في الدوام أو النادي أو مشاهدة قناة الجزيرة الفضائية أو قناة الكأس، حتى فوجئت منذ أيام قليلة بأحد الأصدقاء يحدق بعمق في إحدى الأغنيات المصورة سيئة السمعة، وقتها لم أتمالك أعصابي حتى قمت بتغيير القناة بسرعة إلى القناة السودانية التي كانت تليها ولحسن الظن كانت عليها أخبار الرياضة.

والطامة الكبرى هنا: أن هناك أطفالاً يمتلكون إمكانيات رهيبة في فك شفرات القنوات المغلقة، ناهيك عن بعض قنوات «الكيبل» المدفوعة الأجر وهي كارثة

أخرى، لكن المشاهد يشترك فيها باختياره الحر دون ضغط.

وكما أن ما يُشاهده الأفراد وخصوصًا الأطفال فإن ذلك يترسخ في أذهانهم، وإذا كان مصحوبًا بموسيقى ماجنة وصور فاضحة لنا أن نتصور أي نوع من الأطفال سيكون لدينا في المستقبل.

قام أحد أصدقائي بإحصاء عشر قنوات غنائية وقناتين للدردشة على القمر الصناعي نايل سات، وأنتم تعلمون أي نوع من الدردشة تكون في هذه القنوات، وأن ما نراه فهو ضد الدين والأخلاق السوية والفطرة السليمة.

ليس كل القنوات الفضائية سيئة وهناك فضائيات جادة ولكنها مع الأسف الشديد قليلة مقارنة بقنوات المجون والفتن والإغراء والكليبات.

ومساحة الحرية في القنوات السيئة كبيرة جدًا حتى غدونا نشاهد في قنوت الدردشة عبارات تخدش بالحياء كـ«ابن القاهرة بيمسي على بنت تونس» و«ابن أسيوط بيدحرج االتماسي على بنت الإسكندرية» أو «سندباد السعودية بيموت في عيون بنت لبنان» وعبارات أخرى نظرًا لأن المنتدى منتدى محترم لا أستطيع كتابتها.

قد نرى البعض يُقلد الغرب في كل شيء حتى في الخلاعة والمجون، وربما هذا الأمر من القيم عند الغرب وليس عندنا، فلماذا لا نقلد الغرب في التقدم العلمي وحكم دولة المؤسسات وثقافة الديمقراطية والتعددية والشفافية، لماذا لا نقلدهم إلا في التفاهة والهيافة؟!

قد نعذر أصحاب القنوات - إن سلمنا جدلاً - لأن قنواتها تهدف الربح وإلى كسب المشاهدين ولو كان على حساب أمة، لكن نرى الصمت الرسمي المخيف على تصرفات تلك القنوات، الأمر الذي يوحي أن هناك تشجيعًا خفيًا لأرباب تلك القنوات للاستمرار في هدم الأمة.

مواجهة تلك القنوات لا بد أن تكون بالتكاتف؛ حيث يتكاتف شرفاء الأمة ضد القنوات بنشر الوعي، وتعزيز القيم المحترمة والشريفة، لشركة الاتصالات السعودية خاصةً ولشركات الاتصالات الخليجية والعربية عامة دور كبير جدًا في إفساد ما

تبقى من أخلاق شبابنا وفتياتنا في لعبها دورًا كبيرًا في فتح المجال على مصراعيه لتبذير الأموال وإفساد الأخلاق لكثير من شباب وفتيات المسلمين عبر فتح المجال لإمكانية إرسال رسائل غرامية وقليلة أدب عبر الجوال!! كل هذا في سبيل الربح المادي السريع والكبير، أيًا كان مصدره.

والله ثم والله إن مسئولي هذه الشركات لمسئولون أمام الله يوم القيامة في سماحهم وموافقتهم بفتح هذا المجال الغريب على الشاب والفتاة المسلمين!!

وشركات الاتصالات فتحت المجال لعدد من أعداء الإسلام لتسهيل إمكانية فتح أي قناة فضائية فاجرة لهدف الكسب المادي عن طريق تلك الرسائل مهما كانت نوعية المادة التي تعرضها هذه القناة!!! بل وتسابق من يملك كم دولار على فتح قناة فضائية، وأول عمل يقوم به صاحب القناة هو فتح المجال لرسائل الشات لعلمهم المسبق في إمكانية الكسب المادي السريع عن طريق فتح المجال مباشرة لاستقبال الرسائل، وفتح عدة خطوط هاتفية لجميع الدول العربية بأرقام مختصرة ويسهل حفظها لصغار السن أيضًا!!!

لقد قامت قناة (أبو ظبي) الأسبوع الماضي بمناقشة هذا الأمر مع عدد من المختصين في المجال الشرعي والاجتماعي، وجميعهم أبدوا تذمرهم من هذا الوضع، ولكن لم نسمع أي (فتوى) من مشائخنا، ولا أي قرار صارم من وزارة إعلامنا، ولا منع الرسائل من شركة اتصالاتنا في السعودية.

سأذكر لكم نوعية منحطة من إحدى الرسائل جاءت عبر قناة Lbc اللبنانية تقول الرسالة الشاتية: «نصرواي يحب يتعرف على هلاليه أو هلالي حلو»!! وغيرها الكثير من قلة الأدب وفساد الأخلاق وهدر للمال.

والقنوات الفضائية تكسب الملايين خلال أيام، بل إن بعض القنوات لم يستوعب الكم الكبير من الرسائل التي تصل قناته مما أدى بتلك القناة إلى وضع وعرض الرسائل الشاتية من حقلين فوق بعض، وأخرى قامت بإضافة رسائل على جنب الشاشة من أعلى إلى أسفل!!

أتركم مع هذه الإحصائيات المخيفة في هذا المقال!!!

رغم الانتقادات الشديدة التي توجه إليها بإفساد المجتمع وقيمه، فإن إنتاج أغنيات الفيديو كليب يتوسع يومًا بعد يوم، بل إن هناك ٥٠ مطربًا ومطربة جددًا يظهرون شهريًّا على أكثر من ١٥ قناة فضائية عربية، منهم: ميلودي، ستريك، نجوم، مزيكا، روتانا، زين، كما يصل حجم إنتاج هذه القنوات إلى آلاف الأغاني شهريًّا.

السبب المباشر لهذه الزيادة الإنتاجية في الأغاني هو كبر حجم الأرباح التي تجنيها شركات الإنتاج من الفيديو كليب، والذي أصبح وفقًا لتعريف العاملين بصناعته أقرب إلى إعلان يعرض سلعة، ألا وهي المطرب أو المطربة، فكلما كان الإعلان (الفيديو كليب) ساخنًا ويتضمن إيماءات جنسية بعضها فاضح والآخر خفي أصبحت السلعة أكثر رواجًا وبيعًا، ومن ثم أكثر ربحًا. وساعد على هذه الزيادة أيضًا ظهور القنوات الفضائية المخصصة لعرض أغاني الفيديو كليب طوال الـ٢٤ ساعة؛ حيث وجدت هذه القنوات في تلك الأغاني مادة مهمة لملء ساعات البث الخاصة بها بأقل تكلفة، بل إنه أحيانًا يصل الكليب للقناة بدون تكلفة؛ حيث تتم عمليات تبادل للأغاني بين الفضائيات، أو يهدي المطربون أغانيهم لهذه الفضائيات دون مقابل.

أما إذا كان المطرب مغمورًا فإنه يدفع أموالاً من أجل ضمان إذاعة أغانيه أكبر عدد من المرات خلال اليوم الواحد، كما هو الحال على قناتي ميلودي ودريم اللتين تضعان تسعيرة تصل إلى ١٠ آلاف جنيه (الدولار = ٦.٢٠ جنيهات مصرية) لعرض الفيديو كليب ٣ مرات يوميًّا. وعلى العكس، فهناك فضائيات تدفع أموالاً للمطربين والمطربات المشهورين - أمثال عمرو دياب ونانسي عجرم - ليتم بث أغانيهم حتى تضمن القناة الإقبال الجماهيري الكبير.

«تحالف إنتاج وفضائيات»: ومع تحالف المنتجين والفضائيات أصبحت صناعة الفيديو كليب أسرع في وتيرة إنتاجها وأكثر ربحية، خاصة أن بعض المنتجين الكبار للأغاني أصبحوا يملكون فضائيات، ومنهم على سبيل المثال محسن جابر الذي يملك قناة «مزيكا» وشركة عالم الفن للإنتاج، وقناة «روتانا» التابعة لشركة روتانا للصوتيات والمرئيات التي يمتلكها الأمير الوليد بن طلال.

وهذا التحالف جعل عملية الإنتاج تتم دون مشاكل في التسويق، فالأغنية تنتج

ثم تعرض على قناة المنتج حصريًا عشرات المرات يوميًا ثم بعد ذلك بفترة يبدأ تبادلها مع قنوات أخرى، ويقول مسئول بقناة روتانا ـ طلب عدم ذكر اسمه ـ: إن القناة تنتج حوالي ٢٠ فيديو كليب في الشهر الواحد، تعرضها أولاً على القناة الخاصة بها التي تحمل نفس الاسم ثم تهدى إنتاجها للفضائيات العربية الأخرى بعد ذلك، وخلافًا لذلك فهناك إنتاج سواء أكان فرديًا أم من شركات إنتاج صغيرة قد يصل إلى آلاف الفيديو كليب.

ويرجع بعض صناع الموسيقى ـ أمثال عمر خيرت ـ فساد الذوق العام وتدني مستوى الغناء بالعالم العربي إلى هذا التحالف بين شركات الإنتاج والقنوات الفضائية الذين لا يهتمون بشيء سوى الأرباح المالية المتواصلة، كما أن هناك قائمة من المنتفعين تبدأ من المخرج حتى العاملين وراء الكاميرا.

«أرباح مليونية»: ورغم عدم وجود إحصاءات حول حجم صناعة الفيديو كليب بسبب عدم وجود جهة موثقة لمثل هذه المعلومات، وكذلك لكثرة الأغاني والمغنين الذين يظهرون يوميًا، فإن متابعة دورة البيزنس من خلال مصادرنا ببعض القنوات الفضائية تكشف جانبًا مهمًا من هذه الصناعة.

فبمجرد دخول أغنية فيديو كليب للفضائية تأخذ رقمًا مسلسلاً يُسمى عند العاملين بالقنوات الفضائية «الكود»، والمكسب يختلف باختلاف قدرة كل قناة على استغلال وتوظيف قدرات الأغنية نفسها.

وقناة «ميلودي» مثلاً تضع الأغنية بأكثر من طريقة، فهي تعطيها كودًا لرسائل المحمول، وكودًا آخر للاتصال التليفوني لطلب عرضها حسب نسبة الأصوات، كما تعطيها كودًا ثالثًا لتحويلها إلى نغمات ترسل عن طريق المحمول مما يحقق للأغنية مكاسب هائلة، وبهذه الطرق تحقق قناة «ميلودي هيتس» أرباحًا تصل إلى ٥ ملايين جنيه شهريًا؛ أي حوالي ٦٠ مليون جنيه سنويًا، وفقا لمصادر بالقناة نفسها.

كما أن القناة الثانية التابعة لميلودي التي تحمل عنوان «ميلودي أربيا» تعتمد أيضًا على حيلة أخرى لجلب المزيد من الملايين، من خلال أسلوب الشات أو الدردشة، وأيضًا من خلال ابتكارها لما يسمى بخدمة التوافق بين المحبين أو «الماتش ميكر»؛ حيث تطلب من كل شاب أو فتاة أن يرسلوا تاريخ ميلادهم

وتاريخ ميلاد الطرف الآخر في حياتهم عبر المحمول ليتعرفوا مدى التوافق بينهما في علاقتهما العاطفية.

أما بالنسبة لقناة «مزيكا» فقد تفوقت على غيرها في أنها أدخلت تقنية جديدة تعتمد على إرسال الصور الفوتوغرافية عن طريق المحمول مما يزيد من تكلفة إرسال الرسالة الواحدة إلى الضعفين ويجعل قناة «مزيكا» تحقق حوالي أكثر من ٧ ملايين جنيه شهريًا أي حوالي ٨٤ مليون جنيه سنويًا، وتشير مصادر بقنوات أخرى إلى أن أرقام الأرباح السنوية لهذه الفضائيات هي التي تقدم لمأموريات الضرائب، بينما الأرقام الحقيقية للأرباح قد تتجاوز ذلك بكثير.

بطل الكليب وهو المطرب أو المطربة يربح هو الآخر كثيرًا من هذا البيزنس، ويكفي في هذا الصدد الإشارة إلى أن عقد عمرو دياب مع قناة «روتانا» والذي يصل إلى ١٥ مليون جنيه في ٣ سنوات، أي ٥ ملايين جنيه مقابل كل ألبوم (مجموعة من الأغاني) يغنيه في السنة، إضافة لذلك فبالطبع يستفيد المطرب من الإعلانات والحفلات وغيرها.

«٣٠ ألف جنيه في يومين»: المخرج بدوره يمثل حلقة مهمة ومدركة لمنظومة بيزنس الفيديو كليب، فيقول عثمان أبو لبن - أحد أشهر مخرجي الفيديو كليب في مصر -: إن ميزانية إنتاج الفيديو كليب الذي يستغرق غالبًا ما بين يومين إلى ٥ أيام، تتراوح ما بين ٦ آلاف جنيه إلى مليوني جنيه، فمثلاً تصل تكاليف آخر كليب للمطرب عمرو دياب إلى مليون جنيه مصري، فيما يصل كليب نيكول سابا إلى ٢٥٠ ألف جنيه، وهناك كليبات أقل تكلفة، فعلى سبيل المثال لم تتكلف أغنية كريم أبو زيد إلا ٩ آلاف جنيه فقط. وهذه التكاليف يستطيع المنتج أن يغطيها، ويستخرج أرباحًا ضخمة.

ويرجع «أبو لبن» هذا الفارق الشاسع في التكلفة إلى عدة عوامل، منها: «نوعية معدات التصوير هل هي ديجيتال أم معدات ضعيفة؟ وأيضًا حسب المجاميع الفنية الراقصة هل هي عربية أم أجنبية؟ وأماكن التصوير هل هي داخل الدول العربية أم بالخارج».

أما أجور المخرجين، فيشير «أبو لبن» - الذي يتقاضى حوالي ٣٠ ألف جنيه

مصري على إخراج أغنية - إلى أن الأجانب منهم يتقاضى حوالي ٣٠٠ ألف جنيه مصري، بينما المصريون والعرب يتقاضون ما بين ٢٠ ألفًا إلى ١٠٠ ألف جنيه، وبعض المخرجين يتعامل بنظام الراتب الشهري والبعض الآخر بنظام إخراج عدد من الأغاني.

«دجاجة تبيض ذهبًا»: ويبدو أن الأرقام الضخمة في هذه الصناعة تجعل صانعي الفيديو كليب لا يهتمون إلا بما تقدمه الأغنية من إثارة؛ لأن ذلك هو الطريق للمكسب، ولا يستطيع أحد إيقافها، فيقول حسن أبو السعود - نقيب الموسيقيين في مصر-: إن النقابة لن تستطيع وقف هذه الصناعة التي أصبحت أكبر صناعة فنية في العالم العربي، حتى إنها فاقت صناعة السينما التي تنتج أقل من ٢٠ فيلمًا في السنة.

ووفقا لـ«أبو السعود» فتبلغ ميزانية الفيلم السينمائي الواحد في مصر ما بين ٧ و٢٠ مليون جنيه، أي إنه باهظ التكاليف، بينما تكاليف الفيديو كليب ليست ضخمة باستثناء بعض المطربين الكبار، والربح مضمون من خلال عرض الأغنيات على القنوات الفضائية واتصالات المحمول والرسائل؛ حيث إن الفيديو كليب أصبح هو الدجاجة التي تبيض ذهبًا للفضائيات.

لكن «أبو لبن» يرفض الهجوم على صناعة الفيديو كليب ويقول: إنها رزق للعاملين فيها، فكل أغنية يعمل بها ٥٠ فردًا على الأقل، مشيرًا إلى أن السينما أحوالها راكدة، فالعاملون بهذه النوعية من الصناعات لا يجدون عملاً معظم أوقات السنة، ولولا صناعة الفيديو كليب التي تعد صناعة يومية وإنتاجًا مستمرًا لظل الكثير منهم دون عمل لفترات طويلة.

إذن الفيديو كليب أصبح سلعة يتنافس عليها المستثمرون ورجال الأعمال بمنطق المقاولة، فالأخلاق ومراعاة القيم والمبادئ لا تحكم عملية صناعة الأغنية بقدر ما يحكمها الربح، ولذلك فليس غريبًا أن يتم تعبئة الفيديو كليب بكل هذه اللقطات العارية التي تطل علينا من الفضائيات ليل نهار، وإلا ظلت الأغنية في العلب لا ترى النور لمخالفتها آليات السوق الحالية، ولا عزاء للفن الرفيع أو حتى أخلاق المجتمع ودينه.

هل نرى من الإخوة الكرام شجبًا واستنكارًا لهذا المنكر؟؟

***

للأسف الشات على القنوات الفضائية العربية والخليجية لقت لها جمهورها الخاص!!

شباب وفتيات بعمر الزهور، فاضيين، يعيشون بحالة ملل وفراغ عاطفي، عندهم فلوس، فيهم كبت، فاتخذوا من هذه الفضائيات وسيلة للترفيه والوناسة وتضييع الوقت!!

وإليك بعض العبارات الماجنة التي تدور على الشات: «أمير الحب يحب يتعرف على بنت مزيونة.. وحتى لو نص نص مقبولة»، «تحية إلى أجمل وأحلى وأغلى دلوعة»، «ممكن بنت جميلة من الخُبر تسهر معي الليلة»، «كنترول البرتقالة يرحم نعجة خالتكم»، «تحية للشلة»، «أنا قشطة وعسل وألبس عدسات وشعري طويل ولوحدي بالبيت.. الرقم بالطريق»، «ممكن بوسة على الرقم من أحلى نتوسة»، «الدايخ يحييكم، وين بنات الرياض»، «مخاوي الضبان.. وين نانسي الليلة؟»، «العربجي يمسي على أحلى بنت»، «قلبي عطشان مين يرويه؟»، «ويل قلبي يا البنفسجية.. عسى ما شر؟»، «عاشق نانسي البدوية وصل»، والله وراحت الفلوجة وطي».

قد يكون البعض سمع أو مارس (التنقيط في المراقص والملاهي) فهل سمع أحد منكم عن التنقيط الفضائي؟!

إنه نوع متطور من الدعارة الفضائية يمارسها أبناؤنا وإخواننا بواسطة الرسائل (المسجات) التي تدخل البيوت بلا استئذان أو رقيب، شريط أو أكثر في أسفل شاشة القناة الفضائية وأسلوب مبتكر لمسايرة العصر، ونقل نظام التنقيط من المراقص والملاهي إلى الفضائيات.. مسجات فضائية تافهة، قليلة الأدب.. خدش للحياء العام والخاص والأعراف والتقاليد والدين والمروءة.. وملايين الريالات تصرف في هذا التنقيط والدعارة التي نمارسها دون أن نشعر بحسبة بسيطة.

الرسالة الواحدة التي تستغرق ما يقارب ست ثوانٍ تدر على القناة ثلاثة ريالات تقريبًا،

والكثير من هذه القنوات تخصص شريطين في الشاشة الواحدة، أي أن هناك عشرين رسالة خلال الدقيقة الواحدة؛ أي ٦٠ ريال في الدقيقة، ٣٦٠٠ ريال في

الساعة، ٨٦٤٠٠ ريال في اليوم، ٢٥٩٢٠٠٠ ريال في الشهر، أكثر من واحد وثلاثين مليون ريال في السنة تنقيط فضائي لمرقص فضائي واحد، وكل يوم يخرج علينا مرقص فضائي عربي ورأس ماله البرتقالة والتفاحة والرمانة واليوستفندي والخوخة والسلق الحفيانة!!

هذه الهجمة من المراقص الفضائية تشبه هجمة الجراد الصحراوي على مصر وبعض الدول قبل أيام وإن فاقته خطورة، وذلك بدخولها المختلس وكما يُقال: إن أخطر الأفكار هي التي تدخل خلسة وبدون أن يحس بها الإنسان.

في حكاية الجراد تفتقت الذهنية المصرية وبناءً على نصائح الأمم المتحدة عن أسلوب فريد في مقاومة أسراب الجراد الغازي، كانت النصيحة في حث الناس على أكله والمساهمة في نشر الفتاوي الشرعية التي تؤكد أن أكل الجراد حلال، صاحب هجمة الجراد هجوم مضاد من الصحف والناس في وصف الأطباق المختلفة والطرق المبتكرة في سلق وطهي وشوي الجراد، هذا بالنسبة للجراد الغازي ومعروف أن هجمته مؤقتة، فكيف ببقية الغزاة!! كيف بجراد المسجات والمراقص الفضائية؟! هل نأكلهم أيضًا؟! وكيف؟! هل نسد الفضاء، أم نراقب ونعد الرسائل؟! هل ندس رؤوسنا في التراب ونقول: ليس في سمائنا مراقص فضائية؟! بيوتنا خالية من القنوات الفضائية!! ليس شبابنا من ينقط على بيوت الدعارة الفضائية!! البث يأتي من خارج أراضينا!! من يملك هذه القنوات ليس من بني جلدتنا!!

لن أقول: إن العيب في أصحاب هذه القنوات والمراقص الفضائية.

لن أقول: إن العيب في المحطات والمراقص الفضائية!!

لن أقول: إن العيب في الداعرات والراقصات في هذه المراقص الفضائية!!

لن أقول: إن هذه المراقص الفضائية هي من سينتج أجيالاً عربية منحلة غارقة في اللهو والملذات لن تستطيع أن تبني نفسها فكيف يُرجى أن تبني وطنًا.

لن أقول.. فكل هذا الكلام معاد ومكرر.

سأقول: إن العيب والخلل فينا نحن خط الدفاع الأول والأخير، فكيف نكون

رأس الحربة التي تطعن، نحن من يصنع لهذه الدعارة الفضائية سوقًا رائجة بأموالنا، أيدينا هي التي أوكت وأفواهنا هي التي نفخت.

أخي المنقّط العربي الشهم: **أوقف التنقيط فورًا تنقذ نفسك، معًا لوقف دعارة التنقيط الفضائي العربي، الحملة الخليجية الموحدة لوقف التنقيط والدعارة الفضائية العربية.**

***

أصبحت ظاهرة الرسائل القصيرة أو الـ sms على شاشات القنوات الفضائية ظاهرة خطيرة، الظاهرة تنهش الحياء وتدمر القيم، وتُرسخ الوقاحة وهدم الأخلاق، ورغم ذلك لم يتحرك القائمون على نشر تلك الطريقة إلى فعل أى شيء يحد من اتجاهها نحو خرق القيم والأخلاق.

ولما استفزتنى رسائل الـ sms بما تحمله من تجاوزات قررت وصديقة لي أن أدخل التجربة حتى أستطيع مناقشة تلك الظاهرة من البداية إلى النهاية، والتفاصيل فى السطور التالية:

قلت فى رسالة عبر التليفون المحمول الخاص بصديقتى: «أنا فتاة وحيدة جميلة، أريد شابًّا وحيدًا مثلي، علشان نونس بعضنا»، انتظرت لحظة، بانت الرسالة ظهرت على الشاشة، ولم تمض دقائق حتى جاءني الرد من شاب يقول: «أنا شاب وحيد مثلك، ممكن أتعرف عليكي».

هنا دفعت صديقتي لاستكمال المهمة، فقامت بتعريفه بنفسها تحت اسم وهمي، كما قام هو بتعريفها بنفسه، واتفقنا على موعد محدد لإرسال الرسائل، واستمر الحال هكذا لمدة أسبوع كامل، وصف الشاب نفسه بأنه «فتى الشاشة الأول» وقال أنا فىً وسامة حسين فهمى، وجاذبية أحمد عز، وأنه يحلم بلقائها.

صديقتي بدورها وصفت نفسها بأنها ليلى علوي، ثم طلب الشاب منها موعدًا لمقابلته حتى يتحقق حلمه أمام عينيه، وكان الموعد - أيضًا - من خلال الـ sms وأخبرها فى نهاية الرسالة أنه يحمل لها مفاجأة، وبالفعل ذهبت صديقتي في الميعاد

المحدد لتتعرف على الشاب الذى ظلت تراسله لمدة عشرة أيام كاملة واتفقنا على وسيلة معينة للتعارف وهى وردة حمراء فى يد كل منهما مثل أفلام الأبيض والأسود، وكانت المفاجأة الشاب الذي أخبرها أنه يبلغ من العمر ٣٠ عامًا ما هو إلا مراهق لا يزيد عمره عن ١٨ سنة، وكمان طالب فاشل فى أحد المعاهد الخاصة، وأكد لها أنه كذب عليها لاعتقاده أنها الأخرى تكذب عليه، وأنها مثل معظم الفتيات اللاتي كان يراسلها عبر الـ sms حيث كانت الواحدة منهن تقول أنها فى العقد الثالث من عمرها بينما هى طالبة فى المرحلة الثانوية، وأحيانًا فى المرحلة الإعدادية، وبعدما صُدم الاثنان فى بعضهما واكتشفا خداعهما لبعضهما اتفقا على نهاية هذه الحكاية دون أن يعرف بالطبع أنها صديقة لي.

وأعتقد أن هذه ليست هى الحكاية الوحيدة التى حدثت، بل هناك مئات من الحكايات والقصص الفاشلة التى تبدأ وتنتهى عبر وسائل الـ sms، ولكن لماذا يلجأ هذا الشباب إلى هذا العبث؟

أحمد عادل - طالب بـ«معهد اللاسلكى» - قال لي هذا نوع من الفراغ ومحاولة لكسر الملل فنحن في موسم إجازات ولا يجد الطالب ما يفعله - خاصة إذا لم يكن من مشتركى النوادى الخاصة - سوى قضاء جزء من وقته في الدردشة مع أى شخص من خلال التليفون، لأن هذه الرسائل رخيصة إلى حد ما مقارنةً بالمكالمات على المحمول أو حتى الدخول على الإنترنت وعمل الشات إذا كان هناك كمبيوتر من الأساس، وبصراحة الدردشة ما بتحلوش غير مع البنات!!

أما هايدي جمال - طالبة - تقول ما العيب في هذه الرسائل طالما أنها تتم فى حدود الأدب؟ وتضيف الشات والدردشة من خلال الكمبيوتر أصبحت متاحة لكل من يمتلك هذا الجهاز الأساسى، ثم لا أحد يعرف مَن المُرسِل أو المُرسَل إليه سواهم أنفسهم ودي حاجة لذيذة جدًا وستايل، وأنا عن نفسي كثيرًا ما بعثت بهذه الرسائل خاصة عندما أكون زهقانة ولا أجد ما أفعله، وهذه مجرد خطوة نحو تكوين صداقة جديدة عبر شاشة التليفزيون.

على جانب آخر ترى رحاب الجمل - طالبة - أن العيب ليس فى رسائل الـ sms نفسها بل فيمَن سمح لهذه التجاوزات أن تحدث على الشاشة، وتقول هذه

الرسائل الهوائية تم إتاحتها لأغراض محترمة كإرسال التهنئة بالنجاح أو الخطوبة أو الميلاد أو الزفاف لكن للأسف بعض الشباب التافه استخدمها لعمل علاقات مع بعض الفتيات العابثات، بل الأفظع من ذلك ما تحويه بعض هذه الرسائل من تعبيرات إباحية مقززة وألفاظ خارجة تظهر على الشاشة وخاصة في الساعات المتأخرة من الليل، فأين الرقابة على كل هذا؟!

أما محسن حسين - طالب - فقد قال لنا أنه واحد ممن يرسل الشتائم والكلمات الجارحة عبر هذه الرسائل؛ لأنها من وجهة نظرى تمثل الخروج عن المألوف، فكل الرسائل تهنئة أو محاولة للتعرف أو رسائل حب عذرى بين اثنين - عن طريق روميو وجوليت - ربما لا يعرفان بعضهما، أنا أقوم فى هذه اللحظة بإرسال هذه الرسائل الخارجة حتى يخرج العاشقان من المود اللي عايشين فيه وفي بعض الأحيان أجد من يجادلنى ونبدأ معًا فى مباراة من المنافسة على قلة الأدب.

د/ عفاف إبراهيم - أستاذ علم الإجتماع - ترى أن تلك الظاهرة نتيجة حتمية لعصر السماوات المفتوحة التى أصبحنا نتشدق بها في كل مكان مؤكدين أنها دفعة نحو الأمام، متناسين غياب عنصر مهم وهو عنصر الرقابة والضبط؛ إذ إن المسألة كلها مجرد تجارة رابحة تستفيد منها شركات المحمول والقنوات الفضائية مستغلين إقبال المراهقين على هذه اللعبة السيئة.

فتحوا الباب على مصراعيه أمام كل من يريد أن يرسل أي كلام عبر شاشات الفضائيات، وحيث إن مرحلة المراهقة غالبًا ما تتميز بالتهور والرغبة فى اكتشاف الجنس الآخر، ومحاولة إقامة علاقة معه كنوع من إثبات الذات، وقد وجدت هذه الرغبات في مثل هذه الفضائيات مرتعًا خصبًا لإشباعها إضافة إلى غياب الأسرة واستهتارها، فأصبحنا نجد الطفل الصغير يحمل جوالاً فى جيبه، وطبعًا الأسرة تتعامل مع ذلك على أنه نوع من التدليل مع أنه كارثة، فهذا الطفل أو المراهق لا يُدرك أهمية هذا الجهاز ولا فوائد استخدامه، فيستخدمه للمنظرة أو إرسال الرسائل القصيرة الـ sms ومشاهدة ما يكتبه على الهواء مباشرة، وتفريغ شُحنه العاطفية المكبوتة داخله، وأصبحنا نجد بعض الوسائل الخارجة والتى تخرج بدون أى رقابة.

وهنا أتساءل عن دور الرقابة في مثل هذه الفضائيات، أم أن بريق المادة والكسب السريع أعماها عن مثل هذه التجاوزات؟!

مسئول من إحدى الفضائيات قال لنا: نحاول جاهدين ألا تحدث أى تجاوزت فى هذه الرسائل لكن في قليل من الأحيان يحدث غفلة من القائمين على رقابة الـ sms وتخرج بعض الشتائم الخارجة، وسرعان ما نتدارك الأمر ونبعث باعتذار للمشاهدين!!

ويضيف المسئول الفضائى لا يوجد ما يمنع نزول هذه الرسائل ما دامت تتم في حدود الأدب واللياقة كما أن هذه الطريقة ليست بدعة فهي موجودة منذ سنوات تحت مسمى «صديقي بالمراسلة»؛ حيث كانت تتم بين أصدقاء من بلاد مختلفة وعبر مجلات شهيرة، وعندما ظهر الكمبيوتر تحول الموضوع إلى ما يُسمى الشاتينج وهناك من يستخدمه استخدامًا سليمًا وصحيحًا، وهناك من يستخدمه عكس ذلك، وهذا ما يحدث أيضًا مع الـ sms، فطريقة الاستخدام تتوقف على الشخص والأسرة، ومن ناحيتنا نحاول أن نُخرج هذه الرسائل فى حدود الأدب.

ما حكم المشاركة الدعوية في القنوات الفضائية؟

الجواب: الحمد لله، الدعوة إلى الخير إحدى ركائز دين الإسلام؛ لأنها الوسيلة الأساس في نشر الإسلام، وتحقيق العدل، سواء كان ذلك بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو القدوة الحسنة، قال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

قال ابن كثير: المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد، كل بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». ا.هـ.

وفضل القيام بهذه الدعوة لا يكاد يَعْدِلُه فضل، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وغني عن البيان أن كل شأن يقوم به الإنسان لا بد له من أسلوب ووسيلة، كي يحقق المطلوب، والوسائل

تتبع المقاصد في أحكامها، فوسيلة المحرم محرمة، ووسيلة الواجب واجبة، وكذلك بقية الأحكام. [ينظر: الفروق للقرافي (١٤٤)].

ولا بد كذلك أن تكون الوسيلة إلى المشروع مشروعة، والدعوة تحتاج إلى الوسائل من أجل تبليغها للمكلفين ومن ذلك القدوة الصالحة، والكلمة الطيبة من خلال المنبر، أو الجدال، أو الكتابة، أو ما إليها.

وكل وسيلة تساعد على أهداف الدعوة يمكن اتخاذها لذلك ما لم تكن محرمة [الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٠/ ٣٣٢)].

وقد ظهرت وسائل إعلامية واتصالية كثيرة في العصر الحديث بدأت بالجرائد والمجلات، ثم الإذاعة ثم التلفاز والهاتف والبرق والتلكس والفاكس، ثم أخيرًا شبكة الاتصال العالمية (الإنترنت) وأصبح بالإمكان متابعة الحدث أو الحديث في الحال بل التحادث والمخاطبة من أقصى الدنيا إلى أقصاها، وقد أخذ العالم المتحضر (ماديًّا) في سباق محموم في هذه الوسائل من أجل كسب الرهان في عولمة الشعوب والدول، وفرض حضارته الفكرية والمادية، وأصيب العالم الإسلامي بحالة من الذهول والوجوم، جعلت أبناء الإسلام في مفترق طرق، فمنهم من أخذ بالركض وراء تلك المدنية إعجابًا وانبهارًا، ومنهم من اختار التجاهل أو الرفض لها اعتقادًا منهم بأن ذلك هو الموقف المناسب، ومنهم من وقف موقف المتأمل المتيقظ، والمتفاعل بحذر، وأنت -أخي- خبير بأن الموقفين الأول والثاني غير موفقين ولا راشدين، وأن الموقف السليم هو الثالث.

وكما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ﷺ: «إن الموقف من الحضارة الغربية ينحصر في أربعة أقسام لا خامس لها:

الأول: ترك الحضارة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها دون نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

فنجد الثلاثة الأولى باطلة بلا شك، وواحدًا فيها صحيحًا بلا شك وهو

الأخير» [أضواء البيان (٤/ ٣٨٢)].

وبعد هذه التوطئة وفي ضوئها ندلف إلى الحديث عن الفضائيات الإعلامية وما يتبعها من إذاعات مسموعة سواء كانت عربية أو غير عربية وبأي لغة كانت، وسواء كانت ذات طابع إخباري، أو ثقافي أو رياضي، أو دعائي (إعلاني) أو فني... إلخ، أو كانت عامة غير مُتخصصة.

فالسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح، ويتردد في أوساط الغيورين من علماء ومتعلمين ومثقفين وعامة، ما مدى شرعية التفاعل الإيجابي مع تلك الوسائل (القنوات والإذاعات)، وذلك بالمشاركة بالرأي والحوارات والفتاوى وما إليها؟ هل ذلك مشروع، أو غير مشروع؟ وما الحجة في ذلك؟

وقبل أن ندخل في عرض الآراء يجدر التنبيه إلى أمر مهم؛ هو أننا نتجاوز الخلاف القديم حول الإذاعة والتلفاز، ولا نناقش الرأي الرافض لهما بإطلاق، والذي يعتبرها من اللهو الباطل، أو لوجود التصوير في التلفاز.

أقول: نتجاوز ذلك إلى الرأي القائل بأنها وسائل عادية يمكن الاستفادة منها بدون تعدٍّ إلى المحظور.

حكم المشاركة في الفضائيات العربية وأشباهها:

يبدو أن المسألة لا تخرج عن رأيين:

الأول: عدم جواز المشاركة فيها.

الثاني: جواز المشاركة فيها.

وإن كان بعض أهل العلم يرى بعض التفصيل مما سنشير إليه.

وأحاول أن أعرض الآراء مجتهدًا في سبر أدلتهم وتتبعها ما أمكن، ثم أناقشها.

أولاً: القول بعدم المشاركة:

لعل أبرز الأدلة على ذلك:

١ - أنها وسائل مؤسسة على باطل، فهي لم يقصد منها في الأصل بث الفضيلة وإعلاء كلمة الله، بل أسست لأهداف غير نبيلة، ومهما تنوعت الأهداف فإنها تكاد

أن تصب في حوض واحد هو (اللهو الباطل)، وتكاد أن تتفق هذه القنوات على أن المرأة بمفاتنها وزينتها وكلامها هي الوسيلة الأقرب لجذب المشاهد والمتلقي، كما أن الموسيقى -شرقيها وغربيها، وما يصاحبها من غناء - هي الوسيلة الأخرى للجذب.

ناهيك عن المضامين الساقطة للمادة الإعلامية، سواء كانت حوارًا، أو غناءً بل خبرًا، هذا إذا سلمت من موبقات الكفر، وإذا كانت كذلك، فهذا أشبه ببؤرة فساد:

(أ) وقد قال الحق ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨] قال الشوكاني: «والمعنى إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له».

(ب) وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] قال الطبري في هذه الآية بعد أن ذكر أقوال المفسرين في المراد بالزور: «وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل؛ لا شركًا ولا غناء ولا كذبا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور»، ثم ذكر قريبًا من هذا المعنى في تفسير اللغو.

(ج) وهذه البؤرة أشبه بالمجلس الذي تنتهك فيه المحرمات، وقد روى النسائي بسند جيد أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس إلى مائدة يُدار عليها الخمر». [ينظر: فتح الباري (٩/ ٢٥٠)].

ووجه الاستشهاد بتلك النصوص أن الفضائيات وأشباهها تتخذ من كلمة الحق ومن دُعاة الحق مثار سخرية واستهزاء، وتلاعب؛ حيث تحشر الحق القليل بين ركام الباطل الكثيف وقد قال ﷻ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠].

٢ - ثم إن دخول أهل الفضل ومشاركتهم فيها يُضفي عليها صبغة شرعية، يحتج بها أصحابها وممولوها، والمتلقون من المشاهدين والمستمعين، مموهين بذلك على السذج من الناس.

ثانيًا: القول بالمشاركة:

يستند القائلون بالجواز إلى مجموعة من الأدلة:

١ - يرى هؤلاء أنه ينبغي التفريق بين المحرم لذاته كالخمر والموسيقى وقول الزور والوسيلة إليه، فإنه ليست كل وسيلة إلى الحرام تكون حرامًا بالضرورة.

قال القرافي في الفروق (الفرق ٥٨) تنبيه: «قد تكون وسيلة المحرم غير محرمة إذا أفضت إلى مصلحة راجحة كدفع مال لرجل يأكله حرامًا حتى لا يزني بامرأة إذا عجز عن دفعه عنها إلا بذلك».

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/ ١٣٧): «وما حرم سدًّا للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، كما أبيحت العرايا من ربا الفضل... وكما أبيح النظر - أي: إلى المرأة - للخاطب والشاهد والطبيب».

ومن هنا فإن وسائل الإعلام والاتصال هي من هذا الباب، بل هي مُباحة في أصلها، بدليل أنه لو ملكها أهل الحق واستعملوها في نشر الحق لم يكن في جوازها شُبهة.

* * *

أخبار العشاق

ونحن في زمن كثرت فيه المغريات، وتنوعت الشهوات، وترك المفسدون في قنواتهم ومجلاتهم مخاطبةَ العقول والأفهام، ولجئوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام، فأصبح الرجال والنساء حيارى بين مجلات تغري وشهوات تسري، وقنوات تُعرّي وأفلام تزين وتجرّي، وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى والبلية العظمى التي استعبدت النفوس لغير خلاقها، وملّكتِ القلوبَ لعُشّاقها، فأحاطت القلوب بمحنة وملأتها فتنة، فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لباه، وإن قيل له: ما تتمنى؟ فهو غاية ما يتمناه.

وإن التساهل بإطلاق البصر والتمادي فيه يجر إلى الفواحش والآثام، ومواقعة الحرام، ويشغل القلوب عن علام الغيوب، وكم أكبت فتنة النظر رءوسًا في الجحيم، وأذاقتهم العذاب الأليم، كم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة، فلو سألت النعمَ، ما الذي أزالك؟ والهمومَ والأحزان، ما الذي جلبك؟ والعافيةَ، ما الذي أبعدك؟ والسترَ، ما الذي كشفك؟ والوجهَ، ما الذي أذهب نورك وكسفك؟

لأجابتك بلسان الحال: هذا بجناية العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون.

نعم، أتحدث عن إطلاق البصر؛ لأن انتشار العلاقات المحرمة لا يضر الفاعلين فقط، فقد جرت سنة الله أنه عند ظهور الزنا يشتد غضب الجبار، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

وفي الحديث الحسن الذي عند ابن ماجه وغيره، قال ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».

وتأمل في حال يوسف ﷺ، الذي أوتي من البهاء والحسن والجمال ما يفوق الخيال، تراوده الملكة، وهو عبد مملوك اشتراه زوجها بثمن بخس ليخدمها، وهو إلى ذلك غريب لا يخشى فضيحة، شاب أعزب تشتاق نفسه إلى مثلها، وهي ذات

منصب وجمال، وهي تتوعده بالسجن والصغار، وتراوده، وتبذل كلَّ ما عندها لإغرائه، أسرعت إلى أبوابها فغلقتها، وإلى ثيابها فجملتها، وإلى فرشها فزينتها، ثم قالت في تغنج ودلال: هيت لك، فيصرخ بها العفيف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

بل تأمل في حاله عليه السلام لما جمعت امرأة العزيز زوجات الكبراء وحليلات الأمراء، ووضعت لهن أطايب الفاكهة، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، ثم جعلت يوسف يمرّ أمامهن، فلما رأينه ما تحملن النظر إليه، وغابت عقولهن من حسنه وبهائه، فقطعن أيديهن بالسكاكين، وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف:٣١].

فهل التفت يوسف إليهن؟ أو اغترّ بشبابه وجماله؟

كلا، بل صاح بأعلى صوته وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، قال الله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤]

نعم السجن خير له من الفاحشة.

قارن ذلك بما ذُكِر: عن شاعر الغزل عُمرَ بنِ ربيعة، أنه مرَّ بامرأة في الطريق فحكت عينها بيدها، فظن أنها تغازله، فوقع في حبها، وأنشد متغزلاً يقول:

أَشَارَتْ بطَرْفِ العَيْنِ، خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إشَارَةَ مَحْزونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّم
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا ... وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

ومن أكبر ما يهيج النفس للنظر أو الوقوع في الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ النظر إلى الأفلام الهابطة، التي يختلط فيها الرجال بالنساء، حتى يقع في قلب الناظر إليها أن الاختلاط أمر عادي، وأعظم من ذلك إذا كانت هذه الأفلام يقع فيها الحب والغرام، واللمسات والقبلات، فإذا رآها الرجال، بل والنساء حركت فيهم الساكن، وأظهرت الباطن، ونزعت الحياء، وقربت البلاء.

فمن رأى صور الفسق والفجور، ومشاهد العهر والمجون، اندفعت نفسه إلى تقليدها في كل حين في السوق، وعلى فراشه وفي مكتبه، ولا يزال الشيطان يدعوه إليها ويحثه عليها؛ لذلك لما أمر الله تعالى بحفظ الفروج عن الزنا أمر قبل ذلك بغض البصر فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور:٣٠]

وفي الصحيحين قال ﷺ: «العين تزني وزناها النظر». فجعل النظر إلى الحرام نوعًا من الزنا يأثم عليه صاحبه، فإن مجرد الخلوة بينهما محرّمة، قال ﷺ: «وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما».

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء»، يعني الخلوة بهن، بل أمر الله المرأة بالتستر حتى لا يراها الرجال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[الأحزاب:٥٩]، بل قد نهى الله الصحابة جميعًا عن الاختلاط بالنساء، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ يعني: إذا سألتم أزواج النبي وهن أطهر النساء ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ لماذا؟ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وحسبك بالصحابة طاعة وخوفًا وتعبدًا.

فكيف الحال اليوم مع شبابنا وفتياتنا وقد فسد الزمان؟

عجبًا..

قال سفيان الثوري لرجل صالح من أصحابه: «لا تخلون بامرأة ولو لتعلمها القرآن».

نعم، أيها الإخوة والأخوات، هذا ديننا ليس فيه تساهل مع الأعراض، قال ابن القيم رحمه الله: «إن الله تعالى لما أمر بغض البصر أعقب ذلك بالأمر بحفظ الفرج؛ ليدلّ بذلك على أن من أطلق بصره أداه ذلك إلى إطلاق فرجه».

نعم، أيها الإخوة الكرام..

وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعزّ إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»، وفي الصحيحين: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

فتأمل كيف بدأ بالعين وختم بالفرج؛ ليدل أن إطلاق البصر هو طريق الزنا، لكنه لو تعوذ بالله من أول نظرة وصاح بها كما صاح يوسف ويقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف:٢٣].

نعم، هذا حال الأبرار المتقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

وإطلاق البصر في الشهوات سبب لسوء الخاتمة - والعياذ بالله - وذكر ابن القيم أن رجلا قيل له عند موته قل: لا إله إلا الله فصاح بأعلى صوته وقال:

أسلمُ يا راحة العليل ويا شفاء المُدْنف النحيل

حبك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

كان للسلف في الحرص على غض البصر شأن عجيب، فهذا محمد بن واسع يأتي إلى صديق له فإذا طرق الباب قال: صاحبك الأعمى..

نعم، هؤلاء كان لهم أبصار، وعندهم غرائز، ونفوسهم تشتهي الملذات، لكنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

ومن تساهل بالنظرة الأولى ولم يسارع إلى علاج نفسه، فلا يزال الشيطان به حتى يقع في الفاحشة عياذًا بالله.

وقد عظَّم الله هذه الفاحشة وقرنها بالشرك والقتل فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ثم ذكر الله تعالى عذاب من فعل ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، ثم دعاهم الكريم الرحيم إلى رحمته فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠، ٧١].

ونفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني فقال كما في الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، وسبيل الزنا هو شر السبل، لذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وروى البخاري أن النبي ﷺ أتاه في المنام آتيان فابتعثاه معهما، فاطلع على أنواع من عذاب العصاة، قال ﷺ: «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب، ضوضوا - أي صاحوا - فلما رآهم النبي ﷺ فزع من

حالهم وسأل جبريل عنهم، فقال جبريل: هؤلاء هم الزناة والزواني».

وفي رواية ابن خزيمة بإسناد صحيح قال ﷺ: «ثم انطلق بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنُه ريحًا، كأن ريحهم المراحيض، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني».

وذكر الهيتمي أنه مكتوب في الزبور: إن الزناة يعلقون بفروجهم في النار، ويُضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث أحدهم من الضرب، نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح، ولا تراقب الله ولا تستحي منه!!».

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزني أمته... يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».

نعم، كم من لذة ساعة أورثت حزنًا عظيمًا وعذابًا أليمًا، وليس ربهم والله بغافل عنهم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُخرُف:٨٠]، فليس بعد مفسدة الشرك والقتل أعظم من مفسدة الزنا، ولو بلغ الرجلَ أن ابنته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت، فأُفٍّ للزنا، ما أقبح أثرَه وأسوء خبرَه!

وكم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت حسرتها، وأول من يشهد على الزناة والزواني أعضاؤهم التي متعوها بهذا الزنا؛ رجله التي مشى بها، ويده التي لمس بها، ولسانه الذي تكلم به، بل تشهد عليه كل ذرة من ذراته، وكل شعرة من شعراته، قال الله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤]. نعوذ بالله من هذا الحال.

وفي الدنيا أمر الله بتغليظ العقوبة على الزاني والزانية وإن كانا شابين عزبين،

ونهى عباده أن تأخذهم بالزُّناة رأفة، وأمر أن يكون الحد بمشهد من الناس، قال ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

هذا غير عقوبات الدنيا التي تتتابع على الزاني؛ كالفقر الذي ينزله الله به ولو بعد حين؛ والبلاء والكرب المبين، وضيقُ الصدر وتعسّرُ الأمر.

هذا غير دعاء الصالحين عليه، فكم من يدٍ في ظلمة الليل بسطت تدعو عليه وعليها، وكم من جبهة بين يدي الله سجدت تستنزل العذاب عليه وعليها، وكم من عين دمعت ودعوة رُفعت تستعدي رب العالمين على المفسدين.

فكيف يتلذذ عاقل بمتعة هذه عاقبتها وشهوة هذه نهايتها؛ تلكم عاقبة الزنا في الدنيا.

وأول طريق الزنا خطوة ونظرة وضحكة وتبرج وسفور، وبعض الفتيات إذا مشت في السوق أو الشارع صارت كأنها بغي تدعو الناس إلى فعل الفاحشة، وإلا فبماذا تفسرون تبرج بعض الفتيات في عباءتها، وإخراجها كفيها وقدميها، بل ووجهها أحيانًا، وقد تُخرِج غير ذلك؟!

وبماذا تفسرون وضعها للطيب، وهي تمشي بين الرجال فيشمون ريحها؟! وقد قال ﷺ فيما أخرجه أحمد والنسائي: «أيما امرأة استعطرت ثم مرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية».

وبماذا تفسرون تبرجها في لباسها أو عباءتها، إضافة إلى تكسرها في مشيتها، وجرأتها في مخاطبة الرجال، والله يقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلْنَ قَوْلٗا مَّعْرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب:٣٢، ٣٣]؟!

وإنك لتعجب وتعجبين إذا علمت أن قوله تعالى للمؤمنات: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، معناه: أن لا تضرب المرأة برجلها الأرض بقوة وهي لابسة خلاخل في قدميها، حتى لا يسمع الرجال صوت الخلاخل فيفتنون.

عجبًا..

إذا كان هذا حرامًا، فما بالكِ بمن تحادث شابًا الساعات الطوال في الهاتف، أو ترفع صوتها بالضحكات والهمسات، وتنظم القصائد الشعرية، وتكتب الرسائل العاطفية، ومثل ذلك بعض الشباب الذين لا همَّ لهم إلا التزين والتسكع في الأسواق، وهذا كله من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعد الله من فعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور:١٩)، وهذا الوعيد في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة، فقط مجرد محبة، لهم عذاب أليم، فكيف بمن يعمل على إشاعتها؟!

* * *

العشيقة

الحمد لله الذي فتح أبواب الجنان وزينها لأهل الهدى والإيمان وملأها بالحبور والسرور وأعدها بالأنهار والقصور. أحمده سبحانه على جميع الإحسان وأشكره على جليل الفضل والامتنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الإخوة والأخوات، إن الحديث عن الجنات مشوق للمؤمنين والمؤمنات ودافع إلى الأعمال الصالحات.

الجنة تلك الأمنية الغالية التي يسعى إليها الساعون ويتسابق إليها المؤمنون، الجنة شعلة تكوي قلوب العاشقين وتسهر ليل المتعبدين، استعذبوا من أجلها العذاب وتحملوا جليل المصاب.

الجنة دار المتقين والشهداء والصالحين، هي نور يتلألأ وريحانة تهتز وفاكهة وخضرة. فيها العباد المنعمون الذين يأكلون ولا يتغوطون ويشربون ولا يبولون ويتطيبون ولا يمتخطون. يضحكون ولا يبكون ويقيمون ولا يرتحلون ويحيون ولا يموتون. فيها الوجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة. فيها الحور العين والجمال المبين فيها النعيم الدائم والعاشق الهائم

فيا راغبًا في الجنان ... وطالبًا رضى الرحمن

لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلت ما تحوي من الأثمان

أو كنت تدري أين مسكنها جعلـ ... ـت السعي منك لها على الأجفان

ولقد وصفت طريق مسكنها ... فارم الوصال فلا تكن بالواني

أسرع وحث السير جهدك ... إنما مسراك هذا ساعة لزمان

فاعشق وحدث بالوصال النفس وابـ ... ـذل مهرها ما دمت ذا إمكان

واجعل صيامك قبل لقياها ويو ... م الوصل يوم الفطر من رمضان

واجعل نعوت جمالها الهادي وسر ... تلقي المخاوف وهي ذات أمان

هي دار السلام سلمت من كل بلية وآفة. هي دار الخلد لا يموتون فيها ولا يشيخون، هي دار المقامة لا ينتقلون منها ولا يملون. وهي جنة المأوى أوى إليها المؤمنون بعد دار النكد والبلاء. وهي جنات عدن وهي دار الحيوان وهي الفردوس وهي جنات النعيم والمقام الأمين ومقعد صدق عند مليك مقتدر.

فسبحان من غرست يداه جنة الـ ... فردوس عند تكامل البنيان
ويداه أيضًا أتقنت لبنائها ... فتبارك الرحمن أعظم بان
لما قضى رب العباد العرش قا ... ل تكلمني فتكلمت ببيان
قد أفلح العبد الذي هو مؤمن ... ماذا ادخرت له من الإحسان
فيها الذي والله لا عين رأت ... كلا ولا سمعت به الأذنان
كلا ولا قلب به خطر المثا ... ل له تعالى الله ذو السلطان

روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي فقالت قد أفلح المؤمنون».

نعم جنة عالية يزينها الله لأحبابه ويقول: «يوشك عبادي الصالحون أن يدعوا عنهم التعب والنصب ويدخلوك. يتسابق إليها عشاقها وتنافس لخطبتها أحبابها، ولم يكونوا يكتفون بعمل واحد وإنما كانوا ينوعون القربات ويتسابقون إلى الخيرات».

وانظر إلى الصحابة الكرام لما اجتمعوا على النبي عليه الصلاة والسلام فحدثهم عن الجنات ثم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير». ثم قال: «وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة. ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد. ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان. ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة». عندها يقفز أبو بكر البطل على قدميه ويصيح بين يديه قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على أحد من بأس إن دعي من تلك الأبواب كلها؟ همة عالية يريد أن يدخل من جميع تلك الأبواب وأن يسابق إلى جميع تلك الطاعات فيقول عليه الصلاة والسلام: «نعم نعم وأرجو أن تكون منهم». عندها

يعمل لها أبو بكر جاهدا فيجمع ماله أربعين ألفا يفك به المؤمنين من العذاب فاشترى بلالاً وأعتقه واشترى عمارًا وأعتقه. نعم يعمل لها أبو بكر فيصدق بكل ما يحدث به النبي عليه الصلاة والسلام فيخبرهم ﷺ يومًا في مكة أنه في ليلة واحدة أسري به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء عندها يكذب أكثر الناس ويصدق الصديق أبو بكر. نعم همة عالية وأمنية غالية، أبواب ثمانية واسعة باقية يريد أن يسابق إليها بين كل مصراعين من هذه الأبواب مسيرة أربعين سنة، وليزدحمن عليها المؤمنون ويلتقي عندها المحبون. فإن كانت نفسك تحركت شوقًا إلى الجنات وتاقت إلى أنهارها ومتعها.

فـاسمع إذا أوصـافها وصـفاتها	تيـك المنـازل ربـة الإحـسان
هـي جنـة طابـت وطـاب نعيمهـا	فنعيمهـا بـاق ولـيس بفـان
دار الـسلام وجنـة المـأوى ومنـ	ـزل عـسكر الإيمـان والقـرآن
سبحان ذي الجبروت والملكوت والـ	إجـلال والإكـرام والـسبحان
والله أكـبر عـالم الأسـرار والـ	إعـلان واللحظـات بالأجفـان
والحمـد لله الـسميع لـسائر الـ	أصـوات مـن سـر ومـن إعـلان
وهـو الموحـد والمـسبح والممجـ	ـد والحميـد ومنـزل القـرآن
والأمـر مـن قبـل ومـن بعـد لـه	سبحـانك اللهـم ذا السلطـان

الجنة دار الحبور والسرور ينسى فيها المريض مرضه والمصاب مصابه والفقير فقره والمقهور قهره. ليس فيها هم مال يجمع، ولا منصب يرفع، ولا مرض يزول، ولا سجن يطول، ولا بيت يبنى، ولا عدو يخشى. نعم ليس فيها كربات بل فرحة ومسرات، وإذا سمعت خبر أدنى أهل الجنة منزلاً علمت أن ما خفي عنا كان أعظم.

روى مسلم أنه ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي أنجاني منك لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول له الله: يا ابن آدم فلعلي إذا أعطيتكها سألتني غيرها فيقول: لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها قال:

وربه ﷻ يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول: أي رب هذه فلأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها فيقول: ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه ﷻ يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين فيقول: أي رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها قال: بلى أي رب هذه لا أسألك غيرها فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها فيقول: أي رب أتستهزئ بي وأنت رب العالمين فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ»، فقال: «ألا تسألوني مم أضحك؟». فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك ربي حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين فيقول: إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قدير». حين قال العبد أتستهزئ بي وأنت رب العالمين فيقول رب العالمين: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت، رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله. ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت، رب!

وفي رواية غير الصحيح أن الله تعالى يقول له بعد ذلك: يا عبدي اسأل اطلب. فيقول: يا ربي ألحقني بالناس. فيقول به الله تعالى: الحق بالناس. فينطلق يرمل بالجنة - يعني يجري - حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدًا، فيقال له: ارفع رأسك ما لك؟ فيقول: رأيت ربي أو ترائى لي ربي، فيقال له: ارفع رأسك إنما هو منزل من منازلك ثم يلقى رجلاً فيتهيأ للسجود له، فيقال له: ما لك؟ فيقول: ارتأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك وعبد من عبيدك، فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر فإذا هو درة مجوفة سقائفها وأبوابها

وأعلاها ومفاتيحها منها. هذا أدنى أهل الجنة منزلة.

أما أعلاهم منزلة فهم الذي غرس الله كرامتهم بيده وختم عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر هذا.

لكن أدناهم وما فيهم دني	إذ ليس في الجنات من نقصان
فهو الذي تلقى مسافة ملكه	بسنيننا ألفان كاملتان
فيرى بها أقصاه حقا مثل رؤ	يته لأدناه القريب الداني
أو ما سمعت بأن آخر أهلها	يعطيه رب العرش ذو الغفران
أضعاف دنيانا جميعا عشر أمـ	ـثال لها سبحان ذي الإحسان

روى الترمذي والطبراني أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه وسرره ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه، وأرفعهم ينظر إلى ربه بالغداة والعشي».

والريح يوجد من مسيرة أربعيـ	ـن وإن تشأ مائة فمرويان
سبحان من غرست يداه جنة الـ	ـفردوس عند تكامل البنيان
ويداه أيضًا أتقنت لبنائها	فتبارك الرحمن أعظم بان

وكلما كان العمل أكثر كان الوجه أنضر والجزاء أكبر.

وأول البشر دخولاً إلى الجنة على الإطلاق محمد ﷺ، ولماذا لا يكون أول الناس دخولاً وهو الذي علق قلبه بالسماء فإذا سمعهم يرددون يا ساحر يا كاهن يا كذاب هان عليه ذلك. نعم، هان عليه ما دام أن الذي في السماء راض فما عليه ما فاته من الدنيا. فلما أرضى ربه بالصبر على البلاء وأرضاه بالدعوة والإباء، وأرضاه بالجهاد والفداء قال له الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]. يسجد ﷺ عند الكعبة فيمضي شقي من أشقياء قريش ثم يأتي بسلا جزور، أتدري ما سلا الجزور؟ إذا ولدت الناقة وليدها وخرج معه ما يخر من دماء وفرث أخذه ذلك الرجل الشقي. أخذ بين يديه هذا الدم والفرث وما فيه من أذى يتقاطر من بين يديه ثم أقبل به على رسول الله ﷺ وهو ساجد ثم جعله بين كتفيه حتى سالت الدماء والفرث والأذى على وجهه ورقبته ولحيته عليه الصلاة والسلام. يستحق أن يكون أول أهل الجنة دخولاً.

ثم أول الأمم دخولاً إلى الجنة هم أمته عليه الصلاة والسلام، وأول من يدخل من هذه الأمة أبو بكر رضي الله تعالى عنه ثم يدخل المؤمنون إلى الجنة بعد ذلك على أكمل صورة وأجملها على صورة أبيهم آدم ﷺ الذي خلقه الله بيده فأتم خلقه وأحسن تصويره طوله ستون ذراعًا في السماء يدخلون نفوسهم صافية رضية وأرواحهم طاهرة زكية لا اختلاف بينهم ولا تطابق، فلله ما أبهى تلك الصور. ينسى الدميم دمامته والمعوق إعاقته والمشوه قباحته بل يحتقر الجميل سابق ملاحته والوسيم سابق وسامته وقد صارت وجوههم أنوارًا وأبدانهم أطهارًا. وأول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة. لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون ولا ينامون. أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك وأزواجهم الحور العين. أخلاقهم على خلق رجل واحد يدخلونها جردًا مردًا بيضًا جعدًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين ويعطى الواحد منهم قوة مائة في الفراش.

ألـوانهم بـيض ولـيس لهـم لحـى	جعـد الـشعور مكحلـو الأجفـان
هـذا كمـال الحـسن في أبـشارهم	وشـعورهم وكـذلك العينـان
ولقـد أتـى أثـر بـأن لسانهـم	بـالمنطـق العربـي خيـر لسـان

فإذا دخلوها فإذا الأشجار تفوح بالأطياب والملائكة ترحب عند الأبواب وقد رضي عنهم الملك الوهاب. رقت منهم القلوب ورضي علام الغيوب ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٥]

فإذا دخلوها ترتعوا في أرجائها فوجدوا السرر المرفوعة المجهزة للأحباب والأكواب الموضوعة المهيئة للشراب والوسائد المصفوفة تأخذ بالألباب. رأوا الوجه الناعم والظل الدائم. الروائح الزكية والقصور العلية والثياب الندية.

هـذا وأول زمـرة فوجـوههم	كالبـدر ليـل الـست بعـد ثمـان
الـسابقون هـم وقـد كـانوا هنـا	أيـضًا أولـي سـبق إلى الإحـسان

والزمرة الأخرى كأضواء كوكب ... في الأفق تنظره به العينان
أمشاطهم ذهب ورشحهم فمسـ ... ـك خالص يا ذلة الحرمان
هذا وسنهم ثلاث مع ثلا ... ثين التي هي قوة الشبان
والطول طول أبيهم ستون لـ ... ـكن عرضهم سبع بلا نقصان
هذا كمال الحسن في أبشارهم ... وشعورهم وكذلك العينان
ولقد أتى أثر بأن لسانهم ... بالمنطق العربي خير لسان
والريح يوجد من مسيرة أربعيـ ... ـن وإن تشأ مائة فمرويان

فينزلون في الجنة حيث شاءوا. إن شاءوا على أنهارها وإن شاءوا في ظلالها وإن شاءوا على أرائكها. أما إن نزلوا في خيامها فهي عجب قال عليه الصلاة والسلام: «إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا». وأما قصورها فهي أعجب أرأيت قصرًا يبني بالذهب والفضة والياقوت والمرجان والجوهر والزمرد. في المسند قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام».

وقد جهزت غرف وقصور في الجنان للصالحين والصالحات الذين أحسنوا الأعمال وتعبدوا للكريم المتعال فبنيت قصورهم وهم في الدنيا قال ﷺ وهو يذكر أنه دخل الجنة قال: «فسمعت خشفة في الجنة - أي صوت مشي - قلت: من هذا؟ فقيل: هذا بلال». فما شأن بلال يسبق إلى هناك. سئل بلال رضي الله عنه عن ذلك وقيل: قد سأله النبي ﷺ بم سبقت إلى الجنة؟ فقال رضي الله عنه : ما أعمل من عمل صالح غير أني يا رسول الله ما توضأت وضوءًا إلا صليت به ركعتين. قال عليه الصلاة والسلام: «ورأيت قصرًا بفنائه جارية فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب» فمن كان يريد بناء قصره وهو في الدنيا فليستمع. في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام «من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة». وعند مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعًا بنى الله له بيتًا في الجنة» وهذه الركعات فصلت في حديث آخر فبين عليه الصلاة

والسلام أنها ركعتان قبل الفجر وأربع ركعات قبل الظهر وركعتان بعدها وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء. فمن صلاها في كل يوم بنى الله له كل يوم بيتًا في الجنة.

فالبيوت.

وبناؤها اللبنات من ذهب	وأخرى فضة نوعان مختلفان
وقصورها من لؤلؤ وزبرجد	أو فضة أو خالص العقيان
وكذاك من در وياقوت به	نظم البناء بغاية الإتقان
والطين مسك خالص أو زعفرا	ن جا بذا أثران مقبولان
والأرض مرمرة خالط فضة	مثل الفرات تتاله العينان
حصباؤها در وياقوت كذا	ك لآلئ نثرت كنشر جمان
وترابها من زعفران أو من الـ	ـسك الذي ما استل من غزلان
غرفاتها في الجو ينظر بطنها	من ظهرها والظهر من بطنان
سكانها أهل القيام مع الصيا	م وطيب الكلمات والإحسان
للعبد فيها خيمة من لؤلؤ	قد جوفت هي صنعة الرحمن
فيها مقاصير بها الأبواب من	ذهب ودر زين بالمرجان
وخيامها منصوبة برياضها	وشواطئ الأنهار ذي الجريان
لله هاتيك الخيام فكم بها	للقلب من علق ومن أشجان
فيها الأرائك وهي من سرر عليـ	ـهن الحجال كثيرة الألوان

فتخيل نفسك بالجنة وتخيليها وقد أعدت لكم الأرائك في حدائقها والسرر في بساتينها بألوان فاخرة وسرر ناضرة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۢ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍۢ﴾ [الرحمن:٥٤] النمارق مصفوفة والزرابي مبثوثة والسرر مرفوعة طول السرير في السماء مائة ذراع فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له ونزل له حتى يجلس عليه فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه وأينما تلفت في الجنة رأيت العجائب. الأنهار تجري من تحت قصورها وينغمس فيها أهلها قال الله وهو يصف أنهارها: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌۭ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍۢ وَأَنْهَٰرٌۭ مِّن لَّبَنٍۢ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌۭ مِّنْ خَمْرٍۢ لَّذَّةٍۢ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌۭ مِّنْ عَسَلٍۢ مُّصَفًّۭى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌۭ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥]

أنهار حوافها من ذهب وترابها الدر والياقوت وريحها أطيب من المسك وماؤها أحلى من العسل ولونها أبيض من الثلج. فتنقلب كما شئت في أنهارها. وإن شئت فأت الفردوس فهو أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة.

أنهارها في غير أخدود جرت	سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاءوا مفجـ	ـرة وما للنهر من نقصان
عسل مصفى ثم ماء ثم خمـ	ـر ثم أنهار من الألبان
مع خمرة لذت لشاربها بلا	غول ولا داء ولا نقصان
والخمر في الدنيا فهذا وصفها	تغتال عقل الشارب السكران
وبها من الأدواء ما هي أهله	ويخاف من عدم لذي الوجدان
فنفى لنا الرحمن أجمعها عن الـ	ـخمر التي في جنة الحيوان

نعم خمر الجنة منزه عن خمر الدنيا فلا صداع ولا لهو ولا نزف مال ولا تضييع عيال ولا توهم دار أما خمر الدنيا فهو رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتدعو إلى الزنا والفساد وربما أوقعت الرجل على ابنته وأخته وتذهب الغيرة وتورث الخزي والندامة والفضيحة وترهق شاربها بالمجانين فمن هجروا خمر الدنيا شربوا من خمر الآخرة. وإن شاءوا شربوا من عين الكافور قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٥، ٦] وإن شاءوا سقوا من تسنيم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٨] وإن شاءوا سقوا من السلسبيل ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٧، ١٨] يتمتعون بهذه الأنهار وهم في ظلال الأشجار ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة:٢٧-٣٢].

أشجار الجنة أيها الإخوة والأخوات دائمة العطاء ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد:٣٥] ومن طيب الثمار أنها تتشابه في أشكالها وتختلف في

طعومها يعني تأكل الرمانة اليوم فيكون لها طعم فإذا أكلت أختها من الغد من الشجرة نفسها وجدت لها طعمًا آخر فإذا تناولتها في اليوم الثالث فإذا الشكل نفسه لكن الطعم جديد فلا تزال تكون مشتاقًا في كل يوم كيف سيكون طعمها قال الله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] وبها شجرة يسير الراكب الجواد المطمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها قال الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] نعم وظل ممدود فتخيل نفسك متكئًا تحتها تنعم بجمال ظلها ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٣، ١٤].

في الجنة سيقان الأشجار من ذهب وأوراقها في أعلى الرتب وثمارها قريبة ممن رغب ومن قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ومن قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غرست له أشجار. وعند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان الأولى يشرب منها الداخلون والثانية منها يتطهرون.

أشجارها نوعان منهما ما له ... في هذه الدنيا مثال ثان
وكذلك الرمان والأعنا ... ب التي منها القطوف دوان
فيلذها في الأكل عند منالها ... وتلذها من قبله العينان
يا طيب هاتيك الثمار وغرسها ... في المسك ذاب الترب للبستان
وكذلك الماء الذي يسقى به ... يا طيب ذاك الورد للظمآن
وإذا تناولت الثمار أتت نظيـ ... ـرتها فحلت دونها بمكان
بل ذللت القطوف فكيف ما ... شئت انتزعت بأسهل الإمكان

كيفما شئت انتزعت بأسهل الإمكان. سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤] قيل له: كيف ذللت قطوفها؟ فقال: إذا جلس العبد في الجنة فنظر إلى ثمرة في الغصن فإذا هم أن يتناولها تدلى إليه الغصن - يقترب إليه الغصن - حتى يتناول ما يريد فهي مذللة يتناولها إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا.

وثمارها ما فيه من عجم كأمـ ... ـثال القلال فجل ذو الإحسان

وظلالها معدودة ليست تقي ... حرًا ولا شمسا وأنى ذان

أو ما سمعت بظل أصل واحد ... فيه يسير الراكب العجلان

مائة سنين قدرت لا تنقضي ... هذا العظيم الأصل والأفنان

فأهل الجنة بفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] وليس أكلهم عن جوع ولا شربهم عن ظمأ ولا تطيبهم عن نتن وإنما هي لذات متوالية ونعم متتابعة. ألا ترى أن الله تعالى قال لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٨، ١١٩] فهو يأكل من غير جوع ويستظل من غير شمس مؤذية.

وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ... ولحوم طير ناعم وسمان

وفواكه شتى بحسب مناهم ... يا شبعة كملت لذي الإيمان

لحم وخمر والنسا وفواكه ... والطيب مع روح ومع ريحان

وصحافهم ذهب تطوف عليهم ... بأكف خدام من الولدان

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنك لتنظر للطير في الجنة فتشتهيه فيقع بين يديك مشويًا.

يسقون فيها من رحيق ختمه ... من مسك أوله كمثل الشان

وشرابهم من سلسبيل مزجه الـ ... ـكافور ذاك شراب ذي الإحسان

هذا شرب أولي اليمين ولكن الـ ... أبرار شربهم المقرب خيرة الرحمن

هذا وتصريف المآكل منهم ... عرق يفيض لهم من الأبدان

كروائح المسك الذي ما فيه خلـ ... ـط غيره من سائر الألوان

فتعود هاتيك البطون ضوامرا ... تبغي الطعام على مدى الأزمان

لا غائط فيها ولا بول ولا ... مخط ولا بصق من الإنسان

ولهم جشاء ريحه مسك يكو ... ن به تمام الهم بالإحسان

ولباسهم من سندس خضر ومن ... إستبرق نوعان معروفان

وهم الملوك على الأسرة فوق ها ... تيك الرءوس مرصع التيجان

نعم والله ملوك على الأسرة حتى على رءوسهم التيجان وعند أقدامهم الخدم والغلمان. ولماذا لا يكون حالهم كذلك وهم لطالما أطاعوا لما عصى الأشقياء

وبذلوا لما بخل الجبناء وثبتوا على دينهم وقد عظم البلاء. صدقوا بمحبتهم لربهم فاستحقوا أن يفرحوا بلقائه ويتنعموا بقربه هذا الذي أعده الله تعالى هناك ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٣-٣٥].

هذا شيء من نعيم الجنة ووالله إن ما خفي كان أعظم.

عند البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ثم قال اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]».

فيا أيها الناس، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن أعظم ما وصف الله من نعيم الجنة ما فيها من الزوجات والحوريات وأول من يتمتع بذلك النساء المؤمنات. نعم فما أطيب عيش المؤمنة بالجنة عندما تتقلب في أنهارها وتشرب من عسلها بل وتنظر إلى وجه ربها ويكمل الجمال ويزين للمؤمنات في الجنات. فإذا كان الله تعالى قد وصف الحور العين بما وصف وهن لم يقمن الليل ولم يصمن النهار ولم يصبرن عن الشهوات فما بالك بجمال المؤمنات وهن طالما خلون بربهن في ظلمة الليل يسمع نجواهن ويجيب دعاءهن. طالما تركن لأجل رضاه اللذات وفارقن الشهوات فيا بشرى المؤمنات في الجنات وقد تلقتهن الملائكة عند الأبواب تبشرهن بالنعيم وحسن الثواب وقد ازددن جمالاً فوق جمالهن قال الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ نعم والمؤمنات ماذا وعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢]

فالمؤمنة في الجنة قد..

كملت خلائقها وأكمل حسنها ... كالبدر ليل الست بعد ثمان

والشمس تجري في محاسن وجهها | والليل تحت ذوائب الأغصان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها | فيضيء سقف القصر بالجدران

روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين فقال عليه الصلاة والسلام «نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة» أي: كفضل ظهارة الثوب على بطانته ومعلوم أن ظاهر الثوب من القماش يهتم الناس بجماله ويغالون بقيمته أكثر مما يهتمون ببطانة الثوب التي لا يراها أحد. قالت: قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل ألبس الله عز وجل وجوههن النور وأجسادهن الحرير. بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبدًا ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا طوبى لمن كنا له وكان لنا». المرأة في الجنة لو تفلت في بحار الدنيا لعذبت كلها ولو اطلعت من سقف بيتها إلى الدنيا لأخفى نورها نور الشمس والقمر.

نعم هذا نعيم من فاز بالجنات. فالجنة للرجال والنساء بل من النساء الصالحات من جاءتها بشراها بالجنة وهي لا تزال في الدنيا وعند مسلم أن النبي ﷺ أتاه جبريل يومًا فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». مؤمنة بشرت ببيت في الجنة وهي لا تزال تمشي على قدميها في الدنيا. وقال عليه الصلاة والسلام: «دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة» - وهي أم سليم أم أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وعنها - ولا ننسى تلك المرأة الصالحة التي كانت تمشط بنت فرعون ثم قتلها فرعون قتلة بشعة وقتل قبلها أولادها.

روى البيهقي أن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة؟ فقيل لي: هذه ماشطة بنت فرعون وأولادها». اسمع إلى أوصاف نساء الجنة واسمعي أوصافهن لعل نفسك أن تشتاق لتكون واحدة منهن فما وصفت الحور العين بوصف إلا وكان وصفك أجمل منه أضعافًا والحور العين من خلق الله

في الجنة أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكارًا عربًا أترابًا خلق الله تعالى الحور العين من الزعفران. عجبًا إذا كانت الصورة الآدمية لفتاة اليوم في حسنها وتماسكها وهي مخلوقة من تراب فكيف يكون حال الحور العين وقد خلقن من الزعفران وهن عفيفات قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:٤٨] أي قصرن أطرافهن على أزواجهن متحببات إلى أزواجهن لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٣] لونهم ضوء الشمس ما عبثت به يد وهن كالياقوت والمرجان وهن خيرات حسان مقصورات في الخيام مطهرات من الحيض والنفاس والبول والغائط والمخاط ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون إذا مشت رأيت مخ ساقها من لحمها وإذا ضحكت ظننت الكون مجتمعًا في حسنها وإذا أطلت رأيت نور الشمس في وجهها. وعند البخاري قال عليه الصلاة والسلام: «ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

قال محمد بن كعب رحمه الله: والله الذي لا إله إلا هو لو أن امرأة من الحور العين اطلعت سوارها لأطفأ نور سوارها الشمس والقمر ثم قال فكيف بالمسورة.

يا جماعة إذا كان هذا الجمال وهذا النور من السوار الذي في يدها إذ اليد التي تلبس السوار فكيف سيكون جمالها ونورها. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيف عن يمينها وعن يسارها كذلك وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن في الجنة حوراء يقال لها لعبة لو بزقت في البحر لعذب ماء البحر كله مكتوب على ظهرها من أحب أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربي. وقال مالك بن دينار: في الجنة حوراء يتباهى بها أهل الجنة لحسنها لولا أن الله كتب على أهل الجنة ألا يموتوا لماتوا عن آخرهم من حسنها. وروى أحمد والترمذي بسند صحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا».

فاسمع صفات عرائس الجنات ثم اخـ ـــتر لنفـــسك يـــا أخـــا العرفـــان

حور حسان قد كملن خلائقًا ... ومحاسنًا من أجمل النسوان
فيرى محاسن وجهه في وجهها ... وترى محاسنها به بعيان
حمر الخدود ثغورهن لآلئ ... سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها ... فيضيء سقف القصر بالجدران
ولقد روينا أن برقًا ساطعًا ... يبدو فيسأل عنه من بجنان
فيقال هذا ضوء ثغر صاحبك ... في الجنة العليا كما تريان
لله لاثم ذلك الثغر الذي ... في لثمه إدراك كل أمان

قال يزيد الرقاشي: بلغني أن نورًا سطع في الجنة لم يبق موضع في الجنة إلا دخل فيه من ذلك النور فيتعجب أهل الجنة يقولون ما هذا النور فيقال هذا النور خرج من فم حوراء ضحكت في وجه زوجها. هذا النور خرج من فمها لما ضحكت. اسمع ماذا قال ابن القيم يقول:

ريانة الأعطاف من ماء الشبا ... ب فغصنها بالماء ذو جريان
والقد منها كالقضيب اللدن في ... حسن القوام كأوسط القضبان
والمعصمان فإن تشأ شبههما ... بسبيكتين عليهما كفان
كالزبد لينًا في نعومة ملمس ... أصداف در دورت بوزان
لا الحيض يغشاه ولا بول ولا ... شيء من الآفات في النسوان
ولقد رأينا أن شغلهم الذي ... قد جاء في يس دون بيان
شغل العروس بعرسه من بعدما ... عبثت به الأشواق طول زمان
بالله لا تسأله عن أشغاله ... تلك الليالي شأنه ذو شان
واضرب لهم مثلا بصب غاب عن ... محبوبه في شاسع البلدان
والشوق يزعجه إليه وما له ... بلقائه سبب من الإمكان
وافى إليه بعد طول مغيبه ... عنه وصار الوصل ذا إمكان
أتلومه إن صار ذا شغل به ... لا والذي أعطى بلا حسبان
يا رب غفرا قد طغت أقلامنا ... يا رب معذرة من الطغيان
أقدامها من فضة قد ركبت ... من فوقها ساقان ملتفان
الساق مثل العاج ملموم يرى ... مخ العظام وراءه بعيان

والريح مسك والجسوم نواعم | واللون كالياقوت والمرجان
وكلامها يسبي العقول بنغمة | زادت على الأوتار والعيدان
وهي العروب بشكلها وبدلها | وتحبب للزوج كل أوان
أتراب سن واحد متماثل سن | ن الشباب لأجمل الشبان
بكر فلم يأخذ بكارتها سوى المحـ | ـبوب من إنس ولا من جان
وأعفهم في هذه الدنيا هو | الأقوى هناك لزهده الفاني
فاجمع قواك لما هناك وغمض | العينين واصبر ساعة لزمان
ما ها هنا والله ما يسوى قلا | مة ظفر واحدة ترى بجنان
لا تؤثر الأدنى على الأعلى | فإن تفعل رجعت بذلة وهوان

قال ابن عباس ﷺ: لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو أخرجت نصيفها - يعني الخمار الذي تجعله على رأسها - لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض.

وإذا بدت في حلة من لبسها | وتمايلت كتمايل النشوان
تهتز كالغصن الرطيب وحمله | ورد وتفاح على رمان
وتبخترت في مشيها ويحق ذا | ك لمثلها في جنة الحيوان
ووصائف من خلفها وأمامها | وعلى شمائلها وعن أيمان
كالبدر ليلة تتمه قد حف في | غسق الدجي بكوكب الميزان
فلسانه وفؤاده والطرف في | دهش وإعجاب وفي سبحان
فالقلب قبل زفافها في عرسه | والعرس من أثر العرس متصلان
وسل المتيم أين خلف صبره | في أي واد أم بأي مكان
وسل المتيم كيف حالته وقد | ملئت له الأذنان والعينان
من منطق رقت حواشيه ووجـ | ـه كم به للشمس من جريان
وسل المتيم كيف مجلسه مع الـ | ـمحبوب في روح وفي ريحان
وتدور كاسات الرحيق عليهما | بأكف أقمار من الولدان
غاب الرقيب وغاب كل منكد | وهما بثوب الوصل مشتملان

أتراهما ضجرين من ذا العيش لا ... وحياة ربك ما هما ضجران

لا يمل أحدهما من الآخر أبدًا.

ويزيد كل منهما حبًّا لصا ... حبه جديدًا سائر الأزمان

فيا أيها العشاق بل يا أيها الشباب الذين تعلقت أبصارهم براقصات في بارات أو مغنيات فاجرات أو بكاسيات عاريات مائلات مميلات دعوا عنكم النتن علقوا أنفسكم بالجنات.

يا مغرق الطرف المذب إلى الأولى ... جردن عن حسن وعن إحسان

وجمالها زور ومصنوع فإن ... تركته لم تطمح لها العينان

فجمالها قشر رقيق تحته ... ما شئت من عيب ومن نقصان

فانظر مصارع من يليك ومن خلا ... من قبل من شيب ومن شبان

فانظر مصارع من يليك ومن خلا ... من مهرها ما دمت ذا إمكان

والله لم تخرج إلى الدنيا للذ ... ة عيشها أو للحطام الفاني

لكن خرجت لكي تعد الزاد للـ ... أخرى فجئت بأقبح الخسران

أهملت جمع الزاد حتى فات بل ... فات الذي ألهاك عن ذا الشان

والله لو أن القلوب سليمة ... لتقطعت أسفًا من الحرمان

لكنها سكرى بحب حياتها الد ... دنيا وسوف نفيق بعد زمان

أما أهل الجنة هم يتقلبون في نعيمها وحالهم كما قال الله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٣] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس:٥٥]

نعم هم مشغولون. مشغولون بالنظر إلى وجه الجبار والتقلب في الأنهار وافتضاض الأبكار ومجالسة الأخيار وصيد الأطيار والضحك على أهل النار ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا

﴿فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٥-٥٨] فلله ما أبهى ذلك النعيم. أعلى نعيم يمر على أهل الجنة وأجله وأكرمه وأبركه أنهم يرون ربهم، نعم نعم يرون ربهم الذي طالما عاهدوه بالأسحار، وبكوا من خشيته في النهار، الذي فروا إليه عند الكربات، وخافوا من مراقبته في الخلوات. الذي صدقوا رسله وأطاعوا أمره، لم ينشغلوا عنه بلذة في ليل ولا معصية في نهار فهم اليوم يقبلون بأبصارهم عليه وينظرون إليه ويقفون بين يديه.

في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله بين يديك فيقول: هل رضيم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، وفي رواية عند مسلم قال عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فلا أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ثم قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]» فالنظر إلى وجه الله الكريم هو الزيادة وهو المتعة الكبرى والعطية العظمى بل هو والله أعظم كرامة فينظر المؤمنون إلى ربهم فيفرحون أهذا ربنا الذي طالما دعوناه فاستجاب واستغفرناه فغفر وتاب، أهذا ربنا الذي فارقنا لأجله أوطاننا وبذلنا أموالنا وأرواحنا، أحقًّا هذا ربنا الذي سجدنا له في الأسحار وبكينا من خشيته في النهار، هذا ربنا الذي سمى نفسه رحيمًا فرحمنا ولطيفًا فلطف بنا وقريبًا فاستجاب دعاءنا. فينظرون إلى وجه الحي الذي لا يموت الذي سالت الجوامد لهيبته واندكت الجبال من خشيته وجرت الأنهار بقدرته. وجهه أعظم الوجوه وجاهه أعظم الجاه وجماله أكمل الجمال ينظرون إلى ربهم فلا يلتفتون إلى نعيم آخر ما داموا ينظرون إليه، نعم ينسون والله الأنهار وجريانها والحور العين ودلالها والثمار ولذتها والقصور وسعتها ينسون كل نعيم ما داموا ينظرون إلى العزيز الرحيم.

والله لولا رؤية الرحمن في الـ ـجنات ما طابت لذي العرفان

أعلـــى نعـــيم رؤيـــة وجهـــه ... وخطابـــه في جنـــة الحيـــوان
وأشـــد شـــيء في العـــذاب حجابـــه ... ســـبحانه عـــن ســـاكني الـــنيران
وإذا رآه المؤمنـــون نـــسوا الـــذي ... هـــم فيـــه ممـــا نالـــت العينـــان
فـــإذا تـــوارى عـــنهم عـــادوا إلى ... لـــذاتهم مـــن ســـائر الألـــوان
فلـــهم نعـــيم عنـــد رؤيتـــه ســـوى ... هـــذا النعـــيم فحبـــذا الأمـــران
والله مـــا في هـــذه الـــدنيا ألـــذ ... مـــن اشـــتياق العبـــد للـــرحمن
وكـــذاك رؤيـــة وجهـــه ســـبحانه ... هـــي أكمـــل اللـــذات للإنـــسان
أو مـــا سمعـــت بأنـــه ســـبحانه ... حقـــا يكلـــم حزبـــه بجنـــان
فيقـــول جـــل جلالـــه: هـــل أنـــتم ... راضـــون؟ قـــالوا: نحـــن ذوو رضـــوان
أم كيـــف لا نرضـــى وقـــد أعطيتنـــا ... مـــا لم ينلـــه قـــط مـــن إنـــسان
فيقـــول: أفـــضل منـــه رضـــواني فـــلا ... يغـــشاكم ســـخط مـــن الـــرحمن
أو مـــا سمعـــت منـــادي الإيمـــان يخـــ ... ـــبر عـــن منـــادي جنـــة الحيـــوان
يـــا أهلـــها لكـــم لـــدى الـــرحمن وعـــ ... ـــد وهـــو منجـــزه لكـــم بـــضمان
قـــالوا: أمـــا بيـــضت أوجهنـــا كـــذا ... أعمالنـــا أثقلـــت في الميـــزان؟
وكـــذاك قـــد أدخلتنـــا الجنـــات جيـــ ... ـــن أجرتنـــا مـــن مـــدخل الـــنيران
فيقـــول عنـــدي موعـــد قـــد آن أن ... أعطيكمـــوه بـــرحمتي وحنـــاني
فيـــرونه مـــن بعـــد كـــشف حجابـــه ذا ... جهـــرا روى ذا مـــسلم ببيـــان

الجنة تزداد حسنًا وبهاء قال الله جل وعلا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١] **أي: قربت وزينت** ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٢-٣٥].

نعم في الجنة يعوض الله المحسن عن إحسانه والمجاهد عن جهاده والصابر عن صبره والمريض عن مرضه والفقير عن فقره والمبتلى عن بلائه والداعية عن دعوته والعالم عن علمه. فهي أمنية العاشقين وعشيقة الصالحين ومهوى أفئدة السالكين فما دمعت العيون إلا شوقًا إليها ولا احترقت القلوب إلا عشقًا لها.

وكل ما اشتهيت في الجنة يتحقق. فهذا رجل يحب الخيل فيأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيقول: يا رسول الله هل في الجنة خيل فإنها تعجبني فيقول عليه

الصلاة والسلام: «إن أحببت أوتيت بفرس من ياقوتة حمراء تطير بك في الجنة حيث شئت» وهذا رجل آخر في الجنة يتمنى الولد فيحقق الله له أمنيته في ساعة واحدة حيث تحمل امرأته وتضع في ساعة. عند الترمذي وأحمد بإسناد صحيح قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي» وهذا رجل يحب مجالسة إخوانه فيسمع قوله النبي ﷺ: «إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان قال: فيطير سرير هذا إلى سرير هذا فيذكران ما كان بينهما في الدنيا ويقول له: أتذكر مجلس كذا جلسنا فدعونا الله أن يغفر لنا فغفر لنا» وفي مجلس آخر يقعد عند النبي عليه الصلاة والسلام رجل من البادية فيقول ﷺ وهو يحدث أصحابه عن الجنة: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال الله له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى ولكني أحب الزرع، قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواءه واستحصاده وكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء». فلما سمع الأعرابي النبي ﷺ يذكر هذه القصة قال: والله يا رسول الله لا تجده إلا قرشيًا أو أنصاريًا فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك النبي ﷺ.

نعم، نعيم مقيم ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣] أفلا يستحق هذا النعيم الكثير والملك الكبير أن تترك لأجله اللذات الحاضرات. والله لو كنت مشتاقًا لخمر الجنة لتصبرت عن خمر الدنيا، ولو اشتقت للحور العين لغضضت بصرك عن الحرام وأحصنت فرجك عن الحرام، ولو صدق شوقك للذة النظر لوجه الكريم لبكيت في الأسحار وصمت النهار، ولو اشتقت لمجالسة الأنبياء لتركت مجالس الفحشاء. فالجنة ليست بالأماني، لقد اشتاق إليها أقوام تركوا أوطانهم وهجروا أولادهم فعاشوا غرباء. الناس يتركون الصلاة وهم يصلون، والناس يأكلون الربا وهم يتورعون، والناس يقارفون الفواحش وهم يعفون، كل ذلك لأجل ربهم لما اشتاقوا إليه.

تالله لو شاقتك جنات النعيـ ... ـم طلبتها بنفائس الأثمان
جليت عليك عرائس والله لو ... تجلى على صخر من الصوان
رقت حواشيه وعاد لوقته ... ينهال مثل نقى من الكثبان

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها ... إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن أين المشتري ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب ... فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ ... ـخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها ... حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف ... وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ... ليصد عنها المبطل المتواني

فالأمر يحتاج إلى تشمير، ولقد كان ﷺ يصرخ في أصحابه قائلا: «ألا من مشمر للجنة فإنها ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وزوجة حسناء». فقال الصحابة: نحن المشمرون لها يا رسول الله.

وإذا شبع الإنسان واطمأن رأى عنده نهرًا يجري ونعمًا تسري وفاكهة حاضرة ونعمة ناضرة اشتهى أن يجالس أحدًا يسليه أو يؤانسه ويهنيه. قال محمد بن المنكدر: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان أسكنوهم رياض المسك ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي، وقال شهر بن حوشب: إن الله جل ثناؤه يقول لملائكته: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي فأسمعوا عبادي قال: فيأخذون بأصوات من تسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط.

فنزه سماعك إن أردت سماع ذيـ ... ـاك الغناء عن هذه الألحان
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فتحـ ... ـرم ذا وذا يا ذلة الحرمان
إن اختيارك للسماع النازل الـ ... أدنى على الأعلى من النقصان
والله إن سماعهم في القلب والـ ... إيمان مثل السم في الأبدان
والله ما انفك الذي هو دأبه ... أبدا من الإشراك بالرحمن
فالقلب بيت الرب جل جلاله ... حبًا وإخلاصًا مع الإحسان
فإذا تعلق بالسماع أصاره ... عبدًا لكل فلانة وفلان

حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبد ليس يجتمعان

قال ابن عباس: ويرسل ربنا ... ريحًا تهز ذوائب الأغصان

فتثير أصواتًا تلذ لمسمع الإ ... نسان كالنغمات بالأوزان

يا لذة الأسماع لا تتعوضي ... بلذاذة الأوتار والعيدان

أو ما سمعت سماعهم فيها غنا ... ء الحور بالأصوات والألحان

واهًا لذياك السماع فإنه ... ملئت به الأذنان بالإحسان

واهًا لذياك السماع وطيبه ... من مثل أقمار على أغصان

واهًا لذياك السماع فكم به ... للقلب من طرب ومن أشجان

قد يتساءل بعضكم أو بعضكن هل في الجنة أصوات؟ فأقول: نعم. روى الترمذي وابن أبي عاصم عن أبي هريرة ﵁ قال: أخبرني رسول الله ﷺ: «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوها بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى، فيبرز لهم عشره ويبتدى لهم في روضة من رياض الجنة، فيوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ياقوت، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيها دني على كثبان المسك والكافور، وما يرون أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا، قال أبو هريرة: وهل نرى ربنا ﷻ؟ قال: نعم، قال: ربكم، ولا يبقى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى يقول يا فلان ابن فلان، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ فيذكره ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: بلى، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبمغفرتي بلغت منزلتك هذه، قال: فبينما هم على ذلك إذ غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط، قال: ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم، قال: فيأتون سوقًا قد حفت بها الملائكة فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب، قال: فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه ولا يشترى، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضًا، قال: فيقبل ذو البزة المرتفعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دني، فيروعه ما يرى الناس عليه من اللباس والهيئة، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها، قال: ثم ننصرف إلى

منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبًا وأهلاً بحبنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه، فنقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ﷻ وبحقنا أن نقلب بمثل ما انقلبنا». قال: وقربهم من الله تبارك وتعالى في سوق الجنة بقدر تبكيرهم إلى صلاة الجمعة فمن بكر صار أقرب إلى الإمام صار أقرب إلى الحي القيوم يوم المزيد.

يأتون سوقا لا يباع ويشترى ... فيه فخذ منه بلا أثمان

لله سوق قد أقامته الملا ... ئكة الكرام بكل ما إحسان

فيها الذي والله لا عين رأت ... كلا ولا سمعت به أذنان

كلا ولم يخطر على قلب امرئ ... فيكون عنه معبرا بلسان

واهًا لذا السوق الذي من حله ... نال التهاني كلها بأمان

يا من تعوض عنه بالسوق الذي ... ركزت لديه راية الشيطان

لو كنت تدري قدر ذاك السوق لم ... تركن إلى سوق الكساد الفاني

فهم إلى يوم المزيد أشد شو ... قًا من محب للحبيب الداني

أو ما سمعت بشأنهم يوم المزيـ ... ـد وأنه شأن عظيم الشان

هو يوم جمعتنا ويوم زيارة الر ... رحمن وقت صلاتنا وأذان

والسابقون إلى الصلاة هم الألى ... فازوا بذاك السبق بالإحسان

سبق بسبق والمؤخر ها هنا ... متأخر في ذلك الميدان

والأقربون إلى الإمام فهم أولو ... الزلفى هناك فها هنا قربان

ويحاضر الرحمن واحدهم محا ... ضرة الحبيب يقول يا ابن فلان

هل تذكر اليوم الذي كنت فيـ ... ـه مبارزًا بالذنب والعصيان

فيقول رب أما مننت بغفرة ... قدمًا فإنك واسع الغفران

فيجيبه الرحمن مغفرتي التي ... قد أوصلتك إلى المحل الداني

والمرء قد يتنعم بالدنيا بأنواع النعيم لكنه إذا تذكر انقطاع لذاته بالموت والمرض تكدر وحزن أما في الجنة فلا مرض ولا موت في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوضع بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت. ثم يقال:

يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون مستبشرين يرجون الشفاعة ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩] فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم» وكيف لا يفرحون وهم الذين صبروا على طاعة ربهم وسخروا جوارحهم لدينهم قال الله جل وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٧، ٢٨] نعم كنا خائفين من ربنا وكنا نحفظ أسماعنا ونغض أبصارنا ونحفظ ألسنتنا ونطهر أموالنا ونعف بفروجنا. ما الجزاء؟ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٧، ٢٨] وقال جل جلاله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤] نعم أذهب عنا الحزن فلا شدة في الجنة ولا سآمة ولا مرض ولا حزن ولا تعب ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥]

أو ما سمعت منادي الإيمان يخـ	ـبر عن مناديهم بحسن بيان
لكم حياة ما بها موت وعا	فية بلا سقم ولا أحزان
ولكم نعيم ما به بؤس وما	لشبابكم هرم مدى الأزمان
كلا ولا نوم هناك يكون ذا	نوم وموت بيننا أخوان
أو ما سمعت بذبحه للموت بيـ	ـن المنزلين كذبح كبش الضان
بالله ما عذر امرئ هو مؤمن	حقًا بهذا ليس باليقظان
يا غافلاً عما خلقت له انتبه	جد الرحيل فلست باليقظان
سار الرفاق وخلفوك مع الألى	قنعوا بذا الحظ الخسيس الفاني
ورأيت أكثر من ترى متخلفا	فتبعتهم ورضيت بالحرمان
لكن أتيت بخطتي عجز وجهـ	ـل بعد ذا وصحبت كل أمان
منتك نفسك باللحاق مع القعو	د عن المسير وراحة الأبدان
ولسوف تعلم حين ينكشف الغطا	ماذا صنعت وكنت ذا إمكان

وفي مجالس أهل الجنة يتذكرون أهل الشر الذين كانوا في الدنيا ويتذكرون ما كانوا يستهزئون بهم إذا مشوا إلى الفجر في الظلمات، يتذكرون ما كانوا يستهزئون

بمظاهرهم إذا استقاموا على السنة والطاعات. نعم يتذكرون أولئك الذين طالما استهزءوا بهم فيما يكتبون وفيما يقولون وفيما به يتكلمون. يتذكرون أولئك الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلى الكفران. اسمع إلى حكاية الله لأهل الجنة قال الله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٠-٥٣] فلا يجدونهم معهم في الجنة ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥٤] هل تطلعون تبحثون عنهم في النار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات:٥٥-٦٠] عندها تشفى صدور المؤمنين الأخيار من أولئك الفجار الذين طالما استهزءوا بهم في الدنيا وضيقوا عليهم في دينهم ووقفوا في طريق دعوتهم. هنا يفرح المؤمنين ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤] نعم لعنة الله على الظالمين.

هذا حال أهل المعصية في ذل الآخرة بل لو تأملت والله لوجدت أن أهل المعصية في عذاب في الدارين وهم في الدنيا وإن دلت ظواهرهم على أنهم سعداء إلا أنهم في الحقيقة في ضيق دائم.

كـدحًا وكـدًا لا يفـتر عـنهم	مـا فيـه مـن غـم ومـن أحـزان
والله لـو شـاهدت هاتيـك الـصدو	ر رأيتهـا كمراجـل الـنيران
ووقودهـا الـشهوات والحـسرات والآ	لام لا تخبـو مـدى الأزمـان
أبـدانهم أجـداث هاتيـك النفـو	س اللائـي قـد قـبرت مـع الأبـدان
أرواحهـم في وحـشة وجـسومهم	في كـدحها لا في رضـا الـرحمن
هربـوا من الـرق الـذي خلقـوا لـه	فبـلوا بـرق النفـس والشيطـان

وختاما يا خاطبًا للجنان وطالبًا رضا الرحمن:

لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ ـت بذلت ما تحوي من الأثمان
أو كنت تدري أين مسكنها جعلـ ـت السعي منك لها على الأجفان
ولقد وصفت طريق مسكنها فإن رمت الوصال فلا تكن بالواني
أسرع وحث السير جهدك إنما مسراك هذا ساعة لزمان
فاعشق وحدث بالوصال النفس وابـ ـذل مهرها ما دمت ذا إمكان
واجعل صيامك قبل لقياها ويو م الوصل يوم الفطر من رمضان
واجعل نعوت جمالها الهادي وسر تلقي المخاوف وهي ذات أمان

نعم تلقي المخاوف وهي ذات أمان..

أسال الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أهل الجنة وأن يرزقنا فيها الاجتماع مع الأنبياء الأطهار والشهداء الأبرار وأن يجعلنا ممن ينظرون إلى وجه العلي الكبير المتعالى الجبار جل جلاله، هذا والله تعالى أجل وأكرم وأعلم، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

* * *

قصة فتاة

الحمد لله يختص من يشاء برحمته، ويوفق أحبابه لأسباب عنايته، ومتابع الإحسان إلى العباد بفضله ومنته، ومصرف الأحكام في العبيد، فمن شقي وسعيد، ومقرب وطريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وصلوات الله وسلامه على سيد أنبيائه، وأول أوليائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محدث الأكوان والأعيان، ومبدع الأركان والأزمان، ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحباب والخلان، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، حمدًا إذا قابل النعم وفى، وسلامًا إذا بلغ خاتم النبيين شفى، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته واقتفى.

أما بعد.. الحمد لله، فهذه جلسة مع الصالحات، القانتات التقيات، اللاتي سمع الليل بكاءهن في الأسحار، ورأى النهار صومهن والأذكار، هذه كلمات عابرات، أبعثها مع كل نبضة أمل في عصر تكاثرت فيه الفتن، إلى الفتاة المسلمة، الراكعة الساجدة، أبعثها إلى جوهرة المجتمع، وأمل الأمة، إنها جلسة مع المؤمنات، اللاتي لم تهتك إحداهن عرضها، ولم تدنس شرفها، وإنما صلت خمسها، وأدامت سترها، لتدخل جنة ربها، إنها قصة فتاة بل فتيات، قانتات صالحات، ليست قصة عشق فاتنة، ولا رواية ماجنة.

نعم، قصة أحكيها لك أنت أيتها الأخت العفيفة، العزيزة الشريفة، فأنت أعز ما لدينا أنت الأم والأخت، والزوجة والبنت، أنت نصف المجتمع، وأنت التي تلدين النصف الآخر، نعم تلدين الخطيب البارع، والإمام النافع، وتربين المجاهد المؤيد، والقائد المسدد، فلك مني قصص وكلمات، وأحاديث وهمسات، لعلها تبلغ حبة قلبك؟ وتصل إلى شغاف نفسك؟

فالنساء شقائق الرجال، فكما أن في الرجال عالمًا جليلاً، وداعية نبيلاً، ففي النساء كذلك، وكما أن في الرجال صوامين في النهار، بكائين في الأسحار، ففي النساء كذلك، وكم من امرأة سابقت الرجال، في صالح الأقوال والأعمال،

فسبقتهم، في عبادتها لربها، ونصرتها لدينها، وإنفاقها وعلمها، بل إنك إذا قلبت صفحات التاريخ، رأيت أن أعظم الفضائل إنما سبقت إليها النساء، فأول من سكن الحرم، وشرب من ماء زمزم، وسعى بين الصفا والمروة، هي امرأة، هاجر أم إسماعيل، وأول من دخل في الإسلام، وناصر النبي ﷺ هي امرأة، خديجة أم المؤمنين ﵂، وأول من عذب في مولاه، حتى قتل في سبيل الله، هي امرأة، سمية أم عمار بن ياسر.

فعند البخاري: أن إبراهيم ﵇ انطلق من الشام، إلى البلد الحرام، معه زوجه هاجر وولدها إسماعيل وهو طفل صغير في مهده، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند مكان البيت، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل ﵇ منطلقًا إلى الشام، فتلفتت أم إسماعيل حولها، في هذه الصحراء الموحشة، فإذا جبال صماء وصخورا سوداء، وما رأت حولها من أنيس ولا جليس، وهي التي نشأت في قصور مصر، ثم سكنت في الشام في مروجها الخضراء، وحدائقها الغناء، فاستوحشت مما حولها، فقامت، وتبعت زوجها، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟

فما رد عليها، ولا التفت إليها، فأعادت عليه، أين تذهب وتتركنا، فما رد عليها، فأعادت عليه، وما أجابها، فلما رأت أنه لا يلتفت إليها.

قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: حسبي، قد رضيت بالله، إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم الشيخ الكبير، وقد فارق زوجه وولده، وتركهما وحيدين، حتى إذا كان عند ثنية جبل، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه جهة البيت، ثم رفع يديه إلى الله داعيًا، مبتهلاً راجيًا.

فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ثم ذهب إبراهيم إلى الشام، ورجعت أم إسماعيل إلى ولدها، فجعلت ترضعه وتشرب من ذلك الماء، فلم تلبث أن نفد ما في السقاء، فعطشت، وعطش ابنها، وجعل من شدة العطش يتلوى، ويتلمظ بشفتيه، ويضرب الأرض بيديه وقدميه،

وأمه تنظر إليه يتلوى ويتلبط، كأنه يصارع الموت، فتلفتت حولها، هل من معين أو مغيث، فلم تر أحدًا..

فقامت من عنده، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه يموت، فاحتارت أين تذهب!!

فرأت جبل الصفا أقرب جبل إليها، فصعدت عليه، وهي المجهدة الضعيفة، لعلها ترى أعرابًا نازلين، أو قافلة مارة، فلما وصلت إلى أعلاه، استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت جبل المروة فقامت عليه، ونظرت، هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فعادت إلى الصفا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

فلما أشرفت على المروة في المرة السابعة، سمعت صوتًا فقالت: صه، ثم تسمعت.

فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فأغثني، فلم تسمع جوابًا، فالتفتت إلى ولدها، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فضرب الأرض بعقبه أو بجناحه حتى تفجر الماء، فنزلت إلى الماء سريعًا، وجعلت تحوضه بيدها وتجمعه، وتغرف بيدها من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، فقال لها جبريل: لا تخافوا الضيعة، إن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، فلله درها ما أصبرها، وأعجب حالها، وأعظم بلاءها.

هذا خبرهاجر، التي صبرت، وبذلت، حتى سطر الله في القرآن ذكرها وجعل من الأنبياء ولدها، فهي أم الأنبياء، وقدوة الأولياء، هذا حالها، وعاقبة أمرها، نعم، تغربت وخافت، وعطشت وجاعت، لكنها راضية بذلك ما دام أن في ذلك رضا ربها، عاشت غريبة في سبيل الله، حتى أعقبها الله فرحًا وبشرًا، فهل تصبرين أنت اليوم مثل غربتها؟ فتقومين الليل والناس نيام، وتصومين النهار، وهم في شراب وطعام، بل تفخرين بعباءتك وحجابك، يوم تنازل عنها من تنازل، وتهجرين الأفلام والمسرحيات، والفواحش والأغنيات، في سبيل رضا رب الأرض والسماوات..

فهذا الصبر من أعظم الجهاد، وأنت عليه في الدنيا عزيزة مأجورة، وفي الآخرة

كريمة مشكورة، بل طوبى لك إن فعلت ذلك، وقد قال ﷺ «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء».

نعم، طوبى للغرباء..

فمن الغرباء؟ إنهم قوم صالحون، بين قوم سوء كثير، إنهم رجال ونساء، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يقبضون على الجمر، ويمشون على الصخر، ويبيتون على الرماد، ويهربون من الفساد، صادقة ألسنتهم، عفيفة فروجهم، محفوظة أبصارهم، كلماتهم عفيفة، وجلساتهم شريفة، فإذا وقفوا بين يدي الله، وشهدت الأيدي والأرجل، وتكلمت الآذان والأعين، فرحوا واستبشروا، فلم تشهد عليهم عين بنظر إلى محرمات، ولا أذن بسماع أغنيات، بل شهدت لهم بالبكاء في الأسحار، والعفة في النهار، أما غيرهم فتحيط بهم الفضائح، وتهلكهم القبائح، ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت:١٩-٢٤]

أما خبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها..

فعند البخاري: أن النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه بالنبوة، كان يذهب إلى غار حراء، بجانب المدينة، فيتعبد فيه، فبينما هو ﷺ في هدوء الغار يومًا، إذ جاءه جبريل فجأة، فقال: اقرأ؛ ففزع النبي ﷺ منه، وقال: ما قرأت كتابًا قط، ولا أحسنه، وما أكتب، وما أقرأ، فأخذه جبريل فضمه إليه، حتى بلغ منه الجهد، ثم تركه، فقال: اقرأ.

فقال ﷺ «ما أنا بقارئ». فأخذه فضمه إليه الثانية.. حتى بلغ منه الجهد، ثم تركه، فقال: اقرأ، فقال ﷺ «ما أنا بقارئ». فأخذه جبريل فضمه إليه الثالثة حتى بلغ منه الجهد، ثم تركه.

فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥] فلما سمع النبي ﷺ هذه الآيات، ورأى هذا المنظر،

اشتد فزعه، ورجف فؤاده، ثم رجع إلى المدينة، فدخل على خديجة أم المؤمنين ﵂. فقال: «زملوني، زملوني». أي غطوني بالفرش، ثم اضطجع، وغطوه، وأم المؤمنين، تنظر إليه لا تدري ما الذي أفزعه، فلبث ﷺ مليًا حتى سكن روعه.

ثم التفت إلى خديجة فأخبرها الخبر، وقال لها: «يا خديجة، لقد خشيت على نفسي».

فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، ثم لم ينقطع خيرها، ولم يقف حماسها، وإنما أخذت بيده ﷺ، فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان شيخًا كبيرًا أعمى، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يقرأ الإنجيل، ويكتبه، ويعرف أخبار الأنبياء.

فلما دخلت عليه خديجة جلست إليه ومعها رسول الله ﷺ فقالت له: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، وما سمع من القرآن، فقال ورقة: سبوح، سبوح، أبشر ثم أبشر، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ثم قال ورقة: يا ليتني فيها جذعًا، حين يخرجك قومك، أي شابًا قويًا لأخرج معك وأنصرك؟

ففزع ﷺ وقال: «أو مخرجي هم؟!»، فقال: نعم! إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، أي أنصرك نصرًا عزيزًا أبدًا، ثم خرج ﷺ مع زوجه خديجة، وقد أيقنت خديجة أن عهد النوم قد تولى، وأنها مع زوج سيبتلى، وقد تخرج من بيتها، وتؤذى في نفسها، وهي المرأة التي نشأت غنية منعمة، حسيبة مكرمة، وها هي تستقبل البلاء، فهل تخاذلت عن نصرة الدين، أو خلطت الشك باليقين، كلا، بل آمنت بربها، ونصرت نبيها بمالها، ورأيها، وجهدها، ولم يزل هذا حالها حتى لقيت ربها.

وقد روى مسلم أن النبي ﷺ أتاه جبريل فقال: «يا رسول الله هذه خديجة، قد أتتك ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

هذا خبر خديجة، أول من دخلت في الإسلام، ونبذت عبادة الأصنام، سبقت الرجال، وخلفت الأبطال، حتى ضرب التاريخ الأمثال ببذلها، ودعانا إلى الاقتداء بفعلها، لم تلتفت إلى توهين من كافر، أو شبهة من فاجر، فكان جزاؤها أن أعد الله نزلها، وبنى بيتها، فاستبشرت وفرحت، وزادت وتعبدت، حتى لقيت ربها وهو راض عنها، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢] فرضي الله عن أم المؤمنين خديجة، رضي الله عن أمنا، فهلا اقتدت بها بناتها، هلا اقتديت أنت بها، ليكون لك في الجنة مثلها بيت من قصب، لا نصب فيه ولا وصب.

أما خبر أم عمار، سمية بنت خياط فهو عجب..

كانت أمة مملوكة لأبي جهل، فلما جاء الله بالإسلام، أسلمت هي وزوجها وولدها، فجعل أبو جهل يفتنهم، ويعذبهم، ويربطهم في الشمس حتى يشرفوا على الهلاك حرًا وعطشًا، فكان ﷺ يمر بهم وهم يعذبون، ودماؤهم تسيل على أجسادهم، وقد تشققت من العطش شفاههم، وتقرحت من السياط جلودهم، وحر الشمس يصهرهم من فوقهم، فيتألم ﷺ لحالهم، ويقول: «صبرًا آل ياسر، صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة». فتلامس هذه الكلمات أسماعهم، فترقص أفئدتهم، وتطير قلوبهم فرحًا بهذه البشرى، وفجأة، إذا بفرعون هذه الأمة، أبي جهل يأتيهم، فيزداد غيظه عليهم، فيسومهم عذابًا.

ويقول: سبوا محمدًا وربه، فلا يزدادون إلا ثباتًا وصبرًا، عندها يندفع الخبيث إلى سمية، ثم يستل حربته، ويطعن بها في فرجها، فتتفجر دماؤها، ويتناثر لحمها، فتصيح وتستغيث، وزوجها وولدها على جانبيها مربوطان يلتفتان إليها، وأبو جهل يسب ويكفر، وهي تحتضر وتكبر، فلم يزل يقطع جسدها المتهالك بحربته، حتى تقطعت أشلاءً، وماتت رضي الله عنها ، نعم، ماتت، فلله درها ما أحسن مشهد موتها، ماتت، وقد أرضت ربها، وثبتت على دينها، ماتت، ولم تعبأ بجلد جلاد، ولا إغراء فساد، فآه لفتيات اليوم، تضل إحداهن بأقل من ذلك، فتنحرف عن الصراط، وهي لم تجلد بسياط، ولم تخوف بعذاب، ومع كل ذلك، وتهتك سمعها بسماع الأغنيات،

وبصرها بالأفلام والمسرحيات، وعرضها بالغزل والمكالمات، وحجابها يتلاعبه أصحاب الشهوات، نعم، كانت النساء، تصبر على البلاء، كن يصبرن على العذاب الشديد، والكي بالحديد، وفراق الزوج والأولاد، يصبرن على ذلك كله حبًا للدين، وتعظيمًا لرب العالمين، لا تتنازل إحداهن عن شيء من دينها ولا تهتك حجابها ولا تدنس شرفها ولو كان ثمن ذلك حياتها. نساء خالدات، تعيش إحداهن لقضية واحدة، كيف تخدم الإسلام، تبذل للدين مالها، ووقتها، بل وروحها، حملن همَّ الدين، وحققن اليقين.

أم شريك غزية الأنصارية..

أسلمت مع أول من أسلم في مكة البلد الأمين، فلما رأت تمكن الكافرين، وضعف المؤمنين، حملت هم الدعوة إلى الدين، فقوي إيمانها، وارتفع شأن ربها عندها، ثم جعلت تدخل على نساء قريش فتدعوهن إلى الإسلام، وتحذرهن من عبادة الأصنام، حتى ظهر أمرها لكفار مكة، فاشتد غضبهم عليها، ولم تكن قرشية يمنعها قومها، فأخذها الكفار وقالوا: لولا أن قومك حلفاء لنا لفعلنا بك وفعلنا، لكنا نخرجك من مكة إلى قومك، فتلتلوها، ثم حملوها على بعير، ولم يجعلوا تحتها رحلاً، ولا كساءً، تعذيبًا لها، ثم ساروا بها ثلاثة أيام، لا يطعمونها ولا يسقونها، حتى كادت أن تهلك ظمئًا وجوعًا، وكانوا من حقدهم عليها، إذا نزلوا منزلاً أوثقوها، ثم ألقوها تحت حر الشمس، واستظلوا هم تحت الشجر، فبينما هم في طريقهم، نزلوا منزلاً، وأنزلوها من على البعير، وأوثقوها في الشمس، فاستسقتهم فلم يسقوها..

فبينما هي تتلمظ عطشًا، إذ بشيء بارد على صدرها، فتناولته بيدها فإذا هو دلو من ماء، فشربت منه قليلاً، ثم نزع منها فرفع، ثم عاد فتناولته منه ثم رفع، ثم عاد فتناولته ثم رفع مرارًا، فشربت حتى رويت، ثم أفاضت منه على جسدها وثيابها، فلما استيقظ الكفار، وأرادوا الارتحال، أقبلوا إليها، فإذا هم بأثر الماء على جسدها وثيابها، ورأوها في هيئة حسنة، فعجبوا، كيف وصلت إلى الماء وهي مقيدة، فقالوا لها: حللت قيودك، فأخذت سقاءنا فشربت منه؟

قلت: لا والله، ولكنه نزل علي دلو من السماء فشربت حتى رويت، فنظر

بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كانت صادقة لدينها خير من ديننا، فتفقدوا قربهم وأسقيتهم، فوجدوها كما تركوها، فأسلموا عند ذلك، كلهم، وأطلقوها من عقالها وأحسنوا إليها، أسلموا كلهم بسبب صبرها وثباتها، وتأتي أم شريك يوم القيامة وفي صحيفتها، رجال ونساء، أسلموا على يدها.

نعم عرف التاريخ أم شريك..

وعرف أيضًا، الغميصاء، أم أنس بن مالك..

التي قال فيها النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي فإذا هي الغميصاء بنت ملحان». امرأة من أعجب النساء، عاشت في بداية حياتها كغيرها من الفتيات في الجاهلية، تزوجت مالك بن النضر، فلما جاء الله بالإسلام استجابت وفود من الأنصار، وأسلمت أم سليم، مع السابقين إلى الإسلام.

وعرضت الإسلام على زوجها فأبى وغضب عليها، وأرادها على الخروج معه من المدينة إلى الشام، فأبت وتمنعت..

فخرج، وهلك هناك، وكانت امرأة عاقلة جميلة فتسابق إليها الرجال، فخطبها أبو طلحة قبل أن يسلم فقالت: أما إني فيك لراغبة، وما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فذاك مهري، لا أسأل غيره، قال: إني على دين.

قالت: يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ قال: بلى، قالت: أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ يا أبا طلحة، إن أنت أسلمت لا أريد من الصداق غيره، قال: حتى أنظر في أمري، فذهب ثم جاء إليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.

فاستبشرت، وقالت: يا أنس زوج أبا طلحة، فتزوجها، فما كان هناك مهر قط أكرم من مهر أم سليم: الإسلام، انظري كيف أرخصت نفسها في سبيل دينها، وأسقطت من أجل الإسلام حقها، نعم، فتاة تعيش لأجل قضية واحدة هي الإسلام، كيف ترفع شأنه، وتعلي قدره، وتهدي الناس إليه، بل، حينما قدم النبي ﷺ المدينة، استقبله الأنصار والمهاجرون فرحين مستبشرين، ونزل ﷺ في بيت أبي أيوب،

فأقبلت الأفواج على بيته لزيارته ﷺ، فخرجت أم سليم الأنصارية من بين هذه الجموع وأرادت أن تقدم لرسول الله ﷺ شيئًا، فلم تجد أحب إليها من فلذة كبدها، فأقبلت بولدها أنس، ثم وقفت بين يدي النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله هذا أنس يكون معك دائما يخدمك، ثم مضت، وبقي أنس عند رسول الله ﷺ يخدمه صباحًا ومساء، ولم تكن أم سليم تتصنع البذل أمام الناس وتنساه في نفسها، وإنما العجب حالها في بيتها، من عناية بزوجها، ورضا بقسمة ربها، تزوجت أم سليم أبا طلحة، ورزقت منه بغلام صبيح، هو أبو عمير، وكان أبو طلحة يحبه حبًّا عظيمًا، بل كان ﷺ يحبه، ويمر بالصغير فيرى معه طيرًا يلعب به، اسمه النغير، فكان يمازحه ويقول: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟».

فمرض الغلام، فحزن أبو طلحة عليه حزنًا شديدًا، حتى اشتد المرض بالغلام يومًا، وخرج أبو طلحة في حاجة إلى رسول الله ﷺ، وتأخر عنده، فازداد مرض الغلام ومات، وأمه عنده، بكى بعض أهل البيت، فهدأتهم وقالت: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، فوضعت الغلام في ناحية من البيت وغطته، وأعدت لزوجها طعامه، فلما عاد أبو طلحة إلى بيته، سألها: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح..

فتوجه إليه ليراه، فأبت عليه وقالت: هو ساكن فلا تحركه، ثم قربت له عشاءه فأكل وشرب، ثم أصاب منها ما يصيبه الرجل من امرأته، فلما رأت أنه قد شبع واستقر، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: وما لهم؟! قالت: أعارهم قوم عارية، وطال بقاؤها عندهم حتى رأوا أن قد ملكوها، فلما جاء أهلها يطلبونها، جزعوا أن يعطوهم إياها، فقال: بئس ما صنعوا، فقالت: هذا ابنك، كانت عارية من الله، وقد قبضه إليه، فاحتسب ولدك عند الله، ففزع، ثم قال: والله، ما تغلبيني على الصبر الليلة، فقام وجهز ولده، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فدعا لهما بالبركة.

قال راوي الحديث: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن، فانظري كيف ارتفعت بدينها، عن شق الجيوب وضرب الخدود والدعاء

بالويل والثبور، هل رأيتم امرأة توفى ابنها، بين يديها، وتقوم بخدمة زوجها، وتهيئ له نفسها؟ بل هل رأيت ألطف من لطفها، أو ألين من طريقتها؟ إن امرأة بهذا الإيمان والدين، والصدق واليقين، لينتشر خيرها، وتعم بركة فعلها، على أهل بيتها، فيصلح أولادها، وتستقيم بناتها، ويتأثر زوجها بصلاحها، فلا عجب أن يرتفع شأن أبي طلحة بعد زواجه منها، كانت أم سليم تحثه على الدعوة والجهاد، وطاعة رب العباد، خرج أبو طلحة مع المجاهدين، فاشتد عليهم البلاء، فاضطرب المسلمون، وقتلوا، وتفرقوا، وأقبل المشركون على رسول الله ﷺ يريدون قتله، فأقبل عليه أصحابه الأخيار، وهم جرحى، وجوعى، دماؤهم تسيل على دروعهم، ولحومهم تتناثر من أجسادهم، أقبلوا على رسول الله ﷺ فأحاطوه بأجسادهم يصدون عنه الرماح، وضربات السيوف، تقع في أجسادهم دونه، وكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول: يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ ويحامي، والكفار يضربونه من كل جانب، هذا يرميه بسهم، وذلك يضربه بسيف، والثالث يطعنه بخنجر، فلم يلبث أن صرع ووقع من كثرة الضرب عليه، فأقبل أبو عبيدة يشتد مسرعًا، فإذا أبو طلحة صريعًا، فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب»، فحملوه، فإذا بجسده بضع عشرة ضربة وطعنة.

نعم، كان أبو طلحة بعدها، يرفع راية الدين، وكان ﷺ يقول: «لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة». هذا صوته في الجيش، فما بالك بقوته وقتاله؟

فهل تنشطين لتقدمي مثلما قدمت؟

فقد دعا النبي ﷺ النساء كما دعا الرجال، وبايع النساء كما بايع الرجال، وحدث النساء كما حدث الرجال، والنساء والرجال متساويان في الجزاء والعقاب..

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] وهما متساويان في الحقوق الإنسانية، فلكل من الزوجين حق على الآخر، قال ﷺ: «ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا». والميزان الوحيد عند الله للمفاضلة بين الرجل والمرأة هو التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وكلما احترمت المرأة نفسها احترمها من حولها، فهي ثمينة مادامت أمينة، فإذا خانت هانت، وانظري إلى رسول

الله ﷺ، لما فتح مكة، واضطرب أمر الكفار فيها، فمنهم من قاتل، ومنهم أسلم، ومنهم من اختبأ، فكان من بين المقاتلين رجلان قاتلا عليًا رضي الله عنه ثم فرا من بين يديه..

والتجآ إلى بيت أم هانئ أخت علي رضي الله عنه، فأمنتهما، فأقبل علي عليها، فدخل البيت، وقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت أم هانئ عليهما باب البيت، ثم ذهبت سريعًا إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها قال: «مرحبا يا أم هانئ، ما جاء بك؟». فقالت: زعم علي أنه يقتل رجلين أمنتهما، فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما».

وجعل الله للمرأة حقها في تقرير حياتها، فلا تزوج إلا بإذنها، ولا يؤخذ من مالها إلا باختيارها، وإن اتهمت في عرضها عوقب متهمها، وإن احتاجت ألزم وليها بسد حاجتها، أبوها مأمور بالإحسان إليها، وولدها مأمور ببرها، وأخوها مأمور بصلتها، بل طالما قدم الدين المرأة على الرجل، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت:٨].

وفي الصحيحين قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال ﷺ: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك».

ورأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يطوف حول الكعبة، يحمل عجوزًا على ظهره، فسأله: من هذه؟ فقال الرجل: هذا أمي مقعدة، وأنا أحملها على ظهري منذ عشرين سنة، أتراني يا ابن عمر وفيتها حقها، فقال ابن عمر: لا، لا، ولا زفرة من زفراتها، فمع هذا التبجيل والتكريم، والاحترام والتقديم، كيف تتقاعس فتيات اليوم عن نصرة الدين..

بل كيف ترى المنكرات ظاهرة، بصورة فاجرة، أو علاقات سافرة، ومحرمات في اللباس والحجاب، مؤذنة بقرب نزول العذاب، ترى هذه المنكرات بين قريباتها، وأخواتها وزميلاتها، ثم لا تنشط للإنكار، وقد قال ﷺ «من رأى منكم منكرًا فليغيره». فهل غيرت ما استطعت من منكرات؟ ليت شعري، كيف يكون حالك يوم القيامة، إذا تعلقت بك الصديقة والزميلة، والحبيبة والخليلة، وبكين وانتحبن، لم رأيتنا على المنكرات، ومفارقة المحرمات، ولم تنهي أو تنصحي، أو تعظي

وتذكري، وانظري إلى تضحية الكافرات لدينهن.

يقول أحد الدعاة: كنت في رحلة دعوية إلى اللاجئين في أفريقيا، كان الطريق وعرا موحشًا أصابنا فيه شدة وتعب..

ولا نرى أمامنا إلا أمواجًا من الرمال، ولا نصل إلى قرية في الطريق، إلا ويحذرنا من قطاع الطرق، ثم يسر الله الوصول إلى اللاجئين ليلاً، فرحوا بمقدمي، وأعدوا خيمة فيها فراش بال، ألقيت بنفسي على الفراش من شدة التعب ثم رحت أتأمل رحلتي هذه. أتدري ما الذي خطر في نفسي؟!

شعرت بشيء من الاعتزاز والفخر بل أحسست بالعجب والاستعلاء! فمن ذا الذي سبقني إلى هذا المكان؟! ومن ذا الذي يصنع ما صنعت؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يتحمل هذه المتاعب؟! وما زال الشيطان ينفخ في قلبي حتى كدت أتيه كبرًا وغرورًا خرجنا في الصباح نتجول في أنحاء المنطقة حتى وصلنا إلى بئر يبعد عن منازل اللاجئين، فرأيت مجموعة من النساء يحملن على رءوسهن قدور الماء ولفت انتباهي امرأة بيضاء من بين هؤلاء النسوة كنت أظنها بادئ الرأي واحدة من نساء اللاجئين مصابة بالبرص فسألت صاحبي عنها، قال لي مرافقي: هذه منصرة، نرويجية، في الثلاثين من عمرها، تقيم هنا منذ ستة أشهر، تلبس لباسنا وتأكل طعامنا وترافقنا في أعمالنا، وهي تجمع الفتيات كل ليلة، تتحدث معهن، وتعلمهن القراءة والكتابة وأحيانا الرقص، وكم من يتيم مسحت على رأسه! ومريض خففت من ألمه! فتأملي في حال هذه المرأة ما الذي دعاها إلى هذه القفار النائية وهي على ضلالها؟! وما الذي دفعها لتترك حضارة أوروبا ومروجها الخضراء؟! وما الذي قوى عزمها على البقاء مع هؤلاء العجزة المحاويج وهي في قمة شبابها؟!

أفلا تتصاغرين نفسك، هذه منصرة ضالة، تصبر وتكابد، وهي على الباطل، بل في أدغال أفريقيا، تأتي المنصرة الشابة من أمريكا وبريطانيا وفرنسا، تأتي لتعيش في كوخ من خشب، أو بيت من طين، وتأكل من أردأ الطعام كما يأكلون، وتشرب من النهر كما يشربون، ترعى الأطفال، وتطبب النساء، فإذا رأيتيها بعد عودتها إلى بلدها، فإذا هي قد شحب لونها، وخشن جلدها، وضعف جسدها، لكنها تنسى كل هذه المصاعب لخدمة دينها، عجبًا، هذا ما تبذله تلك النصرانيات الكافرات، ليعبد

غير الله، ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]

وأنت، أفلا تساءلت يومًا: ماذا قدمت للإسلام؟

كم فتاة تابت على يدك؟ كم تنفقين لهداية الفتيات إلى ربك؟

تقول بعض الصالحات: لا أجرؤ على الدعوة، ولا إنكار المنكرات، عجبًا!! كيف تجرؤ مغنية فاجرة، أن تغني أمام عشرة آلاف يلتهمونها بأعينهم قبل آذانهم، ولم تقل: إني خائفة أخجل، كيف تجرؤ راقصة داعرة، أن تعرض جسدها أمام الآلاف، ولا تفزع وتوجل، وأنت إذا أردنا منك مناصحة أو دعوة، خذلك الشيطان، بل بعض الفتيات، تزين لغيرها المنكرات، فتتبادل معهن مجلات الفحشاء، وأشرطة الغناء، أو تدعوهن إلى مجالس منكر وبلاء، وهذا من التعاون على الإثم والعدوان، والدخول في حزب الشيطان، ولتنقلبن هذه المحبة إلى عداوة وبغضاء، قال الله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] هذا حالهن في عرصات القيامة، يلبسن لباس الخزي والندامة، أما في النار، فكما قال الله عن فريق من العصاة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥] نعم يلعن بعضهن بعضًا، تقول لصاحبتها التي طالما جالستها في الدنيا، وضاحكتها وقبلتها، تقول لها يوم القيامة: لعنك الله أنت التي أوقعتني في الغزل والفحشاء، فتصيح بها الأخرى: بل لعنك الله أنت، فأنت التي أعطيتني أشرطة الغناء.

فتجيبها: بل لعنك الله، أنت التي زينتي لي التسكع والسفور، فترد عليها: بل لعنك الله أنت، أنت التي دللتني على طرق الفجور، عجبًا، كيف غابت تلك الضحكات، والهمسات، واللمسات، طالما طفتما في الأسواق، وضاحكتما الرفاق، واليوم يكفر بعضكن ببعض ويلعن بعضكن بعضًا، نعم، لأنهن ما اجتمعن يومًا على نصيحة أو خير، فهن يوم القيامة يجتمعن، ولكن أين يجتمعن؟ في نار لا يخبو سعيرها، ولا يبرد لهيبها، ولا يخفف حرها، إلا أن يشاء الله، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا

كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٨] ثم قال الله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]

وكم من الفتيات المؤمنات، انجرفت إحداهن مع الأمواج، فبدأت تتساهل بالحجاب والعباءة، وترضى أن تتبع ما يصنعه المفسدون، بل يصممه الفجرة والكافرون، من العباءات التي تظهر الزينة بدل أن تسترها، عجبًا!! كيف ترضين أن تكوني دمية يلبسونها ما شاءوا؟ فهذه عباءة مطرزة، وتلك مخصرة، والثالثة على الكتفين، والرابعة واسعة الكمين، أصبحت أكثر العباءات، تحتاج إلى سترها بعباءة، فالحجاب إنما شرع لستر الزينة عن الرجال، فإذا كان الحجاب في نفسه زينة، فما الحاجة إليه، وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما، رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

فمن الفتاة التي لا تريد الجنة ولا رائحتها؟أما تعلمين، أنك بتبرجك وسفورك تصبحين وسيلة من وسائل الشيطان؟ هل ترضين أن تكوني سببًا في وقوع مسلم في الحرام؟ أتدرين أنك إذا لبست عباءة متبرجة، ثم رأتك فتاة فاشترت مثلها فلبستها، أتعلمين أن عليك وزرها ووزر من قلدها هي أيضًا إلى يوم القيامة، أيسرك أن تكوني قدوة في الشر.

ولو سألت امرأة تزينت بعباءة من هذه الأنواع لماذا تلبسين هذه العباءة؟ لقالت لك: هذه أجمل، فاسأليها عند ذلك: تتجملين لمن؟!! نعم تتجملين لمن؟! لخاطب شريف، أو زوج عفيف، إنها تتزين لينظر إليها سفلة الناس، ممن لا يلتفتون لمراقبة الله لهم، ممن لا يهمهم شرفها، ولا عفتها أو كرامتها، يسعى أحدهم لشهوة فرجه، ولذة عينه، ثم إذا قضى حاجته منها، ركلها بقدمه، وبحث عن فريسة أخرى.

هلا تفكرت يومًا، لماذا أمرك الله بالحجاب؟ نعم لماذا قال الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١]؟ لماذا أمرك الله بستر زينتك، وجهك

وشعرك وسائر جسدك؟ لماذا أمرك الله بهذا؟ هل بينه وبينك خصام أو ثأر وانتقام؟ كلا، فهو الغني عن عباده الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولكنها سنة الله الباقية، وشريعته الماضية، وقوله الذي لا يبدل، وحكمه الذي يعدل، قضى على الرجل بأحكام، وعلى المرأة بأحكام، ولا يمكن أن تستقيم الدنيا إلا بطاعته..

والمرأة الصالحة تسلم لربها في أمره، وتأملي فيما رواه مسلم، من خبر تلك المرأة، التي جاءت إلى عائشة يومًا فسألتها، فقالت: ما بال الحائض إذا طهرت من حيضها، تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فعجبت عائشة من سؤالها، وقالت: أحرورية أنت؟ أي من الخوارج على الدين؟ قالت: لست بحرورية، ولكني أسأل: فقالت عائشة: كان يصيبنا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة، نعم، تسليم تام لأوامر الله، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[النور: ٥١، ٥٢]، نعم، الفائزون هم الذين يسلمون لله في أمره، أما غيرهم، فهم يسعون جاهدين، لنزع عباءتك، وهتك حجابك، يستميتون لتحقيق غاياتهم، ينفقون من أموالهم، ويبذلون من أوقاتهم، فهذه مجلة سافرة، وتلك مقالة فاجرة، وهذا برنامج يشكك في الحجاب، يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا، يريدون التمتع بالنظر إلى زينتك في أسواقهم، والأنس برقصك في مسارحهم، والتلذذ بجسدك على فرشهم، وبخدمتك لهم في طائراتهم، فهم في الحقيقة يطالبون بحقوقهم لا بحقوقك، عجبًا لهم!! لم يعرفوا من حقوق المرأة، إلا حق التبرج ونزع الحجاب، وحق قيادة السيارة، وحق السفر بلا محرم، وحق العمل ومخالطة الرجال، وحق الخروج في وسائل الإعلام، إلى آخر تلك الحماقات التي يسمونها حقوقًا، تبًا لهم!! لم نسمعهم يومًا يطالبون بحقوق الأرامل والمعوقات، أو يطالبون الأبناء بحقوق الأمهات، يطالبون بالفساد، ويظهرون أنهم يريدون رقي المجتمع، وهذا حال المنافقين، فهم أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين في عهد رسول الله، ألم تري أنه اتهم أمنا عائشة رضي الله عنها بالزنا، وأشاع المقالة ورددها بين الناس، وزعم أنه يريد إشاعة الفضيلة، وهو في الحقيقة أستاذ الرذيلة، وموقد نارها، ألا ترين أنه كان يشتري الإماء الجميلات ثم يأمرهن بالبغاء والزنا، ليجمع المال من

ذلك، حتى فضحه الله في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣].

فهم يرددون، العباءة على الرأس تضايقك، والثوب الطويل يثقل عليك، والبنطال أسهل لمشيك، وتغطية الوجه تكتم أنفاسك، قوم أعجبوا بحضارة الكفار، فظنوا أن الطريق إليها نزع الحجاب، وتشمير الثياب، وإن جولة واحدة في إحدى مدن الغرب أو الشرق تكفي لإدراك هذه الحقيقة، فالمرأة تشتغل حمالة حقائب في المطار، وعاملة نظافة في الطريق، ومنظفة حمام في الشركة، وإن كانت جميلة، اشتغلت في مرقص أو بار، فهذا سكير يعربد بها، وذاك فاجر يعبث بجسدها، والثالث يتخذها سلعة يتكسب منها، فإذا قضوا حاجتهم منها صفعوا وجهها، وإذا كبرت ألقيت في دار العجزة التي هي أشبه بالسجون، بل بالمقابر، عجبًا، أهذه هي الحرية التي يعنونها، والله لئن كنا نتألم لمصاب مسلمة في الفلبين، وأخرى في كشمير، فإن المرأة هناك لا تجد من يتألم لها.

يقول أحد الأطباء: كنت أدرس في بريطانيا، وكانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها على السبعين عامًا، كانت تستثير شفقة كل من رآها، قد احدودب ظهرها، ورق عظمها، ويبس جلدها، ومع ذلك، فهي وحيدة بين جدران أربعة، تدخل وتخرج وليس معها من يساعدها من ولد ولا زوج، تطبخ طعامها، وتغسل لباسها، منزلها كأنه مقبرة، ليس فيه أحد غيرها، ولا يقرع أحد بابها، دعتها زوجتي لزيارتنا ذات يوم، فأخبرتها زوجتي بأن الإسلام يجعل الرجل مسئولاً عن زوجته، يعمل من أجلها، يبتاع طعامها ولباسها، يعالجها إذا مرضت، ويساعدها إذا اشتكت، وهي تجلس في بيتها، تجب عليه نفقتها ورعايتها، بل وحماية عرضها ونفسها، فإذا رزقت بأولاد، وجب عليهم هم أيضًا برها، والذلة لها، ومن عقها من أولادها نبذه الناس وقاطعوه حتى يبرها، فإن لم تكن المرأة ذات زوج وجب على أبيها أو أخيها، أو وليها، أن يرعاها ويصونها، كانت هذه العجوز، تستمع إلى زوجتي، بكل دهشة وإعجاب، بل كانت تدافع عبراتها وهي تتذكر أولادها وأحفادها الذين لم ترهم منذ سنوات، ولا يزورها أحد منهم، بل لا تعرف أين هم، وقد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون، لأنها لا قيمة لها عندهم، أنهت زوجتي حديثها، فبقيت العجوز

واجمة قليلاً، ثم قالت: في الحقيقة، إن المرأة في بلادكم: ملكة، ملكة، نعم والله، أيتها الأخت الكريمة أنت عندنا ملكة، نعم ملكة تسفك من أجلك الدماء، فمن قتل دون عرضه فهو شهيد، وترخص لأجلك الأرواح، وتنفق الأموال.

ولأنك ملكة مصونة أمر الرجال حولك أن يحفظوك..

وقد يدقق الرجل على امرأته، فيأمرها أو ينهاها، وهو إنما يريد نجاتها، وانظري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد جيء إليه بمسك وعنبر من مصر، ليبيعه ويجعل ثمنه في بيت مال المسلمين، فقال رضي الله عنه: وددت أني وجدت امرأة جيدة الوزن، تكسر هذا الطيب وتبيعه وتجعل المال في بيت مال المسلمين، فقالت امرأته: أنا أفعل ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فافعلي، فأخذت النساء تأتيها، وتكسر العنبر، بيدها وتزن لهن وتبيع، فكانت إذا التصق بيدها شيء من الطيب مسحته بخمارها، فلما أقبل عمر في الليل، ناولته المال، فلما دنا منها، شم فيها طيبًا، فقال: اشتريت من الطيب؟ قالت: لا، قال: فمن أين هذه الريح؟ قالت: كان يبقى في أصابعي فأمسحه بخماري، فقال: سبحان الله، النساء يشترين بأموالهن، وأنت تتطيبين من مال المسلمين، ثم جذب خمارها من على رأسها، وقام إلى قربة معلقة في السقف، فصب منها على الخمار، وأخذ يغسله ويعصره ويشمه، فإذا أثر الطيب باق فيه، فكشف البساط، ثم جعل على التراب ماءً وأخذ يفرك الخمار على الطين، حتى ذهبت الرائحة، فغسله ثم ألقاه إليها، خوفًا عليها من دقيق الحساب، وأليم العذاب، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

والمجتمع قسمان: داخلي وخارجي، فالرجل يقوم على القسم الخارجي فيعمل ويكتسب، ويبني البيت، ويعالج المريض، ويطعم الجائع، ويقود السيارة، ويبيع ويشتري، والمرأة تربي الأولاد، وتقوم على حاجة البيت، ولا يصح الخلط بينهما، بل كل فيما يخصه، ألا ترين إلى ما أخرجه البيهقي في الشعب: أن أسماء بنت يزيد أتت النبي ﷺ، وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي، إني وافدة النساء إليك، واعلم - نفسي لك الفداء - أما إنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب، سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع، إلا وهي على مثل رأيي، إن الله بعثك بالحق إلى

الرجال والنساء، فآمنا بك، وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال، فضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا أخرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا، حفظنا أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا أولادكم، فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟». قالوا: لا، فالتفت ﷺ إليها ثم قال لها: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها تعدل ذلك كله». فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر، فرحًا واستبشارًا، بنعم كل في مجاله، المرأة مملكتها بيتها، فهي فيه ملكة، وزوجها ملك، وأبناؤهم الرعية، ولكن قد تخرق هذه القاعدة، عند الحاجة.

ففي طبقات ابن سعد: أن أم عمارة رضي الله عنها خرجت مع جيش المسلمين إلى معركة أحد، تسقي الماء وتداوي الجرحى، لكنها لما اشتد القتال، وفرت جموع من المسلمين، فنظرت أم عمارة، فرأت المسلمين يفرون، والكفار يصولون ويجولون، وما ثبت إلا رسول الله ﷺ يضارب بسيفه، وليس حوله إلا عشرة من أصحابه، فسلت سيفًا، ثم أقبلت تشتد حتى وقفت بين يدي النبي ﷺ، تذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، وهي ليس معها ترس تدفع عن نفسها ضرب السيوف، فمر رجل معه ترس، فقال له ﷺ: «ألق ترسك إلى من يقاتل». فألقى الرجل ترسه، فأخذته أم عمارة فجعلت تترس به عن رسول الله ﷺ، ووقفت على قدميها تقاتل، فأقبل رجل على فرس فضربها بالسيف فاتقته بترسها، فلم يصنع سيفه شيئًا، وولى الرجل فضربت عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، وهجمت عليه، فجعل النبي ﷺ يصيح بابنها: «أمك أمك». فأقبل ولدها فعاونها عليه حتى قتلته، وفي هذه الأثناء، أقبل فارس من الكفار، إلى ولدها بين يديها، فضربه على كتفه الأيسر، فكادت يده أن تسقط من أصلها، وجعل الدم ينزف، فالتفت إليه النبي ﷺ فرأى الدماء تجري على ثيابه، فصاح به وقال: «اعصب جرحك».

فأخرجت أم عمارة، خرقًا قد أعدتها للجرحى، فربطت جرح ولدها، والنبي

ﷺ ينظر إليهما، فلما أحكمت جرحه، ضربت كتفه وقالت: انهض بني فضارب القوم، فعجب النبي ﷺ من صبرها وأخذ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة». وفجأة أقبل عليها الرجل الذي ضرب ابنها، فقال ﷺ: «هذا ضارب ابنك يا أم عمارة». فاعترضت له فضربت ساقه فبرك على الأرض وهو يتفض، فأقبلت تضربه بالسيف حتى مات، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينك».

ثم أقبل عليها أحد الكفار فضربها على عاتقها ضربة غارت في جسدها، والنبي ﷺ، يضارب القوم ويلتفت إليها، فلما رأى جرحها، صاح بولدها قال: «أمك، أمك اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل البيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت، ومقام زوج أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت».

فالتفتت إليه أم عمارة وقالت وهي تصارع ألمها: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة». قالت أم عمارة: فما أبالي ما أصابني من الدنيا، فكان ﷺ يقول بعدها عن يوم أحد: «ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أرى أم عمارة تقاتل دوني». نعم جرحت أم عمارة باثني عشر جرحًا، وشهدت بعدها قتال مسيلمة الكذاب، فجرحت أحد عشر جرحًا، وقطعت يدها، فرضي الله عنها، تعلم أن الأصل بقاؤها في بيتها ترعى أولادها، ولكن لما احتاج إليها الدين نصرته بجسدها كما نصرته بمالها، وكذلك الرجل، الأصل أنه يكدح خارج البيت ويرتاح داخله، ولكن قد تخرق هذه القاعدة، لهذا رسول الله ﷺ أحيانًا، كان يخصف نعله، ويرفع ثوبه، ويكون في حاجة أهله.

وكلما كانت المرأة بربها أعرف، كانت منه أخوف..

فإذا قارفت ذنبًا أو معصية، رجعت إلى ربها تائبة مفضية، تخاف من ويلات الذنوب، وتترك لذة عيشها، في سبيل أن تلقى ربها وهو راضٍ عنها، فيغفر الله ذنبها ويستر عليها وهو الذي يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه.

في الصحيحين: أن امرأة من الصحابيات، كانت متزوجة في المدينة، وسوس لها الشيطان يومًا، وأغراها برجل فخلا بها عن أعين الناس، وكان الشيطان ثالثهما،

فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتى زنيا، فلما فرغت من جرمها، تخلى عنها الشيطان، فبكت وحاسبت نفسها، وضاقت حياتها، وأحاطت بها خطيئتها، حتى أحرق الذنب قلبها، فجاءت إلى طبيب القلوب ﷺ، ووقفت بين يديه، ثم صاحت من حر ما تجد، قالت: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فأعرض عنها، فجاءت من شقه الآخر، فقالت: يا رسول الله، زنيت، فطهرني، فأعرض عنها لعلها أن ترجع فتتوب بينها وبين الله، فخرجت، من عنده، والذنب يأكل فؤادها..

فلم تطق صبرًا، فلما جلس ﷺ في مجلسه من الغد فإذا بها تقبل عليه، فتقول: يا رسول الله، طهرني..

فأعرض عنها، فصاحت من حر فؤادها، قالت: يا رسول الله، لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزًا، والله إني لحبلى من الزنا، فالتفت إليها رسول الله، ثم قال: «أما لا فاذهبي حتى تلدي».

فخرجت من المسجد، ومضت إلى بيتها، تجر خطاها، قد كبر همها، وضعف جسدها، ودمعت عينها، ذهبت تعد الساعات والأيام، والآلام تلد الآلام، فلما مضت تسعة أشهر، ضربها المخاض، فلم تزل تتلوى من الألم حتى ولدت..

فلما ولدت، لم تنتظر نفاسها، بل قامت من فراشها، وحملت وليدها في خرقتها، ثم مضت به إلى رسول الله ﷺ، ثم وضعته بين يديه، وقالت: هذا قد ولدته يا رسول الله، فطهرني، فنظر النبي ﷺ إليها، فإذا هي في تعبها ونصبها، ونظر إلى وليدها فإذا هو صبي في مهده، يتلبط بين يدي أمه، فقال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه». فذهبت، وغابت سنتين كاملتين، عاشتها مع فلذة كبدها، يتقلب في حضنها، تغسل وجهه بدمعاتها، وتودعه بنظراتها، فلما فطمته من الرضاع، لفت عليها ثيابها، ثم خرجت بولدها من بيتها، وناولته في يده كسرة خبز، ثم أتت به يمشي معها، حتى وقفت به بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: هذا يا نبي الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام، فطهرني، فدفع النبي ﷺ، الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها حتى ماتت، نعم ماتت..

لكنها، غسلت وكفنت، وقام ﷺ ليصلي عليها، وهو يقول:

«لقد تابت توبة، لو تابها سبعون من المدينة لقبل منهم، هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها». ماتت، وجادت بنفسها في سبيل الله، مات، فطوبى لها، وقعت في الزنى، وهتكت ستر ربها، وشهدت الملائكة الكرام، واطلع الملك العلام، لكنها لما ذهبت اللذات، وبقيت الحسرات، تذكرت يوم تشهد عليها أعضاؤها التي متعتها بالزنا رجلها التي مشت بها يدها التي لمست بها لسانها الذي تكلمت به بل تشهد عليها، كل ذرة من ذراتها، وكل شعرة من شعراتها..

تذكرت حرارة النيران، وعذاب الرحمن، يوم يعلق الزناة بفروجهم في النار ويضربون عليها بسياط من حديد فإذا استغاث أحدهم من الضرب نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح ولا تراقب ولا تستحي منه!!

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «يا أمة محمد والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»، فتابت توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

جاءت إليه ونار الجوف تستعر ... ودمعة العين لا تنفك تنهمر
فأقبلت ورسول الله في حلق ... من صحبه وفؤاد الدهر مفتخر
قالت له: يا رسول الله معذرة ... ينوء ظهري بذنب كيف يغتفر!!
فجال عنها وأغضى عن مقالتها ... وللتمعر في تقطيبه أثر
قالت وللصدق في إقرارها شجن ... والصمت يطبق والأحداث تختصر
أصبت حدًّا فطهر مهجة فنيت ... وشاهدي في الحشا، إن كذب الخبر
فقال عودي وكوني للجنين تقى ... فللجنين حقوق ما لها وزر
ما أودعت سجن سجان وكافلها ... تقوى الإله فلا سوط ولا أسر
حتى إذا حان حين وانقضى أجل ... وقد تقرح منها الخد والبصر
حل المخاض فهاجت كل هائجة ... مثل الأسير انتشى والقيد ينكسر
فأقبلت، يا رسول الله: ذا أجلي ... طال العناء وكسري ليس ينجبر
فقال قولة إشفاق ومرحمة ... والقلب منكسر، والدمع ينهمر
غذي الوليد إلى سن الفطام فقد ... جرت له بالحقوق الآي والسور
حتى إذا ما انقضت أيام محنتها ... تكاد لولا عرى الإيمان تنتحر

جاءت به ورغيف الخبز في يده ... وليس يعلم ما الدنيا وما القدر!!

قالت: فديت رسول الله ذا أجلي ... قد ملني الصبر، والعقبى لمن صبروا

فقال: من يكفل المولود من سعة ... أنا الرفيق له يا سعد من ظفروا!!

فاستله صاحب الأنصار في فرح ... وحاز أفضل فوز حازه بشر

كأنما الروح من وجدانها انتزعت ... يا للأمومة والآهات تنفجر

وكفكفت دمعة حرى مودعة ... وللأسى صورة من خلفها صور

واستبشرت بعبير التوب واغتسلت ... كما ينقى صلاد الصخرة المطر

سارت إلى جنة الفردوس فابتسمت ... لها الربى والنعيم الخالد النضر

وجنة الخلد تجلو كل بائسة ... يحلو إليها الضنى والجوع والسهر

إن غرها طائف الشيطان في زمن ... فلم تزل بعدها تعلو وتنتصر

هكذا كانت النساء، رجاعات توابات.

فهل لك أن تتأملي نساء اليوم، كم منهن انزلقت قدمها في المعصية؟ بل صال حولها الشيطان وجال، حتى أخرجها من الإسلام، وألحقها بعباد الأصنام، فتركت الصلاة، وقد قال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

وانتقلي معي إن شئت، إلى هناك، انتقلي إلى الدار الآخرة، ثم تأملي ما قصه الله علينا من خبر أهل الجنة وأهل النار..

فبينما أهل الجنة فيها يتنعمون، وعلى أسرتها يتقلبون، إذ تساءلوا عن أصحاب لهم كانوا في الدنيا، على معصية للرحمن، ما حالهم وخبرهم، فتخبرهم الملائكة أنهم في النار يصطلون، ومن زقومها يتجرعون، ومع شياطينها يسلسلون، عندها يشرف أهل الجنة ينظرون إليهم ويسألونهم، ما سلككم في سقر؟

قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٢].

نعم، ما سلككم في سقر؟

فاسمعي الجواب: ذكروا أربعة أسباب أدخلتهم إلى النار، قالوا:

أولاً: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣].

ثانيًا: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر:٤٤].

ثالثًا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٥]، نعم كنا نخوض مع الخائضين، نفعل ما يفعله الناس، إن تركوا الصلاة تركنا، وإن عصوا عصينا، وإن غنوا غنينا، وإن دخنوا دخنا، وإن ناموا عن الصلوات نمنا، وإن عقوا والديهم عققنا، نخوض مع الخائضين.

رابعًا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر:٤٦]، ما كنا نؤمن به إيمان من يردعه خوف الآخرة عن معاصيه، ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٧].

قال الله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، نعم والله لو اجتمع الأنبياء عليهم السلام، ومعهم الملائكة الكرام، وشفعوا لكافر ليخرجوه من النار، ما قبل الله منهم، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وبعض الفتيات قد يجرها الشيطان، إلى سبيل الرذيلة، بسماع الغناء، والتعلق بالفحشاء، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان:٦] كان ابن مسعود يقسم بالله أن المراد به الغناء، وفي الصحيح قال ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»، وصح عند الترمذي، إنه ﷺ قال: «ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف».

ونص العلماء على تحريم آلات اللهو والعزف، والتحريم يشتد والذنب يعظم إذا رافق الموسيقى غناء، وتتفاقم المصيبة عندما تكون كلمات الأغاني عشقًا وحبًا وغرامًا ووصفًا للمحاسن، بل هي مزمار الشيطان، الذي يزمر به فيتبعه أولياؤه، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]، وقال ابن مسعود: الغناء رقية الزنا، أي أنه طريقه ووسيلته، عجبًا، هذا كان يقوله ابن مسعود لما كان الغناء يقع من الجواري والإماء المملوكات، يوم كان الغناء بالدف والشعر الفصيح، يقول هو رقية الزنا، فماذا يقول ابن مسعود لو رأى زماننا هذا، وقد تنوعت الألحان، وكثر أعوان الشيطان، فأصبحت الأغاني تسمع في السيارة والطائرة، والبر والبحر، بل حتى الساعات والأجراس وألعاب الأطفال والكمبيوتر وأجهزة الهاتف، دخلت فيها الموسيقى، والأغاني طريق لنشر الفاحشة، وإثارة

الغرائز، فما يكاد يذكر فيها إلا الحب والغرام، والعشق والهيام، بالله عليك، هل سمعت مغنيًا غنى في التحذير من الزنا؟ أو غض البصر؟ أو حفظ أعراض المسلمين؟!! أو في الحث على صوم النهار، وبكاء الأسحار..

كلا، ما سمعنا عن شيء من ذلك، بل أكثرهم يدعو إلى العشق المحرم، وتعلق القلب بغير الله، بل قد يجر إلى الداهية العظمى، وهو عشق الفتاة لفتاة مثلها، والإعجاب بها، ومصاحبتها، نعم، تحبها، لا لأنها قوامة ليل، أو صوامة نهار، لا ولكن لجمال وجهها، وملاحة بسمتها، تعجبها حركاتها، وتثيرها ضحكاتها، تفتن بابتسامتها، وتأنس بمجالستها..

بل، وتعجب منها بكل شيء وإن كان قبيحًا.

وبعض الفتيات قد تتساهل بمثل ذلك، بل قد يظهر منها ما يدل على استدعائها لذلك، فكم نرى من الفتيات المائعات في حركاتهن وضحكاتهن، بل وأسلوب الكلام، وطريقة المشي، إضافة إلى لبس الثياب الضيقة، والتغنج والدلال، وكثرة اللمسات والقبلات، وتبادل الرسائل العاطفية، والهدايا الشيطانية.

نرى أحيانًا هذه المظاهر في بعض المدارس، والكليات، فلماذا تفعل الفتاة ذلك؟ بسبب الإعجاب والعشق والمحبة، وهذا هو الشذوذ عن الفطرة، وهو مؤذن بنزول العذاب الذي نزل على قوم لوط، فماذا فعل قوم لوط؟ اكتفى رجالهم برجالهم، ونساؤهم بنسائهم.

وقد ذكر الله خبر هؤلاء الفجار في القرآن، وأن لوطًا صاح بهم وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٨٠] وإذا وقعت هذه الفاحشة، كادت الأرض تميد من جوانبها، والجبال تزول عن أماكنها، ولم يجمع الله على أمة من العذاب ما جمع على قوم لوط، فإنه طمس أبصارهم، وسود وجوههم، وأمر جبريل بقلع قراهم من أصلها ثم قلبها عليهم، ثم خسف بهم، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل.

قال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[هود:٨٢] فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً للمجرمين،

إن في ذلك لآيات للمتوسمين، أخذهم على غرة وهم نائمون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، نعم، ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، وأعقبهم عذابًا أليمًا، ندموا والله ولا ينفع الندم، وبكوا بدل الدموع الدم، فلو رأيتهم والنار تشوي وجوههم، وتخرج من أفواههم وأنوفهم، وهم بين أطباق الجحيم، يشربون كئوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون، ذوقوا ما كنتم تكسبون، ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الطور:١٦] وما هي من الظالمين ببعيد.

أما رسول الله ﷺ فقد صح عنه فيما رواه الترمذي: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط».

وصح فيما رواه ابن حبان: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط».

وصح في مسند أحمد أنه ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

أما الصحابة فكانوا يحرقون اللوطية بالنار.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اللوطي إذا مات من غير توبة مسخ في قبره خنزيرًا، ومن كانت قد أسرفت على نفسها، ووقعت في شيء من ذلك، فلتسارع إلى التوبة والاستغفار، والإنابة إلى العزيز الغفار.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الزمر:٥٣-٥٥].

نعم، توبي إلى الله، مزقي ما عندك من رسائل وأرقام، وأتلفي الصور والأشرطة والأفلام، أثبتي أن حبك للرحمن أعظم من كل حب، أثبتي أنك تقدمين طاعة الله على طاعة الهوى والشيطان. ومن اتباع الهوى، والشيطان، تكلف الفتاة في تزيين مظهرها، ولو كان في ذلك التعرض للعنة الله، ومن ذلك نمص الحواجب وترقيقها،

إما بالنتف أو الحلق.

وهو تحقيق لوعيد الشيطان لما قال لربه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ «النساء:١١٨-١٢٢».

والنمص تعرض للعنة الله، فقد صح عند أبي داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة المغيرات لخلق الله، سبحان الله، كيف تفعلين ما يعرضك للعنة الله، وأنت تسألين الله المغفرة والرحمة في الصلاة وخارجها، أليس هذا تناقضًا بين قولك وفعلك؟ تطلبين الرحمة وتفعلين ما يطردك منها، إن هذا لشيء عجاب!!

وأفتى العلماء الربانيون بتحريمه، وبين يدي أكثر من عشرين فتوى بتحريمه، فمن مقتضى إيمانك بالله، طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، بل إن النمص من التشبه بالكافرات ومن تشبه بقوم فهو منهم، والله يقول يوم القيامة: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ «الصافات:٢٢» أي أشباههم ونظراءهم، ومن أحب قومًا حشر معهم، ولا تقولي: كثيرات يفعلن ذلك، فكثيرات أيضًا يعبدن الأصنام، فهل تعبدين معهن، وكثيرات يعلقن الصليب، فهل تفعلين مثلهن، إن كثرة العاصيات لا تعذرك عند الله، فأنت مسئولة عن عملك، وكما كنت في ظهر أبيك وحدك، ثم في بطن أمك وحدك، ثم ولدت وحدك، فإنك تموتين وحدك، وتبعثين يوم القيامة وحدك، وتمرين على الصراط وحدك، وتأخذين كتابك وحدك، وتسألين بين يدي الله وحدك.

قال الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ «مريم:٩٣-٩٥».

وختامًا، أيتها الجوهرة المكنونة، والدرة المصونة، أهمس في أذنك بكلمات، أرجو أن تصل إلى قلبك قبل أذنك، لا تغتري بكثرة العاصيات، لا تغتري بكثرة من

يتساهلن بالحجاب، ومغازلة الشباب، أو يتعلقن بالعشق والهيام، ومقارفة الحرام، همهن المسرحيات والأفلام، يعشن بلا قضية، فنحن بصراحة في زمن كثرت فيه الفتن، وتنوعت المحن، فتن تفتن الأبصار، وأخرى تفتن الأسماع، وثالثة تسهل الفاحشة، ورابعة تدعو إلى المال الحرام، حتى صار حالنا قريبًا من ذلك الزمان، الذي قال فيه النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما: «فإن وراءكم أيام الصبر، الصبر فيهن كقبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين منكم، يعمل مثل عمله». قالوا: يا رسول الله، أو منهم، قال: «بل منكم» [حديث حسن]، وإنما يعظم الأجر للعامل الصالح في آخر الزمان، لأنه لا يكاد يجد على الخير أعوانًا، فهو غريب بين العصاة، نعم غريب بينهم، يسمعون الغناء ولا يسمع، وينظرون إلى المحرمات ولا ينظر، بل ويقعون في السحر والشرك، وهو على التوحيد.

وعند مسلم أنه ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء». نعم طوبى للغرباء، وعند البخاري: قال ﷺ: «إنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم». وأخرج البزار بسند حسن أنه ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة».

نعم، من كان خائفًا في الدنيا، معظمًا لجلال الله، أمن يوم القيامة، وفرح بلقاء الله، وكان من أهل الجنة الذين قال الله عنهم:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

أما من كان مقبلا على المعاصي، همه شهوة بطنه وفرجه، آمنا من عذاب الله، فهو في خوف وفزع في الآخرة.

قال الله: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الشورى:٢٢].

فتوكلي على الله إنك على الحق المبين، ولا تغتري بكثرة المتساقطات، ولا

ندرة الثابتات، ولا تستوحشي من قلة السالكات.

أسأل الله أن يحفظك بحفظه، ويكلأك برعايته، ويجعلك من المؤمنات التقيات، الداعيات العاملات، ولسوف تبقين أختا لنا، وإن لم تستجيبي لنصحنا، نحب لك الخير، ولسوف ندعو الله لك آناء الليل، وأطراف النهار، ولن نمل أبدا من نصحك وحمايتك، فثقتنا أنك يوما ما ستعودين إلى رشدك، وأملنا أن الله لن يضيع جهدنا معك، وما توفيقنا إلا بالله.

***

لو رآك لأحبك

الحمد لله الذي جمع قلوب أهل حبه على طاعته، وأورثهم من الخيرات ما نالوا به كرامته، أحمده سبحانه، وضع القبول لمن يشاء في السماء والأرض وبيض وجوههم يوم العرض، الحليم الذي لا يعجل، الكريم الذي لا يبخل، القيوم الذي لا ينام ولا يغفل، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ما ذكره الذاكرون الأبرار، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم ما تعاقب الليل والنهار، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من صالح أمته، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات، المحبة شعور جميل يفرح المرء بها إذا وقعت له في قلوب الناس، وكلما كبر قدر الذي يحبك ازداد شعورك بالمحبة فرحًا وطرت بها لذة ومرحًا، وأعظم من تطلب محبته هو رب العالمين، وليس العبرة أن تحب أنت الله، فلا عجب في ذلك، فهو الذي خلقك فسواك فعدلك، لكن الفوز العظيم أن يحبك الله، فتكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

أعظم من تطلب محبته من الناس هو رسول الله ﷺ.

نعم، أن يحبك رسول الله، أن يحب كلامك إذا تكلمت، ويفرح بفعلك إذا تصرفت، ويأنس بك إذا رآك، ويشفع لك في العرصات، ويثني عليك في الجنات، فيكون مظهرك كمظهره، وثوبك كثوبه، ولحيتك كلحيته، وكلامك ككلامه.

نعم، ليست العبرة أن تحب أنت رسول الله ﷺ، فلا عجب، فهو الذي جاهد لحفظ الدين وقام بحق رب العالمين، ولطالما دعا لك فقال: «رب أمتي أمتي»، وإنما الفوز العظيم أن يحبك رسول الله ﷺ، فاسأل نفسك الآن: هل لو رآك محمد ﷺ لأحبك؟

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الربيع بن خيثم رآه حسن الخلق، لين

الكلام، رائق الحديث، جميل المعاشرة، كأن أخلاقه أخلاق الأنبياء، فكان ابن مسعود يقول له: يا أبا يزيد، والله لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، ولأوسع لك إلى جنبه، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين.

نعم، ابن مسعود الذي صاحب رسول الله ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة يعرف ماذا يحب النبي عليه الصلاة والسلام، وماذا يبغض، يعلم أنه يحب من الناس من حسن خلقه ورق طبعه وحسنت مجالسه، وهو عليه الصلاة والسلام طيب لا يحب إلا طيبًا، ولقد حرص الأولون على أن يحظوا بمحبته ﷺ، بل كان عليه الصلاة والسلام يخبر الناس بما يحببهم إليه، وكان يردد قائلاً - كما صح عند الترمذي -: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا».

وفي المسند أنه ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله»، نعم ويحبهم رسوله، فما الخصلتان؟ قيام الليل، صيام النهار؟ استبشر الأشج، قال: وما هما يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الحلم والأناة» وهما من حسن الخق.

وسئل ﷺ عن البر؟ كما عند مسلم، قال: «البر حسن الخلق».

وعند الترمذي أنه ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وعند الترمذي قال عليه الصلاة والسلام: «أكمل الناس إيمانًا أحاسنهم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وروى البخاري في الأدب المفرد أنه ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق».

وعند الترمذي قال عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار».

ومن حسن خلقه ربح في الدارين:

نعم، وإن شئت فانظر إلى أم سلمة رضي الله عنها وقد جلست مع رسول الله ﷺ فتذكرت الآخرة وما أعد الله تعالى فيها، فقالت: يا رسول الله، المرأة يكون لها

زوجان في الدنيا فإذا ماتت وماتا ودخلوا جميعًا إلى الجنة فلمن تكون؟ فماذا قال ﷺ تكون لأطولهما قيامًا؟ أم لأكثرهما صيامًا؟ أم لأوسعهما علمًا؟ كلا، وإنما قال: «تكون لأحسنهما خلقا»، فعجبت أم سلمة، فلما رأى دهشتها قال عليه الصلاة والسلام: «يا أم سلمة، ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة».

نعم، ذهب بخيري الدنيا والآخرة، أما خير الدنيا فهو ما يكون له من محبة في قلوب الخلق، وأما خير الآخرة فهو ما يكون له من الأجر العظيم عند الله جل جلاله.

ومهما أكثر الإنسان من الأعمال الصالحات، فإنها قد تفسد عليه إذا كان سيئ الخلق.

وقد ذكر للنبي ﷺ حال امرأة أنها تصلي الليل وتصوم النهار، وتتصدق وتفعل الخيرات، لكنها تؤذي جيرانها بلسانها؛ يعني سيئة الخلق، فقال عليه الصلاة والسلام: «هي في النار».

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام هو الأسوة الحسنة في كل خلق حميد، كان أكرم الناس وأشجعهم وأحلمهم، كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، كان أمينًا صادقًا يشهد له الكفار بذلك قبل المسلمين، والفساق قبل الصالحين، حتى قالت له خديجة ڤ أول ما نزل عليه الوحي لما رأت تغير حاله، قالت: والله لا يخزيك الله أبدًا، لماذا؟ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة.

بل أثنى الله عليه ثناء نتلوه إلى يوم القيامة، قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]

وكان ﷺ خلقه القرآن، نعم كان خلقه القرآن، فإذا قرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] أحسن، نعم أحسن إلى الكبير والصغير، إلى الغني والفقير، إلى شرفاء الناس ووضعائهم، إلى كبارهم وصغارهم، وإذا سمع قول الله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة:١٠٩] عفا وصفح.

وإذا تلا: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] تكلم بأحسن الكلام، فما دام أنه ﷺ

قدوتنا، وأن منهجه منهجنا، فتعالوا جميعًا لنقف على مواقف وعظات من حياته عليه الصلاة والسلام، كيف كان يتعامل مع الناس؟ كيف كان يعالج أخطاءهم؟ كيف كان يتحمل أذاهم؟ كيف كان يتعب لراحتهم، وينصب لدعوتهم؟ فيومًا تراه يسعى في حاجة مسكين، ويومًا يفصل خصومة بين المؤمنين، ويومًا يدعو الكافرين، حتى كبرت سنه ورق عظمه، ووصفت عائشة حاله ﷺ فقالت: «كان أكثر صلاة النبي ﷺ بعدما كبر جالسًا». لماذا كان يصلي جالسًا؟ قالت: «بعدما حطمه الناس»، نعم حطمه الناس.

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسام

كان عليه الصلاة والسلام يحسن خلقه ويتلطف في تعامله، لدرجة أن كل واحد يتعامل معه يشعر أنه أحب الناس إليه، كان يأسر القلوب أسرًا.

عند الترمذي أن عمرو بن العاص بعدما أسلم، كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه عليه ويوسع له في المجلس ويتبسم في وجهه إذا رآه، ويناديه بأحب الأسماء إليه، حتى ظن عمرو أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فجاء يومًا فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قال: لا يا رسول الله، أعني من الرجال؟ قال: «أبوها»، قال: ثم من؟ قال: «ثم عمر»، قال: ثم من؟ قال: «ثم عثمان»، ثم جعل ﷺ يعدد الرجال قبل أن يذكر عمرو ابن العاص.

فتأمل كيف كان ﷺ يأسر قلب كل من لقيه، حتى يظن من حسن تعامله وتواضعه وبشاشته أنه أحب الناس إليه عليه الصلاة والسلام، وهذه أعلى مراتب الخلق الحسن، أن تجعل من أمامك يحبك من أول لقاء، عندها سيقبل نصحك إذا نصحته، ووعظك إذا وعظته، وإنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم.

استطاع عليه الصلاة والسلام أن يملك نفوس الناس أجمعين، مع أنه بشر مثلنا، يرضى ويغضب، ويفرح ويسخط، لكن حلمه كان يغلب غضبه، وعفوه كان يغلب عقوبته، بل كان يقابل الإساءة بالإحسان، كان يتحمل أخطاء الآخرين، كان يرفق بهم.

وانظر إليه عليه الصلاة والسلام وقد جلس في مجلس مبارك يحيط به

أصحابه، فيأتيه أعرابي يستعين به في دية، هذا الأعرابي قد قتل رجلاً، فأقبل يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يعينه بمال يؤديه لأولياء المقتول، أعطاه النبي ﷺ شيئًا من المال، ثم قال تلطفًا معه: «أحسنا إليك؟» قال الأعرابي: لا، لا أحسنت ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار النبي ﷺ أن كفوا.

ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى منزله ثم دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت»، ثم زاده ﷺ شيئًا من ماله وجده في بيته، ثم قال له: «أحسنا إليك؟» قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فأعجبه ﷺ هذا الرضا منه، لكنه خشي أن يبقى في قلوب أصحابه على هذا الرجل شيء، فيراه أحدهم في طريق أو سوق فلا يزال حاقدًا عليه، فأراد أن يحسن إليه أكثر وأن يسل ما في صدورهم عليه، فقال ﷺ: «إنك كنت جئتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم»، لما جاء الأعرابي، قال ﷺ: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه، فزعم أنه رضي»، ثم التفت ﷺ إلى الأعرابي وقال: «أكذاك»، قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فلما هم الأعرابي أن يخرج إلى أهله، أراد ﷺ أن يعطي أصحابه درسًا في كسب القلوب، فقال لهم: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس ـ يعني جعلوا يركضون وراءها ليمسكوها ـ وهي تهرب منهم فزعًا، ولم يزيدوها إلا نفورًا، وصاحب الناقة يقول: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها، فلما تركها الناس توجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قشام الأرض ـ يعني من حشائشها ـ وجعله في ثوبه ثم دعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها».

قال ﷺ: «ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال دخل النار»، يعني: لو ضربتموه فلعله يرتد عن الدين، فيدخل النار. والحديث رواه البزار وفي مسنده مقال، و«ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه».

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني

غليظ الحاشية - يعني عليه رداء، كانت حاشية الرداء الملاصقة للرقبة غليظة خشنة - فأدركه أعرابي، أقبل هذا الأعرابي وجعل يجري إلى النبي ﷺ يريد أن يلحق به، حتى إذا اقترب منه جبذه بردائه جبذة شديدة - يتحرك الرداء بعنف على رقبة النبي ﷺ حتى أثر فيه - قال أنس: حتى نظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ قد أثرت فيها حاشية البرد من شدة جبذته.

فماذا يريد هذا الرجل؟ ما الذي جعله يستعجل هذا الاستعجال، ويتحرك هذه السرعة؟ لعل بيته يحترق، وأقبل يريد معونة أو أحاطت بهم غارة من المشركين.

اسمع ماذا يريد: قال: يا محمد، لاحظ، لم يقل: يا رسول الله، يا أبا القاسم، يا نبي الله.

قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي أعطاك، يعني كأنه يقول: ليس لك منة في هذا المال، هذا أصلاً هو مال الله، ولكن جعله أمانة عندك لتعطينا إياه، فالتفت النبي ﷺ إليه ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

لماذا ضحك؟ حتى يوضح لذلك الأعرابي أني لست غضبان منك، وأنه ليس في نفسي شيء لك، حتى تصلي معي من غد وتسألني إن كان عندك شيء، ما كان ﷺ يستفزه مثل هذه التصرفات، كان بطلاً، لا يعاقب أو تثور أعصابه على التفاهات، كان واسع البطان، قويًا يضبط أعصابه، كان دائم الابتسامة حتى في أحلك الظروف، يفكر في عواقب الأمور قبل أن يفعلها، وبالله عليكم ماذا يفيد لو أنه صرخ بالرجل أو طرده هل سيشفى الجرح الذي في عنقه؟ هل سيصبح أدبًا للرجل؟ كلا، إذن ليس مثل الصبر والتحمل.

أيها الإخوة: بعض الأمور نحزن لها ونغضب والغضب ليس علاجًا لها.

قال السماء كئيبة وتجهما قلت ... ابتسم يكفي التجهم في السما

قال الصبا ولى فقلت له ابتسم ... لن يرجع الأسف الصبا المتصرم

وإن شئت أن تنظر إلى صفاء النفس جليًا ومقابلة الأمور برفق وأريحية، فانظر إليه ﷺ بعد أن فتح مكة وقد قوي شأنه عند العرب، وكثر الداخلون في الإسلام، ثم إنه ﷺ غزا بالناس حنينًا؛ يعني توجه إلى الطائف، فنزل ﷺ بحنين - وهو واد

بين مكة والطائف - لما سمع المشركون بالطائف أنه ﷺ مقبل إليهم، جاءوا وسبقوه إلى الوادي ونزلوا فيه ليباغتوا النبي ﷺ إذا سلك من خلال الوادي دون أن يعلم بهم، أقبلوا وصفوا صفوفهم وصفوا خيلهم وجعلوا النساء معهم، معهن الحجارة ليقذفنها على المسلمين.

ثم أقبل المسلمون وقد بلغوا اثنى عشر ألفًا، وكان المشركون قد اختبئوا في هذا الوادي بين الصخور، فما هو إلا أن دخلت جموع المسلمين في الوادي دون أن يعلم أحد من المسلمين باجتماع المشركين واختبائهم، ما إن دخلوا حتى تفجر عليهم الكفار من كل جانب واضطرب أمر المسلمين، وجعلت خيل المسلمين تلوذ خلف ظهورهم، فلم يلبثوا إلا أن انكشفوا، تدري أول من فر من بين يدي النبي ﷺ من هو؟ أول من فر من بين يديه هم الأعراب، الذين ما أسلموا إلا قبل أيام، وتسلط الكفار، هؤلاء الاثنا عشر ألفًا من المسلمين لم يبق منهم بين يدي النبي ﷺ إلا تسعة فقط، يعني فر أحد عشر ألفًا وتسعمائة وواحد وتسعون، لم يبق معه ﷺ إلا تسعة، التفت النبي عليه الصلاة والسلام فإذا الجموع تفر والدماء تسيل والخيل يضرب بعضها بعضًا، فجعل يأمر العباس: «يا عباس، ناد المهاجري، ناد الأنصار، ناد أصحاب الشجرة» فرجع بعضهم حتى ثبت ﷺ في ثمانين أو في مائة رجل، ثم نصر الله المسلمين، وانتهى القتال.

جمعت الغنائم بين يديه ﷺ، وجعل عليه الصلاة والسلام يتوجه إلى مكان ليرتاح فيه قد كثرت عليه الحرب، وقد سالت منه بعض الجروح، والعرق يتقطر منه من كل جانب، فلما كاد ﷺ أن يغادر ساحة القتال، فإذا الذين فروا من القتال وخافوا من الرماح والنبال، هم أول من اجتمع على رسول الله ﷺ يريد الغنائم! سبحان الله! تعلقت به الأعراب، يقولون: اقسم فيئنا، اقسم علينا فيئنا، يريدون الغنائم! يقسم فيئكم، متى صار فيئكم وأنتم لم تقاتلوا أصلاً؟ كيف تجرءون على أن تطلبوا من الغنيمة، وهو الذي كان يصرخ بكم لتعودوا وأنتم لا تستجيبون؟ لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدقق على مثل هذا، فالدنيا لا تساوي عنده شيئًا، جعلوا يدفعونه ويرددون: اقسم علينا فيئنا، اقسم علينا فيئنا، حتى تزاحموا عليه وضيقوا عليه الطريق بين يديه، واضطروه إلى شجرة، فمر ﷺ من شدة زحامهم

ملاصقًا لهذه الشجرة، فتعلق رداؤه بغصن من أغصانها، حتى سقط عن منكبيه، وصار بطنه وظهره مكشوفًا، فلم يغضب، لا لم يغضب، وإنما التفت إليهم، وقال بكل هدوء: «أيها الناس، ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا» نعم، لأنه لو كان بخيلاً لأمسك الأموال لنفسه، ولو كان جبانًا لفر مع الفارين، ولو كان كذابًا لما نصره رب العالمين.

كان يحسن إلى الناس ليستعبد قلوبهم، فاقتد به.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة ... فلن يدوم على الإحسان إمكان

وإن أساء مسيء فليكن لك ... في روض ذلته صفح وغفران

كن رقيق البشر إن الحر همته ... صفيحة وعليه البشر عنوان

فإن لقيت عدوًا فالقه أبدًا ... والوجه بالبشر والإشراف غضان

ورافق الرفق في كل الأمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممه إنسان

لا تحسب الناس طبعًا واحدًا فلهم ... غرائز لست تحصيهن ألوان

من سالم الناس يسلم من غوائلهم ... وعاش وهو قرير العين جزلان

من عاشر الناس لاقى منهم نصبًا ... لأن سوسهم بغي وعدوان

هما رضيعا لبان حكمة وتقى ... وساكنا وطن مال وطغيان

من كان للخير مناعًا فليس له ... على الحقيقة إخوان وأخدان

نعم، كان عليه الصلاة والسلام يخالط الناس ويصبر على أذاهم، كان يعاملهم بنفس رحيمة وعين دامعة ولسان واع وقلب عطوف، كان يشعر أنه هو ﷺ وهم جسد واحد، يشعر بفقر الفقير، وحزن الحزين، ومرض المريض، وحاجة المحتاج.

حثه على التراحم والتكافل وغضبه ضد ذلك ﷺ:

انظر إليه عليه الصلاة والسلام وقد جلس في مسجده يحدث أصحابه كما عند مسلم، فإذا به يرى سوادًا مقبلاً عليه من بعيد، فنظر إليهم، فإذا هم قوم فقراء، أقبلوا عليه عليه الصلاة والسلام من مضر من قبل نجد، ومن شدة فقرهم كانوا قد اجتابوا النمار، هل تعلم ما معنى اجتابوا النمار؟ يعني يأخذ أحدهم قطعة القماش، فلا يجد

ثمن الإبرة والخيط، فيخرق القماش من وسطه ثم يخرج رأسه ويسدل باقيه على جسده، ليس عليهم عمائم ولا سراويل ولا إزار، أقبلوا قد اجتابوا النمار من شدة الفقر وتقلدوا السيوف، وليس عليهم شيء غيرها، إذا حركتها الريح انكشفت عوراتهم.

فلما رأى ﷺ الذي بهم من الجهد والعري والجوع، تغير وجهه، ثم قام ﷺ فدخل بيته فلم يجد شيئًا يتصدق به عليهم، فخرج ودخل بيته الآخر، ثم خرج يبحث يلتمس شيئًا لهم، ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر، ثم صعد منبره، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الله ﷻ أنزل في كتابه»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨] وجعل يتلو الآيات المواعظ، ثم صاح بهم وقال: «تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة، تصدق امرؤ من ديناره، تصدق امرؤ من درهم، من برة من شعيرة، ولا يحقرن أحدكم شيئًا من الصدقة»، وجعل يعدد أنواع الصدقات، حتى قال: «تصدقوا ولو بشق تمرة»، يعني إذا ما كان عندك في بيتك إلا تمرة ما نسمح لك أن تأكلها كلها، شقها نصفين، كل نصفًا وتصدق بنصف.

فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه، فناولها النبي عليه الصلاة والسلام وهو على منبره، فقبضها ﷺ يعرف السرور في وجهه، وقال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء»، فقام الناس فتفرقوا إلى بيوتهم وجاءوا بصدقات، فمن ذي دينار، ومن ذي درهم، ومن ذي تمر، ومن ذي ثياب، حتى اجتمع بين يديه ﷺ كومان، كوم من طعام، وكوم من ثياب، فلما رأى ﷺ ذلك تهلل وجهه، حتى كأنه فلقة قمر، ثم قسمه بين الفقراء.

بل كان ﷺ من حسن خلقه يشارك الناس في مشاعرهم، يهنئهم في أفراحهم، ويعزيهم في أتراحهم، لم يكن غليظًا جافًا عديم الملاحظة، كلا، بل كان حكيمًا لماحًا، يتصيد الفرص لإدخال السرور على الآخرين.

عند البخاري: أن المهاجرين لما ضيق عليهم في دينهم في مكة، هاجروا إلى

المدينة وقد تركوا ديارهم وأموالهم، فقدم عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة مهاجرًا، كان عبد الرحمن تاجرًا فذهب إلى السوق فاشترى وباع وربح؛ يعني اشترى بضاعة بالأجل ثم باعها حالة، فصار عنده رأس مال تاجر فيه وكان يحسن فن البيع والشراء والمماسكة، حتى جمع مالاً فتاجر فيه ثم زاد عنده المال فتزوج، ثم جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وعليه أثر ردع وزعفران؛ يعني على ثوبه أثر طيب نسائي، وهذا قد تلاحظه أحيانًا على بعض المتزوجين حديثًا، قد ترى عليه أحيانًا شيئًا من الأثر.

فلما رأى النبي ﷺ عبد الرحمن انتبه لهذا التغير وقال: «عبد الرحمن مهيم؟» يعني ما الخبر؟ قال: يا رسول الله! تزوجت امرأة من الأنصار. عجب النبي عليه الصلاة والسلام كيف استطاع أن يتزوج وهو حديث عهد بهجرة، من أين جاء بالمال؟ قال: «فما أصدقتها»، فقال: يا رسول الله، وزن نواة من ذهب، فأراد النبي ﷺ أن يزيد من فرحته، فقال له: «أولم ولو بشاة». ثم دعا له النبي عليه الصلاة والسلام بالبركة في ماله وتجارته، قال عبد الرحمن: فلو قد رأيتني ولو رفعت حجرًا من الأرض لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا أو فضة؛ يعني من شدة البركة التي كان يلاقيها رضي الله عنه.

بل حتى الكفار، كان ﷺ يعاملهم بالعدل، كان يستميت في سبيل دعوتهم وإصلاحهم، كان يتحمل أذاهم، كان يتغاضى عن سوئهم، كيف لا؟ وقد قال له ربه جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] رحمة لمن؟ للمؤمنين، للمتقين، للصالحين فقط؟ لا، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ إذن هو رحمة للعالمين.

وتأمل حال اليهود كانوا يذمونه ويبتدئون بالعداوة، ومع ذلك كان يرفق بهم، عن عائشة رضي الله عنها أن اليهود مروا يومًا على بيت النبي عليه الصلاة والسلام فرفعوا أصواتهم مسلمين، فماذا قالوا في سلامهم؟ قالوا: السام عليكم يا محمد، قال عليه الصلاة والسلام بكل هدوء «وعليكم»، فلم تصبر عائشة -السام عليكم يعني: الموت عليكم- قالت: بل السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، قال عليه الصلاة والسلام: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش». قالت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في».

نعم، ما الداعي لمقابلة السباب بالسباب، **أليس الله تعالى قد قال له:** ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وفي البخاري: أن أنسًا ﷺ حدث بأنه ﷺ كان له جار يهودي فمرض، فمضى النبي ﷺ يعوده، وكان هذا الجار غلامًا صغيرًا، فقال ﷺ وقد وقف عند رأسه، قال: «يا غلام، قل: لا إله إلا الله»، فنظر الغلام إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه الصلاة والسلام: «يا غلام، قل: لا إله إلا الله»، واليهود يعرفون أن النبي ﷺ على حق لكن يمنعهم الكبر عن اتباعه، فنظر الغلام إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فابتهج النبي ﷺ ثم ولى من عنده خارجًا، فلما وصل إلى باب البيت سمع الصراخ عليه، قد مات، فرفع النبي ﷺ بصره إلى السماء، وقال بكل رحمة: «الحمد لله» الحمد لله على ماذا؟ أن مات مسلمًا فورثناه؟ كلا، وهو فقير لا مال له، بل سوف يلي المسلمون تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، وهذا سيكلفهم مالاً وجهدًا، وإنما قال: «الحمد لله الذي أنقذه بي من االنار».

بل حتى مع الأعداء الألداء، **كان ﷺ له خلق عظيم كسب به نفوسهم، وهدى به قلوبهم، ودحر به كفرهم، بعث ﷺ إلى الناس بالهدى ودين الحق، وشرفت قريش بدعوته فأخذت تكابده ﷺ العداء من كل جانب حتى اجتمعوا يومًا، فأقبلوا إلى رجل من عقلائهم، إلى عقبة بن أبي معيط، قالوا: يا عقبة، اذهب إلى هذا الرجل وتفاهم معه، دخل عقبة إلى النبي ﷺ، قال: يا محمد، إنك قد فرقت جماعتنا، وشتت شملنا، وفعلت وفعلت، صار الولد يسلم فيترك أباه، وصارت المرأة تسلم فتترك زوجها، أنت فرقت جماعتنا، وإني عارض عليك أربعة أمور فخذ واحدًا منها.**

قال ﷺ: «قل أسمع». قال عقبة: إن كنت جئت بالذي جئت به تريد مالاً؛ يعني إذا أنت رأيت أن كل واحد من الناس اشتغل بعمل من تجارة أو حدادة أو تجارة يجمع مالاً، وأنت الآن جئت بهذه الفكرة الجديدة، دين جديد لأجل أن يدخل الناس في دينك ويصبحوا أتباعًا لك ويعطونك من أموالهم فنحن نريحك من بقية المشوار، نجمع لك الآن الأموال حتى تكون أنت أكثر أهل مكة مالاً، موافق؟ قال ﷺ: «لا».

قال: خذ الثانية، إن كانت جئت بالذي به تريد ملكًا - يعني تريد أن تصبح رجلاً لك جاه ومنصب بكثرة أتباعك، نحن أيضًا نريحك من بقية المشوار - نجعلك الآن ملكًا علينا في مكة لا نبرم عهدًا ولا نحل عقدة ولا نتفق مع أحد إلا بإذنك - أنت الملك - موافق؟ قال ﷺ: «لا»، قال: «قل الثالثة». ويبدأ الرجل يقل أدبه قليلاً، قال: وإن كنت جئت بالذي جئت به تريد نساءً - إذا أنت تحب الحريم - فنحن نزوجك الآن أجمل امرأة في مكة، ولكن دعنا من هذا الدين الذي أنت تدعو إليه، قال ﷺ: «لا» فبدأ الرجل يقل أدبه أكثر، فقال: إن كان الذي يأتيك جنون - يعني بعبارتنا إن كان بك خبل - فإننا ندعو لك الأطباء فيعالجونك من جنونك، فلربما غلب الجن على المرء حتى يهذي بما لا يدري.

لاحظ، سبحان الله! هذه العبارات لا تقال لشاب عمره ست عشرة سنة أو سبع عشرة، هذه تقال لرجل جاوز الأربعين وربما جاوز الخمسين، ورجل من وجهاء مكة ومن أنسبهم وأحسبهم، ومع ذلك يقول له هذا الكلام، فماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام، والتفت إليه، وقال له بكل أدب: «أفرغت يا» ماذا؟ يا غبي، يا سفيه، يا قليل الأدب؟ لا، ما كانت هذه أخلاقه ﷺ، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». ذاك يقول: إذا أنت تريد نساء، وإذا أنت مجنون، والنبي ﷺ يقول: «أفرغت يا أبا الوليد؟»، بألطف عبارة. قال: نعم، قال: «فاسمع مني».

جلس أبو الوليد، واتكأ بيديه خلفه، فقال ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:١، ٢] - يعني هذا الدين ليس من عندي، هذا من عند الله - ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت:٣، ٤]»، ومضى النبي ﷺ يتلو الآيات، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣] فلما بلغ هذه الآية، قفز عقبة من مكانه ووضع يديه على فم النبي ﷺ، وقال: كفى كفى، ناشدتك الله والرحم، وخرج عقبة من عنده، وقد تأثر كثيرًا بكلام النبي عليه الصلاة والسلام.

فمن كانت هذه أخلاقه مع أعدائه، فبالله عليك كيف تكون أخلاقه مع أصحابه وأخلائه، كان يرفق بجاهلهم، يترفق في توجيههم.

انظر إلى معاوية بن الحكم رضي الله عنه..

كان من عامة الصحابة لم يكن يسكن المدينة ولم يكن مجالسًا للنبي عليه الصلاة والسلام، وإنما كان له غنم الصحراء يتتبع به الخضراء، أقبل معاوية يومًا إلى المدينة، فدخل إلى المسجد فإذا النبي ﷺ قد جلس مع أصحابه فأقبل فجلس معهم، فسمع معاوية النبي ﷺ يتكلم عن العطاس، وكان مما علم أصحابه أن المسلم إذا سمع أخاه المسلم عطس، فإنه إذا حمد يقول له مباشرة: يرحمك الله، سنة حفظها معاوية وجعلها في عقله وذهب بها، بعد أيام جاء معاوية إلى المدينة في حاجة، حضرته الصلاة دخل المسجد فإذا النبي ﷺ يصلي بأصحابه، جاء معاوية - الله أكبر - دخل معه في الصلاة بينما هم على ذلك إذ عطس رجل من المصلين، فما كاد الرجل يحمد الله حتى تذكر معاوية أنه تعلم أن المسلم إذا عطس فقال: الحمد لله، فإن أخاه يقول له: يرحمك الله، فبادر معاوية العاطس بصوت عال: يرحمك الله، فاضطرب المصلون وجعلوا يتلفتون إليه منكرين.

فلما رأى دهشتهم اضطرب، وقال: واثكل أماه، ما شأنكم تنظرون إلي - يعني كأنه يقول: أنا ما فعلت شيئًا - فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ليسكت، فلما رآهم يصمتونه صمت، انتهت الصلاة، التفت النبي ﷺ إلى الناس، وقد سمع جلبتهم وأصواتهم وسمع صوت من تكلم، ولكنه ليس صوت أبي بكر ولا صوت عمر ولا صوت عثمان، هو يعرف صوت أصحابه، هذا صوت جديد لم يعتد عليه، فلم يعرفه، سألهم، قال: «من المتكلم؟» أشاروا إلى معاوية، فدعاه النبي ﷺ تعال، أقبل معاوية إلى النبي ﷺ وهو فزع، لا يدري بماذا سيستقبله، وهو الذي أشغلهم في صلاتهم وقطع عليهم خشوعهم.

استمع إلى معاوية وهو يصف الموقف، يقول معاوية ﷺ: فبأبي هو وأمي رسول الله ﷺ والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده كان أحسن تعليمًا منه، والله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني - يعني: ما كهرني: ما عبس في وجهي، ولا ضربني ولا شتمني: ما سبني - وإنما قال: «يا معاوية! إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن». انتهت، نصيحة باختصار، فهمها معاوية ثم ارتاحت نفسه واطمأن قلبه، وجعل يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن خواص أموره، قال: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء

الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان، وهم الذين يدعون الغيب - يعني: فيسألونهم عن الغيب - فقال ﷺ: «فلا تأتهم»، يعني: لأنك مسلم، الغيب لا يعلمه إلا الله، قال معاوية: ومنا رجال يتطيرون - يعني: يتشاءمون بالنظر إلى الطير - فقال ﷺ: «ذلك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم»، أي: لا يجوز أن الإنسان يتشاءم أو أن يمتنع من وجهة هو ذاهب إليها بسبب شيء رآه مثلاً من طير، أو من هر أسود، أو من غير ذلك.

ثم جعل معاوية يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن جارية عنده وعن غنم عنده قد عدا الذئب على بعضها، وكل هذه المسائل لما رأى من حسن خلق النبي عليه الصلاة والسلام معه.

كان عليه الصلاة والسلام:

أغر عليه النبوة خاتم من	الله مشهود يلوح ويشهد
وضمن الإله اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فذو	العرش محمود وهذا محمد
في طيبة رسم للرسول ومعهد	منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
عرفت بها اسم الرسول وعهده	وقبر به واراه الترب ملحد
نبينا كان بعد يأس فترة من	الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجًا مستنيرًا وهاديًا	يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارًا وبشر جنة	وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي	بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من	دعا سواك إله أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستهدي وإياك نعبد

وبلغ من خلقه العظيم عليه الصلاة والسلام أنه كان يلتمس المعاذير للمخطئين ويحسن الظن بالمذنبين:

كان إذا قابل عاصيًا ينظر إلى جوانب الإيمان قبل أن ينظر إلى جوانب الشهوة والعصيان، ما كان يسيء الظن بأحد، يعاملهم كأنهم أولاده وإخوانه، يحب لهم الخير ما يحبه لنفسه، نعم حتى العصاة كان عليه الصلاة والسلام إذا رآهم تبسم.

انظر إليه ﷺ وقد جلس في مسجده، كما في حديث أنس في الصحيح، فجيء برجل قد شرب خمرًا، فأمر به النبي عليه الصلاة والسلام فجلد، ثم أخرج، بعدها بأيام جيء بالرجل نفسه قد شرب خمرًا مرة ثانية، فأمر به ﷺ فضرب، ثم أخرج، ثم جيء به مرة ثالثة وقد شرب خمرًا - يشرب خمرًا في عهد النبوة، وهو يرى النبي ﷺ ويرى الصحابة - فضرب في المرة الثالثة وأخرج، فلما أخرج، التفت أحد الصحابة إليه، وجعل ينظر فإذا رجل قد تمكن حب الخمر من قلبه، حتى جعل يشربها مرارًا ويؤتى به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويؤدبه بنفسه فلا يتوب منها، فالتفت ذلك الرجل إلى هذا الذي شرب الخمر وهو خارج، ثم قال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به. لاحظ لم يلعن مصليًا قانتًا، ولا عابدًا تاليًا، ولا مجاهدًا شجاعًا، وإنما لعن رجلاً قد شرب خمرًا مرارًا، قال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فالتفت النبي ﷺ إلى هذا الصحابي اللاعن، وقال: «لا تلعنه» لماذا؟ «لأنه يحب الله ورسوله»، الله أكبر، نظر إلى جوانب الإيمان المتبقية في قلب هذا الرجل وإن كان قد وقع في معصية.

نعم، أفلا يقتدي به أولئك، الذين إذا رأى أحدهم شابًا مدخنًا تجهم في وجهه وقطب جبينه وكأنه رأى يهوديًا أو نصرانيًا، يا أخي! وما أدراك لعل هذا المدخن عنده من الأعمال والأسرار بينه وبين الله ما يجعله في أعلى عليين، وبعضهم إذا رأى من حلق لحيته، أو أسبل إزاره احتقره وازدراه، وما أدراك لعل له من صلاة الليل وبناء المساجد وبر الوالدين ما تغوص معصيته في بحرها.

وأنا بذلك لا أعتذر عن العصاة، ولكن ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

بل بلغ من حرصه عليه الصلاة والسلام على الخلق الحسن أنه كان يدعو الله فيقول: «اللهم كما أحسنت خَلقي فأحسن خُلقي»، كما عند أحمد، وكان يقول: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت». كما عند مسلم.

فنحن نحتاج أن نقتدي به ﷺ في أخلاقه..

كان بشرًا من البشر يغضب، لكن غضبه كان لله..

قالت عائشة ﵂: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، وما ضرب شيئًا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله». قالت: «وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله».

وقال أنس: «والله لقد خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب علي شيئًا قط، والله ما قال لي أف قط».

كان غضبه لله، لا يغضب لنفسه، وحتى نفهم الفرق بين الغضبين، افرض أن ولدك الصغير جاءك ذات صباح وطلب ريالاً أو ريالين مصروفًا للمدرسة، فتحت محفظة نقودك فلم تجد إلا فئة الخمسمائة ريال، قلت: يا ولدي ما معي ريالان ولا ثلاثة اذهب إلى أمك، ذهب إلى أمه فلم يجد عندها فرجع إليك وجعل يبكي، أريد شيئًا للمدرسة أنا أستحي أن أذهب بغير مال، فأعطيته الخمسمائة ريال، قلت: يا ولدي، قال: نعم، قلت: هذه اسمها خمسمائة ريال، هذه تصرف عليك أنت وإخوانك سنة كاملة، يا ولدي! اصرف منها ريالين وارجع الباقي، انتبه لا تصرف عشرة ريالات، أو خمسة عشر ريالاً، انتبه، قال: نعم، فذهب الولد إلى المدرسة وذهبت أنت إلى عملك، وكل مدة تتصل؛ تقول: هه رجع الولد؟ الولد جاء من المدرسة أم لا؟ فلما رجع الولد وقابلته، قلت له: هه يا ولد أعطني الأربعمائة وثمانية وتسعين ريالاً التي بقيت، قال: هه يا أبي ما بقي معي شيء، وإذا هو قد صرف خمسين ريالاً هنا ومائة ريال هنا، وإذا ليس معه ريال، فماذا ستفعل؟ كيف سيكون غضبك؟ قد تضربه، قد تعنفه، قد تمنعه من مصروفه أيامًا؟ لكنك لو خرجت مرة إلى صلاة العصر والولد جالس يلعب في الكمبيوتر، أو عند التلفاز، أو يقلب مجلة بين يديه، وقلت له: يا محمد قم بسرعة، قال: نعم، سوف آتي إلى المسجد، ذهبت إلى المسجد وصليت، وجلست تتحدث مع مجموعة من زملائك ساعة أو ساعتين، فلما اقترب المغرب رجعت إلى بيتك فإذا ولدك على جلسته لم يقم إلى الصلاة، ولا صلى العصر إلى الآن، بالله عليك هل ستغضب كغضبك الأول؟ اسأل نفسك.

أما رسول الله ﷺ فكان يغضب لكن غضبه كان لله، بل كان عليه الصلاة والسلام رفيقًا حتى مع من يعتدي على أموره الخاصة كان رفيقًا، يقول المقداد بن

الأسود ﷺ: قدمت المدينة أنا وصاحبان لي، قال: فتعرضنا للناس فلم يضيفنا أحد - في السابق ما كان عندهم شقق مفروشة، أو فنادق - قال: فأتينا إلى النبي ﷺ فذكرنا له ذلك، يا رسول الله! ما وجدنا مكانًا نؤي إليه، قال: فأضافنا في منزله، قال: وعنده أربع أعنز، قال: «احلبنها يا مقداد، وجزئهن أربعة أجزاء واعط لكل إنسان جزءًا»، قال المقداد: فكنت في كل ليلة أحلب هذه الأعنز، وأقسمها أربعة أقسام؛ لي قسم، ولصاحبي قسمان، وللنبي عليه الصلاة والسلام قسم، إذا كان موجودًا ﷺ شرب قسمه، وإن كان غائبًا وضعناه جانبًا وغطينا عليه حتى يأتي فيشربه عليه الصلاة والسلام.

في ليلة من الليالي تأخر النبي ﷺ في المجيء إليه، اضطجع المقداد على فراشه بعدما شرب قسمه، وشرب صاحباه، ولم يبق إلا قسم النبي ﷺ لبن في إناء، فلما اضطجع المقداد كان لا يزال جائعًا، قال في نفسه: لعل النبي ﷺ قد أتى أهل بيت من الأنصار فأطعموه يعني لأجل ذلك تأخر علينا هذه الليلة - فلو قمت وشربت هذه الشربة، فقال: أعوذ بالله، هذا لبن النبي ﷺ يأتي الآن جائعًا فلا يجد، قال: فلم تزل بي نفسي حتى قمت فشربتها، ولم يبق المقداد للنبي ﷺ شيئًا، قال: فلما دخل اللبن في بطني وتقار، أخذني ما قدم وما حدث، فقلت: الآن يجيء النبي عليه الصلاة والسلام جائعًا ظمآن فلا يرى في القدح شيئًا فيدعو على الذي شربه.

قال: فحزنت وسجيت ثوبًا على وجهي واضطجعت على فراشي من الهم، فلما مضى بعض الليل، جاء النبي ﷺ، دخل البيت فسلم تسليمًا يسمع اليقظان ولا يوقظ النائم - يعني دخل وقال: السلام عليكم بصوت ضعيف بحيث من كان يقظان فإنه يرد السلام، ومن كان نائمًا فإنه لا ينزعج بالصوت القوي - المقداد كان على فراشه رد السلام بصوت منخفض وتظاهر أنه نائم، وجعل يرقب النبي ﷺ بطرف عينه، أول ما دخل النبي ﷺ إلى البيت كان جائعًا، أقبل إلى إنائه فكشف عنه الغطاء فلم ير شيئًا، فعلم أنه قد شرب، فرفع النبي ﷺ بصره إلى السماء، ففزع المقداد، وقال في نفسه: الآن يدعو علي، الآن يدعو علي، فجعل يتسمع ماذا يقول: فإذا به عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم اسق من سقاني وأطعم من أطعمني».

فلما سمع المقداد ذلك، اغتنم دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فقفز من على

فراشه يلتفت يمينًا ويسارًا، ثم أخذ الشفرة - السكين - ومضى إلى الأعنز، سبحان الله، هي ليست له، لكن من شدة حماسه، أقبل ليذبح إحداها ليطبخها للنبي عليه الصلاة والسلام، أقبل إلى إحداها، ثم جعل يتحسسها لينظر سمنها، هل يذبحها، فوقعت يده على ضرعها فإذا هي حافل مليئة باللبن، فتعجب، ثم وضع يده على ضرع الأخرى فإذا هي حافل مليئة باللبن، لمس الثالثة والرابعة، فإذا كلهن حفل مليئة باللبن، فأقبل إلى أكبر إناء عندهم في البيت، فجعل يحلب الأولى ويحلب الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، حتى ملئ الإناء وعلت الرغوة فوقه، ثم أتى بالإناء إلى النبي ﷺ وناوله إياه، قال: اشرب يا رسول الله، فلما رأى النبي ﷺ كثرة اللبن عجب وقال: «أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد؟» قال المقداد: اشرب، يا رسول الله، قال: «ما الخبر يا مقداد؟» قال: اشرب ثم الخبر، فشرب النبي عليه الصلاة والسلام، ثم ناول القدح للمقداد - يعني شرب شيئًا يسيرًا لأجل أن يشرب المقداد وصاحباه من بعده - قال المقداد: اشرب يا رسول الله، قال: «ما الخبر؟»، قال: اشرب، فشرب، ثم ناوله القدح، والمقداد يقول: اشرب، اشرب.

قال المقداد: فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روي وأصابتني دعوته، ضحكت حتى ألقيت على الأرض من شدة الضحك، عجب النبي ﷺ لماذا يضحك المقداد، فالتفت ﷺ وقال: «إحدى سوآتك يا مقداد»، ثم قال: «ما الخبر يا مقداد؟»، فقال المقداد: يا رسول الله! إنك قد أبطأت علينا الليلة، وكنت جائعًا، فقلت في نفسي: لعل رسول الله ﷺ قد تعشى عند بعض الأنصار، وقص عليه القصة كلها، وكيف أن الأعنز قد حلبت في ليلة واحدة مرتين، على غير العادة، فقال ﷺ: «ما كانت هذه إلا رحمة من الله - يعني: هذه بركة - أفلا كنت آذنتني» يعني: أخبرتني قبل أن نشرب اللبن كاملاً حتى نوقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها، فقال المقداد: والذي بعثك بالحق، ما أبالي أصبتها وأصبتها أنت من فات بعد ذلك من الناس، يعني: أهم شيء يا رسول الله البركة تصيبني وتصيبك أنت، أما أن تفوت غيرنا فلا يهمني ذلك.

كان عليه الصلاة والسلام متواضعًا، مع ما آتاه الله من فضائل كان متواضعًا، فهو خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، كان معظمًا في أصحابه، مهيبًا من قبل أعدائه، وزاده الله على ذلك بأن كان أحسن الناس وجهًا، كان وجهه مستنيرًا كالشمس،

وكان إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة من قمر، قال جابر بن سمرة رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة مضيئة مقمرة، قال: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر، وعليه عليه الصلاة والسلام حلة حمراء، فإذا هو عندي أحسن من القمر.

ومع ذلك لم يتسلط على قلبه عجب ولا كبر، كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، لم يكن يحتقر أحدًا، كان يقول: «لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت»، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي أوحى الله إليه قول الله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:١٨)، وكان يردد في الناس قائلاً: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه كان يمازح الفقراء والضعفاء ويدخل السرور على قلوبهم.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه: زاهر بن حرام، كان يهدي للنبي عليه الصلاة والسلام أحيانًا هدايا من البادية، والنبي عليه الصلاة والسلام يهديه هدايا من المدينة؛ يعني: يحضر إلى النبي ﷺ مثلا سمنًا أو إقطًا أو نحو ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام يعطيه من التمر أو نحوه، وكان عليه الصلاة والسلام يحب زاهرًا حبًا عظيمًا، وكان زاهر دميمًا، شديد الدمامة، أتى زاهر رضي الله عنه في يوم من الأيام من البادية ودخل المدينة، فأراد أن يزور النبي ﷺ قبل أن يذهب إلى ما عنده من شغل، أقبل إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام فلم يجده، وكان معه متاع فذهب به إلى السوق، أول ما وصل النبي ﷺ إلى بيته أخبره أن زاهرًا قد جاءه، لم يقل النبي ﷺ زاهر رجل مسكين ضعيف، نراه في صلاة الغصر أو المغرب، ليس مهمًا عندي كأهمية أبي بكر وعمر، لا، بل كان ﷺ متواضعًا، فخرج من بيته يبحث عن زاهر، أين يمكن أن يكون ذهب زاهر؟ أكيد أنه ذهب إلى السوق، ذهب ﷺ إلى السوق يبحث عن زاهر، دخل إلى السوق وجعل يتلفت، فإذا زاهر قد جعل متاعه بين يديه، وإذا النبي ﷺ قد اشتاق إلى زاهر، فأقبل ﷺ يمشي إلى زاهر.

تخيل معي المنظر، زاهر رجل أعرابي جاء من البر، عمله هو الرعي وتربية

الأغنام والقيام عليها وعلى الإبل، يعني: لعل رائحته من رائحة الغنم ولعل لباسه أيضًا قد لبس شيئًا من الفرو، أو نحوه من الغنم، والعرق يتصبب من كل مكان، ولعله جائع، ونحو ذلك، وإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام أطهر الناس وأطيب الناس ريحًا والذي يعرف بالطيب إذا أقبل، إذا به عليه الصلاة والسلام يقبل إلى زاهر من ورائه يمشي رويدًا رويدًا، وزاهر قد وقف يبيع المتاع ويحرض عليه الناس لشرائه، أقبل عليه الصلاة والسلام بكل هدوء من خلف زاهر، ثم احتضنه وأمسكه، زاهر لا يدري ما الذي أمسكه، فخاف أن يكون أحدًا يريد أن يؤذيه، ففزع وقال: أرسلني أرسلني، من هذا؟ سكت النبي ﷺ زاهر يحاول أن يتخلص من القبضة، وجعل يتلفت إلى الناس، فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يزيد الأمر على زاهر، ويقول: «من يشتري العبد؟ من يشتري العبد؟»، فتغير زاهر وغضب، هذا الآن يريد أن يسرق متاعي وأيضًا يريد أن يبيعني منه، إلى الآن لا يدري أن الذي يمسكه هو النبي عليه الصلاة والسلام، فالتفت زاهر ينظر، فإذا الذي يمسك به هو أطهر من مشى على الأرض عليه الصلاة والسلام، فلما رأى النبي جعل زاهر يسكن منه الفزع، ويلصق ظهره بصدر النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول: يا رسول الله تبيعني إذًا، والله تجدني كاسدًا يا رسول الله، من يشتريني يا رسول الله، لا مال ولا جمال، ولا خبرة في تجارة أو وظيفة معينة أو صنعة، من يشتريني يا رسول الله، حتى لو بعتني من يشتريني؟ إذًا والله تجدني كاسدًا يا رسول الله، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «لكنك عند الله لست بكاسد، أنت عند الله غالٍ»، ففرح زاهر بمثل هذه العبارات.

كان متواضعًا، وكان من رفقه ولينه يأتي ضعفاء المسلمين، كان يزورهم، يعود مرضاهم، يشهد جنائزهم، كان يتخلف في المسير إذا كان في قافلة، فيسجي الضعيف ويردف، ويدعو لهم عليه الصلاة والسلام.

ألا فلينتبه إلى هذا ذاك الذي يطغى أن رآه استغنى؛ لينتبه إليه الذي يصعر خده للناس ويمشي في الأرض مرحًا، ذاك الذي يتكبر على العمال والخدام والفقراء، يتكبر عن محادثتهم ومصافحتهم ومجالستهم، وكأنه مخلوق من ذهب، ولعله عند الله أحقر من الجعلان.

كنت في مجلس قبل أيام فتحدث أحد من رآه استغنى، وقال في أثناء حديثه،

قال: يا شيخ، ومررت بأحد العمال فمد يده ليصافحني فترددت، ثم مددت يدي وصافحته، ثم قال: مع إني لا أعطي يدي لأي أحد، ما شاء الله يقول: لا أعطي يدي لأي أحد، سبحان الله! ومن أنت؟ إذا كان النبي ﷺ تأتيه الأمة المملوكة الضعيفة السوداء التي يحتقرها الناس، فتلقاه في وسط الطريق وتشتكي إليه من ظلم أهلها أو كثرة شغلها، فيجعل ﷺ يده إليها، فتمسك بكمه، وتنطلق به ﷺ إلى أهلها لكي يشفع لها، وكان يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

وهذا يقول: لا أعطي يدي لأي أحد.

حتى مع الصغار، كان عليه الصلاة والسلام له خلق عظيم، أنس بن مالك رضي الله عنه كان له أخ صغير، وله طير يلعب به، وكان عليه الصلاة والسلام إذا مر بهذا الصغير يمازحه ويكنيه بأبي عمير، يقول: «يا أبا عمير! ما فعل النغير؟» يمزح مع هذا الصغير.

وكان يزور الأنصار، يسلم على صبيانهم، يمس رءوسهم عليه الصلاة والسلام، كان يعطف على الصغار، كان إذا مر على صبيان يلعبون سلم عليهم، وكان ضحوكًا مزوحًا مع الناس، كان يدخل السرور إلى قلوبهم، خفيفًا على النفوس، لا يمل أحد من مجالسته.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً استحمل النبي ﷺ - أي: طلب منه أن يحمله في سفر على دابة - فقال ﷺ: «إني حاملك على ولد ناقة» فأول ما تبادر على ذهن الرجل ولد ناقة؟ يعني: قعود لم يولد إلا منذ أشهر أو منذ أيام، أي: بعير صغير، ما يحملني هذا؟ فظن أن النبي ﷺ يستهزئ به، فقال: يا رسول الله! وما أصنع بولد ناقة؟ فقال ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟». يعني: أنا سأحملك على ولد ناقة، لكن ولد ناقة كبير، قد أصبح بعيرًا كبيرًا.

وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال لرجل: «يا ذا الأذنين» يمزح معه.

وأقبلت امرأة يومًا تشتكي إلى النبي ﷺ زوجها، فقال ﷺ: «زوجك الذي في عينه بياض»، فخافت المرأة فظنت أنه في عينه بياض، يعني: قد ابيضت عيناه، يعني: لا يراها، أصبح أعمى، فتغير وجهها ومضت إلى زوجها، حتى إذا دخلت إلى

البيت جعلت تفتح عينيه وتنظر، قال: ما بالك؟ قالت: إن النبي ﷺ قال: إن في عينك بياضًا، فقال: أو لم يقل لك أيضًا: إن بياضها أكثر من سوادها؟ يا امرأة، وهل يوجد أحد ليس في عينه بياض وسواد؟!

وكان عليه الصلاة والسلام إذا مازحه أحد تفاعل معه وضحك وتبسم، ما كان يتكبر على الضحك على ما يدخل به الناس السرور عليه.

دخل عمر على النبي ﷺ وكان عليه الصلاة والسلام قد غاضب نساءه لما أكثرن مطالبته بالنفقة، واحتبس في بيت عنهن، قال عمر وقد أراد أن يضحك النبي ﷺ لما رآه قد تغير وضاق صدره، قال: يا رسول الله! لو رأيتنا في مكة وكنا معشر قريش نغلب النساء، فكان إذا سألت أحدنا امرأته نفقة قام إليها فوجأ عنقها، فلما قدمنا المدينة يا رسول الله فإذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فالآن لو طلبت مني شيئًا لوجئت عنقي، فنظر النبي ﷺ إليه وتبسم.

تفاعل معه؛ عمر يريد أن يضحكه فضحك، ثم زاد عمر الكلام، فازداد تبسم النبي عليه الصلاة والسلام.

وتقرأ في أحاديث أنه: «تبسم حتى بدت نواجذه»، إذًا كان لطيف المعشر، كان أنيسًا في مجالسه عليه الصلاة والسلام، ولم يكن ﷺ يتصنع هذه الأخلاق أمام الناس، فإذا خلا بأهل بيته انقلب حلمه غضبًا، ولينه غلظًا، لا، ما كان بسامًا مع الناس عبوسًا مع أهله، ولا كريمًا مع الخلق إلا مع أمه وأبيه وإخوته وولده وزوجه، لا، بل كانت أخلاقه سجية يتعبد لله تعالى بها، كما يتعبد بصلاة الضحى وقيام الليل، كان يحتسب ابتسامته قربى، ورفقه عبادة، وعفوه ولينه حسنات، نعم من اعتبر حسن الخِلق عبادة تحلى بها في جميع أحواله، في سلمه وحربه، في جوعه وشبعه، في صحته ومرضه، بل في فرحه وحزنه.

كم من الزوجات بل والأمهات تسمع عن أخلاق زوجها أو ابنها، وسعة صدره وابتسامته وكرمه، لكنها لم تر من ذلك شيئًا، فهو في البيت يكون سيئ الخلق، ضيق الصدر، عابس الوجه، صخابًا لعانًا، بخيلاً منانًا، أما هو عليه الصلاة والسلام فكان يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» كما عند ابن ماجه.

انظر كيف كان ﷺ يتعامل مع أهله:

قال الأسود بن يزيد: سألت عائشة ﵂ ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله - يعني: يساعد أهله في عمل البيت - فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة».

وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يتعامل التعامل الحسن حتى مع أولاده الصغار، عند البيهقي عن أنس ﵁ قال: كنت يومًا جالسًا عند رسول الله ﷺ، وقد اضطجع النبي ﷺ على الأرض حتى سقط رداؤه عن منكبيه، كانوا إذا دخل أحدهم إلى بيته تساهل فخلع رداءه، كما أن أحدنا إذا دخل إلى بيته خلع عنه غطاء رأسه من غترة أو طاقية، وقد ينزع ثوبه أيضًا ويلبس ثوبًا آخر، يعني: الإنسان في داخل بيته يكون على حال غير حاله إذا كان خارجًا.

يقول أنس: فبينما النبي ﷺ قد اضطجع على الأرض وسقط رداؤه عن منكبيه، إذ أقبل الحسن أو الحسين، فأخذه النبي ﷺ فجعله على بطنه، وهو غلام صغير، ولعله قد لف عليه قطعة من خرقة أو نحوها، أول ما أجلسه النبي ﷺ على بطنه فتح الصغير رجليه لأجل أن يجلس على البطن، جعل النبي ﷺ يمازحه، الصغير ضحك ثم ضحك، ثم بال، أنس أول ما رأى البول قفز من مكانه؛ ليبعده عن صدر النبي ﷺ، أول ما رأى النبي ﷺ أنس مقبلاً كفه، قال: «لا تفزع ولدي لا تفزعه»، النبي ﷺ الآن مسرور أن الصغير يضحك وفرحان، ما يريد أن يقطع عليه هذا الفرح، والبول، قد بال وانتهى الآن يعني: سوف أغسله سواء كان قليلاً أو كثيرًا، أنا سوف أقوم أغسله، فما فيه مانع أن يكمل بوله ما دام قد بال، ما فيه مانع أن يكمله، فلا تقطع عليه بوله.

فجعل أنس ينظر، يقول أنس: وجعلت أرى بوله أسارير؛ يعني: خطوطًا عن جنبي بطن النبي ﷺ، ما أصبره عليه الصلاة والسلام! فلما انتهى الصغير من بوله وضحك، أخذه النبي ﷺ ووضعه على جنب، ثم قام عليه الصلاة والسلام وغسل هذا البول عنه، وانتهى الأمر. انظر إلى تحمله.

الآن لو أن أحدنا دخل إلى بيته فأقبل عليه أحد أولاده الصغار، أقبل يجري يا أبي يا أبي، فلما حملته أنت إليك لتقبله، ما أقول بال عليك، ولا أقول كان ثيابه

ملطخة ببول أو غائط، لا، بل شممت فيه رائحة، يعني: قد تغوط أو تبول وأمه لم تغير له، يعني: شممت فيه شيئًا من الرائحة، تجد أن بعضنا يسد أنفه ويقول: اذهب إلى أمك ويضعه على الأرض، والصغير مسكين ما يعقل شيئًا، لماذا لا يكون عندنا شيء من التحمل لمثل هؤلاء؟

وكان عليه الصلاة والسلام إضافة إلى ذلك كله، يعتني بمظهره ورائحته، قال أنس: كان ﷺ أزهر اللون، أن عرقه اللؤلؤ، وما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عنبر أطيب من رائحة النبي ﷺ، وكانت يده مطيبة كأنما أخرجت من جؤنة عطار.

جؤنة عطار هو: الإناء الذي يخلط فيه العطار أنواع الطيب، يقول أنس: كأن النبي ﷺ أقبل إلى هذا الإناء قبل أن يقسمه العطار في قوارير صغيرة وأدخل يده في هذا الإناء في هذا الطيب المختلط، ثم أخرجها.

وكان يعرف بريح الطيب إذا أقبل، وكان لا يرد طيبًا، وكان يهتم بمظهره ويأمر المسلمين بذلك.

عن أبي الأحوص عن أبيه ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وعلي ثوب دون - أي ثوب رديء - فقال ﷺ: «ألك مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من الإبل والبقر والغنم والخيل، فقال عليه الصلاة والسلام: «فإذا آتاك الله مالاً فليرى آثار نعمة الله عليك وأثر كرامته».

وقال جابر بن عبد الله ﷺ: أتانا رسول الله ﷺ زائرًا في منزلنا، فرأى رجلاً شعثًا، قد تفرق شعره، فقال: «أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره»، ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه».

وقال ﷺ: «من كان له شعر فليكرمه».

وكان يحض على حسن السمت، وجمال الشكل واللباس، وطيب الرائحة، وكان يردد قائلاً كما عند مسلم: «إن الله جميل يحب الجمال».

وإن تعجب تعجب من خلقه ﷺ حتى مع الحيوانات، سبحان الله! حتى مع الحيوانات!

نعم، كان في سفر فانطلق لحاجته، فرأى بعض الصحابة حمرة - يعني: حمامة

معها فرخان - فأخذ بعض فرخيها، فجاء بهما، يعني: ليعطيهما أولاده أو نحو ذلك، فجاءت الحمرة، فجعلت تحوم فوقهما ترفرف بجناحيها، أول ما رآها النبي ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها».

وفي يوم آخر أقبل ﷺ ماشيًا، فرأى رجلاً قد وضع قدمه على صفحة عنق شاة ليذبحها، ولا يزال يحد شفرته - يحد السكين - وهي تلحظ إليه ببصرها، فغضب ﷺ، قال: «أتريد أن تميتها موتتين، هلا حددت شفرتك قبل أن تضطجعها!».

وكان ﷺ من رأفته إذا توضأ وأقبلت عليه هرة أصغى الإناء - يعني أمال لها الإناء - فشربت من الماء حتى تروي ثم تذهب، ثم يكمل النبي ﷺ وضوءه من هذا الماء.

وعند مسلم أنه كان ﷺ كانت له ناقة تسمى العضباء، ثم إن نفرًا من المشركين أغاروا على إبل للمسلمين في جوانب المدينة، فذهبوا بهذه الإبل وكانت العضباء معهم وأسروا امرأة من المسلمين كانت ترعى غنمًا أخذوها مع هذه الإبل وأخذوا غنمها، استاقوها جميعًا، هرب المشركون بالمرأة والإبل والغنم، والنبي عليه الصلاة والسلام ما يدري ذهبوا شمالاً أو جنوبًا أو شرقًا أو غربًا، ذهب المشركون وكانوا إذا نزلوا أثناء الطريق أطلقوا الإبل لترعى، فإذا رعت أخذوها وربطوها بالليل - عقلوها - ثم ناموا وربطوا المرأة لما نزلوا في منزل بالليل، المرأة حاولت أن تفك حبالها من عليها، حاولت حتى فكت القيود من على نفسها، مسكينة ما تدري ماذا سيفعل بها هؤلاء الكفرة إذا ذهبوا بها إلى ديارهم.

قامت المرأة وأقبلت تفكر: الآن لو أردت أن أرجع إلى المدينة؛ يعني: فسوف يستيقظ المشركون ويلحقني أحدهم، إما على بعير أو على فرس، فيمسكني وقد يقتلني في مكاني لو هربت ماشية على قدمي، قد أضل في الطريق ولا أجد من يعنيني، فأقبلت إلى الإبل؛ لتحل عقال إحداها لأجل أن تأخذها لأجل أن تركبها لتصل إلى المدينة، أقبلت إلى بعير وجعلت تفك عقاله من عليه، أول ما بدأت تحل هذا العقال رغى البعير بأعلى صوته خوفًا، فالمرأة خافت أن يستيقظ أولئك فجعلت تمسح عليه حتى سكت، أقبلت إلى البعير الثاني فرغى بأعلى صوته - لا حول ولا قوة إلا بالله - أقبلت إلى الثالث، الرابع، تورطت، حتى وصلت إلى العضباء، ناقة

النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا ناقة ذلول ميسرة، فحركتها يمينًا ويسارًا، والناقة لم تصدر منها أي صوت، ركبت على الناقة بعد أن حلت عقالها أول ما استقرت المرأة فوق الناقة، قامت الناقة بسرعة، توجهت إلى المدينة وانطلقت تجري المرأة من شدة الفرح، رفعت يديها إلى السماء، وقالت: اللهم إن لك علي نذر إن أنجيتني عليها أن أنحرها، ومضت الناقة تمشي، قدموا المدينة، دخلت المرأة بالناقة ووصلت إلى بيتها، أخذ الصحابة مباشرة الناقة وهم يقولون: العضباء، ناقة النبي ﷺ، ذهبوا بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، المرأة سلمت على أهلها وأقبلت إلى النبي عليه الصلاة والسلام مسرعة، قالت: يا رسول الله! ادفع إلي الناقة - ولم؟ - قالت: إن لله علي نذر أن أنحرها، فقال ﷺ: «أن تنحريها إن أنجاك الله عليها - أن تنحريها - بئس ما جزيتيها»، ثم قال: «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم».

أيها الإخوة والأخوات ختامًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩،١٢٨].

هو ﷺ أحسن الهدي هديه، وأجمل الفعل فعله، وأحسن التعامل تعامله، فمن كان يشتاق للقائه ويرغب في محبته وصحبته فليقتف أثره وليسر على دربه، فإنه عليه الصلاة والسلام يشتاق إليك كما تشتاق إليه، استمع إليه وهو يقول: «وددت لو أني رأيت إخواني» قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».

نسأل الله أن يجعلنا من أحبابه، وأن يجعله يفرح بلقائنا كما نفرح بلقائه، وأن يحبنا إذا رآنا كما نحبه، اللهم اهدنا لأحسن الأقوال والأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، آمين آمين.

***

قم فأنذر

بداية..

كان موقفًا محرجًا ذلك اليوم لما دخلت على طلابي في الكلية.. كانت محاضرتي حول السيرة النبوية.. وقفت أمام الطلاب.. هم في السنة الثانية الجامعية.. أردت أن أقيس معلوماتهم؛ لأعرف المستوى الذي أخاطبهم من خلاله..

سألتهم: يا شباب.. أعطوني أسماء أربع زوجات من زوجات النبي ﷺ..

كان سؤالاً سهلاً طرحته بين أيديهم على استحياء.. كانوا أربعين طالبًا.. رفع أحدهم يده صارخًا: يا دكتور.. قلت: نعم..

قال: خديجة..

فعددت بأصابعي قائلاً: خديجة.. أحسنت..

رفع الثاني يده: يا دكتور.. عائشة..

قلت: ممتاز.. عائشة.. ثم سكتوا!!

سكتوا؟! الأربعون؟!! نعم سكتوا.. الأربعون!!

أخذت أطوف بنظري بينهم وأردد عبارات الأسف.. ألا تعرفون رسولكم.. ألا تعرفون أمهات المؤمنين (أفاااا)..؟!!

فقال أحدهم: هاه.. يا دكتور.. دكتور.. تذكرت إحدى زوجاته..

قلت: من..؟

قال: آمنة!! آمنة.. هي أم رسول الله ﷺ.. وقد ظن المسكين أنها زوجته..

قلت: آمنة!! هي أمه.. الله يخليك لأمك..!!

فسكت خجلاً.. وخيم الصمت عليهم.. والحزن علي.. فأراد أحدهم أن يزيل الكآبة عن الشيخ.. بجواب يبهج خاطره.. فقال: يا دكتور.. تذكرت اسم زوجة..

قلت: هاه.. من؟

قال: فاطمة!!

ضحك بعض الطلاب.. وظهر التعجب على آخرين.. وفريق ثالث.. لم يبد منهم أي تفاعل.. لأنهم يظنون الجواب صحيحًا.. يظنون فاطمة اسم زوجة من زوجاته ﷺ..

قلت له: فاطمة رضي الله عنها.. هي ابنته..

سكت الطالب.. بل سكت الجميع.. فقلت لهم: أخبروني يا شباب بأسماء خمسة من لاعبي فريق.. فريق.. وجعلت أتذكر فريقًا كرويًا أسألهم عنه.. وخشيت أن يجيبوا الجواب الصحيح فأصاب بخيبة أمل.. فلم أذكر فريقًا قريبًا.. وإنما تباعدت.. علهم يعجزون عن الجواب.. فقلت: من لاعبي فريق البرازيل؟

فتصايحوا: أنا.. أنا.. وجعلت الأسماء تهب علي هبوبًا.. برنالدو.. تيتو.. إلخ..

وأنا أعد بأصابعي.. فإذا أصابع يدي الأولى تمتلئ.. ثم تمتلئ أصابع يدي الثانية.. ثم أعود إلى الأولى.. فإذا هم قد عدوا خمسة عشر اسمًا!!

فسألتهم: الذي أعرف أن عدد لاعبي الفريق لا يتعدى أحد عشر لاعبًا.. فلماذا ذكرتم خمسة عشر؟

فقالوا: نحن ذكرنا لك أسماء اللاعبين الأساسيين.. والاحتياط..

والنكتة أنني لما كانوا يعدون أسماء اللاعبين.. كنت أعد بأصابعي وأعيد اسم اللاعب.. فإذا أخطأت في لفظ الاسم.. ضحكوا من (جهلي).. وعدلوا لي الاسم..

وصدق الله.. ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]

لا تعتذروا..

شعر طلابي بمقدار الحزن البادي على وجهي.. فبدءوا يقولون معتذرين: يا شيخ.. لا تلمنا.. فالإعلام يبرز هؤلاء فنحفظهم.. فقلت لهم: لا تعتذروا.. فالإعلام يملك أن يبرزهم.. لكنه لا يملك أن يلزمك بمتابعتهم.. وتتبع أخبارهم.. وحفظ أسمائهم.. وتذاكر قصصهم.. وجعلهم مادة لأحاديث مجالسنا.. ومواضيع منتدياتنا.. وألوان ألبستنا.. إلخ..

فكما يوجد قنوات للرياضة.. فهناك قنوات للثقافة.. والأخبار.. والشريعة.. والتعليم..

وقل مثل ذلك فيما تنشره الجرائد والمجلات ومواقع الإنترنت.. إلى غير ذلك..

فلا تعتذروا..

ومن الطريف أن أذكر.. أنني ألقيت محاضرة قبل أيام في إحدى القرى.. أؤكدك إحدى القرى.. كانت المحاضرة حول حياة النبي ﷺ.. ذكرت في آخر المحاضرة أهمية تعلم السيرة النبوية.. ثم ذكرت هذا الموقف الذي وقع بيني وبين طلابي..

كان أمامي بعض صغار السن الذي لا تتجاوز أعمارهم العشر سنين.. فقلت في أثناء سردي للموقف: ثم سألت طلابي: أعطوني أسماء أربع من زوجات النبي ﷺ.. وأكملت القصة.. والأمر عادي..

فلما قلت: ثم قلت لطلابي: هاه يا شباب.. أعطوني أسماء خمسة من لاعبي البرازيل.. تصايح الصغار الذين أمامي: أنا.. أنا.. أنا..

يظنوني أسأل الحاضرين!! فرأيتها فرصة لتسجيل موقف.. فالتفت إلى أحدهم.. وقلت: هاه يا؟؟.. أجب..

فقال: برنالدو.. و..

قلت: يكفي.. تدرس في أي صف يا؟؟

فقال بكل براءة: رابع باء..!!

فالتفتُ إلى الثاني وقلت: هاه؟

قال: تيتو..

قلت: وأنت في أي صف تدرس؟

فقال: خامس جيم..

كادت الدموع تنزل من عيني.. ورأيت بعض الناس.. دمعت عيناه.. قهرًا.. وحق له ذلك.. أدركت عندها أننا بحاجة إلى إبراز هذا الرسول.. الذي هو أحب إلينا من

أرواحنا..

فكان هذا الكتاب المختصر في نوع من السيرة قلما يطرق.. وهو الكلام عن معجزاته وآيات نبوته ﷺ.. فعسى الله أن ينفع بهذا الكتاب ويرفع.. آمين.. آمين..

أم لم يعرفوا رسولهم؟

اسمه: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب..

قبيلته: قرشي هاشمي..

كنيته: أبو القاسم..

أمه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب..

قبيلتها: قرشية زهرية..

ولادته: ولد ﷺ بمكة في دار عمه أبي طالب..

تاريخ ولادته: يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول من عام الفيل (الموافق ٢٠ إبريل / نيسان عام ٥٧١ للميلاد).

نشأ يتيمًا: توفي أبوه وأمه حامل به.. حيث ماتت أمه وعمره ٦ سنوات، فكفله جده عبد المطلب ثم مات جده.. فكفله من بعده عمه أبو طالب..

أرضعته حليمة بنت أي ذؤيب.. من قبيلة بني سعد.

زواجه: تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية، وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهي في الأربعين، ماتت خديجة رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين..

تزوج بعد خديجة بقية نسائه الطاهرات.. فتزوج سودة بنت زمعة رضي الله عنها.. ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.. ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.. ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث رضي الله عنها.. ثم تزوج أم سلمة، واسمها هند بنت أمية رضي الله عنها.. ثم تزوج زينب بنت جحش رضي الله عنها.. ثم تزوج جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.. ثم تزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.. ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.. ثم تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها.وهي آخر

من تزوج رسول الله ﷺ..

أولاده: ثلاثة ذكور.. وأربع إناث..

ولدت له خديجة: القاسم.. وعبد الله.. وقد ماتا صغيرين.. وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر.. وولدت له جاريته مارية القبطية إبراهيم.. ومات صغيرًا أيضًا..

بناته: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.. وهؤلاء كلهن من خديجة..

توفي جميع أولاده في حياته، إلا ابنته فاطمة..

بعثه الله تعالى رسولاً بوحي نزل عليه وهو يتعبد في غار حراء..

هو آخر الأنبياء والرسل.. وهو رسول إلى الناس أجمعين..

كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

وأنزل عليه في رمضان أول آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق:١] وتتابع نزول القرآن عليه بواسطة جبريل ؑ..

بدأ دعوته سرًا مدة ثلاثة سنوات.. ثم أمره الله أن يجهر بها وينذر قومه، فأعلن الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الأوثان.

لقي صدًا وعنتًا من كبار قريش وصناديدهم وأوذي أصحابه الكرام.. فأذن ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة.. وهي أثيوبيا اليوم.. فهاجر إليها ثلاثة وثمانون رجلاً عدا النساء والأولاد.. ثم أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها مع أبي بكر في السنة الأولى الهجرية الموافق سنة ٦٢٢م..

جرت بينه وبين قريش غزوات انتهت بفتح مكة سنة ثمان للهجرة.

دانت له العرب وأتته وفودها تعلن إسلامها سنة ٩ و١٠ للهجرة.

وفي سنة عشر للهجرة حج حجة الوداع وعاد إلى المدينة.

ثم توفي فيها في ١٢ ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الموافق ٨ يونيو / حزيران سنة ٦٣٢م)..

من أهم الأحداث في حياته ﷺ..

الإسراء والمعراج: وكان قبل الهجرة بثلاث سنين، وفيه فرضت الصلاة..

السنة ١هـ: الهجرة.. وبناء المسجد.. وبداية تأسيس الدولة.. وفرض الزكاة..

السنة ٢هـ: غزوة بدر الكبرى..

السنة ٣هـ: غزوة أحد..

السنة ٤ هـ: غزوة يهود بني النضير..

السنة ٥هـ: غزوة بني المصطلق.. وغزوة الأحزاب.. وغزوة يهود بني قريظة..

السنة ٦هـ: صلح الحديبية..

السنة ٧ هـ: غزوة خيبر.. وفي هذه السنة اعتمر النبي ﷺ والمسلمون أول عمرة في الإسلام..

السنة ٨ هـ: غزوة مؤتة بين المسلمين والروم.. وفتح مكة.. وغزوة حنين ضد قبائل هوازن وثقيف..

السنة ٩ هـ: غزوة تبوك.. وهي آخر غزواته ﷺ.. وفي هذه السنة دخل الناس في دين الله أفواجًا.. وسمي هذا العام عام الوفود.

السنة ١٠هـ: حجة الوداع.. وحج فيها مع النبي ﷺ أكثر من مائة ألف مسلم..

السنة ١١هـ: وفاة رسول الله ﷺ..

وقد اخترت في هذا الكتاب أن نسبح في بحر معجزاته وآيات نبوته ﷺ.وهي كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية تزيد على ألف معجزة.. لكني أذكر منها ما تيسر..

آيات الأنبياء..

آيات الأنبياء ومعجزاتهم.. خصهم الله بها تصديقًا على رسالته.. وتكون المعجزات خارجة عن قدرة البشر.. ومعجزة كل رسول موافقة للأغلب من أحوال عصره..

فموسى عليه السلام.. بعث في عصر السحرة.. فلق الله له البحر.. وقلب العصا حية..

أما عيسى عليه السلام.. فبعث في عصر الطب وأنواع العلاج.. فخصه الله بإبراء المرضى.. وإحياء الموتى..

أما محمد ﷺ.. فقد جمع الله له من أنواع الآيات.. ما بهر البريات.. فنزل عليه القرآن.. الذي أعجز الفصحاء.. وغلب البلغاء.. وتبلد فيه الشعراء..

قال الله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١،٥٠].

ولكثرة دلائل نبوة محمد ﷺ.. لم يملك أحد أن يكذب بها إلا من عاند واستكبر.. بل حتى الكفار الذين حاربوه.. وضيقوا عليه.. هم مصدقون بنبوته في قلوبهم.. ولكن يمنعهم الكبر والغي من اتباعه..

أو ما سمعت أبا طالب يقول:

والله لـن يـصلوا إليـك بجمعهـم	حتـى أوسـد في التراب دفينـا
ودعـوتني وعلمـت أنـك ناصـحي	فلقـد صـدقت وكنـت فينـا أمينـا
وعرضـت دينـًا قـد عرفـت بأنـه	مـن خـير أديـان البريـة دينـا
لولا الملامة أو حـذار مسبـة	وجدتـني سمحـًا بـذاك مبينـا

وحتى اليهود.. كانوا يعلمون أنه ﷺ هو النبي الحق الذي يجب عليهم اتباعه.. ولكنهم تكبروا عن ذلك..

كل شيء شهد له ﷺ بالنبوة.. حتى الأشجار.. والأحجار.. والحيوانات..

ذئب يتكلم:

في أوائل بعثة النبي ﷺ.. كان أحد رعاة الغنم.. يرعى غنمه في بعض بوادي المدينة.. فعدا الذئب على شاة منها.. فأخذها وعدا هاربًا.. فطلبه الراعي فانتزعها منه.. فولى الذئب هاربًا.. ثم وقف فجأة.. وأقعى الذئب على ذنبه.. ثم التفت إلى الراعي.. وقال: ألا تتقي الله!! تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي؟!

فقال الراعي: يااااا عجبًا!! ذئب مقع على ذنبه.. يكلمني كلام الإنس..!!!

فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟

أعجب من هذا.. رجل في النخلات بين الحرتين.. يخبركم بما مضى.. وما هو كائن بعدكم.. يعني: رسول الله ﷺ.. ومضى الذئب إلى شأنه!! فأقبل الراعي يسوق

غنمه.. حتى دخل المدينة.. وجمع غنمه في زاوية من زواياها.. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره.. فأمر رسول الله ﷺ أحد الصحابة فنادى في الناس: الصلاة جامعة..

فاجتمع الناس في المسجد.. لا يدرون لماذا جمعهم النبي ﷺ.. فخرج النبي عليه الصلاة والسلام عليهم.. فإذا هم جالسون.. منصتون بين يديه.. والأعرابي راعي الغنم جالس بينهم..

فقال ﷺ للأعرابي: «أخبرهم».. فتكلم الأعرابي.. وأخبرهم بخبر الذئب..

كان كلام الأعرابي غريبًا.. والناس يستمعون.. والنبي ﷺ ساكت.. فلما انتهى الراعي من كلامه.. قال رسول الله ﷺ: «صدق»..

«والذي نفس محمد بيده.. لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس.. ويكلم الرجل عذبة سوطه.. وشراك نعله.. ويخبره فخذه ما أحدث أهله بعده».

فهذا من آيات نبوته ﷺ أن شهدت له أنواع المخلوقات بالنبوة..

إخباره ببعض المغيبات:

إخباره ﷺ بالمغيبات أنواع.. فأحيانًا يخبر بغيب لم يقع بعد.. فيقع على ما أخبر به ﷺ تمامًا..

من ذلك.. أنه: بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.. انطلق سعد بن معاذ إلى مكة معتمرًا.. فنزل على أمية بن خلف.. وكان بينهما ود وصداقة في الجاهلية.. ولم يكن وقع بين المسلمين والكفار حروب بعد.. فكان أمية إذا سافر إلى الشام.. نزل عند صديقه سعد بن معاذ في المدينة.. وارتاح أيامًا ثم واصل سفره.. وكذلك كان سعد.. يأتي مكة.. فينزل عند أمية..

لما نزل سعد عند أمية.. قال له: يا أمية.. انظر لي ساعة خلوة.. لعلي أن أطوف بالبيت..

فقال أمية: انتظر حتى إذا انتصف النهار.. وغفل الناس.. انطلقت.. فطفت.. فلما اشتدت شمس النهار.. وأوى الناس إلى بيوتهم.. خرج أمية بسعد.. متوجهًا به إلى البيت الحرام.. الكعبة..

في أثناء الطريق لقيهما رأس الكفر أبو جهل.. نظر أبو جهل إلى سعد بن معاذ

فلم يعرفه.. فسأل أمية.. قال: يا أبا صفوان!! من هذا معك؟

قال أمية: هذا سعد بن معاذ.. اليثربي - أي: القادم من يثرب وهي المدينة.. فتذكر أبو جهل أن أهل يثرب.. هم الذين ناصروا النبي ﷺ.. وقبلوه مهاجرًا إليهم.. فغضب وقال: ألا أراك تطوف بالبيت آمنًا.. وقد آويتم محمدًا والصباة معه - والصباة: هم الذين غيروا دينهم..

فسكت سعد.. فقال أبو جهل: وزعمتم أنكم تنصرونهم.. وتعينونهم.. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا..

سعد سيد في قومه.. ولا يرضى أن يهان بمثل هذا الكلام.. فغضب وقال: لئن منعتني من هذا.. لأمنعنك ما هو أشد عليك منه.. أمنعك من طريقك إلى الشام..

كان سعد يعلم أن أبا جهل تاجر له قوافل تذهب إلى الشام، ولا بد أن تمر بالمدينة.. فهدده أن يقطع الطريق عليها..

ثار أبو جهل وسعد.. وتخاصما.. فتحير أمية.. لمن ينتصر؟ فهذا سيد قومه في المدينة.. وهذا سيد قومه في مكة.. فمالت نفسه مع أبي جهل.. فقال لسعد: يا سعد.. لا ترفع صوتك على أبي الحكم.. فإنه سيد أهل الوادي..

فقال سعد رضي الله عنه: وأنت دعنا منك يا أمية.. فوالله سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك.. ففزع أمية وقال: يقتلني بمكة أم في غيرها؟!

قال سعد: لا أدري.. فاضطرب أمية وفزع فزعًا شديدًا.. وولى وهو يقول.. والله ما يكذب محمد أبدًا.. ثم رجع أمية إلى أهله.. فدخل على زوجته.. وهو ينتفض وقال لها: يا أم صفوان.. ألم تسمعي ما قال لي سعد؟!!

قالت: وما قال لك؟

قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنه قاتلي..

ففزعت وقالت: بمكة؟

قال: لا أدري..

فقالت: والله ما يكذب محمد..

فقال أمية: والله لا أخرج من مكة أبدًا.. ومضت الأيام.. فأقبلت لقريش قافلة من الشام.. فخرج ﷺ ليعترض طريقها..

فأرسل قائد القافلة أبو سفيان إلى قريش في مكة يستنصرهم للخروج للقتال والدفاع عن القافلة.. ثار أهل مكة.. وقام أبو جهل يستنصر الناس.. ويستحثهم للخروج للقتال.. ويقول: أدركوا عيركم.. أموالكم..

بدأ الناس يتجهزون.. منهم من يحد سيفه.. ومن يجمع متاعه.. ومن يجهز فرسه.. كل أهل مكة تجهزوا للخروج للقتال.. إلا واحد.. أمية بن خلف.. كره أمية أن يخرج.. وخاف على نفسه.. وجلس في ظل الكعبة.. فعلم أبو جهل أن أمية سيتخلف عن الخروج..

فأتاه فقال: يا أبا صفوان.. إنك متى يراك الناس قد تخلفت.. وأنت سيد أهل الوادي.. تخلفوا معك.. فأبى أمية أن يخرج.. فهو يعلم أن محمدًا ﷺ.. لا يكذب أبدًا..

أبو جهل كافر حقير.. لكنه ذكي!! ابتكر أبو جهل طريقة يستحث بها أمية للخروج..

فماذا فعل؟! أخذ أبو جهل مبخرة ووضع فيها جمرًا وطيبًا.. ثم أقبل بهذا البخور إلى أمية وهو جالس بين قومه في ظل الكعبة.. وقال: خذ تطيب.. يا أبا صفوان.. تطيب إنما أنت من النساء.. أي: ما دام أنك لن تخرج للقتال فمعناه أنك ستجلس مع النساء ونحن نخرج نقاتل عنك.. فخذ تطيب.. كما تتطيب النساء!!

آآآه.. ما أخبث أبا جهل!!! يعلم من أين تؤكل الكتف!!

ما كاد أمية يسمع هذا الكلام.. حتى ثار.. وقام وهو يقول: أما إذا غلبتني.. فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.. ثم أقبل على بيته وقال: يا أم صفوان.. جهزيني..

فقالت: يا أبا صفوان.. قد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي!!

قال: لا.. وما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا.. وأعود..

كانت خطة أمية أن يسير مع الجيش.. بعض الطريق ثم يتخفى عنهم.. ويعود إلى مكة..

وفعلاً.. خرج أمية مع الجيش.. وجعل لا ينزل الجيش منزلاً أثناء الطريق.. لنوم أو طعام.. إلا ربط بعيره بجانبه.. استعدادًا للهرب..

لكن أبا جهل كان بالمرصاد.. فلم يزل يسير مع الجيش.. حتى وصل موقع معركة بدر.. وقتله الله بأيدي المسلمين.. وتحقق ما أخبر به ﷺ من أن المسلمين يقتلون أمية..

خطة لقتله ﷺ!!

وأحيانًا يخبر ﷺ بشيء وقع.. لكنه وقع في موضع غائب عنه.. كأن يخبر بشيء وقع في مكة.. أو فارس.. أو اليمن..

ومن ذلك: بعد معركة بدر وهزيمة مشركي قريش فيها.. رجع كفار قريش إلى مكة.. وقد قتل منهم من قتل.. وأسر من أسر.. كانت مصيبة عظيمة على قريش..

أقبل عمير بن وهب.. إلى الكعبة فرأى صفوان بن أمية جالسًا في الحجر في ظل الكعبة.. فجلس عمير إليه.. وجعلا يتبادلان الآهات.. فكلاهما مصاب.. عمير ابنه مأسور.. وصفوان أبوه مقتول.. فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر..

قال عمير: أجل.. والله ما في العيش خير بعدهم.. ثم تحمس عمير فقال: لولا دين علي.. لا أجد له قضاء.. وعيال لا أدع لهم شيئًا.. لرحلت إلى محمد فقتلته.. إن ملأت عيني منه.. فإن لي علة أعتل بها إن دخلت المدينة.. أقول: قدمت على ابني أفدي هذا الأسير..

فرح صفوان بقوله.. وشعر أنها فرصة للانتقام.. فقال: علي دينك.. فأنا أقضيه.. وعيالك أسوة عيالي في النفقة.. فاذهب إلى محمد فاقتله..

شعر عمير أنه أوقع نفسه في فخ.. ولكن لا سبيل للتراجع..

قام صفوان مسرعًا وجهز لعمير راحلة.. ودفع إلى عمير سيفًا مصقولاً مسمومًا.. وودع عمير أهله.. ومضى يسير مغادرًا مكة، وقد تكون نظراته إلى بيوتها وجبالها هي النظرات الأخيرة..

وصل عمير إلى المدينة.. توجه إلى المسجد.. نزل عند بابه.. وعقل راحلته.. وتناول سيفه المسموم.. وعلقه في عنقه.. ودخل المسجد.. وتوجه إلى رسول الله

ﷺ.. رآه عمر.. فصاح: هذا عدو الله.. الذي حرش بيننا يوم بدر..

انطلق عمر ليمنعه من الوصول إلى رسول الله.. لكنه وصل..

وقف عمير بين يدي النبي ﷺ.. وكان خطته.. أن يغافل النبي ﷺ.. ويضربه فجأة بالسيف ويقتله.. ثم لا يهمه ما يقع بعد ذلك.. فقد قضى دينه.. وأمن عياله..

مسكين.. كان يظن المسألة سهلة إلى هذه الدرجة!!

نظر النبي ﷺ إلى عمير.. ورأى السيف معه.. فقال: «ما أقدمك؟».

كان عمير متوقعًا هذا السؤال.. وبالتالي فالجواب جاهز.. قال: ابني أسير عندكم وجئت أفتديه.. ففادونا في أسرائنا.. فإنكم العشيرة والأهل..

فقال ﷺ: «فما بال السيف في عنقك؟»

فعلاً!! من جاء ليفتدي أسيرًا يعلق في عنقه كيس مال.. لا سيفاً..

فقال عمير: قبحها الله من سيوف.. فهل أغنت عنا شيئًا يوم بدر..!! إنما نسيته في عنقي حين نزلت..

فقال له رسول الله ﷺ: «اصدقني.. ما أقدمك؟».

قال: ما قدمت إلا في أسيري..

فقال ﷺ: «فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟».

ففزع عمير.. وقال: ماذا شرطت؟!!

قال ﷺ: «تحملت له بقتلي.. على أن يعول بيتك.. ويقضي دينك.. والله حائل بينك وبين ذلك»..

انتفض عمير.. وعجب كيف علم النبي ﷺ بخبره مع صفوان! فقال: أشهد أنك رسول الله.. وأن لا إله إلا الله.. كنا نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء.. وهذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر.. لم يطلع عليه أحد غيري وغيره.. فما أخبرك به إلا الله..

ودخل عمير في الإسلام.. وصار في خيار المسلمين..

فهذا من آيات نبوة محمد ﷺ التي رآها عمير فدخل في الإسلام بسببها..

الشاة المسمومة!!

وكذلك ما وقع منه ﷺ مع اليهود لما أرادوا قتله.. فإنه ﷺ وقعت له غزوة إلى اليهود في خيبر.. فحاصرهم.. حتى طال الحصار.. ثم استسلموا.. ودخل عليه الصلاة والسلام فاتحًا.. فأقبلت امرأة يهودية حاقدة.. وطبخت شاة.. وشوتها.. وجعلت فيها سمًّا.. ومن حقدها سألت: أي الشاة أحب إلى محمد؟ فقيل لها: الذراع.. فزادت السم في الذراع.. فلما استقر ﷺ مع بعض أصحابه في خيبر.. أقبلت اليهودية بطعامها.. ووضعته بين يدي النبي ﷺ وأصحابه.. وزعمت أنه هدية لهم!!

عجبًا!! هل رأيت أحدًا يهدي الموت؟!

كان الصحابة جائعين.. وكذلك كان ﷺ.. حصار طويل.. وزاد قليل.. وحر وتعب.. ثم شاة مشوية!!

وضع الصحابة أيديهم آكلين.. ورسول الله ﷺ أخذ قطعة من الذراع فرفعها إلى فمه الطاهر.. ونهش من لحمها نهشة.. وفجأة صاح بأصحابه.. أن يتوقفوا عن الأكل.. فتوقفوا.. مندهشين.. ثم قال ﷺ: «اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود».

فجمعوهم له.. فقال ﷺ: «إني سائلكم عن شيء.. فهل أنتم صادقي عنه؟».

قالوا: نعم..

فقال ﷺ: «من أبوكم؟».

كان لهذه القبيلة من اليهود جد.. لا يفتخرون بالانتساب إليه.. فيدعون الانتساب إلى جد آخر.. فقالوا: أبونا فلان..

فقال ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان..».

قالوا: صدقت..

قال: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟».

فقالوا: نعم.. يا أبا القاسم.. وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا..

فقال لهم: «من أهل النار؟».

قالوا: نكون فيها يسيرًا.. ثم تخلفونا فيها..

فقال ﷺ: «اخسئوا فيها.. والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء.. إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.. يا أبا القاسم..

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟».

قالوا: نعم.. نعم..

قال: «ما حملكم على ذلك؟».

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا.. نستريح منك.. وإن كنت نبيًّا لم يضرك.. ولكن!! من أخبرك؟ فرفع ﷺ الذراع، وقال: «أخبرتني هذه الذراع».

فصلوات ربي وسلامه عليه.. حتى الذراع أنطقها الله.. لما لم ترد أن تضر نبيه ﷺ..

ربي قتل ربكما!!

ومن إخباره ﷺ أيضًا بالمغيبات: أنه ﷺ بعث عبد الله بن حذافة رضي الله عنه إلى كسرى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام.. وصل الكتاب إلى كسرى.. وهو ملك عظيم في قومه.. يملك فارس كلها.. إيران.. وأفغانستان.. وباكستان.. وغيرها.. فلما قرأ كسرى الكتاب غضب.. ومزق الكتاب.. وقال: يكتب إلي بهذا الكتاب وهو عبدي..!!

كان كسرى متكبرًا متغطرسًا.. فلم يكتف بتمزيق الكتاب.. لا وإنما كتب إلى أمير اليمن باذان: بلغني أن في أرضك رجلاً تنبأ.. فابعث إليه من عندك رجلين جلدين فليربطاه وليأتياني به.. فبعث أمير اليمن باذان رجلين.. ليربطا النبي ﷺ ويحضراه إليه!!!

مساكين!!

خرج الرجلان حتى قدما المدينة.. فدخلا على رسول الله ﷺ.. فقالا له: انطلق معنا.. وإن أبيت فكسرى مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.. فنظر إليهما النبي

ﷺ.. فإذا هما قد حلقا لحاهما وأبقيا شواربهما.. فكره النظر إليهما.. وقال: «ويلكما، من أمركما بهذا؟».

قالا: أمرنا بهذا ربنا.. يعنيان كسرى..

فقال ﷺ: «لكن ربي ﷻ.. أمرني بإعفاء لحيتي وبقص شاربي». ثم قال لهما بكل هدوووء: «ارجعا حتى تأتياني الغد».

وجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ.. أن الله سلط على كسرى ابنه فقتله.. فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما: «إن ربي غضب على ربكما فقتله؛ فدمه في نحره ساخن الساعة». يعني: مات الآن..!! فلا يزال دمه يجري منه حارًّا..

فاستعظما الأمر.. وقالا له: هل تدري ما تقول؟! أنكتب بهذا عنك؟ أنخبر الملك به؟

فقال ﷺ بكل ثقة: «نعم، أخبراه ذلك عني».

وقولا له: «إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر».

وقولا له: «إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء».

فخرج الرجلان من عنده ﷺ.. يخبان السير إلى اليمن.. حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر.. فإذا هو لم يبلغه ما وقع في فارس لبعد المسافة.. فقال باذان: والله ما هذا بكلام ملك.. وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول.. ولننظرن ما قد قال.. فلئن كان ما قد قال حقًّا فإنه لنبي مرسل.. وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا..

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه بن كسرى.. يخبره أن صار الملك.. ويأمره بالطاعة.. فنظر باذان في وقت مقتل كسرى.. فإذا هي الساعة التي أخبر النبي ﷺ بها الرجلين.. فقال باذان: إن هذا الرجل لرسول الله.. ثم أسلم باذان لله تعالى.. وأسلم أهل اليمن.

وعليكم السلام.. خبيب..!!

قدم على رسول الله ﷺ بعد معركة أحد قوم من قبيلتي عضل والقارة.. فقالوا:

يا رسول الله.. إن فينا إسلامًا.. فابعث معنا نفرًا من أصحابك.. يفقهوننا في الدين.. ويقرئوننا القرآن.. ويعلموننا شرائع الإسلام..

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة من خيار أصحابة.. وهم:

مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق رضي الله عنهم..

فخرجوا مع القوم.. وكانوا يمرون بقبائل كافرة.. ويتخفون.. حتى وصلوا إلى موضع اسمه (الرجيع).. وهو قريب من قبيلة هذيل.. فسمعت بهم قبيلة هذيل.. فخرج إليهم مائة فارس من هذيل.. فاقتصوا آثارهم.. حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة.. فقالوا: هذا تمر يثرب.. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم.. فلما أدركوهم.. هجموا عليهم.. فلجأ الصحابة إلى هضبة..

فأقبل القوم فأحاطوا بهم.. وحاولوا الصعود إليهم.. فلم يقدروا.. فقالوا للصحابة: لكم العهد والميثاق.. إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً..

فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر.. ثم رفع بصره إلى السماء وقال: اللهم أخبر عنا رسولك ﷺ.. فثار الهذليون.. وقاتلوا الصحابة وجعلوا يرمونهم بالنبل.. حتى قتلوا عاصمًا وأصحابه.. وبقي خبيب بن عدي.. وزيد بن الدثنة.. وعبد الله بن طارق.. فناداهم القوم.. وأعطوهم العهد والميثاق.. فاستسلموا لهم..

فنزل الصحابة إليهم.. فلما استمكنوا منهم.. حلوا أوتار قسيهم.. فربطوهم بها..

فقال عبد الله بن طارق: هذا أول الغدر.. وأطلق يده من الرباط.. وأخذ سيفه.. وتأخر عنهم.. ورفع السيف.. وكان شجاعًا قويًا.. فلم يجرءوا على الاقتراب منه.. فأخذوا يرمونه بالحجارة.. حتى مات رضي الله عنه.. وانطلقوا بخبيب.. وزيد.. حتى باعوهما بمكة..

فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر.. وكان خبيب قد قتل الحارث في معركة بدر.. وأما زيد.. فابتاعه صفوان بن أمية.. ليقتله عوضًا عن أبيه الذي قتله المسلمون في معركة بدر.. ودفعه صفوان إلى عبد له اسمه نسطاس.. ليقتله..

خرج به نسطاس من مكة ليقتله.. واجتمعت قريش.. لتراه.. فيهم أبو سفيان بن حرب.. فقال له أبو سفيان - حين رأى زيدًا مربوطًا ليقتل -: أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمدًا الآن عندنا.. مكانك نضرب عنقه.. وأنك في أهلك؟

فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه.. تصيبه شوكة تؤذيه.. وإني جالس في أهلي..

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا.. كحب أصحاب محمد محمدًا ﷺ.. ثم قتله نسطاس.. فرضي الله عن زيد..

وأما خبيب بن عدي.. فحبسوه أيامًا.. فرأوا منه عجبًا!!

قالت ماوية وهي جارية عندهم: حبسوا خبيبًا في بيتي.. فلقد اطلعت عليه يومًا.. وإن في يده عنقودًا من عنب كبير مثل رأس الرجل.. يأكل منه..!! وما أعلم في وقته في أرض الله عنبًا يؤكل..

وقال لي حين أجمعوا على قتله: ابعثي إلي بحديدة - سكين أو موسى - أتطهر بها قبل القتل.. أراد أن يزيل بها بعض الشعر من جسده..

قالت: فناولت غلامًا لي سكينًا حادة.. فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيت فأعطه إياها..

فلما ذهب الغلام.. ندمت وقلت: ماذا صنعت!! أصاب والله الرجل ثأره.. يقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل.. فلما ناوله السكين.. أخذها من يده.. ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلي.. ثم خلى سبيله..

ثم خرجوا بخبيب ليصلبوه.. فلما عاين الموت.. قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين..

قالوا: دونك فاركع.. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما.. ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة..

فكان خبيب رضي الله عنه أول من سن للمسلمين هاتين الركعتين عند القتل..

ثم رفعوه على خشبة.. فلما أوثقوه.. رفع بصره إلى السماء وقال: اللهم إنا قد

بلغنا رسالة رسولك.. فبلغه الغداة ما يصنع بنا.. ثم دعا عليهم فقال: «اللهم أحصهم عددًا.. واقتلهم بددًا.. ولا تغادر منهم أحدًا». ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قتلوه.. هذا ما حدث في مكة..

وعلى بعد أكثر من أربعمائة ميل.. في المدينة.. وفي اللحظة نفسها التي استشهد فيها خبيب.. كان التأثر باديًا على رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه.. وهو يهم أن يخبرهم بخبر إخوانهم الذين أرسلهم دعاة.. فإذا هم شهداء.. فقال ﷺ: «وعليك السلام خبيب.. وعليك السلام»، ثم قال: «خبيب.. قتلته قريش».

إخباره ﷺ فتنة عثمان رضي الله عنه..

كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه شديد المحبة للنبي ﷺ.. توضأ في بيته يومًا ثم خرج متوجهًا إلى رسول الله ﷺ.. عازمًا على ملازمة النبي ﷺ ذلك اليوم.. وخدمته.. توجه أبو موسى إلى المسجد.. فسأل عن النبي عليه الصلاة والسلام..

فقالوا: خرج.. ووجه ها هنا..

فخرج أبو موسى على إثره.. يسأل عنه.. حتى دخل بستانًا.. فإذا رسول الله ﷺ قد قضى حاجته وتوضأ.. ثم جاء ﷺ فجلس على حافة البئر.. وكشف عن ساقيه.. ودلاهما في البئر.. سلم عليه أبو موسى.. ثم انصرف فجلس عند الباب..

وقال: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم.. وبعد وقت يسير.. جاء أبو بكر رضي الله عنه فدفع الباب..

قال أبو موسى: من هذا؟

قال: أبو بكر..

قال: على رسلك.. ثم ذهب.. فقال: يا رسول الله.. هذا أبو بكر يستأذن..

فقال ﷺ: «ائذن له، وبشره بالجنة».

فأقبل أبو موسى فقال لأبي بكر: ادخل.. ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة..

فدخل أبو بكر مستبشرًا.. وجلس عن يمين رسول الله ﷺ.. ودلى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ.. وكشف عن ساقيه.. وأخذا يتحدثان.. فرجع أبو موسى.. فجلس.. وهو يتمنى أن يأتي أخوه لعله أن يدخل في الرحمة.. فيبشر بالجنة.. ويقول في نفسه: قد تركت أخي يتوضأ.. ويلحقني.. فإن يرد الله به خيرًا يأت به.. فبينما هو كذلك.. فإذا إنسان يحرك الباب..

قال: من هذا؟

قال: عمر بن الخطاب..

قال: على رسلك..

فمضى أبو موسى إلى رسول الله ﷺ.. فسلم عليه.. فقال: هذا عمر بن الخطاب يستأذن.. فقال ﷺ: «ائذن له، وبشره بالجنة».

فرجع إلى الباب.. وفتحه.. وقال: ادخل.. وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة.. فدخل.. وجلس مع رسول الله ﷺ على حافة البئر عن يساره.. ودلى رجليه في البئر.. فرجع أبو موسى إلى الباب.. وذهنه مشغول بأمر أخيه.. وقال في نفسه: إن يرد الله بفلان خيرًا.. يأت به..

فبينما هو كذلك.. إذ جاء إنسان يحرك الباب.. فقال: من هذا؟

فقال: عثمان بن عفان..

قال: على رسلك.. فذهب إلى رسول الله ﷺ فأخبره..

فأجابه ﷺ كما أجاب عن أبي بكر وعمر.. حيث قال: «ائذن له، وبشره بالجنة».

لكنه ﷺ زاد كلمة عن عثمان فقال: «وبشر بالجنة على بلوى تصيبه».

نعم.. على بلوى تصيبه.. وكأنه عليه الصلاة والسلام - يعني: الفتنة التي وقعت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه.. والتي كانت سببًا في مقتله واستشهاده رضي الله عنه..

وإذا بالنبي ﷺ يخبر عثمان بأمر سيقع له بعد أكثر من عشرين سنة..

رجع أبو موسى إلى عثمان.. وهو يحمل له بشرى.. وتهديدًا.. فقال له:

ادخل.. وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة.. على بلوى تصيبك..

ترددت عبارة: على بلوى تصيبك.. في ذهن عثمان مرارًا.. فقال بكل يقين: الله المستعان.. ثم دخل عثمان.. فجلس على حافة البئر.. مواجهًا للنبي ﷺ وأبي بكر وعمر..

وتمر السنين.. ويتولى أبو بكر.. ثم يموت ويمضي إلى الجنة.. ثم يتولى عمر.. ثم يقتل وهو يصلي الفجر ويمضي إلى الجنة.. ثم يتولى عثمان.. فتقع الفتن عليه.. والبلايا في آخر حياته.. ويتعب.. ويتألم.. وفي آخر الأمر يقتل وهو يقرأ القرآن.. ويمضي إلى الجنة..

تسألني.. أم أخبرك؟!

قال ابن عمر رضي الله عنه: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في مسجد منى.. فأتاه رجل من الأنصار.. ورجل من قبيلة ثقيف.. فسلما.. ثم قالا: يا رسول الله.. جئنا نسألك..

فقال ﷺ: «إن شئتما أن أخبركما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك فعلت».

فقالا: أخبرنا يا رسول الله..

فقال الثقفي للأنصاري: سل..

فقال الأنصاري: أخبرني يا رسول الله..

فقال ﷺ: «جئتني تسألني عن: مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام.. وما لك فيه..؟

وعن ركعتيك بعد الطواف.. وما لك فيهما..؟ وعن طوافك بين الصفا والمروة.. وما لك فيه..؟ وعن وقوفك عشية عرفة.. وما لك فيه..؟ وعن رميك الجمار.. وما لك فيه..؟ وعن حلقك رأسك.. وما لك فيه..؟ وعن طوافك بالبيت بعد ذلك.. وما لك فيه..؟ مع الإفاضة..؟».

فقال الأنصاري: والذي بعثك بالحق.. لعن هذا جئت أسألك..

فقال ﷺ: «فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفًّا ولا ترفعه.. إلا كتب الله لك به حسنة.. ومحا عنك خطيئة..

وأما ركعتاك بعد الطواف.. كعتق رقبة من بني إسماعيل..

وأما طوافك بالصفا والمروة بعد ذلك كعتق سبعين رقبة..

وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تبارك وتعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة.. يقول: عبادي جاءوني شعثًا من كل فج عميق.. يرجون جنتي.. فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل.. أو كقطر المطر.. أو كزبد البحر.. لغفرتها.. أفيضوا عبادي مغفورًا لكم.. ولمن شفعتم له..

وأما رميك الجمار.. فلك بكل حصاة رميتها.. كبيرة من الموبقات..

وأما نحرك.. فمدخور لك..

وأما حلاقك رأسك.. فلك بكل شعرة حلقتها حسنة.. وتمحى عنك بها خطيئة..

وأما طوافك بالبيت بعد ذلك.. فإنك تطوف ولا ذنب لك..

يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك.. فيقول: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى». فهذا الخبر أيضًا من آيات نبوته عليه الصلاة والسلام..

رحم الله أبا ذر!!.. لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك.. كان الطريق شاقًّا.. والحر شديدًا.. وجعل بعض الناس يتخلف.. والنبي ﷺ لا يشدد على من تخلف.. فإذا قيل: يا رسول الله.. تخلف فلان.. يقول: «دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

خرج ﷺ وأصحابه.. ومضوا يسيرون على الرمال الحارة.. كان أبو ذر من خيار الصحابة.. وكان على بعير كليل ضعيف.. فتأخر عنهم.. فتلفت بعض الصحابة فلم ير أبا ذر.. فقال: يا رسول الله تخلف أبو ذر.. وأبطأ به بعيره..

فقال عنه ﷺ كما قال عن غيره: «دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

أبو ذر.. أتعبه بعيره.. وتعسر عليه في المشي.. فلما رأى أبو ذر بعيره قد أبطأ عليه.. نزل.. وأخذ متاعه فحمله على ظهره.. ثم مضى ماشيًا وترك البعير.. وأسرع ليلحق برسول الله ﷺ.. يسير في الحر والشمس.. على قدميه..

وفي أثناء الطريق.. نزل رسول الله.. في بعض الطريق.. فقال بعض المسلمين: يا رسول الله.. هذا رجل ماشٍ على الطريق.. مقبل علينا.. فنظر النبي ﷺ إلى هذا القادم.. الذي يمشي في شدة الحر.. ومتاعه على ظهره.. والغبار يخفيه تارة.. ويظهره تارة.. فقال ﷺ: «كن أبا ذر». فلما تأمله القوم.. قالوا: يا رسول الله.. هو والله أبو ذر.. فقال ﷺ.. وكأنه ينظر إلى الأفق البعييد: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

ومضت السنون.. وتوفي النبي ﷺ.. وتولى بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.. وفي عهد عثمان.. خرج أبو ذر عن المدينة وسكن في الربذة.. في خيمة في الصحراء.. وسكن مع من تبقى من أهله.. زوجة وغلام.. فلما كبر وحضرته الوفاة.. جلست أم ذر عند رأسه.. تبكي.. فالتفت إليها وقال: ما يبكيك؟

فقالت: ما لي لا أبكي!! وأنت تموت بفلاة من الأرض.. وليس عندي ثوب يسعك كفنًا..

قال: فلا تبكي.. وأبشري.. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، يشهده عصابة من المؤمنين».

وليس من أولئك النفر الذين قال لهم ذلك أحد إلا وقد هلك في قرية جماعة.. وأنا الذي أموت بفلاة.. ثم قال أبو ذر بكل يقين: والله ما كذبت.. ولا كذبت.. فأبصري الطريق..

قالت: وأنى!! وقد ذهب الحجاج! وانقطعت الطرق!

قال: اذهبي فتبصري.. فمضت المرأة تمشي.. فتصعد الكثيب.. فتنظر في أدنى الطريق وأقصاه فلا ترى أحدًا.. فترجع إليه فتمرضه وتهتم به.. فإذا اشتد عليه الأمر.. قامت ونظرت في الطريق.. فلا ترى أحدًا.. فترجع..

فبينما هي كذلك.. إذا هي برجال على رحالهم يقبلون من بعيد حتى وقفوا عليها.. فقالوا: ما لك يا أمة الله..؟

قالت: امرؤ من المسلمين يموت.. تكفنونه؟

قالوا: من هو؟

قالت: أبو ذر..

قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟

قالت: نعم..

فتصايحوا.. أبو ذر.. أبو ذر.. ودخلوا الخيمة مسرعين.. فلما جلسوا عند رأسه.. رحب بهم.. وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ - يقول لنفر أنا فيهم -: «ليموتن منكم رجل بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين».

وليس من أولئك النفر أحد إلا هلك في قرية وجماعة.. وأنا الذي أموت بفلاة..

أنتم تسمعون؟ إنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنًا لي.. أو لامرأتي..

أنتم تسمعون؟ إني أشهدكم.. ألا يكفنني رجل منكم.. كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا أو نقيبًا.. فنظروا.. فإذا ليس أحد منهم إلا قارف بعض ذلك.. إلا فتى معهم من الأنصار.. قال: يا عم.. أنا أكفنك.. لم أصب مما ذكرت شيئًا.. أكفنك في ردائي هذا، وفي ثوبين معي من غزل أمي حاكتهما لي.. ثم لما مات وجهزوه.. مر بهم عبد الله بن مسعود.. في أصحاب معه من أهل الكوفة..

فقال: ما هذا؟

فقيل: جنازة أبي ذر.. فاستهل ابن مسعود يبكي.. وقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

ثم نزل ابن مسعود فوليه بنفسه حتى دفنه..

عجب الله من صنيعكما!

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ.. فقال: إني مجهود..

كان الجوع ظاهرًا على محيا الرجل.. فأرسل النبي ﷺ إلى بعض نسائه يسألها إن كان عندها طعام.. فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء.. ثم أرسل ﷺ إلى زوجته الأخرى.. يسألها.. هل يوجد عندها شيء؟ أي شيء.. خبز.. تمر.. لبن.. فقالت مثل ما قالت الأولى: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء..

فأرسل إلى الأخرى.. والأخرى.. حتى قلن كلهن مثل ذلك: ما عندهن إلا ماء.. فالتفت ﷺ إلى أصحابه.. فقال: «من يضيف هذا الليلة، رحمه الله».

كان أكثر الصحابة حالهم كحاله ﷺ.. إن وجدوا غداء لم يجدوا عشاء.. وإن وجدوا عشاء لم يجدوا فطورًا.. فسكت الصحابة.. والرجل ينتظر ضيافته.. فهو ضيف نبيهم عليه الصلاة والسلام..

فقام رجل من الأنصار.. فقال: أنا يا رسول الله.. ثم انطلق الأنصاري بالرجل إلى بيته.. دخلا.. فقال لامرأته: هل عندك شيء؟

قالت: لا.. إلا قوت صبياني.. ليس في البيت إلا عشاء الصبيان تلك الليلة.. ولعله وجبتهم الوحيدة ذلك اليوم.. وهو مع ذلك قليل..

كان الموقف عصيبًا.. لكنه موقف رجولي في الوقت نفسه..

فقال الرجل: علليهم بشيء.. أي: اشغليهم حتى يناموا.. من غير عشاء.. فإذا جلس ضيفنا على الطعام.. فقومي إلى السراج كأنك تصلحينه.. فأطفئيه وأريه أنا نأكل معه..

وهكذا كان.. قعدوا مع الضيف في الظلام.. الرجل وامرأته يمضغان ألسنتهما.. والضيف يأكل الطعام..

وانتهت الوليمة.. وخرج ضيف رسول الله ﷺ ريان شبعان.. فلما أصبح الرجل الأنصاري.. غدا على النبي ﷺ.. فلما رآه ﷺ قال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة».. وإذا خبر السماء قد كشف له الحال..

أو لننزعن الثياب!!

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.. من خيار المهاجرين.. ترك أهله.. وماله.. وولده.. في مكة.. وخرج مهاجرًا في سبيل الله..

كان من خيار المجاهدين.. بل ممن جاهد في أول لقاء بين الإسلام والكفر.. في معركة بدر..

كان كثير التفكير في ولده وأهله الذين في مكة.. بين ظهراني المشركين.. لا حامي لهم من الناس.. ولا نصير.. ولم يكن حاطب من قبيلة قريش نفسها.. بل

كان حليفًا لهم.. ساكنًا في ديارهم.. وليس منهم..

أما بقية المهاجرين ممن تركوا أهليهم وأولادهم في مكة.. فلهم أقارب يحمون أهليهم.. ويدافعون عنهم..

فكان حاطب يفكر دائمًا في طريقة أو خدمة يقدمها لقريش.. ليكتسب عندهم مكانة.. فلا يتعرضون لأهله وولده..

مرت السنون.. وكتب النبي عليه الصلاة والسلام عهد صلح الحديبية مع قريش.. فلم تلبث قريش أن نقضت العهد.. فعزم ﷺ على فتح مكة.. فأمر المسلمين بالتجهز لغزوهم.. وكان ﷺ حريصًا على ألا تعلم قريش بخبره.. حتى لا تستعد فتقع مقتلة عظيمة بين الجيشين.. فدعا ﷺ ربه فقال: «اللهم عم عليهم خبرنا».

ومضت أيام يسيرة.. والخبر مكتوم.. فشعر حاطب أنها الفرصة.. لاكتساب معروف على قريش.. فكتب كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بغزو النبي ﷺ لهم.. وناوله لامرأة قرشية كانت في المدينة.. وأمرها أن تذهب به لأهل مكة.. فما كادت المرأة تفارق المدينة.. حتى أطلع الله رسوله ﷺ على الخبر..

كان لا بد من تدارك أمر الكتاب قبل أن يصل إلى قريش.. فبعث ﷺ في إثر المرأة عليًا والزبير والمقداد.. ثلاثة أسود.. وأخبرهم عن الموقع الذي وصلت إليه المرأة تحديدًا..

فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة - امرأة على بعير - معها كتاب».

مضى الأبطال الثلاثة حتى وقفوا على المرأة.. فقالوا: أخرجي الكتاب الذي معك..

قالت: ما معي كتاب.. ففتشوا رحلها.. وجميع ما معها.. فلم يجدوا شيئًا..

فقال علي: والله.. ما كذبنا.. ولا كذبنا.. والله لتخرجن الكتاب.. أو لتلقين الثياب.. وقد علم علي أنها تخبئ الكتاب في موضع تظن أنهم لن يفتشوه.. فلما رأت المرأة أنه حازم.. علمت أنه لا مفر من الاعتراف..

فقالت: تأخروا عني.. فتأخروا.. فحلت المرأة خمارها عن رأسها.. وأخرجت الرسالة من عقاصها.. من بين ظفائر شعرها.. فأخذ الصحابة الكتاب.. فأتوا به

رسول الله ﷺ..

فتح النبي ﷺ الكتاب.. فإذا فيه.. من حاطب بن أبي بلتعة.. إلى أناس من المشركين بمكة.. يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.. كان حاطب حاضرًا في المجلس.. والكتاب يقرأ على النبي ﷺ.. والصحابة يسمعون.. عجبًا!! حاطب يخبر الكفار بغزو النبي ﷺ لهم!!

أول مرة يقع ذلك بين المسلمين.. التفت ﷺ.. إلى حاطب فقال: «يا حاطب، ما هذا؟».

توجهت الأنظار إلى حاطب.. كادت الأعين تأكله.. فقال حاطب: يا رسول.. لا تعجل علي.. إني كنت امرأ ملصقًا في قريش.. ولم أكن من أنفسهم..

وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة.. فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي.. يا رسول الله.. والله ما فعلت ذلك كفرًا.. ولا ارتدادًا عن ديني.. ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.. ثم سكت حاطب.. وسكت رسول الله ﷺ.. والناس مطرقون كأن على رءوسهم الطير.. فحسم النبي ﷺ الموقف.. بكلمتين.. قال: «إنه صدقكم».

لم يتحمل عمر رضي الله عنه الموقف.. فقال: يا رسول الله.. دعني أضرب عنق هذا المنافق..

فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

فمن أخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب..؟ ومن دله على الموضع الذي وصلت إليه المرأة تحديدًا؟! إنه العليم الخبير.. تأييدًا وإعجازًا..

إخباره عن غزاة البحر إلى قبرص:

كان رسول الله ﷺ يدخل على عمته أم حرام بنت ملحان.. فيزورها ويطعم عندها.. وكان زوجها عبادة بن الصامت.. يفرح بلقاء النبي ﷺ.. دخل عليها ﷺ يومًا فأكل عندها طعامًا.. ثم اضطجع ﷺ في بيتها فغلبته عينه.. ونام.. ثم استيقظ

وهو يضحك..

قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

فقال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون البحر، ملوكًا على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة».

ملوك على الأسرة!! اشتاقت أم حرام أن تكون من هؤلاء.. فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم.. فدعا لها ﷺ أن تكون منهم.. ثم وضع رأسه فنام.. ثم استيقظ وهو يضحك..

قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله..». كما قال في الأولى.

فقالت أم حرام: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم..

فقال ﷺ: «أنت من الأولين».

ومضت السنون.. وتوفي النبي عليه الصلاة والسلام.. وتولى من بعده الخلفاء الأربعة الراشدون.. ثم لما كان عهد معاوية رضي الله عنه.. ركبت أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها البحر.. فلما خرجت من السفينة وركبت دابتها.. صرعت عن دابتها فماتت رضي الله عنها.

وقفة..

هذا هو النوع الأول من معجزاته ﷺ.. وهو بلا شك من إخبار الله تعالى له.. وإلا فنحن نعلم أن الغيب لا يعلمه إلا الله.. كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ولقد أمر الله نبيه أن يخبرنا بأنه لا يعلم الغيب.. فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعلم رسول الله ﷺ لشيء من الغيب هو من آيات نبوته.. ولا يجوز لأحد كائنًا من كان أن يدعي أنه يكشف له الغيب.. بل ولا يجوز تصديق من يدعون ذلك.. أو سؤالهم..

النوع الثاني: معجزاته الكونية:

انشقاق القمر:

دعا النبي ﷺ الكفار بكل سبيل.. وهم يكذبون ويبحثون عن حجج وأعذار.. حتى قالوا له يومًا: شق لنا القمر..!! فدعا النبي ﷺ ربه.. ودعا.. وفجأة.. انشق القمر نصفين!!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: رأيت القمر منشقًا شقتين بمكة.. قبل مخرج النبي ﷺ منها.. شقة على جبل أبي قبيس.. وشقة على السويداء..

رأى الكفار ذلك.. فشدهت أبصارهم.. لكن غلبهم شيطانهم وقالوا: هذا سحر سحركم به.. ثم لأجل أن يخرجوا من حرج الموقف.. قالوا: انظروا المسافرين القادمين.. فإن كانوا وهم في ديارهم رأوا مثل ما رأيتم.. فقد صدق.. وإن لم يكونوا رأوا مثل ما رأيتم.. فهو سحر.. فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم..

فلما وصل أول المسافرين إلى مكة.. سألتهم قريش: هل رأيتم القمر منشقًا..

قالوا: نعم.. ليلة كذا وكذا.. ثم وصل بقية المسافرين.. وكلهم يجيبون الجواب نفسه..

فكذبت قريش واستكبرت وقالت: هذا قد سحر الناس كلهم..

وأنزل الله تعالى خبر هذه المعجزة في كتابه.. فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ١-٧].

والعجب أن الأبحاث العلمية المنشورة اليوم.. المتخصصة في دراسات حول القمر.. أثبتت وجود شق يقطع القمر نصفين.. وكأنه أصابه فيما مضى انشقاق..

أشار للسماء فأطاعته:

ومن تأثيره ﷺ.. أنه أشار إلى السماء فأطاعته بإذن الله.. ففي فترة من عهد النبوة المبارك.. تقلص المطر.. وأجدبت الأرض.. وماتت الزورع.. فبينما هو ﷺ

يخطب الناس على منبره يوم الجمعة.. إذ دخل رجل المسجد.. ورسول الله ﷺ قائم يخطب.. فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا.. ولم ينتظر.. بل قطع الخطبة.. وصاح بأعلى صوته..

قال: يا رسول الله.. هلكت الأموال.. وانقطعت السبل.. فادع الله يغيثنا..

كان الرجل يتكلم من حرقة أصابته.. وهو يرى أولاده جوعى.. وأغنامه هلكى.. السبل تقطعت.. والأرض أجدبت.. والأموال نفدت..

كان رسول الله ﷺ يعيش هموم أصحابه.. فلم يتأخر.. وإنما رفع يديه إلى السماء.. ودعا.. وتضرع والتجأ.. وقال: «اللهم اسقنا.. اللهم اسقنا.. اللهم اسقنا».

كان أنس رضي الله عنه حاضرًا بين المصلين.. فلما رأى النبي ﷺ يبتهل ويستسقي.. رفع بصره ينظر إلى السماء..

قال أنس: فلا والله.. ما نرى في السماء من سحاب ولا من قزعة.. وإن السماء لمثل الزجاجة.. وما بيننا وبين سلع من دار.. فوالذي نفسي بيده.. ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال.. ثم لم ينزل رسول الله ﷺ عن منبره.. حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته..!!

وأمطرت السماء.. سبعة أيام متواصلة.. حتى رويت الأرض.. وشبعت الأنعام..

وفي الجمعة الأخرى.. قام ﷺ يخطب الناس على منبره المبارك.. وفجأة فإذا الرجل نفسه.. أو غيره.. يدخل من ذلك الباب نفسه.. ورسول الله ﷺ قائم يخطب.. فاستقبله قائمًا.. فقال: يا رسول الله.. هلكت الأموال.. وانقطعت السبل.. فادع الله يمسكها عنا..

فرفع رسول الله ﷺ يديه.. ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا.. اللهم على الآكام.. والظراب.. وبطون الأودية.. ومنابت الشجر». ثم جعل ﷺ يشير بيده إلى نواحي السحاب في السماء.

قال أنس: فما يشير ﷺ بيده إلى ناحية إلا تفرجت.. حتى رأيت المدينة في مثل الجوبة.. أي صارت المياه حولها.. وهي كالجزيرة.. وسال وادي قناة شهرًا..

ولم يجئ أحد من ناحية.. إلا أخبر بجود ومطر.. أي كل من وصل إلى المدينة من سفر أخبرهم بكثرة الأمطار حولها.. وهذا من بركة دعائه ﷺ: «حوالينا ولا علينا».

ولا شك أن تأثيره ﷺ في السحاب.. هو من القدرة التي مكن الله تعالى نبيه ﷺ منها.. وتصرفه ﷺ فيما حوله.. هو بإذن الله ومشيئته.. كما كان عيسى عليه السلام.. يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله..

وإلا فلو شاء الله تعالى لما مكن أحدًا من البشر لا نبيًا ولا غيره من فعل هذه الأشياء.. ولكنه عز وجل يمكنهم منها.. لحكمة يريدها..

النوع الثالث من معجزاته: تصرفه ﷺ في الحيوان:

استجابة جمل:

كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه.. أي: يستخرجون عليه الماء من البئر..

وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره.. وهاج عليهم.. فلم يستطيعوا استعماله.. ولا الركوب عليه.. فتعطلت منافعهم.. والناس فقراء لا يقدرون على شراء غيره..

فجاء أصحابه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسي عليه.. وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره.. وقد عطش الزرع والنخل..

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا».

فقاموا يمشون معه.. فمضى حتى دخل البستان.. فإذا الجمل في ناحية منه.. فمشى النبي ﷺ نحوه.. فخاف الأنصار أن يؤذي الجمل رسول الله ﷺ.. فقالوا: يا نبي الله، إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب.. أي: مثل الكلب الهائج الثائر.. وإنا نخاف عليك صولته..

فقال ﷺ: «ليس علي منه بأس..». ومضى يمشي إليه..

فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ.. أقبل يمشي نحو النبي عليه الصلاة والسلام.. حتى خر ساجدًا بين يديه..

فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته.. أي: بأعلى رأسه.. والجمل بين يديه ذليل هادئ

منساق بين يديه.. حتى أدخله في عمله.. وخطمه ﷺ وربطه..

فعجب الصحابة وقالوا: يا رسول الله.. هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك..!! ونحن نعقل.. فنحن أحق أن نسجد لك..

فقال ﷺ: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشرٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

وأخيرًا:

هذا التحكم في الحيوان هو بإذن الله تعالى.. ومحكوم بإرادة الله ومشيئته.. وإلا فقد يريد النبي ﷺ من الحيوان شيئًا ولا يكون..

كما حدث لما أقبل ﷺ راكبًا ناقته القصواء معتمرًا.. قبل فتح مكة.. وفجأة بركت به ناقته ﷺ.. فأرادها على المشي.. فأبت عليه..

فقال الناس: خلأت القصواء.. أي: عصت..

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة». يعني: أصحاب الفيل.. أبرهة وأصحابه..

ثم قال ﷺ: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». ثم حصل بينه ﷺ وبين قريش صلح الحديبية المشهور.. ورجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

أما النوع الرابع: تأثيره ﷺ في الأمراض وشفائها:

مسحة مباركة:

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق.. زعيمًا من زعماء اليهود.. وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ.. وكان يحرض مشركي مكة على قتال النبي ﷺ.. وكان في حصن له بعيد عن المدينة بالقرب من خيبر.. فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار.. وهم من الخزرج.. فأمر عليهم عبد الله بن عتيك..

وكان أبو رافع اليهودي يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه.. وكان ممن أعان قبيلة غطفان.. وأعان أيضًا مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ..

ويقول لهم: أنا أتكفل بهذا كله لكم.. ويذهب إلى مشركي مكة ويقول لهم: تعالوا إلى محمد.. إنكم أولو بأس وقوة.. ثم تتركون هذا الرجل..

وكان هذا اليهودي له اليد الطولى في جمع الأحزاب في غزوة الخندق.. فهو الذي جمع كل المشركين.. وجاء بهم صوب النبي ﷺ.. يتمنى هزيمتهم والقضاء على المسلمين.. وهو الذي أغرى يهود بني قريظة بأن يخونوا المواثيق والعهود مع النبي ﷺ..

هذا هو أبو رافع وهذه بعض إنجازاته..

عندها شكلت فرقة بقيادة عبد الله بن عتيك.. ومعه عبد الله بن عتبة.. وعبد الله بن أنيس.. وانطلقوا من المدينة قبل غروب الشمس..

وكان أبو رافع في حصن له بأرض الحجاز بالقرب من خيبر.. فلما دنوا منه وقد غربت الشمس..

كان الحصن الذي يسكنه أبو رافع.. منيعًا.. له باب يفتح في الصباح فيخرج المزارعون ورعاة الغنم.. ثم يقفل.. ويفتح عند غروب الشمس ليدخلوا..

فقال عبد الله بن عتيك لأصحابه ﭬ: اجلسوا مكانكم.. فإني منطلق ومتلطف للبواب.. لعلي أن أدخل..

فأقبل عبد الله حتى دنا من الباب.. فإذا البواب دقيق حريص.. لا يدخل أحد إلا نظر إليه وعرف من هو..

جعل عبد الله بن عتيك يرقب الباب ليدخل..

فأقبل الناس عند غروب الشمس.. بمواشيهم ودوابهم وأدخلوها إلى الحصن وعادوا من الرعي.. وهاهنا فقد بعض اليهود من أهل الحصن حمارًا لهم.. فخرجوا بشعلة نار يبحثون عنه.. وهذا بعد غروب الشمس.. جعلوا يطلبون ذلك الحمار..

وكان عبد الله قريبًا من الحصن.. قال: فخشي أن يعرف.. فغطى رأسه كأنه يقضي حاجة..

ووجد اليهود حمارهم فعادوا إلى حصنهم.. ثم نادى البواب: من أراد أن يدخل فليدخل..

ثم هتف البواب بعبد الله يحسبه منهم: إن كنت تريد أن تدخل فادخل.. فإني أريد أن أغلق الباب..

فقام عبد الله.. ودخل حصن اليهود.. ثم نظر في الداخل.. يريد مكانًا آمنًا له يختبئ فيه.. فوجد مربط حمارٍ عند باب الحصن.. فاختبأ فيه..

ولما دخل الناس لحظ عبد الله.. أين سيضع البواب المفاتيح التي للحصن.. فخبأ البواب مفاتيحه.. فلبث في مخبئه قليلاً.. حتى هدأ الناس.. وأطفئوا السرج.. فقام فأخذ المفاتيح.. وفتح أبواب الحصن من الداخل.. وتركها مفتوحة شيئًا يسيرًا..

وكانت ليلة مقمرة.. ثم مر على أبواب بيوت الناس من الخارج التي داخل الحصن.. وجعل يغلقها عليهم من الخارج..

حتى وصل إلى بيت أبي رافع.. وكان بيته في مكان مرتفع لا يوصل إليه إلا بسلم ودرج.. فسمع عبد الله صوت أبي رافع.. وكان يسمر مع عدد من أصحابه.. يخططون ويمكرون.. فجلس عبد الله في مكان لا يرونه ينتظر..

فتحدث أصحابه معه حتى انقضى أكثر الليل.. ثم خرجوا فرجعوا إلى بيوتهم..

فلما رأى عبد الله ذلك صعد إليه.. وجعل يفتح الأبواب ماضيًا إلى غرفة أبي رافع بحذر.. وصار كلما فتح بابًا أغلقه من الداخل.. حتى لو علم به الحراس يتأخر وصولهم إليه..

صعد عبد الله السلم.. فلما جاء عند باب دار أبي رافع.. فتح الباب.. فدخل فوجد الغرفة مظلمة.. وقد طفئ السراج..

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر.. كما ذكر المؤرخون.. فلم يدر أين الرجل؟! بصر ضعيف.. وظلمة شديدة!!

فنادى قائلاً: أبا رافع..

فتنبه أبو رافع للصوت.. وقال: من هذا؟

فانطلق عبد الله نحو الصوت.. وضرب أبا رافع ضربة بالسيف.. فدهش أبو رافع.. لكن السيف لم يصب الهدف تمامًا.. فلم يمت.. فصاح أبو رافع.. وفشلت

المحاولة.. فخرج عبد الله مسرعًا.. فلما جاوز الباب.. سمع صوت أبي رافع يئن.. لم يمت!!

فرجع إليه مرة أخرى.. ودخل عليه كأنه أحد الحراس.. فإذا الغرفة مظلمة..

فغير عبد الله صوته وقال: ما لك يا أبا رافع؟

فجعل أبو رافع يصيح مستغيثًا: إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف..

فانطلق عبد الله إليه وأهوى عليه بالسيف.. بضربة أخرى أثخنته.. ولكنها لم تقتله أيضًا.. عندها صاح أبو رافع.. وخرج عبد الله مسرعًا نحو الباب..

وبدأت الحركة في البيت.. والحراس يستيقظون.. وأبو رافع يئن.. فرجع إليه عبد الله.. وتكلم مغيرًا صوته.. ما لك يا أبا رافع؟

فتوجه عبد الله إليه.. ووضع السيف في بطنه.. ثم اتكأ عليه.. حتى خرج من ظهره..

قال عبد الله: فسمعت صوت عظام ظهره.. فعرفت أني قتلته..

توجه عبد الله نحو الباب يبحث عنه في الظلام.. وقد ثار الحراس.. واضطرب الناس.. وجد الباب.. فخرج مسرعًا وجعل يفتح الأبواب.. بابًا بابًا.. حتى أتى السلم.. وجعل ينزل مسرعًا.. فظن أن السلم انتهى.. فقفز.. فوقع على الأرض.. فانكسرت ساقه.. فحل عمامته.. فربط بها ساقه.. ومضى يقفز على رجل واحدة.. نحو باب الحصن.. خرج عبد الله من الحصن وهو يعرج.. وصل إلى أصحابه وهم ينتظرون..

وقال لهم: انطلقوا.. فبشروا رسول الله ﷺ.. أما أنا.. فإني لا أبرح مكاني هذا.. حتى أسمع ناعيه..

وكانوا في الجاهلية إذا مات فيهم الرجل الشريف في قومه.. قام رجل في الصبح على شرفة بيت مرتفع.. ونادى في الناس يخبرهم.. وينشد فيه الأشعار..

فأراد عبد الله أن يتأكد تمامًا أن الرجل مات..

فمضى أصحاب عبد الله.. وتركوا عنده دابة.. فلما كان الصبح.. صعد الناعي على السور.. وعبد الله بن عتيك ينظر إليه من خارج الحصن..

فقال الناعي: أيها الناس.. أنعى إليكم أبا رافع تاجر أهل الحجاز..

ففرح عبد الله.. وانطلق وراء أصحابه.. فأدركهم قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ.. فلما وصل إلى النبي ﷺ.. صاح قائلاً: النجاء.. النجاء.. فقد قتل الله أبا رافع..

كانت ساق عبد الله مكسورة.. يمشي أعرج.. فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام ساقه المكسورة.. قال له: «ابسط رجلك».

فبسطها.. فمسح النبي ﷺ عليها بيده.. والناس ينظرون.. فما كادت يد رسول الله ﷺ تفارق رجل عبد الله.. حتى قام ليس بها بأس أبدًا.. فهذا من آيات نبوته ﷺ..

شفاء عيني علي رضي الله عنه..

خرج ﷺ مع أصحابه إلى غزوة خيبر.. وطالت محاصرتهم لحصون خيبر.. ولم يتيسر فتحها لهم.. فقال ﷺ لأصحابه: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

فبات الناس طوال ليلهم.. يتفكرون.. ويتحدثون.. فيمن سينال هذا الشرف.. وكان كلهم يرجو أن يعطاها..

فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ.. كلهم يتمنى أن يعطى الراية..

فقال ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟».

قالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه.. وكان في عيني علي رضي الله عنه رمد شديد.. حتى غطى على بصره تمامًا فلا يرى شيئًا.. فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إليه..

فجاء علي رضي الله عنه يقودونه بيده.. حتى جلس بين يدي النبي ﷺ.. ففتح النبي ﷺ عينيه.. فبصق فيهما.. ودعا له.. فبرأ من لحظته.. حتى كأن لم يكن به وجع..

فأعطاه ﷺ الراية..

فقال علي: يا رسول الله.. أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

قال ﷺ: «انفذ على رسلك.. حتى تنزل بساحتهم.. ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه.. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً

واحدًا.. خير لك من أن يكون لك حمر النعم».

النوع الخامس: تأثيره ﷺ في الأشجار:

يفهم الجذع.. ويواسيه!!

كان الناس في القديم.. يعتمدون في بناء بيوتهم.. على جذوع النخل.. والطين والحجارة..

وكان مسجد النبي ﷺ عبارة عن سوارٍ وأعمدة من جذوع النخل.. فوقها عريش من عسيب النخل..

فكان النبي ﷺ يقوم يوم الجمعة يخطب الناس قائمًا.. فإذا تعب أسند ظهره إلى جذع نخلة منصوب في المسجد..

فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله.. إن لي غلامًا نجارًا.. ألا آمره فيصنع لك منبرًا؟

قال ﷺ: «إن شئت».

فأمرت المرأة غلامها.. فصنع منبرًا.. وجاء به ووضعه في المسجد..

فلما كان يوم الجمعة.. أقبل النبي ﷺ إلى المنبر.. فصعده.. ثم سلم على الناس.. وقعد.. وشرع بلال في الأذان..

في هذه الأثناء.. سمع الصحابة صوت بكاء.. وأنين.. ثم سمعوا صوت خوار كخوار الثور.. فإذا الصوت من جذع النخلة يبكي.. وجعلت النخلة تصيح.. حتى كادت أن تنشق..

وارتج المسجد.. فنزل النبي ﷺ من على منبره.. وتوجه نحو جذع النخلة.. فضمه إليه ﷺ.. فجعلت النخلة تئن.. وتئن.. كأنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت..

فالتفت ﷺ إلى أصحابه.. وقال: «بكى.. لما فقد من الذكر.. أما والذي نفس محمد بيده.. لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة».

النخلة تمشي إليه..

كان رسول الله ﷺ مع أصحابه في سفر.. فرأى أعرابيًا في طريقهم.. فلما دنا الأعرابي من النبي ﷺ وأصحابه..

رآه النبي ﷺ.. وكان عليه الصلاة والسلام حريصًا على دعوة الناس في كل زمان ومكان.. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «أين تريد؟».

قال: إلى أهلي..

قال: «هل لك في خير؟».

قال: وما هو؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. وأن محمدًا عبده ورسوله».

قال الأعرابي: ومن يشهد على ما تقول؟

فالتفت ﷺ إلى نخلة في طرف الوادي.. وقال: «هذه السلمة». أي: النخلة..

ثم نظر النبي ﷺ إلى النخلة.. ودعاها.. فأقبلت تخد الأرض خدًا وتشق التراب.. حتى قامت بين يديه.. فاستشهدها ثلاثًا على أنه نبي.. فشهدت النخلة ثلاثًا أنه كما قال.. ثم رجعت إلى منبتها..

وسكت النبي ﷺ ينتظر القرار الأخير من هذا الأعرابي.. هل يدخل في الإسلام.. أم لا؟ فإذا بالأعرابي يعرف الحق.. ويتحمس.. فيلتفت راجعًا إلى قومه.. وهو يقول لرسول الله ﷺ: إن اتبعوني أتيتك بهم.. وإلا رجعت فكنت معك..

انقياد شجرتين له ﷺ:

في قصة جابر الطويلة في حكاية حج النبي ﷺ..

قال: سرنا مع رسول الله ﷺ.. حتى نزلنا واديًا أفيح.. فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته.. فاتبعته بإداوة من ماء..

فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به.. فإذا شجرتان بشاطئ الوادي.. فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما.. فأخذ بغصن من أغصانها..

فقال: «انقادي علي بإذن الله».. فانقادت معه كالبعير المخشوش.. الذي يصانع قائده..

والبعير المخشوش هو الذي يجعلون في أنفه عودًا ويربطونه بحبل.. فإذا تمانع عن المشي شدوا الحبل فآلمه.. فانقاد شيئًا فشيئًا.. فهو يصانع قائده..

قاد ﷺ الشجرة حتى أتى بها إلى الشجرة الأخرى.. فأخذ بغصن من أغصانها.. فقال: «انقادي علي بإذن الله».. فانقادت معه كذلك.. حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما.. لأم ﷺ بينهما - يعني جمعهما -.. وقال: «التئما علي بإذن الله».. فالتأمتا..

قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد..

فجلست أحدث نفسي.. فحانت مني لفتة.. فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً.. وإذا الشجرتان قد افترقتا.. فقامت كل واحدة منهما على ساقٍ - أي: كما كانت..

النوع السادس: التأثير في الماء والطعام:

ماء المزادتين:

سافر رسول الله ﷺ مع أصحابه.. في يوم شديد الحر.. فأطالوا المسير.. ولم يكن في طريقهم ماء ولا بئر.. فاشتكى الناس العطش إلى رسول الله ﷺ..

فكان لا بد أن يجد لهم حلاً..

فنزل ﷺ فدعا رجلاً من أصحابه ودعا عليًا.. فقال: «اذهبا فابتغيا الماء..».

ذهب علي ﷺ وصاحبه يبحثان عن الماء..

فبينما هما كذلك.. إذ لقيا امرأة بين مزادتين.. أو سطيحتين - قربتين - من ماءٍ على بعير لها.. فقالا لها: أين الماء؟

قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة.. ونفرنا خلوف..

يعني: الماء بعيد بينكم وبينه مسيرة يوم وليلة..

قالا لها: انطلقي إذًا..

قالت: إلى أين؟

قالا: إلى رسول الله ﷺ..

قالت: الذي يقال له الصابي؟

وكان المشركون يعيرون النبي ﷺ بهذا الاسم.. الصابئ - أي: المغير دينه..

فلم يطل الصحابيان معها الكلام.. بل قالا: هو الذي تعنين.. فانطلقي..

مضت المرأة معهم على بعيرها.. فجاءا بها إلى النبي ﷺ.. فسألها عن الماء.. فذكرت أنه بعيد.. وذكرت له أنها ضعيفة وأم أيتام..

فتناول النبي عليه الصلاة والسلام قربتي الماء.. ومسح عليهما بيديه.. ثم دعا بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين.. ثم نودي في الناس: «اسقو واستقوا..».

فجعل الناس يأتون بآنيتهم.. فمنهم من يشرب.. ومنهم من يملأ قربته.. ومنهم من يصب في إنائه.. فسقى من شاء واستقى من شاء..

والمرأة قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها.. حتى روى الصحابة وعبئوا آنيتهم.. وإن قربتيها لم يتغير حجمهما.. ولا كثرت ماؤهما..

فأراد ﷺ أن يحسن إلى المرأة.. مع أنه لم ينقص من مائها شيئًا.. فقال لأصحابه: «اجمعوا لها».

فجمعوا لها من بين تمر عجوةٍ ودقيق كسر خبز.. حتى جمعوا لها طعامًا فجعلوه في ثوبٍ.. وحملوها على بعيرها.. ووضعوا الثوب بين يديها..

ثم قال ﷺ: «تعلمين.. ما رزئنا من مائك شيئًا.. - أي: ما أنقصنا منه شيئًا - ولكن الله هو الذي أسقانا».. مضت المرأة إلى أهلها.. وقد تأخرت عليهم..

فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟

قالت: العجب.. لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا.. فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه.. وأشارت إلى السماء والأرض.. أو إنه لرسول الله حقًّا.. ثم قيل: إن المرأة أسلمت بعد ذلك.. وأسلم قومها.

ميضأة أبي قتادة رضي الله عنه :

سار النبي ﷺ مع أصحابه في سفر.. وقل معهم الماء.. فخطبهم النبي ﷺ.. فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم.. وتأتون الماء إن شاء الله غدًا».

فانطلق الناس.. وطال سيرهم.. فاشتد بهم العطش.. ولم يجدوا ما يتوضئون..

فدعا النبي ﷺ بميضأة كانت مع أبي قتادة.. وهي قربة ماء صغيرة.. فأتاه أبو قتادة بها.. وكان فيها شيء قليل من ماء.. فتوضأ منها ﷺ وضوءًا يسيرًا.. وبقي فيها شيء من ماء.. ثم قال ﷺ لأبي قتادة: «احفظ علينا ميضأتك.. فسيكون لها نبأ!!».

ثم مضوا في سيرهم.. فطلع النهار.. وحمي كل شيء.. والناس يقولون: يا رسول الله.. هلكنا.. عطشنا..

فقال ﷺ: «لا هلك عليكم».

ثم قال: «أطلقوا لي غمري». أي أحضروا إناء وضوئي.. ثم دعا ﷺ بميضأة أبي قتادة..

فأحضرها أبو قتادة.. قربة صغيرة بين يديه.. فيها بقية ماء يسير.. فأخذها ﷺ.. وحل سقاءها.. وقلبها وأخذ يصب منها.. فلما رأى الناس الماء.. تكابوا عليه.. وازدحموا..

فقال ﷺ: «أحسنوا الملء.. كلكم سيروى».

ثم جعل رسول الله ﷺ يصب في الإناء.. ويسقيهم أبو قتادة.. حتى رووا وملئوا آنيتهم..

فما بقي غير أبي قتادة.. وغير رسول الله ﷺ.. ثم صب رسول الله ماء.. فقال لأبي قتادة: «اشرب»..

قال: لا أشرب حتى تشرب.. يا رسول الله..

فقال ﷺ: «إن ساقي القوم آخرهم شربًا»..

قال أبو قتادة: فشربت.. وشرب رسول الله ﷺ.. وشرب الناس كلهم.. وكانوا ثلاثمائة.. وهذا من بركته ﷺ.. ومعجزاته الظاهرة..

وفي غزوة تبوك:

غزوة تبوك.. مليئة بالعجائب..

أصاب المسلمين فيها جوع وعطش ومشقة.. فهو طريق طويل.. وعددهم كبير..

فجمع النبي ﷺ الظهر والعصر جميعًا.. ثم جمع المغرب والعشاء جميعًا..

فقال ﷺ لأصحابه: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك.. وإنكم لن تأتونها حتى يضحى ضحى النهار.. فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا.. حتى آتي»..

ومضى الجيش يسير.. فلما وصلها النبي ﷺ.. فإذا قد سبق إلى عين الماء رجلان.. والعين قليلة الماء جدًّا.. ونبع الماء منها شحيح.. فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام الرجلين سألهما: «هل مستما من مائها شيئًا؟».

قالا: نعم..

فغضب النبي ﷺ عليهما.. كيف يمسان الماء وقد منع من ذلك.. وأعلن في الناس النهي عنه.. فسبهما ﷺ.. وقال لهما ما شاء الله أن يقول.. والصحابة عطشى.. ثم أمر النبي ﷺ بعض الصحابة.. فغرفوا من العين ماء قليلاً.. ثم قليلاً..

وجعلوه في إناء صغير.. ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه.. ثم صب هذا الماء في العين..

فما كاد هذا الماء المبارك منه ﷺ يمس ماء العين حتى جرت العين بماء كثير..

فاستقى الناس.. وشربوا.. ورووا.. وتوضئوا.. ثم التفت ﷺ إلى معاذ فقال: «يا معاذ.. يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانًا».. أي مزارع وبساتين.

تكثيره الطعام:

قال جابر رضي الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر.. فعرضت كدية شديدة.. فجاءوا إلى رسول الله ﷺ.. فقالوا: هذه كدية عرضت.. فقال: «أنا نازل».. فقام وبطنه معصوب بحجر.. ولبثنا ثلاثًا لا نذوق ذواقًا..

فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب.. فعاد كثيبًا أهيل.. فقلت: يا رسول الله.. ائذن لي إلى البيت..

فقلت لامرأتي: رأيت من رسول الله ﷺ شيئًا ما في ذلك صبر..

قالت: عندي شعير.. وعناق..

فذبحت العناق.. وطحنت الشعير.. حتى جعلنا اللحم في البرمة.. ثم وليت إلى رسول الله ﷺ.. فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه..

قال: فجئت فساررته.. فقلت: يا رسول الله.. طعيم لي.. فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان..

قال: «كم هو؟».. فذكرت له.. قال: «كثير طيب».. ثم صاح رسول الله ﷺ وقال: «يا أهل الخندق.. إن جابرًا قد صنع لكم سؤرًا.. فحي هلا بكم»..

ثم قال: «قل لها: لا تنزع البرمة.. ولا الخبز من التنور.. حتى آتي..».

فقام المهاجرون والأنصار.. فلما دخل على امرأته قال: ويحك!! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار.. ومن معهم..

فقالت: بك.. وبك..

قال: قد فعلت الذي قلت لي..

فأخرجت له عجينًا فبصق فيه.. وبارك.. ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها.. وبارك..

ثم قال: «ادع خابزة فلتخبز معي.. واقدحي من برمتكم.. ولا تنزلوها..».

وهم ألف.. فأقسم بالله.. لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا.. وإن برمتنا لتغط كما هي.. وإن عجيننا ليخبز كما هو.

تكثيره اللبن:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع.. وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع..

ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه.. فمر أبو بكر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فلم يفعل.. ثم مر عمر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فمر فلم يفعل.. ثم مر بي أبو القاسم ﷺ.. فتبسم حين رآني.. وعرف ما في وجهي وما في نفسي..

ثم قال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله.. قال: «الحق»..

ومضى.. فاتبعته.. فدخل.. فاستأذن.. فأذن لي.. فدخلت.. فوجد لبنًا في قدح.. فقال: «من أين هذا اللبن؟».

قالوا: أهداه لك فلان.. أو فلانة..

قال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «الحق أهل الصفة.. فادعهم لي..».

قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام.. لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال.. إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا.. وإذا أتته هدية أرسل إليهم.. وأصاب منها وأشركهم فيها.. فساءني ذلك..

وقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة!! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها.. فإذا جاءوا.. أمرني.. فكنت أنا أعطيهم.. وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن..

ولم يكن من طاعة الله.. وطاعة رسوله بد.. فأتيتهم.. فدعوتهم.. فأقبلوا.. فأذن لهم.. وأخذوا مجالسهم من البيت.. فقال: «يا أبا هر..».

قلت: لبيك يا رسول الله.. قال: «خذ.. فأعطهم..».

فأخذت القدح.. فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح.. فأعطيه الآخر.. فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح.. فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح..

حتى انتهيت إلى النبي ﷺ.. وقد روي القوم كلهم.. فأخذ القدح فوضعه على يده.. فنظر إلي فتبسم فقال: «أبا هر».. قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «بقيت أنا وأنت؟»..

قلت: صدقت يا رسول الله..

قال: «اقعد فاشرب..» فقعدت فشربت.. فقال: «اشرب..» فشربت..

فما زال يقول: «اشرب..» حتى قلت: لا.. والذي بعثك بالحق.. ما أجد له مسلكًا.. قال: «فأرني..» فأعطيته القدح.. فحمد الله وسمى.. وشرب الفضلة.

عودة إلى تبوك:

أصاب المسلمين في معركة تبوك مجاعة شديدة.. ففكر الصحابة في نحر الإبل وأكلها.. فاستأذنوا من رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله!.. لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا.. فأكلنا لحمها.. وادهنا بدهنها.. كانوا مجهدين جائعين.. والحر والعطش يزيد الأمر سوءًا.. وهم لن ينحروا جميع الإبل.. بل بعضها ليسدوا رمقهم..

فقال ﷺ لهم: «افعلوا».. فتوجه الصحابة إلى بعض الإبل.. لينحروها..

كان النبي ﷺ رحيمًا بأصحابه.. لكنه يحرص على الشورى.. ويستمع لجميع الآراء..

فجاء عمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله! إن فعلت قل الظهر.. ـ يعني: إن بدءوا في نحر الإبل.. لم نجد دواب لنكمل طريقنا.. ولكن: ادعهم بفضل أزوادهم.. ـ أي: كل واحد يأتي بما تبقى عنده من تمر أو كسر خبز.. ثم ـ يا رسول الله ـ ادع الله لهم عليها بالبركة.. لعل الله أن يجعل في ذلك بركة..

فقال ﷺ: «نعم»..

ثم دعا النبي ﷺ بنطع ـ أي: قطعة جلد ـ فبسطه على الأرض.. ثم دعا بفضل أزوادهم..

فجعل الرجل يجيء بكف ذرة.. ويجيء الآخر بكف تمر.. ويجيء الثالث بكسرة.. حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير..

قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة.. ثم قال: «خذوا في أوعيتكم».

قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملئوه طعامًا..

فأكلوا حتى شبعوا.. وفضلت فضلة على النطع..

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله.. وأني رسول الله.. لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

النوع التاسع: تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ:

قتال الملائكة:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: رأيت يوم أحد.. عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض.. يقاتلان عن رسول الله ﷺ أشد القتال.. ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده.. يعني: جبرائيل وميكائيل عليهما السلام.

كفيناك المستهزئين..

كان جمع من كفار قريش.. كثيرًا ما يتعرضون للنبي ﷺ.. تكذيبًا.. واستهزاءً..

وكان أعظمهم أذى.. الوليد بن المغيرة.. والأسود بن عبد يغوث.. والأسود بن المطلب.. والحارث بن عيطل.. والعاص بن وائل السهمي..

فأتى جبريل يومًا إلى النبي ﷺ.. فشكاهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى جبريل..

ثم مر بهم الوليد.. فأشار جبريل إلى أنمله.. إصبعه.. وقال: كفيته..

ثم أراه الأسود بن المطلب.. فأومأ جبريل إلى عنق الأسود.. وقال: كفيته..

ثم أراه ﷺ الأسود بن عبد يغوث.. فأومأ إلى رأسه.. وقال: كفيته..

ثم أراه الحارث بن عيطل.. فأومأ إلى بطنه.. وقال: كفيته..

ومر به العاص بن وائل.. فأومأ إلى إخمصه.. أسفل قدمه.. وقال: كفيته..

فما مضى وقت.. حتى نزلت العقوبات.. كما وصف جبريل عليه السلام..

فأما الوليد.. فكان يمشي في طريق.. فمر برجل من قبيلة خزاعة قاعد يصلح سهامًا ونبلاً معه.. فأصاب الرجل إصبع الوليد فقطعها.. ثم لم تمض أيام حتى مات..

وأمَّا الأسود بن عبد يغوث.. فخرج في رأسه قروح وجروح.. فمات منها..

وأما الأسود بن المطلب.. فعمي بصره..

وكان سبب ذلك.. أنه نزل تحت شجرة.. مع أولاده.. وفجأة جعل يقول: يا بني.. ألا تدفعون عني.. قد قتلت..

فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا..

وجعل يقول: يا بني.. ألا تمنعون عني.. قد هلكت! ها هو ذا الطعن بالشوك في عيني..

فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا.. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.. ولم يمض وقت حتى مات..

وأما الحارث بن عيطل.. فأخذه الماء الأصفر في بطنه.. فانتفخ بطنه وكبر جدًا.. حتى خرج غائطه من فمه.. فمات..

وأما العاص بن وائل.. فبينما هو في طريقه إلى الطائف.. على حمار.. فربض به الحمار على شجرة شوك.. فدخلت شوكة في إخمص قدمه فقتلته..

وصدق الله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر:٩٥].

الرياح والجنود على الأحزاب:

اجتمع آلاف الكفار لغزو المدينة النبوية في معركة الأحزاب..

فعل النبي ﷺ وأصحابه ما في وسعهم.. لصد الأعداء عنهم.. فإذا بالله تعالى يغار لأوليائه.. وينصرهم..

وقال الله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

أرسل الله عليهم ريحًا أطفأت نيرانهم.. وكفأت قدورهم.. واقتلعت خيامهم.. وهدمت أبنيتهم.. وشردت خيولهم.. وفرقت إبلهم..

وأرسل الله جنودًا من عنده لا ترى بالأبصار.. فزلزلتهم.. حتى اضطروا للعودة من حيث جاءوا.. وفك الحصار عن المدينة النبوية..

وأنزل الله تعالى ذكر هذه الحادثة ممتنًا على المؤمنين.. فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩].

تأييده بالمطر:

في غزوة بدر.. ظهرت في غزوة بدر أحداث جسام.. وآيات باهرات..

وكرامات ظاهرات.. لجند الله الصادقين.. تأييدًا لهم.. وتثبيتًا لقلوبهم.. فلقد كان المسلمون في تلك الغزوة في قلة من العدد.. ونقص من العتاد والسلاح.. وأعداؤهم المشركون أكثر عددًا.. وأوفر سلاحًا.. وأشد حنكة ودراية بالحروب.. فالكفار كانوا أكثر ممارسة للحروب.. وتجربة لها..

وصل المشركون موقع بدر.. في موضع صلب.. ونزل المسلمون في موقع بدر على كثيب رمال تسوخ فيه الأقدام..

فأنزل الله المطر على الأرض التي فيها المسلمون.. حتى ثبتت عليه الأقدام.. وزالت عنهم وسوسة الشيطان.. فشربوا واغتسلوا وتطهروا..

وكان نزول المطر رحمة على المؤمنين.. ونقمة على المشركين.. فأصبحت أقدام الأعداء تنزلق.. لأنهم كانوا في أرض سبخة.. يضرها وجود الماء.. والمؤمنون في أرض طيبة.. لا غبار فيها..

وأشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١].

النوع العاشر: حفظ الله لنبيه من أعلام نبوته:

مع أبي جهل.. تكفل الله تعالى بحفظ نبيه ﷺ..

قال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٩٤-٩٦].

من أمثلة ذلك.. ما وقع لفرعون هذه الأمة.. أبي جهل..

كان أبو جهل متكبرًا متغطرسًا.. أقبل يومًا إلى أصحابه عند الكعبة.. وقال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

قالوا: نعم..

فغضب وقال: واللات والعزى.. لئن رأيته يفعل ذلك.. لأطأن على رقبته..

تبًا له.. ما أقبحه وأقبح أخلاقه!!

فما هو إلا قليل.. حتى جاء النبي ﷺ يمشي بكل سكينة.. فصف قدميه قريبًا من الكعبة.. وكبر مصليًا.. سجد النبي ﷺ.. وصار يناجي ربه..

كان هذا المنظر امتحانًا عاجلاً لشجاعة أبي جهل.. بالنسبة لأصحابه..

مضى أبو جهل يضرب الأرض بقدميه بكل كبر.. يظن أنه سيتمكن من أن يطأ على رقبة النبي الكريم ﷺ!!.. فما كاد أبو جهل يصل إلى النبي ﷺ.. حتى صرخ.. وأخذ يرجع إلى ورائه.. ويتقي بيديه أمامه.. وكأن حريقًا أو أذى سيصيب وجهه..

وصل إلى أصحابه منتقع الوجه.. أصفر اللون.. نظر إليه أصحابه.. فقالوا: ما لك؟

فقال وهو يلهث: إن بيني وبينه لخندقًا من نار.. وهولاً وأجنحة..

فلما قضى ﷺ صلاته.. قال: «لو دنا مني.. لاختطفته الملائكة.. عضوًا.. عضوًا»..

وأنزل الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:٩-١٩].

قصة سراقة.. من أحداث الهجرة المباركة..

إن قريشًا لما جعلت الجوائز الكبار لمن قبض على النبي ﷺ أو صاحبه.. تاقت نفوس الناس لهذه الجوائز.. ممن تبعهم يبحث وينقب.. سراقة بن مالك..

استطاع سراقة فعلاً أن يصل إلى النبي ﷺ وأبي بكر.. واقترب.. واقترب.. وهو يطوي الأرض راكبًا فرسه..

فقال أبو بكر: يا رسول الله أتينا..

فقال ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».. ثم دعا رسول الله ﷺ على سراقة..

فدخلت قدما فرسه في التراب.. حتى غاصت فرسه في الأرض إلى بطنها.. حاول سراقة أن يتخلص.. فلم يستطع..

فصاح بالنبي ﷺ فقال: إني قد علمت أنكما دعوتما علي.. فادعوا لي.. ولكما أن أرد عنكما الطلب.. فدعا النبي عليه الصلاة والسلام الله أن ينجيه.. فنجا..

فرجع سراقة إلى مكة.. وجعل لا يلقى أحدًا من قريش متوجهًا جهة النبي ﷺ وصاحبه.. إلا قال: قد كفيتم هاهنا.. ويدفع الناس ليبحثوا في الجهات الأخرى..

وأنجى الله تعالى نبيه ﷺ. وصدق الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧].

وكان سراقة بعدها ينشد مخاطبًا أبا جهل:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا	لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمدًا	نبي وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك بكف الناس عنه لأنني	أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر يود النصر فيه بإلبها	لو أن جميع الناس طرًا يحاربه

من يمنعك مني؟

خرج النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة من الغزوات.. فلما رجعوا.. نزلوا واديًا أثناء الطريق.. وتفرق الناس يستظلون بالشجر.. وينامون..

ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة.. فاضطجع في ظلها.. وعلق سيفه بغصن من أغصانها.. فبينما رسول الله ﷺ نائم.. إذا برجل من المشركين كان يتبعهم..

أقبل هذا الرجل يمشي رويدًا إلى النبي ﷺ. حتى وقف على رأس النبي ﷺ وهو نائم.. ثم أخذ سيف النبي ﷺ المعلق على الشجرة.. واستله من غمده.. ثم رفعه على رأس النبي ﷺ. وجعل يصيح وهو سكران بنشوة الانتصار.. ويقول: يااا محمد.. من يمنعك مني؟

فتح النبي ﷺ عينه.. فإذا بالرجل شاهر السيف.. وأصحابه متفرقون عنه..

كان الرجل ثائرًا.. لم تفلح معه أي طريقة لتهدئته أو التفاهم معه.. ولا يسمع منه النبي ﷺ إلا ثلاث كلمات: من.. يمنعك.. مني؟

فقال ﷺ بكل ثقة: «يمنعني منك.. الله».. فانتفض الرجل وسقط السيف من يده..

فقام ﷺ والتقط السيف.. ورفعه وقال للرجل: «من يمنعك مني؟».

فاحتار الرجل.. ماذا يقول؟ اللات والعزى!! وأنى تنفعه اللات والعزى!! فلم يجد الرجل بدًّا من أن يقول بكل استسلام: لا أحد.. كن خير آخذ..

فقال له ﷺ: «تسلم؟».

قال: لا.. لكن أعاهدك ألا أقاتلك أبدًا.. ولا أكون في قوم هم حرب لك..

وكان الرجل ملكًا على قومه.. فعفا عنه النبي ﷺ.. ثم مضى إلى قومه.. فلم يلبث أن دخل في الإسلام..

الأرض تنتصر للرسول ﷺ..

كان في عهد النبي ﷺ رجل نصراني.. فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران.. وكان كاتبًا قارئًا.. فكان من ضمن من يكتب للنبي ﷺ أحيانًا.. وفجأة.. عاد الرجل نصرانيًّا.. ولحق بقوم من أهل الكتاب.. وجعل ينتقص النبي ﷺ.. ويشكك في القرآن.. ويقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له..

فلما رأى النبي ﷺ ذلك.. دعا عليه فقال: «اللهم اجعله آية».. فما مر عليه أيام حتى أماته الله.. فأخذه أصحابه.. ودفنوه.. فلما أصبحوا فإذا الأرض قد لفظته فوقها!!

فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه.. لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا.. فألقوه..!!

فحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا.. فلما أصبحوا.. أقبلوا إلى قبره.. فإذا هو قد لفظته الأرض.. فقالوا: هذا أيضًا من فعل محمد وأصحابه.. لما هرب منهم صاحبنا نبشوا عن قبره فأخرجوه..!! ثم حفروا له وأعمقوا أكثر ما استطاعوا.. فلما أصبحوا.. فإذا الأرض أيضًا قد لفظته فوقها..

فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذًا على الأرض.. فظل ملقى على التراب.. تمر به الكلاب فتبول عليه.. وتعبث بجسده الذئاب.. وتفتت أعضاءه الطيور..

نعم.. ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر:٩٥]

مع ابن النضير..

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود..

فيها: بنو قريظة.. وبنو النضير.. وبنو قينقاع..

كان بين النبي ﷺ وبينهم عهد على أن يتعاونوا في ديات القتل.. وغيرها..

ذهب النبي ﷺ مع بعض أصحابه.. إلى بني النضير يومًا يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما الصحابي عمرو بن أمية خطأً..

وكان بين قبيلة القتيلين.. وبين المسلمين عهد.. فكان لا بد من دفع دية القتيلين..

وصل ﷺ إلى يهود بني النضير.. عرض عليهم مساعدته في دية القتيلين..

قالوا: نعم.. يا أبا القاسم!.. نعينك على ما أحببت..

لكن اليهود قوم غدر..

فأجلسوا النبي ﷺ في ظل جدار.. وغابوا عنه كأنهم يجمعون له المال.. فلما خلا بعضهم ببعض.. قالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه..

فمن رجل منكم يعلو على هذا البيت.. فيلقي عليه صخرة.. ويريحنا منه؟!

فتطوع لهذه الجريمة النكراء رجل منهم.. اسمه عمرو بن جحاش.. فقال: أنا لذلك..

فصعد ابن جحاش على سطح البيت الذي يتكئ النبي ﷺ على جداره.. ليلقي عليه صخرة.. ورسول الله ﷺ مع أصحابه.. في ظل الجدار..

فإذا بالخبر من السماء.. يتنزل على رسول الله ﷺ.. ويخبره الله بمكيدة القوم.. وإذا برسول الله ﷺ يقوم فجأة مسرعًا من مكانه.. راجعًا إلى المدينة..

وأصحابه مكانهم.. ينتظرون اليهود.. وقد ظنوا أن النبي ﷺ قام لحاجة وأنه راجع إليهم.. فلما أبطأ النبي ﷺ على أصحابه.. قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة..

فسألوه: هل رأيت رسول الله ﷺ؟

فقال: رأيته داخلاً المدينة.. فعجب الصحابة من رجوعه.. فلما وصلوا إليه.. سألوه؟ فأخبرهم ﷺ بالخبر.. وبما كانت يهود أرادت من الغدر به.. ثم كان ما كان بعدها من الحرب بين النبي ﷺ وبين يهود بني النضير.. وحاصرهم.. حتى أخرجهم من المدينة..

النوع الحادي عشر: إجابة دعائه ﷺ:

كان رسول الله ﷺ مستجاب الدعوة..

فيستجيب الله تعالى له.. في قضاء الحوائج.. وتفريج الكرب.. وشفاء المرض.. وتحقيق المطالب.. وحلول البركة..

وقد تقدم طرف من أدعيته المستجابة.. بأبي هو وأمي ﷺ..

وها نحن نورد المزيد..

فمن ذلك:

أم أبي هريرة: إن أم أبي هريرة بقيت على دين قومها.. تعبد الأصنام.. وكان أبو هريرة يدعوها إلى الإسلام.. وتأبى.. فدعاها يومًا فأسمعته في رسول الله ﷺ ما يكره..

فبكى أبو هريرة.. ومضى إلى رسول الله ﷺ.. وهو يبكي..

فقال: يا رسول الله!.. إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي.. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره.. فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة..

فقال ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»..

فخرج أبو هريرة مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ.. فلما وصل البيت وحرك الباب ليدخل.. سمعت أمه خشف قدميه.. فقالت: مكانك يا أبا هريرة!..

وسمع أبو هريرة خضخضة الماء.. وكأن أمه تغتسل..

فانتظر قليلاً عند الباب ليدخل.. فإذا أمه قد اغتسلت.. ولبست درعها.. وعجلت عن خمارها..

ثم فتحت له الباب وقالت: يا أبا هريرة!.. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن

محمدًا عبده ورسوله.. استبشر أبو هريرة.. وغلبه الفرح حتى بكى..

فرجع إلى رسول الله ﷺ.. يبكي من الفرح.. فقال: يا رسول الله.. أبشر قد استجاب الله دعوتك.. وهدى أم أبي هريرة..

ففرح النبي ﷺ.. وحمد الله.. وأثنى عليه.. وقال لأبي هريرة خيرًا..

فطمع أبو هريرة في زيادة الخير.. فقال: يا رسول الله!.. ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين.. ويحببهم إلينا..

فقال ﷺ: «اللهم حبب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين.. وحبب إليهم المؤمنين»..

قال أبو هريرة: فما خلق مؤمن يسمع بي.. ولا يراني.. إلا أحبني..

دعا لأبي طلحة وزوجه:

تزوجت أم سليم أبا طلحة.. ورزقت منه بغلام صبيح.. هو أبو عمير.. وكان أبو طلحة يحبه حبًا عظيمًا..

بل كان ﷺ يحبه.. ويمر بالصغير فيرى معه طيرًا يلعب به.. اسمه النغير.. فكان يمازحه ويقول: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟».

فمرض الغلام.. فحزن أبو طلحة عليه حزنًا شديدًا.. حتى اشتد المرض بالغلام يومًا.. وخرج أبو طلحة في حاجة إلى رسول الله ﷺ.. وتأخر عنده..

فازداد مرض الغلام ومات.. وأمه عنده..

بكى بعض أهل البيت.. فهدأتهم.. وقالت: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه.. فوضعت الغلام في ناحية من البيت وغطته.. وأعدت لزوجها طعامه.. فلما عاد أبو طلحة إلى بيته.. سألها: كيف الغلام؟

قالت: هدأت نفسه.. وأرجو أن يكون قد استراح..

فتوجه إليه ليراه.. فأبت عليه وقالت: هو ساكن فلا تحركه.. ثم قربت له عشاءه فأكل وشرب.. ثم أصاب منها ما يصيبه الرجل من امرأته.. فلما رأت أنه قد شبع واستقر..

قالت: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم -أي أسلفوا متاعًا لهم - لأهل بيت فطلبوا عاريتهم.. ألهم أن يمنعوهم؟

قال: لا..

قالت: ألا تعجب من جيراننا؟

قال: وما لهم؟!

قالت: أعارهم قوم عارية.. وطال بقاؤها عندهم حتى رأوا أن قد ملكوها.. فلما جاء أهلها يطلبونها.. جزعوا أن يعطوها إياها..

فقال: بئس ما صنعوا..

فقالت: هذا ابنك.. كان عارية من الله.. وقد قبضه إليه.. فاحتسب ولدك عند الله..

ففزع.. ثم قال: والله.. ما تغلبيني على الصبر الليلة.. فقام وجهز ولده..

فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره.. فدعا لهما بالبركة.. فولدت له غلامًا سماه رسول الله ﷺ عبد الله فجاء من صلبه تسعة أولاد.. كلهم قد حفظ القرآن.

دعاؤه ﷺ لقبيلة دوس:

وكان لذلك قصة طريفة..

الطفيل بن عمرو.. كان سيدًا مطاعًا في قبيلته دوس.. قدم مكة يومًا في حاجة.. فلما دخلها.. رآه أشراف قريش.. فأقبلوا عليه.. وقالوا: من أنت؟ قال: أنا الطفيل بن عمرو.. سيد دوس..

فقالوا: إن ههنا رجلاً في مكة يزعم أنه نبي.. فاحذر أن تجلس معه أو تسمع كلامه.. فإنه ساحر.. إن استمعت إليه ذهب بعقلك..

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي يخوفونني منه.. حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا.. ولا أكلمه.. بل حشوت في أذني كرسفًا -وهو القطن -خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا مار به..

قال الطفيل: فغدوت إلى المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند

الكعبة.. فقمت منه قريبًا.. فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله..

فسمعت كلامًا حسنًا.. فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب.. ما يخفى علي الحسن من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي به حسنًا قبلته.. وإن كان قبيحًا تركته.. فمكثت حتى قضى صلاته.. فلما قام منصرفًا إلى بيته تبعته.. حتى إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: يا محمد!.. إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. والله ما برحوا يخوفونني منك حتى سددت أذني بكرسف؛ لئلا أسمع قولك.. وقد سمعت منك قولاً حسنًا.. فاعرض علي أمرك..

فابتهج النبي عليه الصلاة والسلام.. وفرح.. وعرض الإسلام على الطفيل.. وتلا عليه القرآن.. فتفكر الطفيل في حاله.. فإذا كل يوم يعيشه يزيده من الله بعدًا..

وإذا هو يعبد حجرًا.. لا يسمع دعاءه إذا دعاه.. ولا يجيب نداءه إذا ناداه.. وهذا الحق قد تبين له.. ثم بدأ الطفيل يتفكر في عاقبة إسلامه..

كيف يغير دينه ودين آبائه!!.. ماذا سيقول الناس عنه؟!

حياته التي عاشها.. أمواله التي جمعها.. أهله.. ولده.. جيرانه.. خلانه.. كل هذا سيضطرب..

سكت الطفيل.. يفكر.. يوازن بين دنياه وآخرته.. وفجأة إذا به يضرب بدنياه عرض الحائط..

نعم سوف أستقيم على الدين.. وليرض من يرضى.. وليسخط من يسخط.. وماذا يكون أهل الأرض.. إذا رضي أهل السماء؟!..

ماله ورزقه بيد من في السماء.. صحته وسقمه بيد من في السماء.. منصبه وجاهه بيد من في السماء.. بل حياته وموته بيد من في السماء.. فإذا رضي أهل السماء.. فلا عليه ما فاته من الدنيا..

إذا أحبه الله.. فليبغضه بعدها من شاء.. وليتنكر له من شاء.. وليستهزئ به من شاء..

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

نعم.. أسلم الطفيل في مكانه.. وشهد شهادة الحق.. ثم ارتفعت همته.. فقال: يا نبي الله!.. إني امرؤ مطاع في قومي.. وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام..

ثم خرج الطفيل من مكة.. مسرعًا إلى قومه.. حاملاً هم هذا الدين.. يصعد به جبل.. وينزل به وادٍ.. حتى وصل ديار قومه.. فلما دخلها.. أقبل إليه أبوه.. وكان شيخًا كبيرًا..

فقال الطفيل: إليك عني يا أبت.. فلست منك ولست مني..

قال: ولم يا بني؟

قال: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ.

قال: أي بني ديني دينك..

قال: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك.. ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت..

فذهب أبوه واغتسل وطهر ثيابه.. ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم.. ثم مشى الطفيل إلى بيته.. فأتته زوجته مرحبة..

فقال: إليك عني.. فلست منك ولست مني..

قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي..

قال: فرق بيني وبينك الإسلام.. وتابعت دين محمد ﷺ.

قالت: فديني دينك..

قال: فقلت فاذهبي فتطهري.. ثم ارجعي إلي.. فولته ظهرها ذاهبة.. ثم خافت من صنمهم أن يعاقبها في أولادها إن تركت عبادته..

فرجعت إليه وقالت: بأبي أنت وأمي.. أما تخشى على الصبية من ذي الشرى..؟ وذو الشرى صنم عندهم يعبدونه.. وكانوا يرون أن من ترك عبادته أصابه أو أصاب ولده بأذى..

فقال الطفيل: اذهبي.. أنا ضامن لك ألا يضرهم ذو الشرى.. فذهبت فاغتسلت.. ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت..

ثم جعل الطفيل يطوف في قومه.. يدعوهم إلى الإسلام بيتًا بيتًا.. ويقبل عليهم في نواديهم.. ويقف عليهم في طرقاتهم.. لكنهم أبوا إلا عبادة الأصنام.. فغضب الطفيل.. وذهب إلى مكة..

فأقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله!.. إن دوسًا قد عصت وأبت.. يا رسول الله!.. فادع الله عليهم.. فتغير وجه النبي عليه الصلاة والسلام.. ورفع يديه إلى السماء..

فقال الطفيل في نفسه: هلكت دوس..

فإذا بالرحيم الشفيق ﷺ.. يقول: «اللهم اهد دوسًا.. اللهم اهد دوسًا»..

ثم التفت إلى الطفيل وقال: ارجع إلى قومك.. فادعهم.. وارفق بهم.. فرجع إليهم.. فلم يمض عليهم وقت حتى أسلموا..

استجابة دعائه على أعدائه:

انظر إلى رسول الله ﷺ وقد جلس في مجلسه المبارك.. بعدما انتشر الدين.. ووحد رب العالمين.. فجعل رؤساء القبائل يأتون إليه مذعنين مؤمنين.. ومنهم من كانوا يأتون صاغرين حاقدين..

وفي يوم أقبل رئيس من رؤساء العرب.. له في قومه ملك ومنعة..

أقبل عامر بن الطفيل.. وكان قومه يقولون له لما رأوا انتشار الإسلام: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم.. وكان متكبرًا متغطرسًا..

فكان يقول لهم: والله لقد كنت أقسمت ألا أموت حتى تملكني العرب عليهم وتتبع عقبي.. فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!!

ثم لما رأى تمكن الإسلام.. وانصياع الناس لرسول الله ﷺ.. ركب ناقته مع بعض أصحابه ومضى إلى رسول الله ﷺ..

دخل المسجد على رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه الكرام.. فلما وقف بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا محمد خالني - أي: قف معي على انفراد..

وكان ﷺ حذرًا من أمثال هؤلاء.. فقال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»..

فقال: يا محمد خالني.. فأبى النبي ﷺ.. فلا زال يكرر.. يا محمد قم معي أكلمك.. يا محمد قم معي أكلمك.. حتى قام معه رسول الله ﷺ.. فاجتر عامر إليه أحد أصحابه اسمه إربد.. وقال: إني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاضربه بالسيف.. فجعل إربد يده على سيفه واستعد..

فانفرد الاثنان إلى الجدار.. ووقف معهما رسول الله ﷺ يكلم عامرًا.. وقبض إربد بيده على السيف.. فكلما أراد أن يسله يبست يده.. فلم يستطع سل السيف..

وجعل عامر يشاغل رسول الله ﷺ.. وينظر إلى إربد.. وإربد جامد لا يتحرك.. فالتفت ﷺ فرأى إربد وما يصنع.. فقال: «يا عامر بن الطفيل.. أسلم»..

فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟

فقال ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»..

قال عامر: أتجعل لي الملك من بعدك إن أسلمت؟

فقال ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك»..

فقال: أسلم على أن لي الوبر ولك الدر.. - أي: أكون ملكًا على البادية وأنت على الحاضرة.

فقال ﷺ: «لا»..

عندها غضب عامر وتغير وجهه.. وصاح بأعلى صوته: والله يا محمد.. لأملأنها عليك خيلاً جردًا.. ورجالاً مردًا.. ولأربطن بكل نخلة فرسًا.. ولأغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء.. ثم خرج يبرق ويرعد.. فرفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء وقال: «اللهم اكفني عامرًا واهد قومه»..

فخرج مع أصحابه حتى إذا فارق المدينة.. تعب من المسير.. فصادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية وكانت في خيمة لها.. فنزل عن فرسه ونام في بيتها..

فأخذته غدة وانتفاخ في حلقه كما يظهر في أعناق الإبل فيقتلها.. ففزع واضطرب.. ووثب على فرسه.. وأخذ رمحه.. وأقبل يجول.. ويصيح من شدة الألم.. ويتحسس عنقه بيده ويقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية.. فلم تزل تلك حاله يدور به فرسه.. حتى سقط عن فرسه ميتًا..

فتركه أصحابه.. ورجعوا إلى قومهم.. فلما دخلوا ديارهم.. أقبل الناس إلى إربد يسألونه: ما وراءك يا إربد؟

قال: لا شيء.. والله لقد دعانا محمد إلى عبادة شيء.. لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله..

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له ليبيعه.. فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.. وأنزل الله ﷻ في حال عامر وإربد: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٠-١٣].

وأخيـــرًا:

هذا النبي العظيم.. أيده ربه بالمعجزات.. واختار له أصحابًا أخيارًا.. أحبوه أكثر من حبهم لأنفسهم وأولادهم..

ففي غزوة أحد.. أقبل المشركون على رسول الله ﷺ يريدون قتله.. فأحاطه أصحابه بأجسادهم يصدون عنه الرماح.. وضربات السيوف.. تقد في أجسادهم دونه..

وكان أبو طلحة رضي الله عنه يرفع صدره ويقول: يا رسول الله لا يصيبك سهم.. نحري دون نحرك..

قال أبو بكر: أقبلت على النبي ﷺ فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه.. فنظرت فإذا هو أبو طلحة.. فلم يلبث أن صرع ووقع من كثرة الضرب عليه..

فأقبل أبو عبيدة يشتد كأنه طير.. فإذا أبو طلحة بين يديه ﷺ واقعًا على الأرض فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب».. فأقبلنا على أبي طلحة.. وقد أصابته بضع عشرة ضربة..

فلما انتهت المعركة تذكر رسول الله ﷺ أحد أصحابه الكرام.. من خيارهم..

ممن كان يقوم معه الليل ويصوم معه النهار ممن يبذل للدين كل شيء حتى روحه..

تذكر ﷺ سعد بن الربيع الأنصاري.. فسأل أصحابه قائلاً: «من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء أم في الأموات؟»..

فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد.. فبحث عنه فوجده جريحًا في القتلى.. وقد شارف على الموت.. جراحه تنزف دمًا.. وثيابه ممزقة.. وقد علاه الغبار.. وهو يصارع الموت..

فقال الرجل: يا سعد.. إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأموات أنت أم في الأحياء؟

فالتفت إليه سعد وقال: أنا في الأموات.. فأبلغ رسول الله عني السلام.. وقل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته.. وأبلغ قومي عني السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف..

وقل لرسول الله ﷺ يا رسول الله.. إن سعدًا يجد ريح الجنة.. ثم.. مااااات..

الكفار يشهدون:

حتى الكفار شهدوا بهذه المحبة..فقبل فتح مكة.. خرج ﷺ إليها معتمرًا.. فلما أقبل على الحرم بعثت قريش إليه البعوث يردونه عن المسجد الحرام..

فكان ممن جاءه عروة بن مسعود وجعل يكلم النبي ﷺ وينظر إلى الصحابة حوله.. فوالله ما انتخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم.. فدلك بها وجهه وجلده.. وإذا أمر ابتدروا أمره.. وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم.. وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له..

فلما رأى عروة ذلك رجع إلى أصحابه.. فقال: أي قوم.. والله قد وفدت على الملوك.. كسرى.. وقيصر.. والنجاشي..

والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه.. كما يعظم أصحاب محمد محمدًا..

كانوا يحبونه..بل كان الصحابة يصرحون بهذا الحب العظيم حتى قال له عمر يومًا: يا رسول الله.. أنت أحب إلي من مالي وولدي.. بل والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي..

وجاء رجل إليه ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟

قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت»..

فما فرح الصحابة بشيء كفرحهم بهذه الكلمة.. أنت مع من أحببت..

وكانوا رضي الله عنهم إذا مشوا بجانبه أظلوه من الشمس.. وإذا سافروا معه فأتوا على شجرة ظليلة تركوها له ﷺ يرتاح في ظلها..

كيف أحبوه؟

ولكن بالرغم من كل هذه المحبة والإجلال.. والحب والوفاء.. والمكانة العظيمة له ﷺ في قلوب صحابته الكرام.. فإنهم لم ينزلوه فوق منزلته.. أو يرفعوه عن منزلة البشرية..

فمحمد بن عبد الله ﷺ.. هو رسول الله.. ونبيه.. وعبده..

نعم.. هو سيد ولد آدم.. والشافع يوم الحشر.. لكنه كما قال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:٦].

فكونه ﷺ بشرًا.. لا ينقص من قدره.. وقد بلغ ﷺ رسالة ربه.. وتحمل الأذى.. حتى نصره الله.. وبلغ دينه..

فما حق الرسول ﷺ على أمته؟ أهو إنشاد المدائح مع ما فيها من الغلو؟؟

كلا.. فقد نهى ﷺ عن ذلك فقال كما في الصحيحين: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد الله ورسوله»..

أم حقه.. في إقامة الموالد والاحتفال بالإسراء والمعراج..؟؟

كلا.. فقد نهى ﷺ عن ذلك فقال كما في الصحيحين: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»..

أم حقه.. في الاستغاثة به.. ودعائه من دون الله؟ أو الطواف على قبره.. أو الحلف باسمه من دون الله..؟

كلا.. كلا.. فهذا كله من الشرك بالله..

إذن.. ما حقوقه ﷺ على أمته؟

* أول الحقوق:

اعتقاد أنه ﷺ عبد رسول.. وتقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين.. مع توقيره وإجلاله.. عليه الصلاة والسلام..

قال الله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]..

* ومن حقوقه: **تصديقه فيما أخبر.. فهو لا ينطق عن الهوى.. فنصدق ما ذكره من أشراط الساعة.. وأحداث آخر الزمان.. وغير ذلك..**

* ومن حقوقه: **الصلاة والسلام عليه.. قال الله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]..

وتتأكد عند ذكره.. فقد قال ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي..». [رواه الترمذي وقال: حسن غريب]..

وعند سماع المؤذن.. روى مسلم أنه ﷺ قال: «إذا سمعتم مؤذنًا فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي»..

وعند دخول المسجد والخروج منه.. فإذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك» [رواه أحمد]..

وتستحب الصلاة عليه عند ختم الدعاء؛ لقول عمر رضي الله عنه ما رواه الترمذي بسند صحيح: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك»..

ويتأكد الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلتها.. قال ﷺ فيها: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، ففيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»..

* ومن حقوقه: **معرفة سيرته.. وتعداد فضائله ومعجزاته.. وتعريف الناس بسنته.. بشرط الابتعاد عن الغلو والإطراء المحظور..**

* ومن حقوقه: **العمل بشريعته.. والتأسي بسنته.. وتبليغ رسالته.. والبعد عن**

معصيته ومخالفته.. واتباعه في ظاهره وباطنه.. اتباع سنته.. والاقتداء به في أفعاله.. وأقواله.. بل وحتى في طريقة أكله.. وشربه.. ونومه.. وفي جميع شئونه..

فإذا سمعت قوله: «خالفوا اليهود، أعفوا اللحى وحفوا الشوارب». أطعت واتبعت..

وإذا سمعت قوله: «ما تحت الكعبين من الإزار ففي النار». سارعت إلى تنفيذ أمره.. وقد قال الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]..

بل.. إذا نهاك عن سماع الغناء.. أو أكل الربا.. أو حثك على بر الوالدين.. أو الصدقة.. سارعت إلى هذه القربات.. راضيًا فرحًا مستبشرًا..

قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]..

وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]..

* ومن حقوقه: طاعته والتحاكم إليه:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وقد أمر الله بطاعة نبيه ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعًا من القرآن.. كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله.. بل بين الله تعالى أن دخول الجنة.. مقيد بطاعته ﷺ..

قال ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٧٠،٦٩].

وقال ﷺ فيما رواه البخاري: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى».. قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟.. قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

والله تعالى يقول معلمًا ومؤدبًا لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:١، ٢].

ولقد سمع الصحابة هذه الآيات.. فتأدبوا مع رسولهم ﷺ.. فما منهم أحد يعترض.. أو حتى يدلي برأي ما لم يطلب منه الرسول ﷺ ذلك..

بل يقوم ﷺ فوق رءوسهم وهم مائة ألف في حجة الوداع.. في يوم النحر.. يوم عيد الأضحى.. ثم يسألهم: «أي يوم هذا..؟ أي شهر هذا؟.. أي بلد هذا..؟».

فيقولون: الله ورسوله أعلم..

نعم.. يسألهم.. وهم يعرفون الجواب.. لكنهم يقولون: الله ورسوله أعلم.. تأدبًا معه ﷺ..

فمن جاءه الأمر من الله.. أو من رسوله ﷺ.. فالواجب عليه الطاعة والتسليم.. ولا يحل له الاعتراض.. أو البحث عن مخارج وحيل..

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن الناس كانوا يصلون إلى بيت المقدس.. زمانًا.. فلما حولت القبلة إلى الكعبة.. وأنزلت الآيات في ذلك.. أقبل رجل من عند رسول الله ﷺ إلى الناس في مسجد قباء.. فوجدهم فيه يصلون الصبح.. فصاح بهم، وقال: إن رسول الله قد أنزل عليه الليلة.. وقد أمر أن يستقبل الكعبة..

فما كاد الرجل يتم كلماته.. حتى استداروا وهم في صلاتهم.. واستقبلوا الكعبة..

نعم.. نفذوا الأمر أثناء الصلاة.. دون تردد أو إبطاء..

بل.. روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كنت ساقي القوم في بيت أبي طلحة؛ يعني: يسقيهم الخمر.. وذلك قبل أن تحرم..

قال: وإني لقائم أسقي فلانًا وفلانًا وفلانًا..

إذ جاء رجل فقال: هل بلغكم الخبر؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: لقد حرمت الخمر.. وقد أمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت.. ثم قرأ عليهم الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فلما سمعوا الآية.. والله إن بعض القوم كانت شربته في يده.. فلم يرفعها إلى فيه..

بل أراق ما في كأسه وقال: انتهينا ربنا.. انتهينا.. ثم التفتوا إلى قلال الخمر.. وجعلوا يكسرونها.. فما سألوا عنها.. ولا راجعوها بعد خبر الرجل..

نعم.. وما دخل داخل.. ولا خرج خارج.. حتى أهراقوا الشراب.. وكسروا القلال.. ثم توضأ بعضهم.. واغتسل آخرون.. ثم تطيبوا.. وخرجوا إلى المسجد يخوضون في الخمر..

قد جرت بها سكك المدينة.. لم يقولوا تعودناه منذ سنين.. وورثناها عن آبائنا.. وما تكونت عصابات لتصنيع الخمر وترويجه..

كلا.. فهم مسلمون.. مستسلمون لأمر خالقهم ﷻ..

* ومن أكبر الحقوق: الذب عن سنته.. وعدم السخرية بشيء من هديه.. أو التنقص ممن يحرص على السنة في ملبسه وهيئته..

بل إن الاستهزاء من أصحاب السنة.. هو من صفات المنافقين.. قال الله لنفر من المستهزئين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦].

وختامًا.. أيها الإخوة والأخوات.. قد تبين لنا أن حقوق رسول الله ﷺ.. أجل وأعظم.. وأكرم وألزم.. من حقوق السادات على مماليكهم.. والآباء على أولادهم..

فهو الذي أنقذنا الله به من النار.. وهدانا به من الضلالة..

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا شفاعة نبيه ﷺ.. اللهم لا تحرمنا أجره.. ولا تفتنا بعده.. واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا.. آمين.. آمين..

* * *

معجزات النبي ﷺ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل عن الشبيه والمثيل والكفء والنظير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه، أرسله رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، كشف الله به الغمة، ووحد الأمة، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما ذكره الذاكرون الأبرار، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما تعاقب الليل والنهار، وصلى الله وسلم وبارك على جميع أنبيائه ورسله، وجعلنا الله تعالى من أتباعهم، وفي الجنة من أصحابهم.

أما بعد:

فيا أيها الإخوة والأخوات، إن الله - جل وعلا - بعث رسله وأمر الناس بطاعتهم واتباعهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤].

وبين الله تعالى أن دين هؤلاء الرسل واحد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالأنبياء أولاد علاّت دينهم واحد، لكن شرائعهم شتى، ولقد جعل الله تعالى لهؤلاء الأنبياء دلائل بينات وآيات واضحات، تجعل الناس يؤمنون بأن هؤلاء أنبياء مبعوثون من عند ربهم - جل جلاله - ولقد جعل الله تعالى هذه الآيات التي يجعلها للأنبياء موافقة للعصر الذي يعيش فيه هذا الرسول.

موسى عليه السلام لما بعث في عصر قد كثر فيه السحر وخوارق العادات، جعل الله تعالى له من الآيات ما في ظاهره هو خارق للعادة، فكان يخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، ويلقي العصا فإذا هي حية تسعى، فبهر كل ساحر وأذل كل كافر.

عيسى ﷺ لما بعث في عصر قد كثر فيه الطب وأنواع العلاج، جعل الله تعالى له من الآيات ما هو في ظاهره مشابه لما يفعله قومه، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، بل ويحيي الموتى بإذن الله.

أما محمد ﷺ فلقد جمع الله تعالى له من أنواع الآيات ما بهر البريات، حتى أن اليهود والكفار من قريش إلى غيرهم من الناس في عصره لم يكونوا يستطيعون أن يكذبوه في دواخل نفوسهم، إنما كانوا يكذبونه بألسنتهم فيجحدون به لكنهم تستيقن أنفسهم في كثير من الأحيان صدقه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤].

فقريش كانت تكذبه عليه الصلاة والسلام بألسنتهم، لكنهم يعلمون في دواخلهم أنه عليه الصلاة والسلام صادق، ألم تسمع أبا طالب وهو يقول عن النبي عليه الصلاة والسلام:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

عجبًا!! ما دام أنك تعلم أنه من خير أديان البرية دينًا، فلماذا لا تتبعه؟! والجواب:

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

وفي شعر آخر له يمدح النبي عليه الصلاة والسلام مدح المصدق بنبوته، لكنه يكذب في ظاهره؛ خوفًا من قومه حتى مات على ملة قومه، فكان يقول عن النبي ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إلى آخر الأبيات التي يبين فيها أن النبي ﷺ صادق فيما يدعو إليه.

إذًا فكل هؤلاء الأنبياء قد جعل الله لهم من أنواع الآيات البينات ما يبهر به البريات، فنوح ﷺ جعل الله تعالى له من الآيات ما لما كذب بها قومه أدى بهم ذلك إلى وقوع العقوبة عليهم، فدعا عليهم بثلاث كلمات: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

هذه الكلمات الثلاث تشققت لها أبواب السماء هذا الماء العظيم، وتشققت لها

الأرض وتفجرت حتى حمله الله تعالى على تلك السفينة ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤،١٣].

فهؤلاء الأنبياء قد جعل الله لهم هذه الآيات، ولو ذهبنا نقف على آيات الأنبياء المتنوعة لطال بنا المقام، بل لو أردنا أن نقف على آيات نبوة محمد ﷺ لاحتجنا لذلك إلى كلام كثير ربما يمتد إلى ساعات طوال، يكفي أن تعلم أن البيهقي والأصبهاني وجموعًا من أهل العلم قد ألفوا في دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، ألفوا في ذلك مؤلفات، حتى بلغت عند بعضهم سبعة مجلدات وإلى تسعة مجلدات، يذكرون فيها دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام حتى لا يملك القارئ فيها إلا أن يصدق بنبوته ﷺ.

نعم، هذه النبوة كما قال الله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] بحفظنا وحمايتنا وولايتنا.

ولعلنا نقف في هذا المقام على خمسة أنواع من آيات نبوة محمد ﷺ وكما ذكرت الأنواع كثيرة، ولو ذهبنا نقف عليها لطال بنا المقام، لكني في كل نوع سوف أذكر مثالاً أو مثالين؛ لأن كل نوع من هذه الأنواع يحوي تحته أمثلة كثيرة من سيرته العطرة عليه الصلاة والسلام، فلو ذهبت تسير على هذه الأنواع وتتلمس ما فيها لاحتجت أيضًا إلى أن تعددها في وقت طويل، لكني سأقف معكم على شيء هو من ألطف وأحسن ما ورد فيها.

أيها الأحبة الكرام، إن آيات نبوة محمد ﷺ تنقسم إلى قسمين:

١ - آيات ودلائل تتعلق بالأفعال.

٢ - آيات ودلائل تتعلق بالأقوال.

أما الآيات التي تتعلق بالأفعال فهي مثل: تكثير الطعام القليل، ونبع الماء بين أصابعه عليه الصلاة والسلام، وكشق القمر؛ والذي صار فلقتين، هذه من آيات الأفعال.

أما الآيات التي تتعلق بالأقوال مثل: إخباره عليه الصلاة والسلام بمغيبات، إلى غير ذلك من الأمثلة التي سيأتي معنا طرف منها إن شاء الله.

ولنبدأ بالدلائل التي تتعلق بالأقوال وأول مثال لها:

إخباره عليه الصلاة والسلام بأنواع من المغيبات:

وهذا له قسمان أيضًا:

فقد يخبر بما لم يقع بعد، فيقع كما أخبر عليه الصلاة والسلام، أو قد يخبر بغيب وقع، لكنه وقع في بلد آخر، فيخبر بأمر وقع في اليمن مثلاً أو في الشام أو ربما وقع في المدينة أو في خيبر فيكون الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام تمامًا.

مقتل أمية بن خلف في بدر: من ذلك ما رواه موسى بن عقبة في مغازيه: أن سعد بن معاذ كان بينه وبين أمية بن خلف إخاء في أيام الجاهلية، فكان أمية بن خلف إذا أراد أن يسافر إلى الشام يخرج من مكة شمالاً فيمر بالمدينة فينزل عند سعد بن معاذ، ينزل عنده يومًا أو يومين ليستريح ثم يكمل طريقه إلى الشام، وإذا رجع من الشام جنوبًا فإنه يمر بالمدينة أولاً ثم يمضي منها إلى مكة فكان أيضًا يرتاح عند صديقه سعد بن معاذ أيامًا، وكان سعد بن معاذ يفعل الشيء نفسه إذا أراد أن يمضي إلى اليمن أو صارت له حاجة في مكة يمضي ويجلس عند أمية بن خلف، يرتاح عنده يومًا أو يومين، ولم تقع حروب بعد بين المسلمين وقريش، وكان النبي ﷺ ما هاجر إلا قبل وقت يسير إلى المدينة.

فجأة في يوم من الأيام ذهب سعد بن معاذ إلى مكة في حاجة، فنزل عند صديقه أمية بن خلف وهو نازل قال لأمية: يا أمية، انظر لي ساعة خلوة أريد أن أطوف بالبيت.

فقال له أمية: إذًا انتظر إذا تعالى النهار، واشتد الحر - يعني: قبيل الزوال بقليل - فقبيل الظهر الناس يأوون إلى بيوتهم، وعندها أخرج أنا وأنت وتطوف بالبيت، فلا يكون فيه زحام ولا يرانا أحد في الطريق - يعني يصطنع معنا مشاكل - فلما تعالى النهار أخذ أمية بن خلف بيد صاحبه وخرجا، وفي أثناء الطريق ما لقيهم مملوك من مماليك مكة أو أمة من الإماء، أو رجل من الضعفاء، فإذا بفرعون هذه الأمة ورأس الكفر؛ إذا بأبي جهل هو الذي يلقاه، فقال أبو جهل لأمية بن خلف: من هذا؟

قال: هذا أخي اليثربي.

فقال أبو جهل: من يثرب؟

قال: نعم.

فغضب أبو جهل، وقال لسعد بن معاذ: آويتم محمدًا والصباة معه - والصباة: صابئ، وهو الذي غير دينه - ثم تأتي تريد أن تطوف بالبيت آمنًا، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا.

فغضب سعد بن معاذ وهو سيد غير متعود أن يسخر منه واحد هكذا، فهو سيد من سادات قومه في المدينة.

فغضب سعد بن معاذ وقال: لئن منعتني يا أبا جهل من هذا - يعني: الطواف بالبيت - لأمنعنك ما هو أحب إليك من ذلك.

قال أبو جهل: تمنعني ماذا؟ أنتم عندكم كعبة بالمدينة تمنعني منها؟!

قال سعد: أمنعك طريقك إلى الشام.

فغضب أبو جهل وقال: والله ما تقدر.

فقال سعد: بل أقدر.

فصارت بينهما الخصومة وأمية بن خلف المسكين تورط يتلفت يمينه فإذا سعد بن معاذ، وهو سيد من سادات قومه في المدينة، ويلتفت يسارًا فإذا بأبي جهل سيد من سادات قومه في مكة وما عاد يدري يفزع مع هذا أم مع هذا؟

فمالت نفسه إلى أبي جهل، والتفت إلى سعد وقال: يا سعد لا ترفع صوتك على أبي الحكم؛ فإنه سيد هذا الوادي.

وأما سعد فقد غسل يديه من الاثنين والتفت إلى أمية فقال: وأنت دعني منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يخبرنا أننا نقتلك.

قال أمية: هاه!! محمد قال لكم: إنكم تقتلوني؟

قال سعد: نعم.

قال أمية: والله ما يكذب محمد أبدًا، لكن قال لكم: ستقتلونني في مكة أم في غيرها؟

قال سعد: ما أدري في مكة أم في غيرها، المهم أنك مقتول، مقتول بأيدي المسلمين.

فترك أمية بن خلف الاثنين ومضى يكلم نفسه، ويقول: والله ما يكذب محمد أبدًا، حتى دخل على امرأته، فقال لها: يا أم صفوان. قالت: نعم.

قال: أما علمت ما قال لي أخي اليثربي؟

قالت: وماذا قال لك؟

قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم يقتلونني، قالت: والله ما يكذب محمد أبدًا، لكن يقتلونك في مكة أم غيرها؟ قال: والله ما أدري، لكن لك علي أن لا أخرج من مكة أبدًا، مكة فيها الحرس، فيها عبيدي ومماليكي، وفيها قومي، لن أخرج من مكة أبدًا.

ومضت الأيام.. فأقبلت قافلة لقريش ومرت بطريق قريب من المدينة وخرج النبي ﷺ إليهم، فأرسل أبو سفيان إلى مكة يستنصرهم ويستخرجهم للخروج والدفاع عن قافلتهم، فجعل أبو جهل يطوف في الناس يقول: أيها الناس انفروا إلى قافلتكم ودافعوا عنها.

كل الناس في مكة تجهزوا للخروج للقتال إلا واحدًا من هو؟ أمية بن خلف ظل جالسًا، أبو جهل يذهب ويجيء والناس يتجهزون، وأمية بن خلف جالس في ظل الكعبة، مر أبو جهل مرة ومرتين وأمية جالس، فوقف عليه أبو جهل قال: يا أمية، يا أبا صفوان، ها تجهز.

قال: ما أريد أن أخرج.

قال أبو جهل: عجبًا!! إنك متى جلست جلس الناس معك، فأنت لست أي واحد، أنت سيد من السادات، قال أمية: أما تذكر ما قال أخي اليثربي؟

قال أبو جهل: يا أبا صفوان اخرج معنا، أنت الآن تخرب علينا الجيش كله، قال أمية: ولا أتحرك من مكة أبدًا.

أبو جهل صحيح إنه كافر وضال لكنه ذكي.

مضى أبو جهل وأحضر مبخرة ووضع فيها جمرًا، ووضع عليها كسرة - عود

بخور- ثم أقبل على أمية وهو جالس مع قومه، فقال: يا أبا صفوان خذ هذا وتطيب إنما أنت من النساء.

قال أمية: هاه!! النساء.

قال أبو جهل: نعم، لو أنك رجل طلعت تقاتل مع الرجال، لكن اقعد مع الحريم، ونحن نخرج لنقاتل؛ فغضب أمية وضرب المبخرة، وقام إلى بيته وقال: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت: أجهزك إلى أين؟

قال: سأخرج معهم.

قالت: أما تذكر ما قال أخوك اليثربي؟

قال: سأخرج معهم مرحلة أو مرحلتين، ثم أرجع، فالطريق إلى المدينة طويل خمسمائة كيلو، سأمشي معهم، أكيد في الطريق سينزلون للغداء سينزلون للعشاء، سينزلون للمبيت، فإذا نزلوا منزلاً وهم ألف وثلاثمائة، سوف أغافلهم وأرجع، لكن أبو جهل كان أذكى منه، فكان كلما نزلوا وأقبل أمية وجلس على بعيره، ينتظر أن ينشغلوا بالارتحال فيهرب، لكن أبو جهل يقبل ويقف آخر الجيش ويقول: ارتحلوا، قم يا أمية، وهكذا يفعل أبو جهل كلما نزلوا منزلاً، فلم يزل يسوقه حتى وصل مكان بدر، ثم قتل بأيدي المسلمين، وكان كما أخبر النبي ﷺ.

فهذا من إخباره عليه الصلاة والسلام بشيء من المغيبات.

الذراع المسموم ونجاة النبي المعصوم:

كذلك من إخباره ﷺ أيضًا ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي لما فتح خيبر دعته امرأة يهودية إلى الطعام فأقبل ﷺ، وكانوا قد حاصروا خيبر وقتًا طويلاً حتى جاعوا وتعبوا وأرهقوا حتى أصابهم الحاجة، فلما وضعت هذه المرأة اليهودية هذا الطعام أقبل النبي ﷺ مع أصحابه وجلسوا حول هذه الشاة المشوية، فلما رفع النبي إليه الذراع ونهش منها نهشة، صاح بأصحابه ليتوقفوا عن الطعام فتوقفوا، ثم وضع الذراع، ثم قال: «ادعوا لي من هاهنا من اليهود»، فدعوهم له، فأقبل رؤساؤهم فوقفوا بين يديه ﷺ فقال لهم: «يا معشر يهود، هل أنتم

صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم، يا أبا القاسم.

فقال النبي: «من أبوكم؟»

قالوا: أبونا فلان.

فقال ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت وبررت؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا ينتسبون إلى جد جبان، وكانوا إذا سئلوا في معرض الافتخار من أبوكم؟ انتسبوا إلى جد آخر هو في الحقيقة ليس جدًّا ليهود خيبر، إنما هو ليهود آخرين، لكنهم ما يريدون أن ينتسبوا إلى جدهم الجبان، فإذا افتخروا انتسبوا إلى جد آخر.

فقالوا: أبونا فلان، أي: لهذا الجد الآخر.

فقال ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت وبررت.

قال: «يا معشر يهود، هل أنتم صادقوني إن سألتكم عن شيء».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال لهم: «هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟».

قالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: أردنا إن كنت ملكًا متسلطًا تموت ونستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك، لكن من أخبرك؟

فقال ﷺ: «الذراع».

سبحان الله!! لما أراد أن يأكل الذراع، من محبة الذراع للنبي ﷺ لما قربها إلى فيه قالت: لا تأكلني أنا مسمومة يا رسول الله، هي ما تستطيع أن ترد السم عن نفسها، ولكنها ما تود أن تكون في بطن النبي ﷺ وهي مسمومة فنطقت.

هذا هو النوع الأول من آيات نبوته بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

معرفة الغيب بأمر الله:

ولا شك أن علم النبي ﷺ بالغيب هو من إخبار الله تعالى له، وإلا فنحن نعتقد عقيدة جازمة جميعًا أن الغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل:٦٥] لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي صالح، ولا ساحر ولا كاهن ولا مشعوذ لا يمكن أن يتنبأ بالغيب القادم جازمًا به، لا يمكن أن يطلع على ذلك إلا الله سبحانه يعلم ما يشاء ويحكم بما يريد - لكن علم النبي ﷺ بالغيب قد يكشف له أحيانًا أنواع من الغيب لمصلحة؛ وهي الدلالة على نبوته عليه الصلاة والسلام.

كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن:٢٧،٢٦].

من أتى عرافًا:

فأي إنسان يدعي أنه يعلم الغيب قل له: لا، أنت كذاب، النبي ﷺ يقول: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

مجرد أن يسأله حتى لو قال له ذلك الساحر أو العراف كلامًا ولم يصدقه ومضى، لكن مجرد أن يسأله عقوبته هي أنه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا، فإن صدقه فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

أيش الذي نزل على محمد ﷺ القرآن الكريم، فيكون قد كفر بالقرآن، كيف كفر بالقرآن؟ لأن الله تعالى قال في القرآن: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل:٦٥] وأنت صدقت أن هذا يعلم الغيب، معناه أنك كفرت بالقرآن.

الله يقول: لا يعلم الغيب إلا أنا، وأنت تقول: فلان يعلم الغيب؛ فقد كفرت بالقرآن.

قد يقول البعض: كيف؟ أنا أود أن أصدق كلامك، لكن بصراحة نحن نعلم أن بعض الناس يخبر بشيء من الغيب.

الغيب قسمان:

انتبه!! الغيب - يا جماعة - ينقسم إلى قسمين؛ هناك غيب تام وغيب نسبي، الغيب النسبي هو الذي يكون غيبًا بالنسبة إليك لكنه ليس غيبًا بالنسبة إلي، مثلاً: مقدار المال الذي في جيبي هو غيب بالنسبة إليك لكنه ليس غيبًا بالنسبة إلي، فأنا أعلم كم في جيبي من المال، فعندما يذهب إنسان إلى ساحر أو مشعوذ أو كاهن، فيشتكي إليه من مرض عنده وهذا المشعوذ في بلاد بعيدة، يأتي إليه هذا الإنسان ليقول: أنا والله ابنتي مريضة أو أنا مريض فيسأله أي سؤال فيه علم الغيب.

فيقول ذلك المشعوذ: آه، أنت تسكن في البلد الفلاني!!

فتقول: سبحان الله!! كيف عرفت؟

فيقول لك: آه، أنت زوجتك اسمها فلانة، أختك المريضة هذه أو كذا وقد زارتكم يومًا فلانة وهي عمتك صحيح؟ سبحان الله!! إنه يعلم الغيب.

هذا - يا أخي - ما هو بغيب حتى يعلمه، هذا الأمر أنت تعلمه وأمك تعلمه وإخوانك يعلمونه، والجن الموافقون لك يعلمونه أليس كذلك؟ فهل صار غيبًا؟!

إنما هؤلاء السحرة والكهنة والمشعوذون لهم أصحاب من الجن يقدمون للجن قربات فيخبرهم هذا الجن بحالك أنت، لكن لو قلت لهذا الساحر: أخبرني بما سيحدث بعد ساعتين لا يمكن أن يعرف أبدًا، وهذا هو الغيب التام الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ولو قال لك: أنت بعد ساعتين ستكون بالمكان الفلاني، أو بالمكان الآخر لكان كل هذا ضربًا من التوقعات دون أن يكون له حقيقة.

هي بنت لا ولد:

ذكروا أن أحد هؤلاء الكهان والعرافين والمنجمين ممن يدعي علم الغيب

عمومًا دخل مرة على أحد الخلفاء، فرأى في حجر هذا الخليفة مولودًا فجاء هذا وهو يريد أن يتقرب إلى هذا الخليفة بنوع من القربة، فأقبل هذا الكاهن فقال: يأيها الخليفة.

قال: نعم.

قال: ألا أخبرك بمستقبل هذا المولود؟

قال: بلى.

فجعل ينظر في النجوم ويعد أصابعه ويتكلم بطلاسم، وقال: آه، إن هذا سوف يكبر ويصير فارسًا من الفرسان، وسيكون ممن يقاتل بسيفين في وقت واحد، ولن يحتاج إلى أن يمسك بلجام الفرس ويقاتل، وهذا سيتزوج بنت الملك الفلاني في البلد الفلاني ويملكهم أيضًا، وجعل يقول ويذكر أنه سوف يرزق بكذا وكذا من الأولاد وسوف تكبر المملكة في حياته، وأخذ يطول الكلام وأعطاه جميع المميزات، ثم انتهى ينتظر الجائزة.

فقال له الخليفة: يا كذاب! هذه بنت وليس ولد، هؤلاء أصلاً يضربون بشيء من الغيب، وكم لعبوا بعقول الناس في كثير من الأحيان.

كف عبر الهواء:

خاصة أولئك الذين يظهرون في القنوات الفضائية فيستضيفون أحيانًا منجمًا أو قارئ كف أو قارئة كف في قناة تبث من لندن أو باريس أو من أستراليا أو من واشنطن؛ يعني بينك وبينها آلاف الأميال ثم يتصل بهم متصل من بلد بعيد عنهم ويقول لهم: اقرءوا كفي، فيقول له الجالس: ضع كفك على الشاشة.

هذا واقع، ولو شئت أن أسمي بعض القنوات لفعلت، ويأتي ويقول هذا من مكانه والتليفون معه، والدقيقة بثلاثين أو سبعين ريالاً تحسب عليه ويربحونها هم.

ثم يضع يديه على الشاشة ويبدأ يقرأ له كفه في أستراليا، معقول هذا؟!

وما شاء الله بدل ما كان التليفزيون يبث صار يستقبل، فيبدأ ببث الذبذبات من هذا الكف، معقول هذا؟! والمشكلة أن هناك عقولاً تصدق هذا الكلام.

هؤلاء يا جماعة لو كان الناس يضحكون منهم لفشلت هذه البرامج التي

يثونها، لكن المشكلة أنهم يجدون عقولاً سفيهة غبية مجنونة يحتالون عليها، يتصل الواحد فيقول: وضعت كفي، فيقولون: لا، ضع كفك اليمنى، والله لو تضع رجلك ما دري ولا علم، ويبدأ يقرأ لهم مثل هذا الكف، والذي لا يقول لك اقرأ كفك يتصل، ثم إذا ما اتصل بهم قالوا له: ما اسمك قال: اسمي فلان، قالوا: ما اسم أمك؟!

تدري لماذا يسأل هؤلاء الكهان عن اسم الأم؟ لأنهم يسيئون الظن بجميع الناس وبجميع النساء، ويفترضون أن كونك ابن فلان هذا مشكوك فيه؛ لأن أمك غير ثقة، يفترضون ذلك، لكن كونك ابن فلانة هذا مائة في المائة؛ لأنك طلعت من بطنها، فهم يقولون: ما اسمك؟ أعطنا اسم أمك؛ لأن اسم أبيك ما ندري جاءت بك من ماء أبيك أم من ماء غيره، فانظر إلى خبث نفوسهم أصلاً في النظر إلى الخلق، فإذا أخبرهم وقال: أنا فلان ابن فلانة، قالوا: آه أنت مولود يوم كام بالضبط؟ فيخبرهم بتاريخ الميلاد.

فيخطون خطوطًا في أوراق، ثم تقول لك العرافة، هذه الكاهنة المشعوذة قد يكون رجلاً أو امرأة، يقول لك: نعم، أنت سيحصل لك كذا، وستتزوج كذا، أو تتوظف في كذا، ويبدأ اللعب بعقلك، أنت في الحقيقة لا تستطيع أن تقول له: أنت كذاب؛ لأنه يخبرك بأمر سوف يحصل مستقبلاً، فأنت لا تدري لو قال لك: غدًا أنت ستمرض، ما تستطيع أن تقول له: أنت كذاب، فهو لم يخبرك بماضٍ فتقول له: أنت كذاب؛ لأن هذا لم يقع، وإنما يخبرك بأمر مستقبلي، ولذلك تجد أن الناس يطيرون من أمثال هؤلاء للأسف الشديد.

خاصة - يا جماعة - ما ينشر أحيانًا من الأبراج وقد بدأت تنتشر أكثر، حتى في بعض الجرائد التي لم تكن تصدر الأبراج والتنجيم بدأت من خلال شهر تقريبًا تصدر أمثال هذه الأبراج فيقول لك: أنت مولود مثلاً في الشهر الفلاني، برجك هو برج الجدي أو برج الكبش أو برج الأسد من أين هذه المسميات أصلاً حتى تحضروها وتجعلوها قاعدة لجميع الناس؟

احذر التسلية:

ثم قد يأتي إنسان ويأخذ هذه المجلة التي بها الأبراج ويقول: أنا اقرأ من قبيل

التسلية، من باب معرفة الواقع، من باب كذا، ويعلم أنه مولود في الشهر الفلاني وهذا الشهر يطابق البرج الفلاني، فيقرأ أنه سيأتيه خبر سار، هذا واقع فعلاً.

أو أمه تقول: ستذهب إلى مكان كذا، أو زوجته تطلب منه أن يحضر كذا، أي أمر من الأمور العادية التي تحصل للناس، لكنه قد ارتبط بذهنه انتظار هذه اللحظة، فيبدأ بدلاً من أن كان مكذبًا تسعين بالمائة، ثم بعدها ينزل إلى ثمانين بالمائة، ثم بعدها ينزل التكذيب إلى سبعين بالمائة، ثم ينزل إلى عشرة بالمائة، ثم يبدأ يذهب إلى المجلات التي فيها الأبراج؛ ليقرأها ولينظر فيها إلى التوقعات، فبعد أن كان مكذبًا مائة في المائة أصبح يقع في قلبه نوع من التصديق؛ لذلك النبي ﷺ حذر فقال: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء..».

عن أي شيء حتى لو صدقت، لو قلت: نسأله، وأنا أعلم أنه كذاب، كما يقع من بعض السائحين أحيانًا، الذين يذهبون للسياحة في بعض البلدان؛ إما العربية وإما غير العربية، أحيانًا يأتي لك بعض الناس الذين في الشارع، يأتي ويقول: تريد أن أقرأ لك كفك ببلاش. أحيانًا يقول بعض الشباب: هيا اقرأ كفي، تضحك عليه.

فيبدأ يقرأ الكف، ويخبره بأمور عنده أصلاً في بلده، أو بتوقعات معينة، فيقول: آه أنت تتزوج خلال السنتين القادمتين، تريد أخبرك بصفات المرأة التي ستتزوجها؟ طبعًا مجرد سؤالك له حرام، حتى لو ببلاش، يقول الشاب: هاه!! أخبرني، فيقول له: ادفع كذا وكذا فيكون هذا الدفع الذي تدفعه أصلاً هو مبلغ بالنسبة لك يسير بينما قد يكون معتبرًا عند هذا الدجال الكذاب.

فيدفع الشاب، وقد يقع في قلبه نوع ولو يسيرًا من التصديق، والنبي قال لنا وحذرنا: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» فهذه قضية مهمة ينبغي علينا جميعًا أن نحذرها؛ لأنها تمس العقيدة قبل أن تمس غيرها.

هذا هو النوع الأول من آيات نبوته عليه الصلاة والسلام.

تكثير الطعام بين يديه:

أما النوع الثاني من آيات نبوته ﷺ فهو تكثيره للطعام القليل والشراب القليل

الذي يكثر فوق الحاجة أو فوق العادة.

ففي البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال: بينما نحن نحفر الخندق إذ عرضت لنا كدية شديدة لم تذهب فيها معاولنا - يعني: صخرة عظيمة صلبة - يضربونها بالفأس فينكسر الحديد والصخرة لم يصبها أذى.

قال: قلنا: يا رسول الله، هذه صخرة عرضت لنا، لم تذهب فيها معاولنا.

فقال النبي ﷺ: «إني نازل» ونزل إلى الخندق فأقبل النبي ﷺ ونزل وأخذ المعول - الفأس - وكان النبي يلبس إزارًا ورداءً، فالإزار من سرته إلى الأسفل، والرداء يغطي الصدر والبطن ويداه تحت ردائه، أخذ الفأس، فلما رفع عليه الصلاة والسلام انكشف بطنه، فإذا بطنه معصوب بحجر من شدة الجوع.

قال جابر: وقد لبثنا ثلاثة أيام والله ما ذقنا ذواقًا إلا الماء.

فقال جابر: يا رسول الله، ائذن لي إلى أهلي، فأذن له، فأقبل إلى امرأته، فقال: يا امرأة. قالت: نعم.

قال: والله لقد رأيت من رسول الله ﷺ منظرًا والله ما على هذا صبر!!

قالت: وماذا رأيت؟

قال: رأيت بطنه معصوبًا بحجر، فهل عندك أي شيء يؤكل؟ خبز، تمر، لحم، أي شيء؟

قالت: والله ما عندنا إلا صاع من بر (كيلو وأربعين جرامًا) هذا ولم يطحن، وإلا لو طحن لقل، وعناق (عنز صغيرة)، فإذا شئت طحنت الشعير، أو البر وذبحت العناق لأجل رسول الله ﷺ قال: افعلي.

طحنت الشعير أو البر وعجنته وجعلته في طبق حتى يخمر، ومضى هو إلى العناق فذبحها، ووضعها في البرمة - القدر - وصب عليها الماء ووضعها فوق النار، وأقبل إلى الباب ليذهب فرحًا مستبشرًا، فلما أراد الخروج تعلقت به امرأته، وقالت: يا جابر! قد رأيت الطعام - تريد: أنه يوجد قليل من العجين وعناق - فلا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، لا تتحمس وتأتي بخمسة أو ستة، فأنت ترى الطعام بالكاد لا يكفي لثلاثة أو أربعة.

فقال لها: سأحضر رسول الله ﷺ ومعه رجل أو رجلان، ومضى جابر وأقبل على النبي، فإذا النبي ﷺ جالس.

يقول جابر: فجئت فساررته - أي: كلمته سرًّا - وقلت: يا رسول الله، طعيم لي، فتعال أنت ورجل أو رجلان، فقال النبي ﷺ: «كم هو؟».

قال: يا رسول الله، هو عناق وصاع من شعير.

فقال رسول الله ﷺ: «كثير طيب».

فقام النبي ﷺ وقال: «يأهل الخندق، إن جابرًا يدعوكم إلى طعام»، ثم قال: «يا جابر، انطلق ولا تخرج العجين من مكانه، ولا تحرك اللحم حتى آتيك» دع كل شيء على ما هو عليه.

يقول جابر: فمررت أحضر - أجري - فدخل على امرأته فقال: ويلك! فضحنا.

فقالت امرأته: وما بالك؟

قال: جاءك رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار.

فقالت: قاتلك الله، أو لم أكن حذرتك؟

قال: والله ما دعوتهم أنا.

قالت: فمن دعاهم؟

قال: رسول الله.

قالت: هل سألك عن طعامك؟

قال جابر: نعم.

قالت: هو أدرى.

إنها المرأة العاقلة.

أقبل رسول الله ﷺ ومعه جموع الناس من المهاجرين والأنصار، أناس جوعى، ثم دخل رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذنوا له، فدخل إلى المطبخ، دخل بنفسه، عمره قريب من الستين عامًا، ثم دخل إلى إناء العجين فكشفه ونفث فيه ودعا الله أن يطرح فيه البركة، ثم التفت إلى القدر الذي فيه اللحم وكشفه ونفث فيه، ودعا الله أن

يطرح فيه البركة وغطاه، ثم التفت إلى امرأة جابر وقال: «ادعي لي خبازة فلتخبز معك»، سبحان الله! إنه عجين قليل فبمجرد قبضة أو قبضتين ينتهي، وأحضر معي خبازة! دعت خبازة.

تقول امرأة جابر: فوالله لقد كنت أقبض القبضة من العجين فينبت مكانها مثلها، والنبي ﷺ يغرف من اللحم ويضع في صحن، وامرأة جابر والمرأة تخبزان، وتلقيان الخبز إليه، والنبي ﷺ يقطع الخبز ويضعه ويصب عليه اللحم.

سبحان الله! من يجد خبزًا ويضعه ويصب عليه اللحم.

سبحان الله! من يجد خبزًا ولحمًا ومرقًا في هذا الوقت، وطازجًا؟!

فقال رسول الله ﷺ: «يا جابر! أدخل عشرة عشرةً وقل لهم: ادخلوا ولا تضاغطوا»، يعني الطعام يكفي إن شاء الله، ما يحتاج الأمر إلى أن يتزاحموا.

قال جابر: فأدخلت عشرة فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم أدخلت عشرةً آخرين، فأكلوا حتى شبعوا، والنبي ﷺ في المطبخ في الحر عند التنور، يضع لأصحابه ويعمل.

يقول جابر: فأقسم بالله لدخلوا وأكلوا جميعًا ثم خرجوا.

قيل: يا جابر، كم كنتم؟

قال: كنا ألف رجل، ألف يأكلون لجوع سابق، وجوع لاحق، وطبعًا -يا جماعة- الألف رجل أكلوا والنبي في المطبخ، تتوقع ألف رجل دخلوا عشرة عشرة، يعني مائة مجموعة دخلت، تخيل كل مجموعة يحتاجون فترة أكل كم؟ خمس دقائق مثلاً، هذا على الأقل حتى يستطيع أن يأكل عشرة أشخاص، اضرب خمسة في مائة يعني ٥٠٠ دقيقة؛ يعني قرابة تسع ساعات والنبي ﷺ في المطبخ.

يقول جابر: فلما انتهوا قربت إلى رسول الله ﷺ الطعام، حقًّا صدق الله إذ يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] ما كان يقول: نفسي نفسي، أنا الرئيس، أنا المسئول الكبير عليهم، أنا الملك، أنا النبي أصلاً، كلا كلا، أجوع ويأكل الناس، لا توجد مشكلة، أتعب ويرتاح الناس، ما توجد مشكلة.

أصابع ينبع منها الماء:

ومن تكثيره أيضًا للماء حديث جابر بن عبد الله أيضًا في البخاري يقول: كنا في الحديبية مع رسول الله ﷺ قال: قرب إلي النبي ﷺ جفنة ليتوضأ منها.

قال جابر: فأجهش الناس إليه - أي: أقبلوا عليه وتجمعوا - فقال النبي ﷺ: «ما بالكم؟» قالوا: ما في المعسكر أي شيء نشرب منه أو نتوضأ منه إلا هذا الماء الذي بين يديك، وهم في برد، وقد حبسوا عن دخول مكة في الحديبية.

يقول جابر: فأدخل النبي ﷺ يده في الإناء، قال: فوالله لقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فوالله ما بقي من إناء في المعسكر إلا ملأناه، فشربنا وتوضأنا، قيل: كم كنتم؟ قال جابر: كنا ألفًا وأربعمائة.

شفاء الأمراض:

ومن آيات نبوته ﷺ: شفاؤه للأمراض، ومن ذلك ما رواه البخاري أيضًا في صحيحه أن أبا رافع اليهودي كان في حصن له منيع، وكان يؤذي النبي ﷺ بأنواع الأذى، تارة يرسل من يقاتله، وتارة يرسل من يريد اغتياله، وتارة يشتري قيانًا من النساء المغنيات ويجعلهن يغنين بسب رسول الله ﷺ وهجائه... كل أنواع الأذى.

فقال النبي يومًا لأصحابه: «من لنا بأبي رافع؟».

فقال عبد الله بن عتيك: أنا يا رسول الله.

يقول عبد الله بن عتيك: ذهبت إليه لأقتله، يقول: فكنا نسير الليل ونختبئ بالنهار، حتى نصل إلى الحصن ما يدرون عنا حتى وصلنا إلى الحصن، فإذا حصن منيع ليس له إلا باب واحد يفتح مرتين في اليوم؛ مرة في الصباح ليخرج المزارعون ورعاة الغنم، ثم يغلق، ويفتح مرة أخرى في المساء عند المغرب ليدخل هؤلاء، وكان الحارس يعدهم عدًّا ويعرفهم واحدًا واحدًا، لا يمكن دخول أي واحد إلا والحارس يعرفه، فلما جاء الصحابة تحيروا كيف يدخلون؟

فقال عبد الله بن عتيك: أنا أذهب لأنظر، مضى حتى إذا اقترب من الحصن فإذا بالحارس قد فتح الحصن عند المغرب، وجعلوا يدخلون بدوابهم، والحارس ينظر فيهم واحدًا واحدًا، فلم يستطع أن يدخل في غمرهم.

يقول: فأغلق الباب وجلست أفكر، وأظلم الليل علي وأنا أفكر كيف أقفز؟

قال: فبينما أنا كذلك إذ فقدوا حمارًا لهم، قال: ففتحوا الباب وخرجوا بشعل فيها نار يلتمسونه.

قال: وجعلوا يبحثون يمنة ويسرة فلم يجدوه، فصاح فيهم الحارس في الظلام وقال: ادخلوا وإلا أغلقت الباب، قال عبد الله بن عتيك: فدخلوا يتزاحمون، فدخلت في غمارهم إلى داخل الحصن وأغلق الباب، قال: فاختبأت في مربط الحمار إلى جانب الباب، فأقبل الحارس ثم أغلق الباب، ثم التفت يمينًا ويسارًا، فوجدته قد علق المفتاح في مكان معين عند الباب.

يقول: فنظرت إلى قصر أبي رافع، فهذا حصن فيه مجموعة بيوت لأصحاب أبي رافع، وفيه قصر في الداخل لأبي رافع نفسه، قال: فنظرت إلى قصر أبي رافع فإذا السراج يزهر، وعنده أصوات، فعلمت أن عنده قومًا، فلا أستطيع أن أدخل بين عشرة أو خمسة عشر.

قال: فانتظرت حتى أطفئ السراج، وانخفضت الأصوات وخرجوا من عنده.

قال: فخرجت وأقبلت إلى المفتاح، وفتحت الباب وجعلته مفتوحًا شيئًا يسيرًا، حتى إذا ما عرفوا بأمري وأقبلت لأهرب لا آخذ المفتاح وأفتح وأجرب مفتاحين أو ثلاثة لأفتح الباب وأهرب.

يقول: وأقبلت إلى بيوتهم فجعلت أغلقها عليهم من الخارج، ثم صعدت إلى غرفة أبي رافع، ومعي السيف ودخلت إلى غرفة أبي رافع فإذا هي مظلمة - والعجيب أن عبد الله بن عتيك ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أنه كان ضعيف البصر - يقول عبد الله: فلم أر شيئًا، فقلت: يا أبا رافع! فقال: من؟ من؟

قال: فأقبلت إلى موضع الصوت ورفعت السيف وضربت ضربة، فصاح أبو رافع يطلب النجدة والإنقاذ.

يقول عبد الله بن عتيك: فخرجت مسرعًا فسمعت صياحًا، فرجعت مرة أخرى وغيرت صوتي كهيئة المنجد له، فقلت: ما بالك يا أبا رافع ندعو الحرس، ندعو الجند؟

قال: نعم.

يقول: فأقبلت فضربته ضربة أخرى أقوى من الأولى ما يدري أين تقع.

يقول: فخرجت، فسمعت صراخه، فرجعت إليه وغيرت صوتي وقلت: يا أبا رافع ماذا تريد؟

قال: أقبل بسرعة أنقذني.

قال: فأقبلت إلى مصدر الصوت، ووضعت السيف على صدره ثم اتكأت عليه حتى سمعت طرقعة عظام ظهره (قرع السيف عظام ظهر أبي رافع).

قال عبد الله: ثم خرجت ونزلت مسرعًا وقد استيقظ الناس، فظننت أن السلم قد انتهى (ظلام في ظلام) فقفزت، فوقعت على رجلي فوثئت رجلي - أي: انكسرت ساقي - فقمت ونزعت عمامتي وربطت ساقي حتى لا تشغلني واتكأت على سيفي، وجعلت أخطو على رجل واحدة حتى أقبلت على أصحابي، فلما عدت إليهم قالوا: ماذا فعلت؟ قلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ قالوا: هيا بنا نرجع إلى رسول الله.

قال: ارجعوا أنتم، أما أنا فوالله ما أرجع إلى المدينة حتى أسمع بأذني نعي أبي رافع - وكانوا في الجاهلية إذا مات عظيم من عظمائهم رقي راقٍ على شرفة في قصره ثم نعاه إلى الناس، ثم أنشد فيه الأشعار - فلما أسفر الصباح، خرج أحدهم، ورقي على شرفة قصر أبي رافع وقال: يأيها الناس! أنعى إليكم أبا رافع تاجر الحجاز.

فقال عبد الله بن عتيك: فقمت أمشي ما بي قلبة، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته.

فقال: يا رسول الله، لكن رجلي مكسورة.

فقال النبي ﷺ «ابسط رجلك». فبسطت رجلي فكأنها لم أشتكها قط.

ما فارقت يد النبي ﷺ رجل عبد الله حتى قفزت ليس بها بأس.

أخوك عيسى دعا ميتًا فقام له وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

عين ترد إلى مكانها:

وفي معركة أخرى رمي أبو قتادة بسهم فأصاب عينه، وخرجت عينه فصارت معلقة بشيء من العروق واللحم والعصب، فأقبل إليه بعض أصحابه قالوا: يا أبا قتادة، يعوضك الله، هذه عينك انتهت، وأرادوا أن يقطعوا اللحم المتمزق هذا.

قال لهم: يا قوم لا تفعلوا!! قالوا: كيف؟!

قال: اعرضوني على رسول الله ﷺ. فمضوا به حتى وقف بين يدي النبي ﷺ، قال: يا رسول الله، عيني.

فقال له ﷺ: «إن شئت أعدتها لك كما كانت، وإن شئت صبرت ولك الجنة».

قال: يا رسول الله، إني رجل حببت إلي النساء، وأخشى يا رسول الله إن ذهبت عيني أن تبغضني النساء، يا رسول الله أعد عيني، والجنة إن شاء الله.

يقول: فضحك النبي ﷺ وأعاد عينه، ودعا الله تعالى.

قال: فلما رفع يده فتح عينه، فكان الذي يراه لا يدري أي عينيه أصيبت.

حنين الشجر:

والنوع الأخير من آيات نبوته ﷺ تأثيره في الأشجار، ومن ذلك ما رواه البخاري أيضًا أنه ﷺ كان يخطب الجمعة في قبلة المسجد، وإذا تعب أحيانًا يتكئ على جذع نخلة.

فأقبلت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله، إن لي غلامًا نجارًا، فهل آمره يصنع لك منبرًا؟ قال: «مريه إن شئت».

ودخل النبي ﷺ صلاة الجمعة فأقبل فرقى درجات المنبر الثلاث، ووقف، قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ثم جلس، وقام بلال يؤذن.

يقول أنس: فسمعنا بكاءً كبكاء الصبي، فالتفتنا فإذا هي النخلة تصيح حتى كادت أن تنشق.

قال: فنزل النبي ﷺ وأقبل على جذع النخلة وضمه بين يديه.

قال: فجعل يسكنه كما يسكن الصبي الذي يسكت حتى سكت.

هذا وأسأل الله أن يجزيكم خير الجزاء، ويجزي الإخوة الكرام في مجمع البوارج الخيري في جنوب الرياض خير الجزاء على حرصهم على إقامة مثل هذه اللقاءات، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد.

* * *

إني صائم

الحمد لله..

الحمد لله المحمود بجميع المحامد تعظيمًا وثناءً.. المتصف بصفات الكمال عزةً وكبرياءً.. سبحانه ما أعظم شأنه.. وما أقدم سلطانه.. وما أوسع حلمه وغفرانه..

أحمده سبحانه.. فهو المستحق للحمد والثناء.. يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء.. خلق فقدر.. وملك فدبر.. وشرع فيسر.. جعل قوة الأمة في إيمانها.. وعزها في إسلامها.. والتمكين لها في صدق عبادتها..

أحمده سبحانه وأشكره.. وأتوب إليه وأستغفره.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله..

أفضل الرسل وخاتم الأنبياء.. وخير المتعبدين ورأس الأولياء.. أفضل من صلى وصام.. ووقف بالمشاعر وطاف بالبيت الحرام.. صلى الله وسلم وبارك عليه.. ما ذكره الذاكرون الأبرار.. وصلى الله وسلم وبارك عليه.. ما تعاقب الليل والنهار..

ونسأل الله أن يجعلنا من خيار أمته.. وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته..

أما بعد: أيها الصائمون والصائمات..

من فضل أرحم الراحمين.. أن جعل لنا مواسم مباركات.. نتزود فيها من الغنائم.. ونجمع الأجور العظائم..

ومن أعظم مواسم الخيرات.. شهر الخير والبركات.. والنور والمسرات.. شهر تقال فيه العثرات.. وترفع الدرجات.. وتجاب الدعوات.. شهر تمحى فيه السيئات.. وتضاعف الحسنات..

استبشار النبي ﷺ وأصحابه بمقدم رمضان:

شهر كان النبي ﷺ يستبشر بمقدمه ويبشر أصحابه..

كما صح عند النسائي والبيهقي أنه ﷺ قال: «قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه.. يفتح فيه أبواب الجنة.. ويغلق فيه أبواب الجحيم.. وتغل فيه الشياطين.. فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم».

نعم.. إن إدراك المرء لصيام شهر رمضان نعمة من أجل النعم..

فكم غيب الموت من قريب.. ووارى من صديق حبيب.. وكم امتلأت المستشفيات بمرضى تتفطر قلوبهم.. شوقًا للصيام.. يتمنون لو استطاعوا صيام يوم من أيامه.. أو قيام ليلة من لياليه.. ولكن.. حيل بينهم وبين ما يشتهون!

لذا كان الصالحون يشتاقون لرمضان..

قال المعلى بن الفضل: كان السلف يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان!!

وقال يحيى بن أبي كثير: كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان.. وسلم لي رمضان.. وتسلمه مني متقبلاً..

نعم.. كان رمضان يدخل عليهم.. وهم ينتظرونه.. ويترقبونه.. يتهيئون له بالصلاة والصيام.. والصدقة والقيام.. أسهروا له ليلهم.. وأظمئوا نهارهم.. فهو أيام معدودات.. فاغتنموها.. لو تأملت حالهم.. لوجدتهم.. بين باكٍ غلب بعبرته.. وقائم غص بزفرته.. وساجد يتباكى بدعوته..

كان يدخل على أقوام صدق فيهم قول الله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦،١٧]

أسباق الشوق لرمضان..

فهل يستحق منا رمضان هذا الشوق للقائه؟

نعم.. ولا عجب.. فرمضان هو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن.. قال الله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾

[البقرة:١٨٥]

ورمضان هو الشهر الذي تفتحت فيه أبواب السماء.. وتنزل جبريل على خاتم الرسل وسيد الأنبياء محمد ﷺ..

ورمضان هو شهر تكفير للذنوب.. - فرمضان إلى رمضان - مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر..

ورمضان هو الشهر الذي تفتح فيه أبواب الجنان.. وتغلق أبواب النيران.. ويسلسل الشيطان..

وهو الشهر الذي من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.. ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه..

ورمضان هو الشهر الذي جعل الله العمرة فيه كحجة مع النبي ﷺ..

ورمضان هو الشهر الذي فيه ليلة القدر.. وهي خير من ألف شهر..

ورمضان هو الشهر الذي لله في كل ليلة من لياليه عتقاء من النار..

فهو شهر التوبة والرضوان.. والصلاح والإيمان..

فهو شهر مبارك.. رقاب تعتق.. وأياد تتصدق.. وذنوب تغفر.. ونعم تشكر..

أيها الصائمون والصائمات..

الصوم عبادة السادات.. وسيد العبادات.. وأحلى الأعطيات..

فضائل الصوم:

الصوم هو العبادة الوحيدة التي خصها الله تعالى لنفسه..

كما في الصحيحين: قال ﷺ: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.. يقول الله ﷻ: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به.. ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي.. للصائم فرحتان؛ فرحة عند فطره.. وفرحة عند لقاء ربه.. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

والصوم عبادة الصابرين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

والصوم كفارة للخطيئات.. قال ﷺ كما في الصحيحين: «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر».

ويكفي الصائم تشريف الله تعالى بالصلاة عليه.. وتصلي عليه الملائكة المقربون..

صح عند ابن حبان وغيره.. أنه ﷺ قال: «إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»..

والصوم جنة من النار.. كما صح عند النسائي أنه ﷺ قال: «من صام يومًا في سبيل الله؛ باعد الله منه جهنم مسيرة مائة عام»..

وصح عند الترمذي أنه ﷺ قال: «من صام يومًا في سبيل الله، جعل الله بينه وبين النار خندقًا كما بين السماء والأرض»..

ويدخل الصائمون يوم القيامة إلى الجنة من باب الريان.. وهو باب لا يدخل منه إلا الصائمون.. فإذا دخل آخرهم أغلق.. ومن دخل منه شرب.. ومن شرب لم يظمأ أبدًا..

والصوم سبيل إلى الجنات؛ صح في مسند أحمد أنه ﷺ قال: «من ختم له بصيام يوم دخل الجنة»..

لأجل هذه الفضائل.. مكانة الصوم عند الصالحين:

لا يزال الصوم عند الصالحين له مكانة شامخة.. يرفع الله به درجاتهم.. ويكفر سيئاتهم..

روى النسائي وأبو داود: أنه ﷺ وقع بينه وبين أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها شيء.. فطلقها تطليقة.. فأتاه جبريل فقال: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة.. فإنها صوامة.. قوامة.. وهي زوجتك في الجنة..». فراجعها ﷺ.

وفي مسند أحمد.. عن أبي أمامة رضي الله عنه.. أن رسول الله ﷺ أنشأ غزوة يومًا فأقبل إليه أبو أمامة فقال: يا رسول الله.. ادع الله لي بالشهادة..

فقال: «اللهم سلمهم وغنمهم»..

قال: فسلمنا.. وغنمنا..

قال: ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزوًا ثالثًا..

فأتيته فقلت: يا رسول الله.. إني أتيتك مرتين قبل مرتي هذه.. فسألتك أن تدعو الله لي بالشهادة.. فقلت: «اللهم سلمهم وغنمهم».. فسلمنا وغنمنا..

يا رسول الله.. مرني بعمل.. فقال ﷺ: «عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له»..

فسمع أبو أمامة هذه الوصية.. فما رؤي بعدها هو ولا امرأته ولا خادمه إلا صيامًا.. فكان الناس لا يرون في دارهم دخانًا بالنهار أبدًا.. فإذا رؤي في دارهم دخان بالنهار.. عرف أنه نزل بهم ضيف.. فلبث أبو أمامة رضي الله عنه.. زمانًا على ذلك..

قال: ثم أتيت رسول الله ﷺ.. فقلت: يا رسول الله.. أمرتنا بالصيام.. فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه..

يا رسول الله.. فمرني بعمل آخر..

فقال ﷺ: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة.. إلا رفع الله بها لك درجة.. وحط عنك خطيئة».. فلازم أبو أمامة بعدها الصلاة والصوم..

وعلى هذا كان السلف رحمهم الله يعرفون للقربات حقها.. ويحرصون على صوم النافلة.. فضلاً عن صيام رمضان..

وقد قال ﷺ: «يقول الله تعالى: وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»..

اجتهاد السلف في الصيام:

كان الإمام الصالح إبراهيم بن هانئ.. يكثر الصيام.. حتى كبرت سنه.. فنزل به مرض الموت.. ثم حضرته الوفاة بعد العصر.. فأخذ يشهق.. وقد جف ريقه.. ويبس لسانه..

فالتفت إلى ولده.. فقال: يا ولدي.. أنا عطشان.. فجاءه ولده بماء.. فلما قربه إلى فيه.. أغلق شفتيه فجأة وقال: أغابت الشمس؟ قال ولده: لا.. فدفع الإناء عن فمه.. فأصر عليه ولده وهو يأبى أن يفطر.. فجلس ولده ينتظر أذان المغرب والإناء بيده.. فسكت الشيخ قليلاً ثم قرأ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] ثم تشهد ومات..

أما المرأة الصالحة.. من البيت الطاهر.. نفيسة بنت الحسن.. فكانت تكثر من الصيام.. حتى كبرت سنها.. ورق عظمها.. واقتربت منيتها.. فلما نزل بها مرض الموت كانت صائمة.. فاشتد عليها النزع.. فأكثر عليها أبناؤها يطلبون منها أن تفطر.. فنظرت إليهم.. وقد تقلصت شفتاها.. وثقل لسانها.. وقالت لهم:

واعجباه!! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله ربي أن ألقاه وأنا صائمة أأفطر لما حان اللقاء؟! هذا لا يكون.. ثم أخذت تتلو القرآن فلما بلغت قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].. فاضت روحها إلى باريها..

نعم.. أقوام صالحون.. أحبوا ربهم فأحبهم.. وتقربوا إليه فقربهم..

قال الإمام ابن أبي عدي: أمضى داود بن أبي هند أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا.. ولا يعلم به حتى أهله..

قيل له: كيف؟

فقال: كان خرازًا.. يخرج كل يوم إلى دكانه ويحمل معه غداءه.. فإن كان مفطرًا أكله.. وإن كان صائمًا تصدق به على مسكين في الطريق.. ثم يرجع عشيًا فيفطر مع أهله..

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.. فقد كان كثير الصوم.. فلما نزل به الموت.. قال:

لم آسف على شيء يفوتني من الدنيا إلا على ثلاث:

ظمأ الهواجر.. - يعني صيام الأيام شديدة الحر التي يشتد فيها العطش..

قال: - ظمأ الهواجر ومكابدة الليل ولم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا يعني: الحجاج.

نعم.. كان الأولون يمتدحون الصيام.. ويجعلونه طريقًا إلى الجنة.. يدركون الحكمة الإلهية التي شرع لأجلها..

أما اليوم.. فكثير من الناس يصومون.. ولكن قليل أولئك الذين يعرفون لماذا يصومون..

هذا هو الفرق بين العادة والعبادة.. لماذا نصوم؟

في رمضان.. تمسك عن الطعام والشراب؟ تجوع وتعطش.. لماذا؟

تسهر وتتعب.. لماذا؟

أصناف الطعام بين يديك.. والماء البارد أمام عينيك.. فلا تمد إليه يديك.. لماذا؟

لماذا أمرك الله بالصيام؟

ما الهدف؟ هل الغاية هي أن نجوع ونعطش؟

اسمع الجواب..

قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ ﴾ [البقرة:١٨٣]. لعلكم ماذا؟ تجوعون! تعطشون! تتعبون!!

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.. نعم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾.. والتقوى خشية مستمرة..

إذن الصيام لا يتعامل مع الفم.. ولا مع البطن.. ولا مع اليدين والرجلين.. وإنما يتعامل مع القلب.. فإذا صمت.. فتأثر بطنك فجاع.. وتأثر فمك فيبس.. وتأثر جسمك فضعف.. ولم يتأثر قلبك.. فلم يخشع.. ولم يرق.. ولم ينكسر.. فما حققت الغاية من الصيام..

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

التقوى هي الخوف من الجليل.. والعمل بالتنزيل.. والقناعة بالقليل.. والاستعداد ليوم الرحيل.. ومن حقق التقوى شعر بأن حياته كلها.. ملك لله تعالى.. يفعل بها ما يشاء.. فهو يصلي وقت الصلاة.. ويصوم وقت الصوم.. ويتصدق مع المتصدقين.. ويقرأ مع القارئين..

عدد من الصائمين.. ظنوا أن المقصود هو الإمساك عن الطعام والشراب!

فأمسكوا عن الحلال.. لكنهم خرقوا صومهم بالحرام.. فأي تأثير للصيام في ذاك

الذي يدعو عند إفطاره.. فيقول: ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر.. ثم يشعل سيجارته!

أي معنى للذي يفرح بطعام الإفطار.. ولعله ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش..

أي تقوى يرجوها.. من يصوم بطنه عن الطعام.. ولا تصوم عينه عن النظر الحرام.. ولا سمعه عن السماع الحرام.. ولا يصوم لسانه عن الآثام..

أي تقوى يحققها الصيام.. في ذاك الذي يجمع الحسنات في النهار.. وفي الليل يصير عبدًا لشهوته.. فيعكف على قنوات فضائية.. أو شبكة عنكبوتية..

أو من يدري لعله يكون في الليل زبونًا في ملاهٍ ليلية.. وتجمعات غوغائية..

إن لم يكن في السمع مني تصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت

فحظي إذًا من صومي الجوع والظمأ ... فإن قلت إني صمت يومي فما صمت

إذا أردت أن تحقق التقوى في الصيام.. فليصم قلبك وجوارحك..

فالقلب يصوم عن الحقد والضغينة..

والعين تصوم عن النظر الحرام.. تعظيمًا للملك العلام..

والأذن تصوم عن الخنا.. واستماع الغنا..

واللسان يصوم عن الفحشاء.. والكلمة الشنعاء..

واليد تصوم عن أذية العباد.. ومزاولة الفساد..

والرجل تصوم عن المشي إلى المحرم.. فلا تسير إلى إثم ولا تتقدم..

الصوم يربيك على هذا.. يربيك على البطولة والإرادة.. يكبح جماح الشهوة.. يربيك على الطاعة والانقياد.. والذلة لرب العباد..

الصوم يجعلك تعيش الإسلام بعزم حديدي.. وإرادة صخرية تتحطم فوقها أمواج الشهوات.. فاعقد قلبك الآن على إرادة تسوقك لطريق صحيح.. وهدف واضح.. ليكن دخول رمضان بداية تحول في حياتك..

رمضان يقوي فيك الإرادة:

رمضان يقوي فيك الإرادة.. فأنت بإرادتك تركت الطعام.. وامتنعت عن الشراب.. لم يقيدك أحد بحبال.. ولم يقف على رأسك رقيب..

إذن اعزم على ختم القرآن مرارًا في رمضان.. وحقق ذلك..

اعزم على قيام رمضان كله.. وحقق ذلك..

اعزم على ترك التدخين.. وحقق ذلك..

أعزم على تطهير عينك وأذنك من الحرام.. وحقق ذلك..

نعم.. رمضان.. فرصة للصادقين في التغيير.. ووقت لن تجد أفضل منه للإصلاح..

رمضان يعلمنا أن في نفوسنا قوةً لا تقف في وجهها الصعاب..

يا قوم..!! أكثر الناس عنده إرادة لكنه لا يفعلها.. انظر لأحوال الناس بين شعبان ورمضان.. كيف يتغير المجتمع كله؟! تكتظ المساجد بالمصلين.. وتجود أيدي المتصدقين.. ويتنافس القراء والصوام.. والعباد والقوام.. أبطال استطاعوا أن ينتصروا على الشيطان..

أهذه النفوس عاجزة عن الإصلاح والتغيير لو صدقت؟!

كم من شاب وفتاة.. يعلم أن برنامج حياته يحتاج إلى تعديل.. إلى متى تستمر العلاقات المحرمة.. والنوم عن الصلوات..

إلى متى يتحكم في الآخرون.. من أصدقاءٍ.. وعشاقٍ.. وأرباب شهوات؟..

إلى متى يسوفون؟ لماذا لا يكونون أبطالاً ويدركون لماذا خلقوا؟

ماذا يريد منهم ربهم؟ لماذا أوجدهم في الدنيا؟

اليهود وتفويت فرص الخير:

وإن شئت أن ترى أمثلة حية للجبناء الذين تعودوا أسلوبًا في الحياة.. ألفوه.. وعاشوا عليه فرأوا أن من المحال تغييره..

فتأمل معي في حال اليهود..

أرسل الله إليهم موسى فبشرهم بمحمد.. ثم جاء عيسى فبشرهم أيضًا بمحمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى التسليم..

فهم منذ أن بعث النبي ﷺ.. وهم ما شكوا في صدقه طرفة عين.. يعلمون أنه النبي الخاتم الذي أمرهم موسى باتباعه.. ويعلمون أن نجاتهم في الدارين بالدخول في الإسلام.. ويعلمون أنهم قد حرفوا وبدلوا.. لكنهم مع ذلك يكتمون الحق وهم يعلمون.. كبرًا وعنادًا..

ولا يزال كل واحد منهم تمر به الأوقات.. وتمضي الأيام والسنوات.. وهو يرى الحق وتضعف إرادته عن اتباعه..

وانظر - بالله عليك - إلى حال اليهود يوم الأحزاب..

فإن أحزاب قريش ومن ناصرهم.. لما عزموا على قتال المسلمين.. وجيشوا جيوشهم.. وأقبلوا إلى المدينة.. تحير النبي ﷺ وأصحابه ماذا يفعلون؟ فنظروا فإذا المدينة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات.. فعلم المسلمون أن جيش الكفار لا يمكن أن يهاجم المدينة إلا من جهة واحدة وهي السهل.. فحفروا خندقًا عند مدخل المدينة يمنع الكفار من دخولها..

فلما وصل جيش الكافرين ورأوا الخندق تحيروا.. كيف يهزمون المسلمين؟ فعسكروا من وراء الخندق.. لا يستطيعون دخول المدينة..

وكان في المدينة قبيلة من قبائل اليهود هم بنو قريظة.. في حصن لهم.. وكان النبي ﷺ قد جعل بينه وبينهم عهدًا ألا يقاتلوه ولا ينصروا أحدًا عليه..

لكن اليهود كعادتهم خونة.. لما رأوا تألب الأحزاب.. وتتابع الكربات على المسلمين.. شعروا أن هذه نهاية الإسلام.. فنقضوا العهد وأرسلوا إلى الكفار ما يعينهم.. ولم يكتفوا بذلك.. بل لما رأوا المسلمين مرابطين عند الخندق منشغلين في القتال.. تسللوا بين طرقات المدينة.. وأقبلوا على بيوت المسلمين يهاجمون من فيها من النساء والصبيان.. حتى وصلوا إلى حصن لحسان بن ثابت.. فيه نساء النبي ﷺ وبعض نساء المؤمنين وصبيانهم.. فهاجموهم.. وكادوا أن يهتكوا الأعراض..

ويقتلوا الأرواح.. لولا أن الله دحر كيدهم.. ولم تزل رحى الحرب دائرة على المسلمين.. واليهود في حصونهم.. يمدون الكفار من بعيد..

ومضت الأيام عصيبة على النبي ﷺ وأصحابه.. وقد زاغت الأبصار.. وبلغت القلوب الحناجر.. حتى أنجز الله وعده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.. وفر كفار قريش إلى مكة.. فأسقط في يد اليهود.. وأغلقوا عليهم حصنهم..

كان اليهود فعلاً يستحقون العقاب..

رجع النبي ﷺ إلى هؤلاء اليهود - بني قريظة - فعسكر حول حصنهم.. عرض عليهم أن يستسلموا فأبوا.. فحاصرهم ﷺ يومًا ويومين.. وثلاثة.. وأسبوعًا وأسبوعين.. وهم صامدون.. حتى أكمل خمسة وعشرين يومًا..

فلما جهدهم الحصار.. وقذف الله في قلوبهم الرعب.. ورأوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يؤدبهم.. اجتمعوا.. فقام فيهم سيدهم كعب بن أسد.. فقال:

يا معشر يهود.. قد نزل بكم من الأمر ما ترون.. وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثًا فخذوا بما شئتم منها..

قالوا: وما هن؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه ونؤمن به.. فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل.. وأنه للذي تجدونه في كتابكم.. فتأمنون به على دمائكم وأموالكم.. وأبنائكم ونسائكم..

فنظر بعضهم إلى بعض.. وقالوا بكل غطرسة وكبر: لا نفارق حكم التوراة أبدًا.. ولا نستبدل به غيره..

قال كعب: فإذا أبيتم علي هذه.. فخذوا الثانية.. إنه إنما يجعلنا نجبن عن القتال.. خوفنا على نسائنا وصبياننا..

فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا.. ثم نخرج إلى محمد وأصحابه.. رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً نخاف عليه.. حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. فإن نهلك نهلك ولم نترك نسلاً نخشى عليه.. وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء..

فانتفضوا وقالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟

فقال كعب: فإن أبيتم علي هذه.. فاسمعوا الثالثة:

الليلة ليلة السبت.. وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها.. فانزلوا نهجم عليهم لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة..

فجعلوا يبحثون عن أعذار.. فقالوا: أنفسد سبتنا.. ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت.. فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ..

فسكت كعب قليلاً متفكرًا في هؤلاء الرعاديد.. الذين ليس عندهم إرادة.. ولا قدرة على التغيير.. ولا اتخاذ قرار.. ولا رجوع إلى الحق.. ثم قال: والله يا معشر يهود.. ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازمًا..

فمضت عليهم أيام.. وهم في كرب شديد..

وهم بعض الصحابة باقتحام الحصن عليهم.. ففكر بنو قريظة ماذا يفعلون.. فتذكروا أنهم حلفاء للأوس في الجاهلية.. وسيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ..

فلما أصبحوا يومًا جعلوا ينادون: يا محمد، تنزل على حكم سعد بن معاذ..

عجبًا.. على حكم سعد ورسول الله ﷺ حاضر بينهم..!! وأمرهم بالنزول.. وأرسل إلى سعد بن معاذ..

كان سعد بن معاذ مصابًا.. وقد جعله النبي ﷺ في خيمة بالمسجد.. عنده من يمرضه ويعتني به.. فانطلق قومه إليه ينادونه.. فلما دخلوا عليه فإذا هو قد تمكنت منه الجراح حتى ضعف.. وكان رجلاً جسيمًا جميلاً.. فأقبلوا بحمار قد وضعوا عليه وسادة من أدم.. وحملوا سعدًا فوقه.. قال: ما خبركم؟

قالوا: إن رسول الله ﷺ يدعوك لتحكم بينه وبين بني قريظة..

عجب سعد.. كيف يحكم فيهم ورسول الله ﷺ حي بين أظهرهم؟

فأخبروه أن بني قريظة اختاروه دون غيره.. فسكت سعد ومضى معهم.. فجعل قومه حوله يقولون: يا أبا عمرو.. أحسن في مواليك.. فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم.. فلما أكثروا عليه.. قال سعد: لقد آن لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم..

وصل سعد إلى ديار بني قريظة.. وقد جلس رسول الله ﷺ في ناحية.. وجلس بنو قريظة في ناحية.. فلما رآه رسول الله ﷺ.. التفت إلى أصحابه وقال: «قوموا إلى سيدكم».. فقاموا إليه وساعدوه على النزول..

فنظر سعد إلى اليهود فإذا هم الذين خانوا وغدروا ونقضوا عهدهم مع المسلمين.. وإذا هم الذين هاجموا حصن حسان بن ثابت الذي جمعت فيه النساء والصبيان.. وإذا هم الذين أمدوا قريشًا بالسلاح والطعام.. وإذا فهم رجال أشداء مقاتلون.. عوهدوا مرارًا وغدروا.. فلا يؤمنون بعدها..

سكت الجميع ينتظرون حكم سعد بن معاذ..

فالتفت سعد إلى جهة اليهود، وقال: يا بني قريظة.. عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيكم لما حكمت..

قالوا: نعم.. فأراد أن يلتفت جهة النبي ﷺ.. ليسأله السؤال نفسه.. لكنه استحى..

هو أصلاً من البداية مستحٍ.. كيف يحكم والنبي ﷺ موجود؟!!

فأشار بيده إلى الناحية التي فيها النبي ﷺ وهو معرض عنه إجلالاً له.. وقال: وعلى من هاهنا..

فقال ﷺ: «نعم»..

فسكت سعد قليلاً.. والناس يترقبون.. والنبي ﷺ قد أرهف سمعه ينتظر ما ينطق به من الحكم.. وسعد قد اشتد عليه المرض والجهد.. حتى ما يكاد يسمع صوته..

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل المقاتلة.. وتسبى النساء والذرية.. وتقسم أموالهم..

فابتهج النبي ﷺ.. وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة».. ثم أمر بهم.. فجمع المقاتلون في مكان.. وجعل عليهم من يحرسهم.. وكان من بينهم رجل أعمى اسمه الزبير بن باطا.. وكان الزبير من كبارهم.. وكانت تمر به الفرص لاتباع الحق.. وتغيير مسار حياته.. لكنه يجبن عن ذلك..

الزبير.. كان قد خرج يومًا مع بعض أصحابه.. فأخبروه أن كوكبًا أحمر قد ظهر في السماء.. فقال: طلع الكوكب الأحمر؟ قالوا: نعم..

فقال: إنه لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره.. ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.. يعني: المدينة..

مع كل هذه القناعة.. إلا أنه لم يدخل في الإسلام.. بل كان يعادي المسلمين..

صحيح أنه لم يقاتل بجسده؛ لكنه كان يمدهم بالسلاح.. والرأي والمال.. وكان يتمنى أن لو كان مبصرًا ليقاتل معهم..

فبينما هو محبوس مع قومه.. إذ مر به ثابت بن قيس بن شماس ﵁.. فلما رآه ثابت تذكر أن هذا اليهودي قد أحسن إليه في الجاهلية.. فأراد أن يكافئه.. فأقبل إليه فقال: هل تعرفني يا زبير؟

فقلب الأعمى رأسه يتذكر هذا الصوت.. ثم قال: وهل يجهل مثلي مثلك.. أنت ثابت بن قيس؟

فقال ثابت: نعم.. أريد أن أكافئك بإحسانك إلي في الجاهلية..

فابتهج الزبير وقال: إن الكريم يجزي الكريم..

فذهب ثابت إلى النبي ﷺ.. فقال: يا رسول الله، هذا شيخ كبير بينهم.. كان قد أحسن إلي في الجاهلية.. وأنا أشفع فيه يا رسول الله أن تطلقه.. فأطلقه النبي ﷺ.. وعفا عن قتله.. ففرح ثابت ومضى سريعًا إلى الزبير.. وقال: أبشر يا زبير.. قد عفا عنك النبي ﷺ.. قم.. فقام معه الزبير.. لا تكاد تحمله قدماه من الفرح..

فلما مشى خطوات.. وقف.. قال ثابت: ما بالك وقفت؟!!

قال: وما يفعل شيخ كبير.. لا أهل له ولا ولد.. ما يصنع بالحياة!

قال ثابت: انتظر هنا.. فرجع ثابت إلى النبي ﷺ..

قال: يا رسول الله.. الزبير يريد زوجه وأولاده.. ويقول: شيخ كبير أعمى به حاجة إليهم.. فأمر النبي ﷺ.. فأطلقت امرأته وأولاده..

فمضى بهم ثابت إليه.. فلما رأوا أباهم تعلقوا به وبكوا وبكى.. وهم يشكرون

لثابت.. ثم ما كاد الزبير يمشي خطوات.. حتى وقف.. وقال: وما يفعل شيخ كبير.. مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال!! كيف يعيشون؟!!

فقال ثابت: انتظر هنا.. ثم رجع ثابت إلى رسول الله ﷺ.. فقال: يا رسول الله.. الزبير يقول: وما يفعل شيخ كبير.. مع زوجته وأولاده في الحجاز من غير مال؟!! كيف يعيشون؟!!

فقال النبي ﷺ: «أطلقوا ماله»..

فأخذه ثابت.. ومضى إلى الزبير.. قال: يا زبير.. وما تريد أكثر.. هذه زوجتك.. وهؤلاء أولادك.. وهذا مالك.. وهذه نفسك.. قم امض معي.. فقام الزبير.. شاكرًا داعيًا.. فلما مشى خطوات.. معه أولاده وزوجه وماله.. تذكر قومه وأصحابه.. وقد كان قبل قليل معهم لكنه أعمى لا يدري من بقي ومن ذهب..

فالتفت إلى ثابت وقال: يا ثابت.. ما فعل سيدنا الذي كأن وجهه مرآة صينية.. تتراءى فيها عذارى الحي.. قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني كعب بن أسد سيدنا؟ قال: قتل.. فسكت ثم مشى قليلاً.. ثم التفت إلى ثابت وقال: فما فعل سيدنا الآخر.. سيد الحضر والبادي.. قال ثابت: من تعني؟

قال: أعني حيي بن أخطب؟ قال: قتل.. فسكت ثم مشى قليلاً.. ثم التفت إلى ثابت وقال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا..

قال ثابت: من تعني؟ قال: أعني: عزال بن شمول؟ قال: قتل..

قال: فما فعل سادة المجلسين.. اللذين يجتمع إليهما الناس؟

قال ثابت: من تعني؟.. قال: بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة..

قال ثابت: ذهبوا.. قتلوا.. عندها.. وقف الزبير..

هو الآن في لحظة اتخاذ قرار.. يسلم أو لا يسلم..

أتدري ما مثله؟!

مثله كمثل رجل أتى ليصلي الجمعة.. فإذا الخطيب يتكلم عن التدخين وحرمته.. وصاحبنا علاقته بالتدخين وثيقة ففي جيبه علبة سجائر وفي سيارته أخرى

وعند سرير نومه ثالثة.. وفي درج مكتبه رابعة.. أصحابه مدخنون.. تعودوه.. كيف يغير حياته..

ومثله من كان كسبه من حرام.. أو له علاقات محرمة بفتيات.. أو فتاة لها علاقة محرمة بشاب..

كلهم يحتاجون إلى بطولة وحزم..

هذا حال الزبير.. أما الحق فقد تبين له.. فهل يدخل في الإسلام.. ويترك دين آبائه وأجداده..

الأمر يحتاج إلى شجاعة.. بل يحتاج إلى رجل بطل تهون عليه الدنيا كلها.. في سبيل أن يتبع الهدى.. ما يضره لو قال: لا إله إلا الله.. فربح الدنيا والآخرة..

أخذ الزبير يفكر.. ثم التفت إلى ثابت.. وقال: يا ثابت.. تريد أن تحسن إلي؟

قال: نعم.. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم.. فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير.. فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبة..

فعاد به ثابت يسير به إلى الموت.. مختارًا أن يموت على الكفر.. فكان له ما أراد..

جبن وخور..

وما ضره لو انتهز الفرصة وغير حياته.. وكم من الناس اليوم كذلك يضيعون الفرص.. تمر به فرص الخير.. وقوافل الرحمات فلا يرحل معها.. يدخل عليه رمضان ويخرج وهو لم يتغير..

صلاته قبل رمضان.. هي صلاته بعد رمضان..

لسانه قبل رمضان هو لسانه بعد رمضان..

ألفاظه هي ألفاظه.. نظراته هي نظراته..

فأف لنفوس لم يهذبها الجوع.. ولم يربها السجود والركوع.. شهر كامل.. وصيام متتابع.. ولم يتعدل فيه شيء؟!!

عجبًا يا قوم!! أين آثار الصيام!! وأنوار القيام؟!!

إن كنت تخشع وتبكي في رمضان.. فأين شواهد الأحزان؟!!

شهر رمضان مضمار السابقين.. وغنيمة الصادقين.. وقرة عيون المؤمنين.. وليالي رمضان كالتاج على رأس الزمان.. وهي غنيمة أهل الإيمان..

إذا هجع النوام أسبلت عبرتي وأنشدت بيتًا، وهو من ألطف الشعر:

أليس من الخسران أن لياليا تمر ... بلا أجر وتحسب من عمري

الشجاعة والإصرار على إصلاح النفس:

نعم.. لماذا لا يكون عندنا شجاعة وإصرار على إصلاح أنفسنا.. وعلاج أخطائنا؟

نعالج أولاً علاقتنا بربنا.. ننكسر بين يديه صادقين.. نشعر أنفسنا أننا عبيد وهو سيد.. أننا محتاجون إليه وهو الغني.. أنه القوي ونحن الضعفاء، نعترف بذلك صراحة بين يديه..

أجدبت الأرض.. واشتد القحط في عهد الخليفة الناصر.. وكان المنذر بن سعيد البلوطي.. القاضي الفاضل من العباد الصالحين.. فأمره الخليفة أن يصلي بالناس صلاة الاستسقاء.. فلما أراد أن يخرج.. تفكر على أي حال يكون الخليفة..

فقال لغلام عنده: هأنا سائر للاستسقاء.. فليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة في يومنا هذا؟

اذهب فتحيل حتى تنظر إليه.. فذهب الغلام.. وغاب قليلاً ثم رجع.. فقال له البلوطي: ما رأيت؟!

فقال الغلام: ما رأيته قط أخشع منه في يومه هذا.. إنه منفرد بنفسه.. لابس أخشن الثياب.. مفترش التراب.. قد علا نحيبه واعترافه بذنوبه..

وهو يقول: رب هذه ناصيتي بيدك.. أتراك تعذب الرعية بذنبي وأنت أحكم الحاكمين؟!!

فلما سمع البلوطي ذلك تهلل وجهه.. وقال: يا غلام، احمل الممطرة معك

يعني: المظلة من المطر -.. إذا خشع جبار الأرض.. رحم جبار السماء.. إذا خشع جبار الأرض.. رحم جبار السماء..

أفلا يجعلنا الصيام نستشعر هذه العبودية؟!

نستشعر أن فضل الله علينا عظيم.. يوم هدانا للإسلام فلم يجعلنا وثنيين نسجد لصنم.. ولا هندوسًا نركع لبقر.. ولا يهودًا ولا نصارى.. بل جعلنا موحدين.. نزداد شرفًا كلما تذكرنا أننا نعبده وحده لا شريك له..

حبس أحد السلاطين رجلاً.. فلما طال عليه الحبس.. كتب إليه بعض إخوانه الصالحين: اشكر الله على نعمه.. واصبر.. فلبث أيامًا ثم أمر به السلطان فضرب بالسياط.. فكتب إليه صاحبه: اشكر الله.. فمرت الأيام..

فأمر به السلطان فجعل في رجله قيد.. وربط مع رجل مجوسي مسجون.. فاشتد عليه الأمر..

ومضت أيام.. فأصيب المجوسي بداء في بطنه.. فأصابه إسهال.. وصار يقوم بالليل والنهار لقضاء الحاجة مرات..

وكلما ذهب للخلاء.. ذهب معه الرجل.. لأنه مربوط معه.. فيقف عند رأسه حتى يقضي حاجته.. فضجر من ذلك.. فكتب إليه صاحبه يوصيه: اشكر الله.. ولا تجزع..

فتسخط من وصيته.. وقال: أشكر الله على ماذا؟! وأي بلاء فوق ما أنا فيه؟!

فكتب إليه صاحبه: لو كنت مجوسيًا مثله.. وجعلنا الزنار الذي في وسطه في وسطك.. ما كنت تصنع؟ فاشكر الله على سلامة الدين.. ولا عليك بما فاتك من الدنيا..

نعم.. إذا قويت علاقتك بمن في السماء.. فلا عليك بما فاتك من الدنيا..

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

معاشر الصائمين..

رمضان فرصة للتزود من القربات.. وهو فرصة أيضًا لتصفية النفوس بين المؤمنين.. أن نجعل القلب سليمًا.. أن يطلع الله على كمائن صدورنا ونحن صائمون.. فلا يرى فيها حقدًا ولا ضغينة.

صفاء نفوس المؤمنين..

ومن نظر في حال السلف وجد من حرصهم على صفاء النفوس أعاجيب.. حتى مع العصاة والمجرمين كانوا يتعاملون معهم بصفاء نفس..

أم المؤمنين زوج النبي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها كانت يهودية فأسلمت وتزوجها النبي ﷺ. عاشت بعد النبي ﷺ زمنًا..

وفي خلافة عمر رضي الله عنه.. ذهبت جارية لها إلى عمر وقالت: إن صفية تحب السبت (وهو يوم معظم عند اليهود) تحب السبت.. وتصل اليهود..

فبعث عمر رضي الله عنه إليها يسألها: يا أم المؤمنين ما الخبر؟!!

فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة.. وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها.. فدعا لها عمر.. فعلمت صفية رضي الله عنها أن الجارية هي التي نمت عليها عند عمر..

فسألت جاريتها: ما حملك على ما صنعت؟ فزعت الجارية وقالت: الشيطان!!

ثم سكتت الجارية ترقب ما سوف تفعل بها صفية رضي الله عنها.. فكظمت أم المؤمنين غيظها وقالت: اذهبي فأنت حرة..

والإمام أبو إسحاق الشيرازي..

أقبل يومًا إلى دجلة وخلع عمامته على شاطئ النهر ونزل ليتوضأ.. وكانت عمامته بعشرين دينارًا.. فجاء لص فأخذها وترك مكانها عمامة رديئة..

فلما انتهى أبو إسحاق من وضوئه أقبل إلى العمامة فتناولها ولفها على رأسه ومضى وهو ساكت.. فلما جلس في درسه.. نبهه طلابه إلى أن هذه غير عمامته.. وأن لصًا سرق عمامته الفاخرة وترك له هذه.. وهم ينتظرون أن يغضب الشيخ

ويدعو على من سرق عمامته.. فقال الشيخ: عفا الله عنا وعنه.. لعله أخذها محتاجًا إليها..

وما أجمل أن يكون عندنا من الجرأة ما نطأ به على أنف الشيطان ونزيل ما في قلوب الآخرين من أحقاد علينا..

نزيل ذلك بالتبسم والتلطف.. وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.. أو نزيله بالهدية المناسبة.. وتهادوا تحابوا.. أو نزيله بالنية الصادقة والمصارحة.. عبر المقابلة الصريحة.. أو الرسالة المكتوبة..

سافر المسور بن مخرمة رضي الله عنه إلى الشام.. فوفد على معاوية رضي الله عنه.. فسأله بعض الحاجات فقضاها معاوية..

وكان معاوية يبلغه أن المسور يعيب عليه وعلى عدد من الولاة أشياء.. وربما تكلم بها عند خاصته.. فلما خف الناس.. خلا معاوية بالمسور.. ثم قال: يا مسور! ما فعل طعنك على الأئمة؟

فقال المسور: دعنا من هذا.. وأحسن..

فأصر معاوية عليه وقال: لا والله.. لتكلمني بذات نفسك بالذي تعيب علي..

فتكلم المسور.. فلم يترك شيئًا يعيبه عليه إلا بينه له..

فقال معاوية: لا أبرأ من الذنب..

فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة..؟ فإن الحسنة بعشر أمثالها.. أم تعد الذنوب.. وتترك الإحسان؟

قال مسور: ما تذكر إلا الذنوب..

قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه..

فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تغفر؟

قال: نعم..

قال: فما يجعلك لله برجاء المغفرة أحق مني.. فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي.. ولكن والله لا أخير بين أمرين: بين الله وبين غيره.. إلا اخترت الله على ما

سواه.. وإني لعلي دين يقبل فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات.. ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها..

فسكت المسور قليلاً ثم قال: خصمتني.. ودعا له.. ثم خرج مسور من عنده.. فلم يسمع بعدها يذكر معاوية إلا صلى عليه..

فما أجمل أن يكون عندنا جرأة معاوية في مداواة النفوس..

أيها الصائمون والصائمات..

ومن أهم ما ينبغي أن ننتهز به أيام هذا الشهر المبارك:

نصح الناس.. ودعوتهم إلى الله.. فقد أقبل الناس على الخير.. وانتهى الكثيرون عن معاص كانوا مقيمين عليها فيها قبل رمضان..

في رمضان تقبل القلوب على ربها.. ويضعف تحكم الشيطان فيها..

كم من أب يشتكي إعراض ولده.. وكم من شاب يتمنى الهداية لصديقه.. وكم من زوجة تتلهف لتوبة زوجها..

فها هي القلوب تقبل في هذا الشهر الكريم.. فلماذا لا نصطادها بسنارات الإيمان؟

إصلاح الناس أهم غايتنا في الشهر الكريم:

لماذا لا تكون الدعوة وإصلاح الناس من أهم غاياتنا هذا الشهر الكريم؟

وقد روى مسلم أنه ﷺ قال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم».

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «إن الله.. وملائكته.. وأهل السموات.. والأرضين.. حتى النملة في جحرها.. وحتى الحوت.. ليصلون على معلم الناس الخير».

ورب كلمة يتكلم بها الداعية.. تكون سبب هداية لمن يسمعها..

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً.. يكتب الله له بها رضاه إلى يوم يلقاه..

كلنا نعرف حاله ﷺ في الدعوة وأحوال أصحابه..

نعم.. ونعرف أساليب الدعوة ونتقنها.. لكننا نحتاج في الحقيقة إلى أن نحمل همها.. ونجعلها من أهم أشغالنا.. نحتاج أن نتفنن في اصطياد الناس لهدايتهم.. أن نغشاهم في مجالسهم.. أن نسلك بهم كل سبيل لزيادة إيمانهم.. وتعبيدهم لربهم..

كان القاضي وكيع.. يصلي الفجر.. ثم يجلس لطلاب العلم.. حتى ترتفع الشمس.. ثم ينصرف إلى بيته.. فينام قليلاً فإذا صلى الظهر.. خرج إلى طريق الأعراب الذي يمرون به لاستقاء الماء.. فإذا رآهم قد أراحوا إبلهم.. جلس إليهم يعلمهم من القرآن ما يؤدون به الصلاة.. ويستمر على هذا معهم في الشمس.. إلى أذان العصر.. ثم ينصرف إلى مسجده..

ولم يكن القاضي وكيع وحده الذي يحترق لهذا الدين.. ويستميت لإصلاح المسلمين.. بل لا يزال في الأمة..

حدثني بعض المشايخ في مدينة جازان.. عن الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي.. أنه كان لا يفوت فرصة في تعليم الناس ودعوتهم إلى الله تعالى..

مر يومًا ببئر يصطف عنده رعاة الغنم ليملئوا قربهم بالماء.. ورأى أن الراعي يظل واقفًا زمنًا ينتظر وصول دوره.. فبنى مظلة صغيرة بجانب البئر.. وصار يجلس فيها وقت مجيء الرعاة.. ويجعل بين يديه طبقًا فيه تمر.. فإذا رأى راعيًا واقفًا ناداه قائلاً: تعال كل تمرًا.. واحفظ سورة الفاتحة..

فيوقف الراعي حماره في الصف.. ويجلس بين يدي الشيخ.. فيناوله التمر ويقرأ عليه السورة.. فلا يصل دوره إلا وقد حفظها..

فحفظ الفاتحة بهذه الطريقة مئات الناس من العوام..

وربما كانت هداية شخص أو انصرافه عن معصية.. بكلمة عابرة.. أو دعوة صادقة..

أيها الصائمون والصائمات.. رمضان فرصة إيمانية..

وهو فرصة لتربية النفس على الأخلاق الحميدة.. وقد روى البخاري أنه ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به.. فليس لله حاجة في أن يدع طعامه

وشرابه»..

وفي الصحيحين قال ﷺ: «الصوم جنة.. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل.. فإنه سابه أحد فليقل إني امرؤ صائم»..

والصائم المحتسب إذا أوذي أو شتم لا يغضب.. بل يقول: إني صائم.. ولا يقابل الإساءة بمثلها.. ولا تضطرب نفسه.. لأنه صائم.. فكأنه يقول لمن أساء إليه: افعل ما شئت.. فقد عاهدت ربي بصومي على أن أحفظ لساني وجوارحي.. فكيف أخلف العهد..

نعم.. إني صائم.. فلا وقت عندي للخصام.. ولا سيئ الكلام..

وقد كان السلف الصالحون يحفظون ألسنتهم.. ويكظمون غيظهم.. ويحسنون أخلاقهم.. في غير رمضان.. فما بالك بحالهم في رمضان..

كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يمشي يومًا ومعه تلميذه عكرمة وبعض أصحابه.. فوقف له رجل في الطريق وجعل يسبه ويشتمه.. وابن عباس ساكت.. والرجل يسب ويشتم.. فلما خف غضب الرجل.. التفت ابن عباس إلى عكرمة وقال: انظر إن كان للرجل حاجة فاقضها له.. ثم مضى..

أما عمر بن عبد العزيز فقد مضى إلى المسجد يومًا مع بعض حجابه.. فلما دخل المسجد.. فإذا السرج مطفئة.. وعدد من الناس نائم في المسجد.. فجعل يمشي بينهم ويتخطى برجليه.. فوطئ برجله من غير قصد على رجل أحد النائمين..

فاستيقظ النائم غاضبًا وصاح بعمر: أنت حمار..!! فأجابه بكل هدوووء: لا أنا عمر بن عبد العزيز.. فهم الحاجب الذي مع عمر أن يؤدب الرجل.. فنهاه عمر وقال: ما فعل شيئًا يستحق به التأديب.. إنما سألني: أنت حمار؟ فأجبته بأني عمر..

نعم ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب..

نعم.. البطل.. هو الذي يستطيع أن يؤدب نفسه بآداب الشريعة..

ومدرسة الصوم تدفعك إلى ذلك.. فلا غضب مع الصيام.. ولا سب ولا فحشاء.. بل إن سابه أحد قال: إني صائم..

سئل عكرمة المفسر عن معنى قوله تعالى عن يحيى بن زكريا عليه السلام: ﴿وَسَيِّدًا

وَحَصُورًا﴾ [آل عمران:٣٩] فقال: الحصور هو السيد الذي لا يغلبه الغضب..

وهذا طبع الشرفاء.. ألم تر أن إخوة يوسف ﷺ باعوا أخاهم.. وأحزنوا أباهم..

فلما مضت السنون.. وقدر يوسف عليهم.. وأتوه محتاجين يقولون: تصدق علينا.. أجابهم وهو يطأ على أنف الشيطان.. متناسيًا كل الآلام السابقة.. وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]..

وختامًا.. أيها الإخوة والأخوات..

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لصيام رمضان وقيامه.. إيمانًا واحتسابًا..

وأن يجعلنا ممن يقبل صيامه.. ويغفر زلله وإجرامه..

وأن يمن علينا بالعتق من النيران.. والفوز بالجنان..

وأن يغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين.. والله تعالى أجل وأكرم وأعلم.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه..

❊ ❊ ❊

ربانيون لا رمضانيون..

رمضان يا فرصة المحبين..

الحمد لله الذي فرض على عباده الصيام، وجعله مطهرًا لنفوسهم من الذنوب والآثام، الحمد لله الذي خلق الشهور والأعوام، والساعات والأيام، وفاوت بينها في الفضل والإكرام، وربك يخلق ما يشاء ويختار، أحمده سبحانه، فهو العليم الخبير، الذي يعلم أعمال العباد ويجري عليهم المقادير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير، في السماء ملكه، وفي الأرض عظمته، وفي البحر قدرته، خلق الخلق بعلمه، فقدر لهم أقدارًا، وضرب لهم آجالاً، خلقهم، فأحصاهم عددًا، وكتب جميع أعمالهم فلم يغادر منهم أحدًا، وأصلي وأسلم على أفضل من صلى وصام، ووقف بالمشاعر وطاف بالبيت الحرام.

صلى الله وسلم وبارك عليه، ما ذكره الذاكرون الأبرار، وصلى الله وسلم وبارك عليه، ما تعاقب الليل والنهار، ونسأل الله أن يجعلنا من خيار أمته، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته.

أما بعد، أيها الصائمون والصائمات، ما أشبه الليلة بالبارحة، هذه الأيام تمر سريعة وكأنها لحظات، لقد استقبلنا رمضان الماضي، ثم ودعناه، وما هي إلا أشهر مرت كساعات، فإذا بنا نستقبل شهرًا آخر، وكم عرفنا أقوامًا، أدركوا معنا رمضان أعوامًا، وهم اليوم من سكان القبور، ينتظرون النشور، وربما يكون رمضان هذا لبعضنا آخر رمضان يصومه.

إن إدراكنا لرمضان، نعمة ربانية، ومنحة إلهية، فهو بشرى، تساقطت لها الدمعات، وانسكبت العبرات، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وروى النسائي والبيهقي بسند حسن أنه ﷺ قال: «قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه يفتح فيه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم».

وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين وفتحت أبواب الجنة»..

نعم، كم من قلوب تمنت، ونفوس حنت، أن تبلغ هذه الساعات، شهر، تضاعف فيه الحسنات، وتكفر السيئات، وتقال فيه العثرات، وترفع الدرجات، تفتح فيه الجنان، وتغلق النيران، وتصفد فيه الشياطين، شهر جعل فيه من الأعمال جليلها، ومن الأجور عظيمها..

روى الترمذي وغيره أنه ﷺ قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة».

نعم، شهر رمضان، هو شهر الخير والبركات، والفتوح والانتصارات، فما عرف التاريخ غزوة بدر وحطين، ولا فتح مكة والأندلس، إلا في رمضان..

لذا كان الصالحون يعدون إدراك رمضان من أكبر النعم..

قال المعلى بن الفضل: كان السلف يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان!!

وقال يحيى بن أبي كثير: كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان، وسلم لي رمضان، وتسلمه مني متقبلاً..

نعم، كان رمضان يدخل عليهم، وهم ينتظرونه، ويترقبونه، يتهيئون له بالصلاة والصيام، والصدقة والقيام، أسهروا له ليلهم، وأظمئوا نهارهم، فهو أيام معدودات، فاغتنموها..

لو تأملت حالهم، لوجدتهم، بين باك غلب بعبرته، وقائم غص بزفرته، وساجد يتباكى بدعوته..

كان يدخل على أقوام صدق فيهم قول الله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦، ١٧].

كانوا ربانيين، لا رمضانيين، هم في صيام وقيام، في رمضان وغير رمضان..

باع رجل من الصالحين جارية لأحد الناس، فلما أقبل رمضان أخذ سيدها الجديد يتهيأ بألوان الطعام..

فقالت الجارية: لماذا تصنعون ذلك؟

قالوا: لاستقبال الصيام في شهر رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا في رمضان؟! والله لقد جئت من عند قوم السنة عندهم كلها رمضان، لا حاجة لي فيكم، ردوني إليهم، ورجعت إلى سيدها الأول..

كانوا يدركون الحكمة من شرعية الصيام.. فالصوم لم يشرع عبثًا..

نعم، ليست القضية، قضية ترك طعام!! أو شراب، كلا.

القضية أكبر من ذلك بكثير، شرع لكي يعلم الإنسان، أن له ربًا، يشرع الصوم متى شاء، ويبيح الفطر متى شاء!! يحكم ما يشاء ويختار، فيخشاه ويتقيه..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٣] نعم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.. والتقوى خشية مستمرة..

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.. ومن حقق التقوى شعر بأن حياته كلها، ملك لله تعالى، يفعل بها ما يشاء، فهو يصلي وقت الصلاة، ويصوم وقت الصوم، ويجاهد في الجهاد، ويتصدق مع المتصدقين، فليس لنفسه منه حظ ولا نصيب، بل حياته كلها وقف لله تعالى..

جعفر بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ أخو علي بن أبي طالب، أسلم هو وزوجته أسماء مبكرين، لم يتجاوز عمره الواحد والعشرين عامًا، وأصابه من الأذى والاضطهاد في مكة، ما لا يحتمل، فأذن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، خرج جعفر وزوجه إلى الحبشة، إلى أرض الغرباء البعداء، خرج وهو الشريف في قومه، إلى أرض الغرباء البعداء، إلى أرض لا يعرفها، وقبائل لا يألفها، ولغة لا يفهمها، لبث في الحبشة ثلاث سنين، ثم أشيع عندهم أن قريشًا قد أسلموا، فعاد بزوجته

وولده، فإذا قريش على كفرها، فردهم النبي ﷺ إلى الحبشة، عاد إلى الحبشة، وأكمل فيها سبع سنوات..

فلما فتح النبي ﷺ خيبر أرسل إلى المسلمين في الحبشة ليقدموا إلى المدينة، فلما دخلوا المدينة، فرح النبي ﷺ بقدوم جعفر فرحًا شديدًا..

وذكر أنه ﷺ لما رآه قبله بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر».

وكان جعفر شديد الشبه بالنبي ﷺ حتى كان ﷺ يقول لجعفر: «أشبهت خَلقي وخُلقي».

ما كاد جعفر يستقر في المدينة، حتى بلغ النبي ﷺ أن الروم يجمعون الجيوش لغزو المسلمين، فجهز النبي ﷺ جيشًا لقتال الروم في مؤتة، وأمّر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: «إن أصيب زيد فجعفر على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة». فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف مقاتل، ثم ودعهم رسول الله ﷺ.

وصل المسلمون إلى مؤتة، فإذا الروم مائة ألف مقاتل، فابتدأ القتال، فأخذ الراية زيد فأصيب فقتل، ثم أخذها جعفر بيمينه، وقاتل بها حتى إذا اشتد القتال، رمى بنفسه عن فرسه، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردًا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

علي إذ لاقيتها ضرابها

ولازال يضربهم بسيفه، والراية في يمينه، فضربه رومي على يمينه، فقطعت، فأخذ الراية بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاثين سنة..

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رأيت جعفر صريعًا، وفي جسده أكثر من تسعين ضربة ما بين طعنة وضربة ورمية، والله ما فيها واحدة في قفاه.. ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فأصيب فقتل، ثم أخذها خالد بن الوليد، فانسحب بالجيش..

هذا خبر المجاهدين في مؤتة، أما خبر المدينة فيحكيه أنس رضي الله عنه فيقول: خرج إلينا رسول الله ﷺ ثم رقي النبي ﷺ المنبر، فقال: «ألا أنبئكم جيشكم هذا

الغازي؟». قلنا: بلى، قال: «أخذ الراية زيد فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: «ثم أخذ الراية جعفر فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: «ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فأصيب فقتل فاستغفروا له». قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، ثم استعبر النبي ﷺ ونزل، وبعدها، ذهب إلى بيت جعفر..

قالت أسماء بنت عميس زوجة جعفر: كنت قد غسلت أولادي، ونظفتهم ودهنتهم، وعجنت عجيني، ننتظر قدوم جعفر.. فاستأذن علينا رسول الله ﷺ ثم دخل، فقال: «ادعي لي بني أخي».

قالت: فأتيته بهم كأنهم أفراخ.. فلما رأوا رسول الله ﷺ، أقبلوا يتسابقون إليه، يتعلقون به ويقبلونه، يظنونه أباهم جعفرًا، فجعل رسول الله ﷺ يمسح رءوسهم ويبكي، ويمسح رءوسهم ويبكي، فقالت أسماء: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟

فسكت، قالت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟

قال: «قتل جعفر». قالت: يا رسول الله، يتم بنيه، يتم بنيه..

قال: «العيلة تخافين عليهم!! أنا وليهم في الدنيا والآخرة». ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «على مثل جعفر فلتبك البواكي».

ثم رجع الرسول ﷺ إلى أهله فقال: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا فإنهم أتاهم ما يشغلهم». نعم، قتل جعفر، وفارق أهله وماله، لكنه دخل جنة عرضها السماوات والأرض..

قال ﷺ: «رأيت جعفرًا في الجنة، له جناحان مضرجان بالدماء، يطير بهما مع الملائكة».

نعم، هذه حقيقة التقوى!! أن تطيع الله بكل جوارحك..

فهل يكون متقيًا، من يصوم بطنه عن الطعام، ولا تصوم عينه عن النظر الحرام، ولا سمعه عن السماع الحرام، ولا يصوم لسانه عن الآثام..

هل يكون متقيًا، من يجمع الثواب في النهار، ثم يحرق ذلك في الليل، بأغنية

ماجنة، ورقصة فاتنة، يزينها له شياطين الإنس، نعم، يزينها له شياطين الإنس..

صفدت شياطين الجن فتحركت شياطين الإنس، بل إن شياطين الإنس لم يكتفوا بليل الصائمين، وإنما أشغلوا نهارهم، أصبحت جموع من الصائمين، تتسمر أمام الشاشات في النهار والليل، واكتفوا من الصيام بالإمساك عن الطعام فقط، ولا يستشعرون أنهم وقعوا في الحرام..

عجبًا، هل ينكر أحد منا حرمة النظر إلى المرأة الأجنبية، أو حرمة الغناء وآلات الطرب، أو حرمة النظر إلى ألعاب السحر والشعوذة.. بل تعرض على الناس برامج، إذا تأملت فيمن أنتجها وصاغها، بل وكتب حواراتها، وجدتهم ليسوا من العلماء المتقين، ولا المصلحين الناصحين، وإنما أكثرهم من الفساق، وشراب الخمور، وأصحاب الشهوات المسعورة، يحاربون الله ورسوله، ويكسبون الأموال.

لقد تبلدت أحاسيس بعض الناس، حتى صاروا يتقبلون أن ينظروا إلى رجل يحتضن بنتًا شابة، لأنه يمثل دور أبيها، أو يضطجع بجانبها على فراش واحد لأنه يمثل دور زوجها..

صرنا نأخذ الأمر بعفوية بريئة..

صرنا لا ننكر ظهور المرأة حاسرة متكشفة، تعودنا مناظر احتساء الخمور، والتدخين، والسرقات، والقتل، والسباب، تقبلنا كل هذا على أساس أنه تمثيل..

أي تقوى تحققها هذه البرامج، إنها والله تقضي على البقية الباقية من الإيمان، بل إنها تتبع ما تبقى في القلب من تقوى وتزيلها..

أيها الصائمون والصائمات.. هل يليق هذا برمضان، شهر الحسنات، والرحمات؟

سبحان الله، أين ليالي رمضان، التي كانت تقضى، بين قارئ للأذكار، ومستغفر بالأسحار، كانت تقضى بين ساجد خاشع، وقائم خاضع، لصدر أحدهم أزيز كأزيز المرجل من البكاء، الكل في هدوء وسكينة، تتنزل عليهم الرحمات، ويباهي الله بهم ملائكته، فجاء التلفاز وأبدل بها الأفلام، والمسلسلات، وجولات المصارعة الحرة، وكرة القدم..

والأدهى من ذلك كله: أن يخدع الناس في رمضان بما يسمى المسلسلات

الدينية..

ففي شعبان يظهر الممثل في دور ماجن فاجر، يقبل خليلته، ويشرب الخمر، فإذا دخل رمضان، رأيته في شخصية أبي بكر وعمر، وخليلته الفاجرة في دور عائشة وخديجة، إن هذا لشيء عجاب..

نحن لا نلوم هؤلاء، فقد غسلنا أيدينا منهم، لكننا نلوم العقلاء المؤمنين، الذين تستخفهم هذه التوافه فيتابعونها دون نكير، فمن يصفد عنا مردة شياطين الإنس، الذين لا يرون لرمضان حرمة، ولا يرقبون في مسلم إلاً ولا ذمة، فيهيئون أسباب الرذيلة، بكل خسة ووقاحة!!

فبمناسبة رمضان، يحيى الفنان فلان حفلة غنائية، وتقيم فرقة فلان، مسرحيتها الماجنة..

ألا شاهت تلك الوجوه، ما أجرأها على انتهاك حرمات الله..

أما يعلم هؤلاء المفسدون أنهم يصبحون ويمسون على نعمة عظيمة، لو واصلوا ليلهم بنهارهم في صيام وقيام، لما شكروا عشر معشارها، إنها نعمة الإسلام، وإدراك الصيام والقيام..

أما يعلمون أن الله فضلهم بها على كثير ممن خلق تفضيلاً؟ كيف يكون حال أحدهم لو أن الله بدل أن يجعله مسلمًا موحدًا، جعله بوذيًا يسجد لحجر، أو جعله من عباد البقر، أو ممن يقولون الله ثالث ثلاثة، أو يقولون عزير ابن الله.. والله إن هذه الدنيا كلها لا تساوي شيئًا إذا أحسن العبد التقرب إلى ربه، واستغفر من تقصيره وذنبه..

وانظر إلى حال الأنصار رضي الله عنهم بعد معركة حنين، الأنصار الذين قاتلوا مع النبي ﷺ في بدر ثم قتلوا في أحد، وحوصروا في الخندق، ولازالوا معه يقاتلون ويقتلون، حتى فتحوا معه مكة، ثم مضوا إلى معركة حنين..

ففي الصحيحين: أن القتال اشتد أول المعركة، وانكشف الناس عن رسول الله، فإذا الهزيمة تلوح أمام المسلمين، فالتفت ﷺ إلى أصحابه، فإذا هم يفرون من بين يديه، فصاح بالأنصار: «يا معشر الأنصار». فقالوا: لبيك يا رسول الله، وعادوا إليه،

وصفوا بين يديه، ولازالوا يدفعون العدو بسيوفهم، ويفدون رسول الله ﷺ بنحورهم، حتى فر الكفار وانتصر المسلمون، وبعدما انتهت المعركة، وجمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ أخذوا ينظرون إليها، وأحدهم يتذكر أولاده الجوعى، وأهله الفقراء، ويرجو أن يناله من هذه الغنائم شيء يوسع به عليهم، فبينما هم على ذلك، فإذا برسول الله ﷺ يدعو الأقرع بن حابس ـ ما أسلم إلا قبل أيام في فتح مكة، فيعطيه مائة من الإبل، ثم يدعو أبا سفيان ويعطيه مائة من الإبل، ولا يزال يقسم النعم بين أقوام، ما بذلوا بذل الأنصار، ولا جاهدوا جهادهم، ولا ضحوا تضحيتهم، فلما رأى الأنصار ذلك..

قال بعضهم لبعض: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فلما رأى سيدهم سعد بن عبادة رضي الله عنه ذلك، دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أصحابك من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم، قال: «وما ذاك؟».

قال: لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا، في قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منه شيء..

فقال ﷺ «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي..

فقال: «فاجمع لي قومك». فلما اجتمعوا، أتاهم رسول الله..

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم».

قالوا: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم..

فقال ﷺ «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي». قالوا: بلى ولله ورسوله المنة والفضل، قال: «ألم تكونوا عالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف بين قلوبكم». قالوا: بلى ولله ورسوله المنة والفضل، ثم سكت رسول الله ﷺ وسكتوا، وانتظر، وانتظروا، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار». قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنة والفضل..

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم، لو شئتم لقلتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فواسيناك». ثم قال: «يا معشر الأنصار، أوجدتم على رسول الله في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم» - إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم، وأتألفهم - «ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم، لو سلك الناس واديًا أو شعبًا، وسلكت الأنصار واديًا أو شعبًا، لسلكت وادي الأنصار، أو شعب الأنصار، فوالذي نفس محمد بيده، إنه لولا الهجرة، لكنت امرأ من الأنصار، اللهم اغفر للأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا..

نعم، إن الإسلام الذي هدوا إليه هو خير مما يجمعون..

فطوبى لصائم استشعر هذه النعمة، فحقق التقوى، فصام الشهر، واستكمل الأجر، أخذ رمضان كاملاً وسلمه للملائكة كاملاً، فلا غِيبة، ولا نميمة، ولا أذية للمؤمنين، ولا تقاعس عن صلوات، أو وقوعًا في محرمات، صام فصامت جوارحه وأركانه، قانتًا آناء الليل ساجدًا، وقائمًا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه..

طوبى لمن كانوا كذلك، من عباد رب الشهور كلها، بواطنهم كظواهرهم، شوالهم كرمضانهم، الناس في غفلاتهم، وهم في بكائهم، ربانيون لا رمضانيون..

هؤلاء هم الذين يتحقق فيهم قوله ﷺ كما في الصحيحين: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. يقول الله ﷻ: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان؛ فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

وفي الصحيحين أيضًا قال ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه».

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «من صام يومًا في سبيل الله باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا».

وفي البخاري: «إن في الجنة بابًا يقال له: الريان يدخل منه الصائمون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد».

ولا شك أن هذا الثواب الجزيل، لا يكون لمن امتنع عن الطعام والشراب فقط، وإنما لا بد أن يتأدب بآداب الصوم..

فالصائم المتقي، يحفظ اللسان، كما قال ﷺ فيما رواه البخاري: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»..

وفي الصحيحين قال ﷺ: «الصوم جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل، فإن سابه أحد فليقل إني امرؤ صائم»..

وقد كان السلف يحذرون من فلتات اللسان، في غير صومهم فكيف بهم إذا صاموا؟!

كان أبو هريرة رضي الله عنه وأصحابه إذا صاموا جلسوا في المسجد، وقالوا: نحفظ صيامنا..

وهذا هو حال العاقل، فلماذا يغتاب الناس فيعطي حسناته لغيره..

قال عبد الله بن المبارك لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة؟

فقال سفيان: هو أعقل من أن يسلط على حسناته من يذهب بها..

بل كان بعضهم يحاسب نفسه على الكلام المباح فضلاً عن غيره..

ذكر ابن قدامة في الرقة والبكاء، عن: مالك بن ضيغم عن أبيه قال: جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر، فقلنا: هو نائم..

فقال: أنوم بعد العصر؟ هذه الساعة؟ هذا وقت نوم!! ثم ولى، فقلنا للخادم: ألحقه، فقل: نوقظه لك؟ فذهب الخادم، فلم يرجع الخادم إلا بعد المغرب، فقلنا: أبلغته..

فقال: هو كان أشغل من أن يفهم عني، أدركته وهو يدخل المقابر، وهو يوبخ نفسه، يقول: يا نفس أقلت: أي نوم هذا، لينم الرجل متى شاء، تسألين عما لا يعنيك، أما إن لله ﷻ علي عهدًا، أن أصلي كذا وكذا..

نعم دقق على نفسك، ولا تحتقرن شيئًا..

جلست عائشة يومًا مع رسول الله ﷺ، فذكرت له صفية - إحدى زوجاته، وتعلمون ما يقع بين الضرائر من الغيرة - قالت عائشة: يا رسول الله، حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة، لو مزجت بماء البحر لمزجته». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح..

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار، أبعد مما بين المشرق والمغرب».

أيها الصائمون والصائمات.. ومن أفضل الأعمال، في هذا الشهر الكريم، قيام الليل..

في الصحيحين أنه ﷺ قال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

ومدح الله المؤمنين فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٣، ٦٤].

وقد كان قيام الليل دأب النبي ﷺ وأصحابه.. ففي الصحيح عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح، سبح، وإذا مر بسؤال، سأل، وإذا مر بتعوذ، تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريبًا من قيامه..

أما أبو بكر رضي الله عنه، فكان يصلي من الليل ما شاء الله، ويبكي..

وأما عمر رضي الله عنه، فكان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة ثم يقول لهم: الصلاة، الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

نعم كان أحدهم يصلي لربه، صلاة عبد مشتاق إليه، معترف بفضله عليه،

متذلل منكسر بين يديه، فيزداد محبة إلى محبته، وشوقًا إلى دخول جنته..

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

وهكذا كان من بعدهم.. كان محمد بن خفيف ﷺ به وجع الخاصرة، فكان يشتد عليه حتى يقعده عن الحركة، فكان إذا نودي بالصلاة، يحمل على ظهر رجل إلى المسجد، فقيل له: إن الله قد عذرك، فلو خففت على نفسك، فقال: كلا، إذا سمعتم حي على الصلاة، ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة.

لله درهم من مرضى، بل والله نحن المرضى..

وكان منصور بن المعتمر، إذا جن عليه الليل، يلبس من أحسن ثيابه، ثم يرقى إلى سطح بيته، ويصلي، فلما مات، قال غلام جيرانهم لأمه: يا أماه، الجذع الذي كان ينصب في الليل في سطح جيراننا، ليس أراه..

فقالت: يا بني، ليس ذاك جذعًا ذاك منصور كان يصلي، وقد مات..

وكانوا يستشعرون عظمة ربهم إذا وقفوا بين يديه..

كان أبو زرعة الرازي إمامًا في مسجد قومه عشرين سنة، فجاءه يومًا، قوم من طلاب الحديث، فنظروا فإذا في محرابه كتابة، فقالوا له: ما حكم الكتابة في المحاريب؟ فقال: قد كرهه قوم ممن مضى، فأنا أنهى عنه وأكرهه..

فقالوا: هو ذا في محرابك كتابة، أو ما علمت بها؟!

فقال: سبحان الله!! رجل يقف بين يدي الله تعالى، ويدري ما بين يديه..

أما سفيان الثوري، فقد حدث عنه عبد الرزاق، أحد طلابه، قال: قدم علي سفيان الثوري، بعد العشاء، فوضعت له العشاء، والزبيب والموز، فأكل أكلاً جيدًا، فلما فرغ، قام، وتوضأ، ثم شد على وسطه إزاره، واستقبل القبلة وقال: يا عبد الرزاق!! يقولون: اعلف الحمار ثم كده، ثم صف قدميه يصلي حتى الصباح..

وقال ابن وهب: رأيت سفيان الثوري في الحرم بعد المغرب، صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع حتى نودي بالعشاء..

نعم، كانوا يتسابقون إلى الخير..

قام أبو مسلم الخولاني ليلة، فتعبت قدماه فضربهما بالسوط، وأخذ يقول:

أيظن أصحاب رسول الله ﷺ أن يسبقونا عليه؟ والله لنزاحمنهم عليه، حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالاً..

وكانوا يجدون في الصلاة خشوعًا، وفي السجود خضوعًا..

ذكر الذهبي عن بعض أصحاب شعبة بن الحجاج قال: كان شعبة يطيل الصلاة، وما رأيته ركع في الصلاة قط إلا ظننت أنه نسي، ولا قعد بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي..

وفي الحلية: أن عبيدة بن مهاجر، كان عابدًا شاكرًا، متخشعًا ذاكرًا، وكان له أم مجوسية، فكان يبرها أشد البر، ويدعوها إلى الإسلام فتأبى عليه، فرجع من صلاة العصر يوم الجمعة، فبشرته أنها أسلمت، ونطقت الشهادتين، فخر ساجدًا لله، يبكي ويناجي، فما رفع رأسه حتى غابت الشمس..

ولم يكن العباد من الرجال فقط ففي النساء نصيب..

فمعاذة العدوية كانت تصلي أكثر الليل، وتقول: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور، وتبكي..

وكانت حفصة بنت سيرين تسرج سراجها من الليل ثم تقوم في مصلاها، وكانت تقرب كفنها، لتذكر الموت في صلاتها، فتخشع..

نعم، كانوا يركعون ويسجدون، ويصلون ويقومون، حتى صار ذلك لهم عادة..

كان للحسن بن صالح جارية فاشتراها منه بعضهم، فلما انتصف الليل عند سيدها الجديد قامت تصيح في الدار: يا قوم، الصلاة، الصلاة، فقاموا فزعين، وسألوها: هل طلع الفجر؟ فقالت: وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟! ثم قامت تصلي، فلما أصبحت رجعت إلى سيدها الأول..

وقالت له: لقد بعتني إلى قوم سوء لا يصلون إلا الفريضة ولا يصومون إلا الفريضة فردني فردها..

فليت شعري، ماذا تقول تلك الجارية لو رأت فريقًا من مسلمي زماننا، الذين تمر عليهم الأيام تترى، وهم على فرشهم يتقلبون.. فلا الليل يقومون، ولا صلاة الفجر يشهدون..

فكانوا كما قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وكانوا في رمضان أشد منهم اجتهادًا.. فكان الصحابة في عهد عمر رضي الله عنه يصلون ثلاثًا وعشرين ركعة، ويختمون القرآن مرارًا في رمضان..

وفي الموطأ عن ابن هرمز قال: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان، فكان القارئ يقوم بسورة البقرة في ثمان ركعات، فإذا قام بها في اثنتي عشرة ركعة، رأى الناس أنه قد خفف..

وفي الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: كنا ننصرف من القيام في رمضان، فنستعجل الخادم بالطعام مخافة الفجر..

وفي شعب البيهقي عن خالد بن دريك قال: كان لنا إمام بالبصرة يختم بنا في شهر رمضان في كل ثلاث، فمرض فأمنا غيره، فختم بنا في كل أربع، فرأينا أنه قد خفف..

وقال السائب بن زيد: كان القارئ يقرأ بالمئين - يعني بمئات الآيات - حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا عند الفجر..

فقارن حالهم بحالنا اليوم..

ومن فضل الله تعالى، أن من صلى التراويح كاملة مع الإمام.. فكأنما قام الليلة كاملة، كما في السنن أنه ﷺ قال: «من قام مع إمامه حتى ينصرف كتب له قيام ليلة».

نعم، قوم عبدوا ربهم، فخافوا من عقوبته، ورغبوا في معاملته، وتعلقت قلوبهم بمحبته، فكثر في الدنيا اجتهادهم، حتى علت بين الناس رتبهم، فأحبهم أهل السماء، ووضع حبهم في الأرض..

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]..

شهر رمضان هو شهر القرآن..

وكان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، وكان عثمان رضي الله عنه يختم

القرآن كل يوم مرة، وكان الزهري إذا دخل رمضان، يفر من الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن، وكان قتادة في غير رمضان، يختم القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ليال مرة، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة مرة، وكان إبراهيم النخعي يختم في العشر الأواخر كل ليلة، وفي بقية الشهر في ثلاث..

وكانوا يتدبرون القرآن..

ففي البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ يومًا: «اقرأ علي». فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». قال: فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] قال: «حسبك» فالتفت فإذا عيناه تذرفان..

وفي رمضان يجتمع الصوم والقرآن، فتدرك المؤمن الصادق شفاعتان: يشفع له القرآن لقيامه، ويشفع له الصيام لصيامه، كما صح في المسند أنه ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان».

وقال ﷺ: «يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقول اقرأ وارق، ويزاد بكل آية حسنة». رواه الترمذي وهو حديث حسن.

وروى ابن ماجه وأحمد بسند قال فيه الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، أنه ﷺ قال: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته..

وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه، حلتين لا تقوم لهما الدنيا، فيقولان: عم كسبنا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ، واصعد في درج الجنة،

وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، حدرًا كان أو ترتيلاً».

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإذا كان مؤمنًا، كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتي عن يمينه، فتقول: الزكاة ليس قبلي مدخل، ويؤتى من قبل شماله، فيقول الصوم: ليس قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات إلى الناس: ليس من قبلي مدخل» [الحديث، رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي:.إسناده حسن]..

نعم، كان القرآن عند السلف الصالحين، مسهرًا لليلهم، مدرًّا لدموعهم..

قال عبيد بن عمير، سألت عائشة: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي».

قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك..

فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي، حتى بلّ لحيته، ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي!! وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر..

قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾». رواه ابن حبان وصححه الألباني..

أتانا رسول الله يتلو كتابه ... كما لاح مشهور من الفجر ساطع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

نعم كانوا يقرءون ويبكون..

أما بعض المسلمين اليوم، فقد تحول القرآن عندهم إلى زخارف في البيوت، والمتاجر، والسيارات، فصاحب المتجر يعلق آيات القرآن، وهو يتعامل بالربا، ويحلف كاذبًا..

بل، تشاهد الآيات في السيارات، وأصحابها يحملون الخمر، وعلب السجائر، ويحين عليهم وقت الصلاة ولا يصلون.. وتذهب إلى بعض الإدارات فتجد آيات القرآن معلقة، وبين جدران هذه الإدارة تؤكل الرشوة، ويحتال على المسلمين..

بل ترى المرأة المتبرجة، تعلق في عنقها قلادة على صورة مصحف، وهي سافرة متكشفة، والقرآن يقول لها: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]..

ولتلاوة القرآن آداب:

* منها: أن يتلوه على طهارة، والتسوك قبل التلاوة، والبداية بالاستعاذة والبسملة، وتحسين الصوت والترتيل، لما في المستدرك وغيره من قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا».

* ومن الآداب: أن لا يجهر أحد على أحد بالقراءة فيرفع صوته، قال ﷺ: «ألا كلكم مناج لربه فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة».

وعلى الشخص الذي يجد صعوبة في التلاوة أن يصبر، قال ﷺ كما في الصحيحين: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران».

* ومن الآداب: محاولة البكاء والخشوع عند التلاوة، قال تعالى ممتدحًا المؤمنين ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]..

أما ظاهرة ارتفاع الأصوات بالبكاء والصياح كما يقع في بعض المساجد في رمضان، بحيث يكون الوضع مزعجًا جدًّا، فهذا ليس من سنة النبي ﷺ ولا أصحابه، فلم يكن بكاؤهم صياحًا ولا زعيقًا..

* ومن الآداب: محاولة فهم القرآن، والقراءة في كتب التفسير..

ومن تأمل واقع المسلمين وجد جهلاً عامًّا بمعاني القرآن..

فلو سألت أحدهم: هل تحفظ سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ لقال لك: نعم، فاسأله: ما معنى الله الصمد؟ أو ما معنى ﴿ٱلْفَلَقِ﴾؟ ما معنى: ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؟ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، ما معناها، هذه قصار السور، ما سألته عن آية في سورة البقرة وآل عمران، وإنما عن سور يقرؤها يوميًا أو تقرأ عليه، ومع ذلك

يجهل معانيها، فما الذي يضره لو تعلم تفسيرها ساعة من نهار، فينبغي على قارئ القرآن أن يحاول جاهدًا أن يتفهم ما يقرؤه..

ومن أفضل العبادات في هذا الشهر الكريم، الدعاء..

ويستحب في كل وقت، وله أوقات يتأكد فيها، فعند الإفطار، للصائم دعوة لا ترد، وفي ثلث الليل الآخر، حين ينزل ربنا تبارك وتعالى ويقول: «هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له»..

وقد مدح الله المستغفرين بالأسحار، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨].

ويستحب للداعي ان يتحرى أوقات الإجابة، كما بين الأذان والإقامة، وساعة يوم الجمعة، ودبر الصلوات المكتوبة، وغيرها..

والمرأة فيما ذكرنا، شقيقة الرجل، في الحرص على الطاعات، واغتنام الأوقات..

وبعض النساء، يقصرن في ذلك، فإذا أقبل رمضان. كثر خروجهن إلى الأسواق، تخرج إحداهن وقد حسرت ذراعيها، وأبدت عينيها، أو لبست عباءة مطرزة أو مزركشة، وقد تخرج زينة أكثر من هذه، ورائحة العطر تفوح منها..

وبعض شبابنا يصومون في النهار، فإذا أقبل الليل، جمل أحدهم هندامه، وزين ثيابه، ثم جعل يتعرض للنساء في الأسواق، يرمق هذه، ويشير إلى تلك، عجبًا، بالنهار نيام، وبالليل لئام، الناس في صلاة وخشوع، وهو يتصيد الأعراض..

فيا لفداحة الفاجعة، ويا للنظرات المسعورة، والكلمات المعسولة، فأين الرجال عن أعراضهم، أين الغيرة على الحرمات، أين الشهامة؟!

إن لم تصن تلك اللحوم أسودها ... أكلت بلا عوض ولا أثمان

ومن أفضل الأعمال في هذا الشهر الكريم، الجود والإحسان..

وقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، كان أجود بالخير من الريح المرسلة..

فكم من حسنة إلى منكوب، وصدقة على مكروب، غفر الله بها الذنوب، وستر بها العيوب، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصدقة تطفئ غضب

الرب..

ذكر في تاريخ بغداد، أن فقيرًا جاء إلى عبد الله بن المبارك، فسأله أن يقضي عنه دينًا عليه، فناوله عبد الله كتابًا، إلى وكيل ماله، فذهب به الفقير، فلما قرأه الوكيل، قال للفقير: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟

قال: سبعمائة درهم، فكتب الوكيل إلى عبد الله، أن الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم، وكتب له سبعة آلاف، وسوف تفنى الأموال أو فنيت..

فكتب إليه عبد الله: إن كانت الأموال قد فنيت، فإن العمر أيضًا قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي..

وفي السير: أن ابن المبارك، كان كثيرًا ما يسافر إلى الرقة، وينزل في خان فيها.. فكان شاب يأتي إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله الرقة مرة، فلم ير ذلك الشاب، فسأل عنه: فقالوا: إنه محبوس، لدين ركبه..

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل عبد الله يستقصي، حتى دل على صاحب المال، فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يخبر أحدًا، ما دام عبد الله حيًا، وقال له: إذا أصبحت، فأخرج الرجل من الحبس، ثم خرج عبد الله من ليلته من الرقة.. فلما خرج الفتى من الحبس، قيل له: عبد الله بن المبارك كان ها هنا، وكان يسأل عنك، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فلما قابله، قال له عبد الله: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوسًا بدين..

قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس..

فقال له عبد الله: احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك، ثم فارقه ومضى..

والصدقة في رمضان لها صور متعددة..

فمنها: إطعام الطعام: قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:٨-١٢].

وأخرج الحاكم وصححه، أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وكان الصالحون يعدون إطعام الطعام من العبادات، وقد روى الترمذي بسند حسن، أنه ﷺ قال: «أيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمنًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم».

ومن إطعام الطعام، تفطير الصائمين: وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يفطر إلا مع اليتامى والمساكين، وقد روى أحمد والنسائي أن النبي ﷺ قال: «من فطر صائمًا كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء».

ومن أفضل الطاعات: الجلوس في المسجد حتى تطلع الشمس فقد روى مسلم أنه ﷺ كان إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس، وصح عند الترمذي أنه ﷺ قال: «من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة».

هذا الفضل في كل الأيام فكيف بأيام رمضان؟

ومن الأعمال الفاضلة في رمضان: العمرة، ففي الصحيحين أنه ﷺ قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة». وفي رواية «حجة معي».

ومن أفضل الطاعات أيضًا: تلك العبادة التي يخلو المرء فيها بربه، فيناجيه خاشعًا، معترفًا خاضعًا، يدع الدنيا وراءه، إنها العبادة التي حافظ الرسول ﷺ عليها طوال حياته، إنها سنة الاعتكاف، وهو لزوم المسجد وعدم الخروج منه تقربًا إلى الله تعالى، ولا يخرج من المسجد إلا لحاجة ضرورية لا بد منها، وإلا بطل اعتكافه..

وقد كان ﷺ يعتكف كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا، كما عند البخاري..

والاعتكاف المطلوب، ليس الاعتكاف الذي يجعل المساجد مهاجع للنائمين، أو مجالس للمتزاورين، وموائد للأكل، وحلقات للضحك وفضول الكلام، فهذا اعتكاف لا يزداد به صاحبه إلا قسوة في قلبه..

إن الاعتكاف المطلوب، هو الذي تسيل فيه دموع الخاشعين، وترفع فيه أكف المتضرعين المخبتين، إنه الاعتكاف الذي يسعى فيه المرء جاهدًا، أن لا يصرف منه لحظة في غير طاعة..

وعلى المعتكف، بل على الصائم عمومًا، أن يجعل لسانه رطبًا من ذكر الله، فقد قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وأن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم».

قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله ﷻ». أخرجه الحاكم وصححه..

وذكر ابن رجب في اللطائف: أن أبا هريرة كان يسبح في اليوم والليلة أكثر من اثنتي عشر ألف تسبيحة، فسئل عن إكثاره لذلك فقال: أفتك بها نفسي من النار..

وعند الحاكم: أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأنبئني بشيء أتشبث به، فقال ﷺ: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله».

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٣٥).. فينبغي للصائم، أن يكون مشتغلاً بالذكر والأذكار..

فمن كانت هذه حاله في صيامه، أو اعتكافه وقيامه، رجي له الخير العظيم بفضل الله وتوفيقه..

وأفضل الذكر قراءة القرآن، فإن بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والقرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة..

ولا شك أن الاكتفاء بختمة واحدة في هذه الأيام العشرة تفريط كبير..

كما ينبغي على المعتكف الإكثار من الصلاة، والنوافل المطلقة والمقيدة، كالسنن الرواتب، وصلاة الضحى، وغير ذلك، فقد روى مسلم أنه ﷺ قال لثوبان رضي الله عنه: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة».

وروى مسلم أيضًا عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «أو

غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

والاعتكاف والصلاة، لهما فضل عظيم، روى مسلم أنه ﷺ قال: «صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته، وفي سوقه خمسًا وعشرين درجة، ذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صلّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

فإذا كان المشي إلى الصلاة وانتظارها يرفع المرء ويرقيه، فكيف بالمكوث في المسجد، والاعتكاف فيه أيامًا وليالي، وانتظار الصلاة بعد الصلاة..

قال الزهري: «عجبًا للمسلمين تركوا الاعتكاف، مع أن النبي ﷺ ما تركه منذ قدم المدينة حتى قبضه الله»..

ومن نوى اعتكاف العشر الأواخر فإنه يدخل معتكفه قبل غروب شمس العشرين من رمضان، ويخرج بعد غروب شمس ليلة العيد..

ومن اجتهد في العشر الأواخر فهو حري بأن يدرك ليلة القدر، وهي أعظم ليالي رمضان، بل هي خير من ألف شهر، وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»..

وكان ﷺ يتحرى ليلة القدر، ويأمر أصحابه بتحريها، وكان يوقظ أهله في ليالي العشر، رجاء أن يدركوا ليلة القدر.

وفي الصحيح عن عائشة ﵂ قالت: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني».

أيها الصائمون والصائمات، إننا نعبد ربًا عفوًا يحب العفو، رحمته تسبق غضبه، ومغفرته أعجل من عقوبته، يحب من عباده أن يسارعوا إليه إذا أذنبوا، فالتوبة هي شعار المتقين، ودأب الصالحين، روى مسلم أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة».

ولله في كل ليلة عتقاء من النار، فاجتهد أن تكون واحدًا منهم!!

فرمضان فرصة لمن فرط في صلاته، ليتدارك نفسه، فبين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة، ورمضان فرصة للمدخن أن يتوب، ورمضان فرصة لمن قطع رحمه أن يصلها، ولا يدخل الجنة قاطع، وقد أمر الله بصلة الرحم في تسع عشرة آية، ولعن قاطع الرحم في ثلاث آيات، فمن كان بينه وبين أحد من أرحامه أو أحد من المسلمين، بغضاء أو شحناء، فليسارع إلى الإصلاح، وإذا صامت بطوننا عن الغذاء، فلتصم قلوبنا عن الشحناء..

نعم رمضان فرصة لهؤلاء، وهو فرصة أيضًا..

لمن يتاجر بالحرام، فيبيع المحرمات من دخان، ومجلات فاسدة، ومعسل وجراك، أو أشرطة غنائية، أو يبيع العباءات والنقابات المحرمة، أو الملابس الفاضحة، ليتوب من ذلك، وليعلم أن الله يحاسب على النقير والقطمير.

وكل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، ولن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟

إن رمضان فرصة لنا جميعًا، أن نتخلص من ذنوب لعل بعضها، تتبعنا إلى قبورنا..

نعم، ذنوب تدخل معنا قبورنا، نموت نحن، وتعيش هي بعدنا، تصب علينا السيئات، إنها تلك الذنوب التي يجمعها من ينشر الفساد في الأرض عن طريق بيع أجهزة محرمة، أو فتح مقاهٍ يجتمع فيها الفساق، أو محلات ينشر بها مجلات فاسدة، أو مسكرات ودخان، فمن أعان على هذه المعاصي فهو شريك لأصحابها في الإثم، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

قال أبو حامد: طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه، مائة سنة، ومائتي سنة، أو أكثر، يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى آخر انقراضها، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ «يس:١٢» أي نكتب ما أخروه من آثار أعمالهم، كما نكتب ما قدموه..

ولكن، لا تقنط من رحمة الله.. فأبواب الرحمات مفتوحة.

فكن من الذين تفتح لهم أبواب الجنان، وتغلق عنهم أبواب النيران، الذين ينسلخ عنهم رمضان مغفورة ذنوبهم، مكفرة خطاياهم، وقد قال ﷺ: «رغم أنفه، ثم

رغم أنفه، ثم رغم أنفه، من أدرك رمضان ولم يغفر له».

أيها الصائمون والصائمات، ومن أهم ما ينبغي أن نستغل به هذا الشهر المبارك، نصح الناس، ودعوتهم إلى الله، فقد أقبل الناس على الخير، وانتهى الكثيرون عن معاصٍ كانوا مقيمين عليها فيما قبل رمضان، فهل نغتنم هذه الفرصة السانحة..

وكم من عاص كانت توبته في رمضان، بسبب آية طرقت سمعه، أو موعظة أثرت في قلبه، وقد روى مسلم أنه ﷺ قال: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»..

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «إن الله، وملائكته، وأهل السماوات، والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير».

ورب كلمة يتكلم بها الداعية، تكون سبب هداية لمن يسمعها، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، يكتب الله له بها رضاه إلى يوم يلقاه..

ذكر ابن قدامة في التوابين، عن عبد الواحد بن زيد قال: كنت في مركب، فطرحتنا الريح إلى جزيرة، وإذا فيها رجل يعبد صنمًا، فقلنا له: يا رجل، من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم، فقلنا: إن معنا في المركب من يصنع مثل هذا، وليس هذا إلهًا يعبد..

قال: فأنتم من تعبدون؟ قلنا: الله، قال: وما الله؟

قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، فقال: كيف علمتم به..

قلنا: وجه إلينا هذا الملك رسولاً كريمًا، فأخبر بذلك..

قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: أدى الرسالة، ثم قبضه الله..

قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلى، ترك عندنا كتاب الملك..

فقال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا..

فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا..

فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي، حتى ختمنا السورة..

فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى..

ثم أسلم، وحملناه معنا، وعلمناه شرائع الإسلام، وسورًا من القرآن، وأخذناه معنا في السفينة، فلما سرنا وأظلم علينا الليل، أخذنا مضاجعنا.

فقال لنا: يا قوم، هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا أظلم الليل هل ينام؟

قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيوم لا ينام..

فقال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام، ثم أخذ في التعبد وتركنا..

فلما وصلنا بلدنا، قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام، وغريب في البلد، فجمعنا له دراهم وأعطيناه..

فقال: ما هذا؟ قلنا: تنفقها في حوائجك..

فقال: لا إله إلا الله، أنا كنت في جزائر البحر، أعبد صنمًا من دونه، ولم يضيعني، أفيضيعني وأنا أعرفه!! ومضى يتكسب لنفسه..

وكان بعدها من كبار الصالحين..

ووالله ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أكرم خلقًا، ولا أزكى نفسًا، ولا أحرص على هداية الناس من أبي القاسم ﷺ، لقد دعا ﷺ، إلى الله في كل مكان، وحال، وزمان، دعا من أحبوه، ومن أبغضوه، ومن أحسنوا معه، ومن آذوه، ولم يكن اهتمامه ﷺ مقتصرًا على كبار الناس المؤثرين في المجتمع، بل اعتنى بالصغار والكبار، والعبيد والأحرار..

فيا أيها الصائمون والصائمات. هل نغتنم أيام شهرنا في ذلك؟

إن اغتنمه التجار في التجارة، والممثلون في التمثيل، والمغنون في الغناء، أفلا نغتنمه نحن لهداية الناس، بالابتسامة، والكلمة، والرسالة، والكتاب، والشريط، والدعوة الصادقة، لعل الله تعالى أن يفتح بسببك القلوب، أسأل الله تعالى أن يستعملنا جميعًا في طاعته، وأن يجعلنا هداة مهتدين..

وفي الختام، أسوق لكم بعض المسائل المهمة حول الصيام..

* المسألة الأولى:

الصوم: هو الإمساك بنية عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن أفطر شيئًا من رمضان بغير عذر فقد أتى كبيرة عظيمة..

وقد صح أنه ﷺ قال في الرؤيا التي رآها: «ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يفطرون قبل تحلة صومهم». أي قبل وقت الإفطار، ويجب الصيام على كل مسلم بالغ عاقل مقيم قادر سالم من الموانع كالحيض والنفاس، ويستحب أمر الصبي بالصيام، لما في البخاري عن الرُّبيّع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: كنا نصوِّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار..

والمجنون لا يجب عليه الصوم، فإن كان يجن أحيانًا ويفيق أحيانًا، لزمه الصيام في حال إفاقته دون حال جنونه، وإن جن في أثناء النهار لم يبطل صومه كما لو أغمي عليه بمرض أو غيره لأنه نوى الصيام وهو عاقل، ومثله في الحكم: المصروع..

وتشترط النية في صوم الفرض من الليل، ولو قبل الفجر بلحظة، لما روى أبو داود أنه ﷺ قال: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل».

أما صوم النفل المطلق، فلا تشترط له النية من الليل، لما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «هل عندكم شيء؟». فقلنا: لا، فقال: «فإني إذنًا صائم».

وأما النفل المعين كعرفة وعاشوراء فالأحوط أن ينوي له من الليل، ليكون أكمل لأجره..

* المسألة الثانية:

من الصيام ما يجب فيه التتابع، كصوم رمضان، والصوم في كفارة القتل الخطأ، والظهار، والجماع في نهار رمضان، وكذلك من نذر صومًا متتابعًا لزمه..

ومن الصيام ما لا يلزم فيه التتابع، كقضاء رمضان، وصيام عشرة أيام لمن لم يجد الهدي، وصوم كفارة اليمين، وصوم الفدية في محظورات الإحرام، وصوم النذر المطلق لمن لم ينو التتابع، وصيام التطوع كعاشوراء وعرفة والإثنين والخميس وغيرها، يجبر النقص في صيام الفريضة..

وقد نهى النبي ﷺ عن إفراد الجمعة بالصوم كما عند البخاري، فمن أراد صوم الجمعة فليصم يومًا قبله أو يومًا بعده، ويحرم صيام يومي العيد وأيام التشريق وهي الحادي عشر والثاني غشر والثالث عشر من ذي الحجة، إلا لمن لم يجد الهدي فيصومها بمنى..

* المسألة الثالثة:

المسافر يجوز له سواء كان قادرًا على الصيام أم عاجزًا عنه، وسواء وجدت المشقة أم لم توجد، وإذا أراد أن يفطر فيشترط أن يجاوز بنيان البلد، وإذا وصل المسافر بلده أثناء النهار وهو مفطر، ففي وجوب الإمساك عليه خلاف، والأحوط أن يمسك بقية يومه مراعاة لحرمة الشهر..

أما المريض، فكل مرض لا يستطيع معه الصوم، أو يشق معه الصوم، فيجوز له الفطر، ولا يجوز الفطر لمجرد التعب المحتمل، أو خوف المرض، ولا يجوز التساهل بالفطر لأجل الامتحانات، ونحوها.

والمريض الذي يرجى برؤه ينتظر الشفاء ثم يقضي، أما المريض مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه، والكبير العاجز، فيطعمان عن كل يوم مسكينًا، ويجوز أن يجمع ثلاثين مسكينًا فيطعمهم في آخر الشهر، أو أن يطعم مسكينًا كل يوم، ومن مرض ثم شفي، وتمكن من القضاء، فتكاسل حتى مات، فيقضي عنه أحد أقاربه، لقوله ﷺ كما في الصحيحين: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه». أو يخرج من ماله طعام مسكين عن كل يوم..

أما العجوز، والشيخ الفاني، الذي يعقل، لكنه يعجز عن الصوم، فيطعم عن كل يوم مسكينًا..

وأما من سقط تمييزه وبلغ حد الخرف، فلا يجب عليه صيام ولا إطعام، فإن

كان يميز أحيانًا، ويهذي أحيانًا، وجب عليه الصوم حال تمييزه، ولم يجب حال هذيانه..

* المسألة الرابعة:

وإذا طلع الفجر وجب على الصائم الإمساك فورًا، وأما الاحتياط بالإمساك قبل الأذان بعشر دقائق ونحوها، فهو بدعة، بل يمسك عند الأذان، وإذا غابت الشمس أفطر الصائم، والسنة أن يعجل الإفطار..

وصح في المستدرك، أنه ﷺ كان لا يصلي المغرب حتى يفطر ولو على شربة من الماء، فإن لم يجد الصائم شيئًا يفطر عليه نوى الفطر بقلبه..

ومن أفطر في نهار رمضان بعذر، وكان سبب فطره ظاهرًا، كالمريض الذي يعلم من رآه أنه مريض، فلا بأس أن يجاهر بالأكل والشرب، ومن كان سبب فطره خفيًا، فالأولى، لا يجاهر بالأكل لكيلا يتهم..

* المسألة الخامسة:

المفطرات سبعة: أولها: الأكل والشرب عمدًا، وهو معروف..

ومن المفطرات ما يكون في معنى الأكل والشرب كالأدوية والحبوب عن طريق الفم والإبر المغذية وكذلك حقن الدم.

وأما الإبر التي لا تغني عن الأكل والشرب، ولكنها للمعالجة كالبنسلين والأنسولين أو إبر التطعيم، فلا تضر الصيام، سواء عن طريق العضلات أو الوريد، والأولى أن تكون بالليل..

أما غسيل الكلى الذي يتطلب خروج الدم لتنقيته ثم رجوعه مرة أخرى، مع إضافة مواد كيماوية وغذائية كالسكريات والأملاح وغيرها إلى الدم يعتبر مفطرًا، كما في فتاوى اللجنة الدائمة..

أما قطرة العين والأذن، وقلع السن، ومداواة الجرح، فلا يفطر، وبخاخ الربو لا يفطر، والسواك وفرشاة الأسنان، إذا لم يبلع شيئًا، وكذلك ما يدخل الجسم امتصاصًا من الجلد كالدهونات..

وإذا نسي الصائم فأكل أو شرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه، ولا

قضاء عليه ولا كفارة، ولكن يجب على من رآه أن يذكره، لعموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢] وعموم قوله ﷺ «فإذا نسيت فذكروني».

ومن احتاج إلى الفطر، لإنقاذ معصوم من مهلكة، فإنه يفطر ويقضي، كما قد يحدث في إنقاذ الغرقى وإطفاء الحرائق.

الثاني من المفطرات: الجماع، أو إخراج المني بشهوة بفعل من الصائم:

ومن وجب عليه الصيام فجامع في نهار رمضان عامدًا، فقد أفسد صومه وعليه: التوبة، والإمساك بقية اليوم، والقضاء، والكفارة المغلظة، وهذا عام في جماع الزوجة، ومثله الزنا واللواط وإتيان البهيمة، وقد أفتت اللجنة الدائمة أن من جامع مرات في أيام متعددة من رمضان نهارًا، فعليه كفارات بعدد الأيام التي جامع فيها..

ومن أصبح وهو جنب فلا يضر صومه، ويجوز تأخير غسل الجنابة والحيض والنفاس إلى ما بعد طلوع الفجر، لكن عليه المبادرة لأجل الصلاة، ومن احتلم وهو نائم فصومه صحيح، ومن استمنى فأنزل فسد صومه..

وثالث المفطرات: التقيؤ عمدًا:

فمن تقيأ عمدًا بوضع أصبعه في حلقه، أو عصر بطنه، أو غير ذلك فعليه القضاء، ولو غلبه القيء بدون إرادته فصومه صحيح، والبلغم إن ابتلعه وهو في حلقه، فلا يفسد صومه، فإذا ابتلعه عند وصوله إلى فمه، فإنه يفطر عند ذلك..

ورابع المفطرات: الحجامة:

وفي حكمها تعمد الصائم إخراج الدم الكثير وهو صائم، كالتبرع بالدم، أما سحب الدم القليل للتحليل لا يفسد الصوم، أما خروج الدم من غير اختياره، كالرعاف، والجروح ونحوها، فلا يؤثر في الصوم، وإن كثر..

وخامس المفطرات: الحيض والنفاس:

وهو خروج الدم المعتاد من المرأة، والحائض أو النفساء إذا انقطع دمها ليلاً، فنوت الصيام ثم طلع الفجر قبل اغتسالها فصومها صحيح، والأفضل للمرأة أن لا تتعاطى ما تمنع به الدم، فإن تعاطت ما تقطع به الدم وانقطع فعلاً، فصامت أجزأها

ذلك، والنفساء إذا طهرت قبل الأربعين، صامت واغتسلت للصلاة..

والحامل والمرضع تقاسان على المريض فيجوز لهما الإفطار وليس عليهما إلا القضاء سواء خافتا على نفسيهما أو ولديهما، وقد قال ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل والمرضع الصوم». رواه الترمذي وحسنه..

وهذه الأمور كلها لا يفطر بها الصائم إلا بشروط ثلاثة:

أن يكون عالمًا غير جاهل، ذاكرًا غير ناس، مختارًا غير مضطر ولا مكره..

السواك سنة للصائم في جميع النهار، ولا بأس بشم الطيب، واستعمال العطور ودهن العود والورد ونحوها، والبخور لا حرج فيه للصائم إذا لم يستنشقه مباشرة..

* المسألة الأخيرة:

من آداب الصوم: الحرص على السحور وتأخيره، ففي البخاري: «تسحروا فإن في السحور بركة»، وتعجيل الفطر ففي البخاري: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»، وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء. رواه الترمذي..

ويقول بعد إفطاره: ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله. كما رواه أبو داود، وحسن الدارقطني إسناده..

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لصيام رمضان وقيامه، إيمانًا واحتسابًا، وأن يجعلنا ممن يقبل صيامه، ويغفر زلله وإجرامه، وأن يمن علينا بالعتق من النيران، والفوز بالجنان، وأن يغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين، والله تعالى أجل وأكرم وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

لبيك

الحمد لله الذي فرض على عباده الحج إلى بيته الحرام، ورتب على ذلك جزيل الأجر ووافر الإنعام، أحمده سبحانه على الرخاء والنعماء، وأشكره في السراء والضراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شرع الشرائع وأحكم الأحكام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل من صلى وصام، ووقف بالمشاعر وطاف بالبيت الحرام، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه الطيبين الكرام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

خرجت من بيتها في باكستان مع زوجها الشيخ الكبير، تتوكأ عليه تارة ويتوكأ عليها أخرى، يجران على الأرض أقدامًا أضناها التعب، وأرهقها النصب، قد جمعا كل ما يملكان ليضعاه في ثمن التذكرة ويسافرا إلى مكة، وفعلاً تحقق لهما ما يريدان، وصلا مطار جدة، كانا يلتفتان باضطراب، ويسألان كل من لقيهما: أهذه مكة؟ قيل لهما: لا، هذه جدة، وسوف تحملكما الحافلات إلى مكة.

استعجلا فاستأجرا سيارة أجرة خاصة، وكأنهما يخشيان أن تقبض أرواحهما قبل أن يصلا إلى البيت العتيق، كانا في السيارة ما بين بكاء ودعاء، لاحظ السائق عليهما الجوع والإجهاد، حاول أن يسألهما هل أتوقف عند مطعم، فلم يفهما.

دخل إلى محطة الوقود، ثم توجه إلى مطعم صغير، وأشار لهما أن ينزلا ليشتريا طعامًا، ومضى هو وطلب لنفسه طعامًا وهما يقلبان أكياسًا معهما، لم يرهما في المطعم فخرج إليهما فإذا هما قد جلسا جانبًا ومعهما كيس فيه كسر خبز يابسة، وبين أيديهما إناء فيه ماء فيغمسان الخبز في الماء ويأكلان، فعطف عليهما وحمل إليهما شيئًا من رز ولحم وأقبل عليهما.

فلما وضعه عندهما أبيا أن يأكلا منه، وأخذ الشيخ يتكلم بلهفة ويشير إلى بطنه وبطنها، ويعد بأصابعه، فلم يفهم السائق مراده فأقبل باكستاني يفهم العربية

وسألهما: لم لا تأكلان من هذا الطعام؟

فقالا: نحن منذ عشرين سنة ندخر كل مال يقع في أيدينا للحج، حتى كنا نوفر ثمن الطعام ونبقى جائعين، فليس لنا طعام منذ عشرين سنة إلا ما ترى خبز مغطس في ماء حتى تعودته بطوننا ونخشى إن أكلنا هذا اللحم أن نمرض فيحول بيننا وبين الحج، ثم غلبه البكاء فانفجر باكيًا، وهو يردد متى نصل إلى مكة لا تتأخر أرجوك.

فسبحان من جعل أفئدة الناس تهوي إلى هذا البيت العتيق، وتنسى الولد والحبيب والرفيق.

أيدٍ تمسك عن الإنفاق إلا فيما يدنيها من الكريم الرزاق، ينظر الله إليهم فيراهم، في باكستان وأندونيسيا والفلبين وأفريقيا وسائر فجاج الأرض ينتفضون شوقًا إلى البيت العتيق.

ذكر بعض المفسرين عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٧] أن رجلاً رأى ابن سيرين في الحرم فسأله: من أين جئت يا بن سيرين؟ من أي البلاد؟

فقال ابن سيرين: أنا من بلاد بعيدة، أنا من العراق.

فقال ذلك الرجل: من العراق؟ أنت من جيران الحرم.

قال ابن سيرين: فمن أين جئت أنت؟

قال: أنا من بلاد ما وراء النهر، خرجت من بلدي منذ خمس سنوات، واليوم وصلت للحرم.

ولا يستغرب في زمنهم أن تمضي عليه الخمس سنين ليصل، لا لبعد المسافة فقط، وإنما لأنهم كانت تنتهي نفقة أحدهم في الطريق، فيقف في بلد في طريقه أشهرًا ليعمل ويجمع نفقة جديدة، ثم يكمل مسيره.

قلوب تشتاق، وقوافل ورفاق، وتعب ومشاق، ولكن

إذا رأت أبصارهم بيته الذي	قلوب الورى شوقًا إليه تضرم
إلى الكعبة البيت الحرام عشية	وطافوا بها سبعًا وصلوا وسلموا
كأنهم لم ينصبوا قط قبله	لأن شقاهم قد ترحل عنهم

هنالك لا تثريب يومًا على امرئ ... إذا ما بدا منه الذي كان يكتم

فلله كم من عبرة مهراقة ... وأخرى على آثارها لا تقدم

ولله أكباد هنالك أودع الغر ... ام بها فالنار فيها تضرم

ولله أنفاس يكاد بحرها ... يذوب المحب المستهام المتيم

فما أروعها من رحلة عجاب، ومنظر يأخذ الألباب!

فهل شممت عبيرًا أزكى من غبار المحرمين؟ وهل رأيت لباسًا أجمل من لباس الحجاج والمعتمرين؟ وهل رأيت رءوسًا أكرم من رءوس المحلقين والمقصرين؟ وهل مر بك ركب أشرف من ركب الطائفين؟ وهل سمعت نظمًا أعذب من تلبية الملبين، وأنين التائبين، وتأوه الخاشعين، ومناجاة المنكسرين؟

نعم، الحج عبادة تصفو فيها الأرواح والقلوب، تستشعر قربها من علام الغيوب، وهي في البلد الحرام تقف في عرفات، وترمي الجمرات، وتستروح الذكريات.

نعم، يتذكر الحاج إبراهيم عليه السلام، وهو يودع أهله بواد غير ذي زرع، لا أنيس معهم ولا جليس، ويتوجه بقلبه الخافق إلى ربه يناجيه قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ويتذكر أمنا هاجر وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد أنهكها العطش وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الولد، ثم ترجع في الجولة السابعة لتجد زمزم يتدفق عند قدمي إسماعيل وإذا بالوادي يمتلئ خضرة وعيشًا.

بل يتذكر إسماعيل الغلام مع والده إبراهيم عليه السلام والأب يؤمر بذبح ابنه الوحيد الذي جاءه على كبر وشوق فيأتيه ويقول: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإذا الغلام يكون بطلاً ويقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قال الله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٧].

نعم يتذكر الحاج ذلك ثم يتذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت في إنابة وخشوع ويرددان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، حتى إذا تم البناء أمر الله إبراهيم أن ينادي الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧].

فيقول إبراهيم: رب وكيف يبلغ صوتي في الناس؟!

فيقول الله: عليك النداء وعلينا البلاغ.

ويرقى إبراهيم على مرتفع من الأرض وينادي الناس بالحج فيستجيب الله الدعاء ويبلغ النداء؛ فيأتي الناس رجالاً وركبانًا من كل فج عميق، وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم عليه السلام إلى اليوم وإلى الغد، وما تزال أفئدة الناس تهوي إلى بيت الله الحرام وترف إلى الطواف به والإحرام.

مئات الآلاف من الناس يتقاطرون من فجاج الأرض تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام، ولا يزال الله يزيد مكة تعظيمًا وتشريفًا.

ففي الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: «هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه».

فمكة هي البلد الحرام ومن حرمتها ما جاء في معاقبة من هَمَّ بسيئة فيها وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما قد بنى بيته في طرف مكة في الحل خارج حدود الحرم، وبنى مسجده في داخل حدود الحرم، فقيل له: لو نقلت بيتك عند مسجدك فقال: لا الحسنة فيه أفضل لكن السيئة فيه أعظم، فكان يخشى أن يفرط لسانه وهو في بيته بكلمة أو يقع من أهله معصية فتزداد عظمًا لشرف المكان.

فآه ماذا يقول ابن عمر لو رأى بمكة اليوم أمورًا يشيب لها الوليد كمن يتعامل بالربا في البلد الحرام أو يشرب الخمر في البلد الحرام، أو يروج المخدرات أو يستعملها في البلد الحرام، أو ينشر وسائل الإفساد واللهو كبيع الأجهزة المحرمة وبيع الدخان في البلد الحرام، ومن العجب أن أهل الجاهلية وهم كفار كانوا

يراعون حرمة البلد الحرام في بعض الأحيان، فقد كانت المرأة منهم توصي ولدها وتقول:

أبني لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
أبني من يظلم بمكة ... يلق آفات الشرور
أبني قد جربتها ... فوجدت ظالمًا يبور

ولما جاء أبرهة ليهدم الكعبة قال له عبد المطلب بكل ثقة: إن للبيت ربًا يحميه، فيحمي الله بيته ويرسل عليهم: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٣-٥]. ويبقى البيت معظمًا بل يحج إليه الأنبياء تلو الأنبياء.

فصح في المستدرك أنه ﷺ لما حج أتى على وادي الأزرق فقال: «ما هذا؟» قالوا: وادي الأزرق.

فقال: «كأني أنظر إلى موسى بن عمران عليه السلام مهبطًا له جؤار إلى الله بالتكبير».

ثم أتى على ثنية فقال: «ما هذه الثنية؟» قالوا: ثنية كذا وكذا.

فقال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدةٍ، خطامها ليف، وهو يلبي وعليه جبة صوف».

وتمر السنون وتتواكب قافلة الذكريات عليك حتى يصل محمد ﷺ لتراه وهو يتدرج في طفولته وصباه فوق ذلك الثرى حول البيت، ثم تراه وقد جددت قريش بناء الكعبة ثم تنازعوا في وضع الحجر في مكانه فيأتي ﷺ فيرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه.

وتمضي السنون ويبعث خاتم الأنبياء ﷺ فيؤمر بالحج، فيمضي يطوي القفار إلى البيت العتيق ليودع الحياة بحجة الوداع، حج وحوله الجموع والدموع، حج وهو يقول لأصحابه: «إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

نتذكره جميعًا فتتذكر أطهر نفس أحرمت، وأزكى روح هتفت، وأفضل قدم طافت وسعت، وأعذب شفة كبرت وهللت، وأشرف يد استلمت ورمت.

يحج ﷺ حجة الوداع ويتنقل بين المشاعر بخطاه وصوته يجلجل في الناس:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» ويرفع رِجلاً ويضع أخرى وهو لا يدري أنها آخر الخطوات يمشيها في البلد الحرام.

إحرامه طاهر وقلبه خاشع:

يتذكر دعاء أبيه إبراهيم ﷺ لما بنى البيت فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «البقرة:١٢٩» فإذا هو ذلك الرسول.

ويقترب ﷺ من الحجر الأسود فلا يتمالك نفسه فإذا بالنفس تخشع والعين تدمع، وتسيل الدموع على خديه فيلتفت إلى عمر ويقول: «هنا تسكب العبرات يا عمر».

كأنني برسول الله مرتديًا	ملابس الطهر بين الناس كالقمر
نور وعن جانبيه من صحابته	فيالق وألوف الناس بالأثر
ساروا برفقة أزكى مهجة درجت	وخير مشتمل ثوبًا ومؤتزر
ملبيًا رافعًا كفيه في وجل	لله في ثوب أواب ومفتقر
مرنمًا بجلال الحق تغلبه	دموعه مثل وبل العارض المطر
يمضي ينادي خذوا عني مناسككم	لعل هذا ختام العهد والعمر
وقام في عرفات الله ممتطيًا	قصواءه يا له من موقف نضر
تأمل الموقف الأسمى فما نظرت	عيناه إلا الأمواج من البشر
فينحني شاكرًا لله منته	وفضله من تمام الدين والظفر
يشدو بخطبته العصماء زاكية	كالشهد كالسلسبيل العذب كالدرر
مجليًا روعة الإسلام في جمل	من رائع من بديع القول مختصر
داع إلى العدل والتقوى وأن بها	تفاضل الناس لا بالجنس والصور
مبينًا أن للإنسان حرمته	ممرغًا سيئ العادات بالمدر

نعم، يقف ﷺ بعرفات ويستقبل القبلة فلم يزل يدعو حتى غربت الشمس.

وقف وبين يديه أكثر من مائة ألف حاج قد اشرأبت أعناقهم إليه وأنصتت آذانهم بين يديه، ثم أصغى له الناس صغارًا وكبارًا، شيبًا وشبانًا وأطفالاً كلهم

ينظرون إليه.

فكانت خطبة جامعةً نافعةً؛ أحل فيها الحلال، وحرم الحرام، وقف فيها شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، أحيا ما اندرس من معالم الحنيفية، وطمس معالم الشرك والوثنية، وأسقط ربا الجاهلية، وأذهب النعرات والعصبية، وردد في الناس: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».

وكان ينظر إلى أصحابه النظرات الأخيرة، ينظر إلى أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي، ينظر إلى طلحة والزبير طالما قاموا معه الليل وصاموا معه النهار وجاهدوا الكفار، ثم ينظر إلى عموم الناس؛ أبيضهم وأسودهم، حرهم وعبدهم، عربيهم وأعجميهم، ثم يصرخ بهؤلاء جميعًا: «اللهم هل بلغت؟» فيقولون: اللهم نعم.

فيرفع بصره إلى السماء ويقول: «اللهم فاشهد»، ثم يظل ينظر إليهم من الأرض، والله ينظر إليهم من السماء فيباهي بهم ملائكته يقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا، جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، أشهدكم أني قد غفرت لهم» فيدعو ﷺ ويدعون، ويبكي ويبكون، ثم يمضي بهم ﷺ في المشاعر وهم يلبون بالتوحيد: لبيك لا شريك لك لبيك.

يا ليتني كنت بين القوم إذ حضروا	ممتع القلب والأسماع والبصر
وأنبري لرسول الله ألثمه	على جبين نقي طاهر عطر
أقبل الكف كف الجود كم بذلت	سحاء بالخير مثل السلسل الهدر
ألوذ بالرحل أمشي في معيته	وأرتوي من رسول الله بالنظر
أسر بالمشي إن طال المسير بنا	وما انقضى من لقاء المصطفى وطري
أما الرداء الذي حج الحبيب به	يا ليته كفن لي في دجى الحفر
يا غافلاً عن مزاياه وروعتها	يمم إلى كتب التاريخ والسير
يا رب لا تحرمنا من شفاعته	وحوضه العذب يوم الموقف العسر

وتمر السنون وتتوالى القرون ووفود الله يتزايدون في لقاءٍ إيماني واجتماع سنوي، يقدمون من أماكن بعيدة وبلدانٍ سحيقة، ومن كل فج عميق إلى واد غير ذي زرع ليس فيه ما يستهوي النفوس، كل ذلك استجابة لله مرددين: «لبيك اللهم لبيك».

إن الناظر إلى وفد الرحمن يرى عجبًا ويزداد لوعة وشوقًا وهو يتأمل مواكب الإيمان وقوافل عباد الرحمن، جاءوا عن رغبة وطواعية، ألسنتهم تلهج داعية وأعينهم باكية تسأل الله الرحمة والعافية، هديرهم تكبير، حديثهم تسبيح، نداؤهم تلبية، دعاؤهم تهليل، مشيهم عبادة، زحفهم صلاة، سفرهم إلى الله والدار الآخرة وغايتهم رضوان الله ومغفرته، تركوا الديار والبلاد والأهل والأولاد واجتازوا الصعب والمهاد، تحملوا عظيم الأذى والتعب وأنواع المشقة والنصب، ما عمل لهم دعايات ولا وعدوا بجوائز من الناس وأعطيات، ومع ذلك ينفق أحدهم ماله ويترك بيته وعياله.

وقد فارقوا الأوطان والأهل	ولم يثنهم لذاتهم والتنعم
يسيرون من أقطارها وفجاجها	رجالاً وركبانًا والله سلموا
سلو نسمات الريح كم قد تحملت	محبة صب شوقه ليس يكتم
وشاهد هذا أنها في هبوبها	تكاد تبث الوجد لو تتكلم
وكم يصبر المشتاق عمن يحبه	وفي قلبه نار الأسى تتضرم

أم هل رأيت جموعهم في عرفات يوم يسكبون الدمعات ويبكون الخطيئات، فخير يوم طلعت عليه الشمس هو يوم عرفة، وأهم أركان الحج هو الوقوف بعرفة، وخير الدعاء دعاء يوم عرفة، وما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه الرقاب من النار من يوم عرفة، وما رئي الشيطان في يوم هو أذل وأخنع وأحقر منه في يوم عرفة إلا ما كان يوم بدر.

وإن الله لينظر إلى الحجاج يوم عرفات فيباهي بهم الملائكة، فمن فاته العتق في عرفات فمتى؟ فلربما دخل المسيء عرفة مجرمًا وخرج منها وليًا مقربًا، ولربما دخلها العاصي ملطخًا فيخرج كيوم ولدته أمه مطهرًا.

فلو أبصرت عيناك موقفهم بها	وقد بسطوا تلك الأكف ليرحموا
ينادونه يا رب يا رب إننا	عبيدك لا ندعو سواك وتعلم
وها نحن نرجو منك ما أنت أهله	فأنت الذي تعطي الجزيل وتنعم
فلا ترى إلا خاشعًا متذللاً	وآخر يبكي ذنبه يترنم
وقد كشفوا تلك الرءوس تواضعًا	لعزة من تعنو الوجوه وتسلم

يلبـــون النـــداء لبيـــك ربنـــا لـك الملـك والحمـد الـذي أنـت تعلـم
دعـــاهم فلبـــوه رضـــا ومحبـــة فلمـــا دعـــوه كـــان أقـــرب مـــنهم
تـراهم علـى الرمـضاء شـعثًا رءوسـهم وغـــبرًا وهـــم فيهـــا أســـر وأنعـــم
ولـو كـان يرضـي الله نحـر نفوسـهم لجـــادوا بهـــا طوعًـــا ولله ســـلموا
كمـا بـذلوا عنـد الجهـاد نحـورهم وأرواحهـم حتـى جـرى مـنهم الـدم
ولله ذاك الموقـــف الأعظـــم الـــذي كموقـف يـوم العـرض بـل هـو أعظـم
وقـد شـرقت عـين المحـب بـدمعها فينظـر مـن بـين الـدموع ويـسجم
ويـــدنو بـــه الجبـــار جـــل جلالـــه يبـاهي بهـم أملاكـه فهـو أكـرم
يقــول عبــادي قــد أتــوني محبــة وإنـــي بهـــم بـــر أجـــود وأنعـــم
فكـم مـن عتيـق فيـه كمـا عتقـه وآخـــر يستـــسي وربـــك أرحـــم
ومـا رئـي الـشيطان أغـيظ في الـورى وأحقـــر منـــه عنـــدها وهـــو ألأم
وذاك لأمـــــر قـــــد رآه فغاظـــــه فأقبـل يحثـو الـتراب غيظًـا ويلطـم
لمـا عاينـت عينـاه مـن رحمـة أتـت ومغفـرة مـن عنـد ذي العـرش تقـسم
أتـــى مـــا أتـــى حتـــى إذا ظـــن أنـــه تمكـــن مـــن بنياتـــه فهـــو محكـــم
أتـــى الله بنيانًـــا لـــه مـــن أساســـه فخــــر عليــــه ســــاقطًا يتهــــدم
فبشراكـم يـا أهـل ذا الموقف الذي بـه يغفـر اللـه الـذنوب ويـرحـم

فلله كم على صعيد عرفات من ذنب مغفور وعيب مستور، وحاجة مقضية، وكربة مفرجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة.

وهذه الجموع العظيمة كلها تدعو ربًا واحدًا في ساعة واحدة بحاجات متنوعة وألسنة مختلفة، هذا يدعو بلغة عربية، وذاك بأوردية، وثالث بهندية، ورابع بسواحلية، وخامس...

منهم مذنب يسأل ربه مغفرة ذنبه، ومنهم مريض يدعوه أن يشفي مرضه، ومنهم فقير يسأله سداد دينه، ومنهم مظلوم يسأله نصرته، ومنهم حيران يسأله دلالته، ومنهم ومنهم... وربهم ينظر إليهم ويباهي بهم ملائكته يقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا».

فسبحان من لا تشتبه عليه اللغات، ولا تلتبس عنده الحاجات، ولا تختلط عنده

الأصوات، ولا يتبرم بكثرة المسائل مع كثرة السائلين وتنوع المسئولات، بل يسمع ضجيج أصواتهم باختلاف لغاتهم وكثرة حاجاتهم، لا يشغله سمع عن سمع ولا داعٍ عن داعٍ ولا حاجة عن حاجة، لا تغلطه كثرة المسئولات ولا يتبرم بإلحاح ذوي الحاجات، أحاط بصره بهم وعلمه بنياتهم وغناه بفقرهم وقدرته بعجزهم.

وفي لحظة واحدة يغفر ذنبًا ويستر عيبًا ويكشف كربًا، ويجبر كسرًا ويغني فقيرًا ويعلم جاهلاً ويهدي ضالاً، ويفك عانيًا ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا ويعافي مبتلى ويقبل تائبًا ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا ويقصم ظالمًا، ويفرج همًّا ويشبع جائعًا ويرشد حيران ويغيث لهفان، ويقيل عثرة ويستر عورة ويؤمن روعة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

قلوب العباد ونواصيهم بيده وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، فهو أحق من ذكر، وأعز من عبد، وأعظم من حمد، وأولى من شكر، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم.

حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته، فسبحانه من رب لا يغفل عن عباده.

* قال عبد الله بن المبارك: كنت واقفًا بعرفات فمشيت على صعيدها فإذا بي أرى رجلاً جاثيًا على ركبتيه وعيناه تنهملان فاقتربت منه فإذا سفيان الثوري، فلما تبينته بكيت، فالتفت إلي يمسح دمعه ويقول: ما شأنك؟ قلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً. قال: الذي يظن أن الله ﷻ لا يغفر لهم.

* وقال إسحاق بن إبراهيم: وقفت مع الفضيل بن عياض بعرفات فلم أسمع من دعائه شيئًا إلا أنه واضع يده على خده ويبكي خفيًا فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام، فرفع رأسه إلى السماء وقال: واسوءتاه، والله منك وإن عفوت، واسوءتاه، والله منك وإن عفوت، واسوءتاه، والله منك وإن عفوت.

* وقال سفيان بن عيينة: سمعت أعرابيًا بعرفة يقول: عجت الأصوات بمختلف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدنيا.

وكانوا يبكون ويخشعون. نعم، وكيف لا ترق قلوب الصالحين في عرفات وتبكي عيونهم عند الجمرات، بل وتشتاق نفوسهم إلى النسك والإحرام، وتفرح بزيارة البيت الحرام وهم يسمعون قوله ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...».

وفي البخاري أنه ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله ثم جهاد في سبيل الله ثم حج مبرور».

والحجاج والعمار وفد الله إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم، ونفقتهم في سبيل الله وهي مخلوفة عليهم وهم معانون في أداء النسك، والله يباهي بالحجاج ملائكته في صعيد عرفات ويتجلى لهم ويقول: «انصرفوا مغفورًا لكم».

وقال ﷺ: «ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا».

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: إن عبدًا أصححت له جسمه، ووسعت عليه في معيشته، تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم».

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة ويمحو عنك بها سيئة، وأما وقوفك بعرفة فإن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبرًا من كل فج عميق يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني فكيف لو رأوني، فلو كان عليك مثل رمل عالج أو مثل أيام الدنيا أو مثل قطر السماء ذنوبًا غسلها الله عنك، وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك، وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة، فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك».

وسئل ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» متفق عليه.

وفي الصحيحين قال ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وفيهما قال ﷺ: «والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد؟ قال: «لا؛ لكن أفضل الجهاد حج مبرور» البخاري.

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والحج المبرور هو الذي تتحقق منه الغاية من الحج.

فما الغاية من الحج؟

نعم، ما الغاية من رمي الجمرات والوقوف بعرفات والمبيت بمزدلفة والطواف بالبيت العتيق؟

ما الغاية من الحج؟

نعم، بماذا بدأ الله سورة الحج؟ هل قال: يأيها الناس حجوا أم قال: ارموا الجمرات وقفوا بعرفات؟ كلا وإنما ذكر النتيجة الكبرى والغاية العظمى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾.

ولما ذكر الله ذبح الهدي في الحج قال ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ أي: لن يصل إلى الله ﴿لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ عجبًا إذن ما الذي يصله؟ ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:٣٧].

فما التقوى؟ الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فهل يحقق الحجاج التقوى؟

كم يحج كل عام؟ مليون، مليونان...

هذا العدد الكبير الذي يقف كل عام على صعيد عرفات يعاهد ربه على التوبة والثبات، هل يحقق التقوى بعد حج؟!!

نعم، تصلح الدنيا، يرتفع شأن الدين لو رجع كل حاج رجلاً كان أو امرأة وقد اتقى الله واستقام.

نعم، الذي كان يدخن قبل الحج، بعد الحج ترك التدخين، وآكل الربا ترك الربا وتحرى الكسب الحلال، ومتتبع الفواحش والشهوات ترك الفواحش والمنكرات، ومطلق البصر غضه، ومسبل الثوب قصره، وحالق اللحية أعفاها، وخبيث النفس زكاها.

ماذا لو رجع الحجاج بعد الحج وقد تغيرت همومهم، صار همهم الدين؛ فالأب الحاج يصلح في بيته وأولاده، والموظف الحاج في مكتبه وزملائه، والمدرس الحاج في مدرسته وطلابه، والتاجر الحاج في دكانه وزبائنه؛ كل أولئك أصبحوا خدامًا للدين، يتوبون الناس إلى ربهم، ويزرعون التقوى في قلوبهم.

ومن تأمل في أحوال الصالحين وجد أنهم يصدقون مع ربهم في حجهم.

قال طاوس بن كيسان: بينما أنا بمكة إذ بعث إلي الحجاج، فلما دخلت عليه أجلسني إلى جنبه، وأتكأني على وسادة، فبينما هو كذلك إذ سمع ملبيًا يلبي حول البيت، رافعًا صوته بالتلبية، فقال: علي بالرجل، فأتي به، فقال: ممن الرجل؟

قال: من المسلمين.

قال: ليس عن الإسلام سألت!!.

قال: فعم سألت؟

قال: سألت عن البلد.

قال: من أهل اليمن.

قال: كيف تركت محمد بن يوسف؛ يعني أخاه أمير اليمن.

قال: تركته عظيمًا، جسيمًا، لباسًا، ركابًا، خراجًا، ولاجًا.

قال: ليس عن هذا سألتك!!

قال: فعم سألت؟

قال: سألتك عن سيرته.

فقال: تركته ظلومًا غشومًا، مطيعًا للمخلوق، عاصيًا للخالق.

فغضب الحجاج لما رأى جرأته على الكلام عن أخيه، فقال: ما حملك أن

تتكلم بهذا الكلام، وأنت تعلم مكانه مني؟

قال الرجل: أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من الله ﷻ، وأنا وافد بيته، ومصدق نبيه. فسكت الحجاج وجعل ينظر إلى الأرض، وما أحار جوابًا، وقام الرجل من غير أن يؤذن له فانصرف.

قال طاوس: فعجبت من دينه وشجاعته، وقمت في أثره وقلت: الرجل حكيم.

فأتى البيت ثم قال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم اجعل لي في اللفه إلى جودك، والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين، وغنى عما في أيدي المستأثرين، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة.

ثم ذهب في الناس، فرأيته عشية عرفة وهو يقول: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني الأجر على مصيبتي بتركك القبول مني.

ثم ذهب في الناس فرأيته فجر مزدلفة يقول: واسوءتاه والله منك وإن عفوت، ويردد ذلك.

أيها الإخوة والأخوات: وحتى نجمع في هذا اللقاء بين الرقائق الوعظية والفوائد العلمية أسوق لكم قبل الختام صفة الحج والعمرة على سبيل الاختصار:

حج بيت الله الحرام ركن من أركان الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

وقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

وقال ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة» [رواه الترمذي].

فإذا عزم على الحج فليرد المظالم لأهلها، ويرد الودائع ويسدد الديون لأصحابها، ويكتب وصيته، ويوكل من يقضي ما لم يتمكن من قضاء الحقوق التي عليه، ويؤمن لأولاده نفقة حلالاً.

ويجب الحج بشروط خمسة: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والاستطاعة. فمن توفرت فيه هذه الشروط وجب عليه المبادرة بأداء الحج.

والاستطاعة هي أن يكون المسلم صحيح البدن، يملك من المواصلات ما يصل به إلى مكة حسب حاله، ويملك زادًا يكفيه ذهابًا وإيابًا، زائدًا على نفقات من تلزمه نفقته، ويشترط للمرأة خاصة أن يكون معها محرم.

فالحج واجب على كل مسلم مستطيع مرة واحدة في العمر، وإذا أراد المسلم الحج أو العمرة فعليه أن يحرم من المواقيت الشرعية، والمواقيت: هي الحدود التي لا يجوز للحاج أن يتعداها إلى مكة بدون إحرام.

والمواقيت خمسة:

الأول: ذو الحليفة، وتبعد عن مكة ٤٢٨كم (أربعمائة وثمانية وعشرون كيلو مترًا).

الثاني: الجحفة، قرية بينها وبين البحر الأحمر ١٠ كم، وهي اليوم مهجورة، ويحرم الناس اليوم من رابغ التي تبعد عن مكة ١٨٦كم.

الثالث: يلملم، وادٍ يبعد ١٢٠ كم عن مكة جنوبًا، ويحرم الناس اليوم من قرية السعدية.

الرابع: قرن المنازل، واسمه الآن السيل الكبير في الطائف يبعد حوالي ٧٥ كم عن مكة.

الخامس: ذات عرق، ويسمى الضريبة يبعد ١٠٠ كم عن مكة، هو اليوم مهجور لا يمر عليه طريق.

ومن كان منزله دون هذه المواقيت - أي أقرب إلى مكة فإنه يحرم من منزله للحج والعمرة، وسكان مكة يحرمون للحج من بيوتهم، ولا يجب خروجهم للميقات للإحرام منه بالحج، وأما العمرة فيخرجون للإحرام بها من أدنى الحل؛ أي من التنعيم أو عرفة أو غيرها.

وكذا من ركب طائرة، فإنه يتهيأ بالتنظيف قبل ركوب الطائرة، فإذا حاذى الميقات جوًا نوى الإحرام، ولبى وهو في الجو، ولا يجوز له تأخير الإحرام إلى أن

يهبط في مطار جدة فيحرم منها؛ لأنها ليست ميقاتًا.

ويجب على من أراد النسك وجاوز الميقات بدون إحرام أن يرجع إليه ويحرم منه، فإن لم يرجع وأحرم من دونه من جدة أو غيرها فعليه فدية؛ بأن يذبح شاة توزع على مساكين الحرام، ولا يأكل منه شيئًا.

وأول مناسك الحج هو الإحرام؛ وهو نية الدخول في النسك، سمي بذلك؛ لأن المسلم يحرم على نفسه بنية الحج أو العمرة ما كان مباحًا له قبل الإحرام من النكاح والطيب وتقليم الأظافر وحلق الرأس وأشياء من اللباس.

وقبل الإحرام يستحب:

أولاً: الاغتسال بجميع بدنه؛ للتنظف وقطع الرائحة الكريهة، لذا هو مستحب حتى للحائض والنفساء؛ لأن النبي ﷺ «أمر أسماء بنت عميس وهي نفساء أن تغتسل» رواه مسلم، وأمر عائشة أن تغتسل للإحرام بالحج وهي حائض.

ثانيًا: أخذ الزائد من الشعر؛ كشعر الشارب والإبط والعانة.

ثالثًا: التطيب في البدن لقول عائشة ﵂: «كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت».

رابعًا: يجب أن ينزع لباسه المعتاد ويلبس إزارًا ورداءً أبيضين نظيفين، ويجوز بغير الأبيضين.

أما المرأة فتحرم فيما شاءت من اللباس الساتر الذي ليس فيه تبرج أو تشبه بالرجال، دون أن تتقيد بلون محدد، ولكن تجتنب في إحرامها لبس النقاب والقفازين - النقاب: هو أن تغطي وجهها وتظهر عينيها، والقفازان: قماش مفصل على اليدين تغطي به المرأة يديها - لقوله ﷺ: «لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين» [رواه البخاري].

ولكنها تستر وجهها عن الرجال الأجانب بغير النقاب؛ لقول أسماء بنت أبي بكر ﵄: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال في الإحرام» رواه الحاكم وصححه.

ثم ينوي بقلبه الدخول في العمرة، ويتلفظ بما نوى فيقول: «اللهم لبيك عمرة»، والأفضل أن يتلفظ بالنية بعد استوائه على مركوبه؛ كالسيارة ونحوها.

وإن كان يريد الإحرام بالحج فيلبي بحسب نسكه، والأنساك ثلاثة:

التمتع: وهو أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج (شوال، ذو القعدة، عشر ذي الحجة).

الإفراد: أن يحرم بالحج فقط من الميقات، ويبقى على إحرامه حتى يؤدي أعمال الحج.

القران: أن يحرم بالعمرة والحج معًا، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها بالحج قبل شروعه في طوافها، فينوي العمرة والحج من الميقات أو قبل الشروع في طواف العمرة، ويطوف لهما ويسعى.

وعلى المتمتع والقارن ذبح هدي إن لم يكن من حاضري المسجد الحرام.

وأفضل هذه الأنساك الثلاثة: التمتع؛ لأدلة كثيرة، وهو الذي سنشرحه هنا تجنبًا للإطالة والتفصيل.

فإذا أحرم ردد التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ويكثر من التلبية ويرفع بها صوته.

وليس للإحرام صلاة ركعتين تختصان به، ولكن لو أحرم بعد صلاة فريضة فهذا أفضل؛ لفعله ﷺ [رواه مسلم].

ومن كان مسافرًا بالطائرة فإنه يحرم إذا حاذى الميقات جوًا، وإذا كان مريضًا أو لديه عذر يخشى أن يعيقه عن إتمامه عمرته أو حجه، فيقول بعد تلفظه بالنية: «إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني». وفائدة هذا الاشتراط أنه لو عاقه شيء فإنه يحل من عمرته بلا فدية.

وبعد الإحرام يسن أن يكثر من التلبية وهي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» يرفع بها الرجال أصواتهم، أما النساء فيخفضن أصواتهن.

ويستمر في التلبية حتى يدخل الحرم، فإذا دخله قطع التلبية واضطبع بإحرامه - والاضطباع هو أن يخرج كتفه الأيمن ويغطي الأيسر - ثم يستلم الحجر الأسود بيمينه - أي: يمسح عليه - ويقبله قائلاً: الله أكبر. فإن لم يتمكن من تقبيله بسبب

الزحام فإنه يستلمه بيده ويقبل يده، فإن لم يستطع استلمه بشيء معه كالعصا وما شابهها وقبل ذلك الشيء، فإن لم يتمكن من استلامه استقبله بجسده وأشار إليه بيمينه -دون أن يقبلها- قائلاً: الله أكبر.

ثم يطوف على الكعبة سبعة أشواط يبتدئ كل شوط بالحجر الأسود وينتهي به، ويقبله ويستلمه مع التكبير كلما مر عليه، فإن لم يتمكن أشار إليه بلا تقبيل مع التكبير -كما سبق- ويفعل هذا أيضًا في نهاية الشوط السابع.

أما الركن اليماني فإنه كلما مر عليه استلمه بيمينه دون تكبير، فإن لم يتمكن من استلامه بسبب الزحام فإنه لا يشير إليه ولا يكبر، بل يواصل طوافه، ويستحب له أن يقول في المسافة التي بين الركن اليماني والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وليس للطواف ذكر خاص به، فلو قرأ المسلم القرآن أو ردد بعض الأدعية المأثورة أو ذكر الله فلا حرج.

ويسن للرجل أن يرمل في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافه، والرمل هو الإسراع في المشي مع تقارب الخطوات، وينبغي أن يكون على طهارة عند طوافه، وإذا شك في عدد الأشواط فإنه يبني على اليقين -أي يرجح الأقل- فإذا شك هل طاف ثلاثة أشواط أم أربعة، فإنه يجعلها ثلاثة احتياطًا ويكمل الباقين فإذا فرغ من طوافه اتجه لمقام إبراهيم عليه السلام وتلا: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] ثم صلى خلفه ركعتين بعد أن يزيل الاضطباع ويغطي كتفيه بردائه.

ويسن أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] فإن لم يتمكن من الصلاة خلف المقام بسبب الزحام فيصلي في أي مكان بالحرم، ثم يستحب له أن يشرب من زمزم، ثم يستلم الحجر الأسود إن استطاع، ثم يتوجه للمسعى، فيبدأ بالصفا، فيقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ...﴾ [البقرة:١٥٨] ويقول: (نبدأ بما بدأ الله به).

ثم يرقى على الصفا فيستقبل القبلة ويرفع يديه داعيًا يقول: (الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده). ثم يدعو بما شاء، ثم يعيد الذكر السابق، ثم يدعو ثانية، ثم يعيد الذكر السابق مرة ثالثة ولا يدعو بعده.

ثم يمشي إلى المروة، ويسرع بين العلمين الأخضرين في المسعى، فإذا وصل المروة فعل كما فعل على الصفا من استقبال القبلة والدعاء، وهكذا يفعل في بداية كل شوط، أما في نهاية الشوط السابع فلا يدعو.

وليس للسعي ذكر خاص به، ولكن يذكر الله ويدعو بما شاء، وإن قرأ القرآن فلا حجر، ويستحب أن يكون متطهرًا أثناء سعيه، وإذا أقيمت الصلاة وهو يسعى فإنه يصلي مع الجماعة ثم يكمل سعيه، ثم إذا فرغ من سعيه حلق شعر رأسه أو قصره، فإن كانت العمرة قريبة من وقت الحج فالتقصير أفضل لكي يحلق شعره في الحج، أما إن كانت العمرة مفردة عن الحج فالحلق أفضل، ولا بد أن يستوعب التقصير جميع أنحاء الرأس، فلا يكفي أن يقصر شعر رأسه من جهة واحدة.

والمرأة تقصر شعر رأسها بقدر الأصبع من كل ضفيرة أو من كل جانب؛ لقوله ﷺ: «ليس على النساء حلق إنما على النساء التقصير» رواه أبو داود.

ثم بعد الحلق أو التقصير تنتهي أعمال العمرة، ويبقى في مكة إلى أن يحج، فإذا كان يوم التروية (٨ من ذي الحجة) أحرم الحاج من مكانه الذي هو فيه سواء كان ساكنًا في منى أو غيرها، فاغتسل وتطيب، ثم ذهب إلى منى في الضحى، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، يصلي كل صلاة في وقتها مع قصر الرباعية منها (أي: يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين) ثم يبيت في منى، فإذا طلعت شمس يوم عرفة (التاسع من ذي الحجة) توجه إلى عرفة، ويصلي الظهر والعصر قصرًا وجمعًا في وقت الظهر.

ويستحب للحاج الوقوف خلف جبل عرفة مستقبلاً القبلة؛ لأنه موقف النبي ﷺ، ويجتهد في الذكر والدعاء والاستغفار راكبًا وماشيًا، وواقفًا وجالسًا ومضطجعًا، ويختار الأدعية الواردة الجامعة؛ لقوله ﷺ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير» رواه الترمذي.

ويبقى بعرفة إلى غروب الشمس ولا يجوز أن ينصرف منها قبل الغروب، فإن انصرف قبل الغروب وجب عليه الرجوع ليبقى فيها إلى الغروب، فإن لم يرجع وجب عليه ذبح فدية؛ لتركه الواجب.

ووقت وقوف عرفة يبدأ بظهر يوم عرفة، ويستمر إلى طلوع الفجر ليلة العاشر، فمن وقف نهارًا وجب عليه البقاء إلى الغروب، ومن وقف ليلاً ولو لحظة صح حجه؛ لقوله ﷺ: «من أدرك عرفات بليل فقد أدرك الحج».

والوقوف بعرفة أعظم أركان الحج؛ لقوله ﷺ: «الحج عرفة». ثم بعد غروب الشمس يدفع الحجاج من عرفة إلى مزدلفة؛ لأن النبي ﷺ لم يزل واقفًا بعرفة حتى غربت الشمس، وغادرها ﷺ وقد شنق لناقته الزمام، حتى إن رأسها ليصيب موركه، وأن يكثر من التلبية والاستغفار في طريقه.

فإذا وصل مزدلفة صلى بها المغرب والعشاء جمعًا مع قصر العشاء ركعتين بأذان واحد وإقامتين، لكل صلاة إقامة، وذلك فور وصولهم دون تأخير «وإذا لم يتمكنوا من وصول مزدلفة قبل منتصف الليل فإنهم يصلون المغرب والعشاء في طريقهم خشية خروج الوقت».

ثم يبيت بمزدلفة حتى يصلي الفجر في أول الوقت، ثم يدعو الله إلى أن يسفر، ثم يدفع إلى منى قبل طلوع الشمس، فإن كان من الضعفة كالنساء والصبيان ونحوهم، فإنه يجوز له أن يتعجل في الدفع من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل، وكذلك يجوز لأولياء الضعفة الانصراف معهم بعد منتصف الليل.

أما الأقوياء الذين ليس معهم ضعفة، فينبغي لهم البقاء حتى يصلوا الفجر، فإذا صلوا الفجر أكثروا من الذكر والدعاء إلى أن يسفروا، ثم ينصرفون إلى منى مكثرين من التلبية في طريقهم.

فالمبيت بمزدلفة واجب من واجبات الحج، لا يجوز تركه لمن وصلها قبل منتصف الليل، أما من وصلها بعد منتصف الليل، فإنه يجزئه البقاء فيها ولو قليلاً، والأفضل أن يبقى إلى أن يصلي فيها الفجر، ويجوز لأهل الأعذار ترك المبيت بمزدلفة؛ كالمريض المحتاج لمستشفى.

وبأذان الفجر صباح ليلة مزدلفة يكون قد دخل العاشر من ذي الحجة وهو يوم العيد، فينطلق من مزدلفة إلى منى قبيل طلوع الشمس، ويأخذ حصى الجمار من طريقه قبل وصول منى، هذا أفضل، أو يأخذه من مزدلفة، أو من منى، كله جائز، وتكون الحصاة في حجم الظفر تقريبًا؛ أي أكبر من الحمص قليلاً.

فيتوجه لجمرة العقبة وتسمى الجمرة الكبرى، فيرميها بسبع حصيات؛ واحدة واحدة بعد طلوع الشمس، ويمتد زمن الرمي إلى الغروب، وإن رمى في الليل جاز، وينتهي وقت الرمي بفجر اليوم الحادي عشر، ولا بد أن تقع الحصى في حوض الجمرة، سواء استقرت فيه أو سقطت بعد ذلك.

فيحب على الحاج أن يصوب الحصى إلى حوض الجمرة، لا إلى العمود الشاخص، فإن هذا العمود لم يبن لأجل أن يرمى، وإنما بني ليكون علامة على الجمرة، ولو ضربت الحصاة العمود وطارت ولم تمر على الحوض، لم تجزئه، وإن ضربت العمود وسقطت في الحوض فورًا لكنها تدحرجت منه وخرجت، فرميه صحيح.

والضعفة يرمون بعد منتصف الليل مزدلفة، وإن رمى غير الضعفة بعد منتصف الليل أيضًا جاز؛ لكنه خلاف الأفضل.

ويسن أن لا يبدأ بشيء حين وصوله إلى منى قبل رمي جمرة العقبة، لأنه تحية منى، ويستحب أن يكبر مع كل حصاة، ويقول: (اللهم اجعله حجًا مبرورًا وذنبًا مغفورًا). ولا يرمي في يوم النحر غير جمرة العقبة.

وبعد الرمي ينحر الحاج هديه إن كان متمتعًا أو قارنًا، فيأكل منه ويتصدق ويهدي، ويمتد وقت الذبح إلى غروب الشمس، يوم (الثالث عشر من ذي الحجة) مع جواز الذبح ليلاً.

ولكن الأفضل المبادرة بذبحه بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد؛ لفعله ﷺ، (والحاج الفقير الذي لم يجد ثمن الهدي صام ثلاثة أيام في الحج ويستحب أن تكون يوم ١١ و ١٢ ١٣، و ٧ أيام إذا رجع إلى بلده)، ثم يحلق رأسه أو يقصره، والحلق أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

ودعا ﷺ للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة واحدة.

وعند التقصير يجب أن يعم جميع شعر رأسه، ولا يجزئ قص بعضه أو جانب منه فقط؛ لقوله تعالى: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فأضاف الحلق والتقصير إلى جميع الرأس.

والأصلع الذي ليس له شعر يمر الموسى على رأسه؛ لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

والمرأة تقص من كل ضفيرة قدر أنملة (عقلة أصبع)، فإن كان شعرها غير مضفور، جمعته وقصت من أطرافه.

وبعد الرمي والحلق أو التقصير يحل للمحرم الطيب واللباس وغيره إلا النساء، وهذا هو التحلل الأول - يحل له كل شيء إلا النساء - ثم يتطيب ويذهب إلى الحرم ليطوف طواف الإفاضة؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج:٢٩]. ولقول عائشة رضي الله عنها: «كنت أطيب رسول الله ﷺ لحله قبل أن يطوف بالبيت». ثم يسعى بعد هذا الطواف سعي الحج، وبعد هذا الطواف يحل للحاج كل شيء حرم عليه بسبب الإحرام حتى النساء، ويسمى هذا التحلل: التحلل الثاني أو التام.

والأفضل أن يرتب فعل هذه الثلاثة هكذا: الرمي ثم الحلق أو التقصير ثم طواف الإفاضة، لكن لو قدم بعضها على بعض فلا حرج، ويحصل التحلل الأول بفعل اثنين من هذه الثلاثة، والتحلل الثاني يحصل بفعل هذه الثلاثة كلها، فإذا فعلها حل له كل شيء.

وصفة الطواف والسعي كما تقدم في صفة العمرة.

وبعد طواف الإفاضة يوم العيد يرجع إلى منى فيبيت بها وجوبًا؛ لأنه ﷺ لم يرخص لأحد أن يبيت بمكة إلا للعباس رضي الله عنه لأجل سقايته. رواه ابن ماجه.

فيبيت بمنى ثلاث ليال (اليوم ١٠ مساءً؛ أي ليلة الحادي عشر، واليوم ١١ مساءً؛ أي بلا جمع، بل كل صلاة في وقتها، ويرمي الجمرات الثلاث كل يوم من أيام التشريق بعد الزوال (بعد أذان الظهر) لقول ابن عمر رضي الله عنهما: «كنا نتحين، فإذا

زالت الشمس رمينا». رواه البخاري. فقوله: «نتحين»؛ أي: نراقب الشمس فإذا دخل وقت صلاة الظهر رمينا، وقوله ﷺ «لتأخذوا تعني مناسككم».

فالرمي في اليوم الحادي عشر وما بعده يبدأ وقته بعد الزوال، والرمي قبل الزوال لا يصح ولا يجزئ، فكما لا تجوز الصلاة قبل وقتها، فإن الرمي لا يجوز قبل وقته.

(ورخص بعض أفاضل أهل العلم من المعاصرين وبعض المتقدمين في الرمي قبل الزوال في أيام التشريق؛ لأن النبي ﷺ رمى بعد الزوال لكنه لم ينه عن الرمي قبل الزوال، وما سئل عن شيء قدم أو أخر في الحج إلا قال: افعل ولا حرج. ولأن الترخيص بالرمي قبل الزوال أرفق بالناس، خاصة مع الزحام الشديد هذا الزمان، ولأن حديث ابن عمر المتقدم حكاية فعل).

ولكن الأولى الالتزام بقوله ﷺ «لتأخذوا عني مناسككم» وهو ﷺ ما رمى إلا بعد الزوال، والله أعلم.

وعند الرمي يبدء الحاج بالصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى، بسبع حصيات لكل جمرة، مع التكبير عند رمي كل حصاة.

ويسن له بعد أن يرمي الصغرى أن يتقدم قليلاً ويستقبل القبلة ويدعو طويلاً رافعًا يديه وبعد رمي الوسطى يتقدم ويجعلها عن يمينه ويستقبل القبلة ويدعو طويلاً رافعًا يديه.

أما الجمرة الكبرى (جمرة العقبة) فإنه يرميها ولا يقف يدعو؛ لفعله ﷺ ذلك. رواه البخاري.

ويجوز للمريض وكبير السن والمرأة الحامل والضعيفة أن يوكلوا من يرمي عنهم، ويرمي النائب الجمار عند كل جمرة عن نفسه سبع حصيات، ثم عن مستنيبه سبع حصيات.

ثم بعد رمي الجمرات في اليوم (١٢) إن شاء الحاج تعجل وخرج من منى قبل المغرب، وإن شاء تأخر وبات ورمى الجمرات يوم (١٣) بعد الزوال، وهو أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة:٢٠٣].

وإن غربت عليه الشمس قبل أن يرتحل من منى يوم الثاني عشر؛ لزمه التأخر والمبيت والرمي في اليوم الثالث عشر.

وبعد فراغ الحاج من حجه وعزمه الرجوع لبلده أو السفر إلى غيره، فإنه يطوف طواف الوداع قبل سفره من مكة؛ لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض» [متفق عليه]، فالحائض ليس عليها طواف وداع.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام حول صفة الحج والعمرة.

وقبل الختام أعرض بين أيديكم - أيها الإخوة والأخوات - عددًا من المسائل متفرقة:

* الأولى: حج الصبي:

ويصح فعل الحج والعمرة من الصبي نفلاً؛ لأن امرأة رفعت إلى النبي ﷺ صبيًا فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر» [رواه مسلم].

وأجمع أهل العلم على أن الصبي إذا حج قبل أن يبلغ فعليه الحج إذا بلغ واستطاع، ولا تجزئه تلك الحجة عن حجة الإسلام، وكذا عمرته.

أما كيفية إحرامه: فإن كان الصبي دون التمييز ولا يفهم معنى الإحرام، عقد عنه الإحرام وليه بأن ينويه عنه، ويجنبه المحظورات، ويطوف ويسعى به محمولاً، ويصطحبه في عرفة ومزدلفة ومنى، ويرمي عنه الجمرات.

وإن كان الصبي مميزًا نوى الإحرام بنفسه بإذن وليه، ويؤدي ما قدر عليه من مناسك الحج، وما عجز عنه يفعله عنه وليه مما يصح فيه التوكيل؛ كرمي الجمرات، ويطاف ويسعى به راكبًا أو محمولاً إن عجز عن المشي، وكل ما أمكن الصغير - مميزًا كان أو دونه - فعله بنفسه كالوقوف والمبيت لزمه فعله؛ بمعنى أنه لا يصح أن يفعل عنه لعدم الحاجة لذلك، ويجتنب في حجه ما يجتنب الكبير من المحظورات.

* المسألة الثانية: من أحكام المرأة في الحج:

لا يجوز للمرأة السفر لحج ولا لغيره بدون محرم؛ لقوله ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم» [رواه أحمد بإسناد صحيح].

وقال رجل للنبي ﷺ: إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا،

فقال ﷺ: «انطلق فحج معها» [متفق عليه].

وفي الصحيح وغيره: «لا يحل لامرأة تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها محرم».
ومحرم المرأة هو: زوجها، أو من يحرم عليه نكاحها تحريمًا مؤبدًا بنسب؛ كأخيها وأبيها وعمها وابن أخيها وخالها، أو حرم عليه نكاحها بسبب مباح؛ كأخ من رضاع، أو بمصاهرة كزوج أمها وابن زوجها.

ونفقة محرمها في السفر عليها، فيشترط لوجوب الحج عليها أن تملك ما تنفق عليها وعلى محرمها ذهابًا وإيابًا.

والمرأة إذا حاضت أو نفست قبل الإحرام ثم أحرمت، أو أحرمت وهي طاهرة ثم أصابها الحيض أو النفاس وهي محرمة؛ فإنها تبقى على إحرامها، وتعمل ما يعمله الحاج من الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمر والمبيت بمنى، إلا أنها لا تطوف بالبيت ولا تسعى بين الصفا والمروة حتى تطهر من حيضها أو نفاسها، لكن لو قدر أنها طافت وهي طاهرة، ثم نزل عليها الحيض بعد الطواف، فإنها تسعى بين الصفا والمروة، ولا يمنعها الحيض من ذلك؛ لأن السعي لا يشترط له الطهارة، ويجوز للمرأة أن تأخذ حبوب منع العادة لكي لا يأتيها الحيض أثناء الحج.

* المسألة الثالثة: أحكام الإنابة:

إن كان الشخص عاجزًا عن الحج بنفسه، وكان قادرًا بماله دون جسمه؛ بأن كان كبيرًا هرمًا أو مريضًا مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه؛ لزمه أن يقيم من يحج عنه ويعتمر حج وعمرة الإسلام؛ لأن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «حجي عنه» [متفق عليه].

ويشترط في النائب عن غيره في الحج أن يكون قد حج عن نفسه حجة الإسلام؛ لأنه ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة، قال: «حججت عن نفسك؟» قال: لا.. قال: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة» [إسناده جيد، وصححه البيهقي].

ويعطي النائب من المال ما يكفيه تكاليف السفر ذهابًا وإيابًا، وينبغي أن يكون مقصود النائب نفع أخيه المسلم، وأن يحج بيت الله ويزور تلك المشاعر العظام، فيكون حجه لله لا لأجل الدنيا.

والنائب ينوي الإحرام عن منيبه، ويلبي عنه، ويكفيه أن ينوي بقلبه النسك عنه، ولو لم يتلفظ باسمه.

ومن وجب عليه الحج ثم مات قبل الحج، أخرج من تركته نفقة من يحج عنه؛ لأن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته؟ اقضوا لله، فالله أحق بالوفاء» [رواه البخاري].

* المسألة الرابعة: محظورات الإحرام:

محظورات الإحرام هي المحرمات التي يجب على المحرم تجنبها بسبب الإحرام، وهي تسعة:

الأول: حلق الشعر من أي موضع في بدنه بلا عذر بحلق أو نتف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة:١٩٦].

الثاني: قص الأظافر؛ لكن إن انكسر ظفره فأزاله للضرورة، جاز.

الثالث: تغطية الرجل رأسه بملاسة كعمامة وطاقية، لكن لو استعمل مظلة أو استظل بشجرة أو سقف سيارة، جاز.

الرابع: لبس الرجل المخيط على بدنه من قميص أو سراويل، وكذلك القفازين والجوارب؛ لقوله ﷺ عن المحرم: «لا يلبس القميص، ولا العمامة، ولا البرانس، ولا السراويل، ولا ثوبًا مسه ورس ولا زعفران، ولا الخفين» متفق عليه.

وأما المرأة فتلبس ما شاءت، إلا أنها لا تلبس النقاب ولا البرقع - والبرقع هو لباس تغطي به المرأة ووجهها فيه ثقبان على العينين - بل الواجب على المرأة - محرمة كانت أو غير محرمة - أن تغطي وجهها بخمار أو جلباب، ولا تلبس القفازين.

الخامس: الطيب، فيحرم استعماله في بدنه أو لباسه؛ لأنه ﷺ قال في المحرم:

«ولا تمسوه بطيب» رواه مسلم. وينبغي أن لا يتعمد شم الطيب أيضًا.

السادس: صيد حيوانات البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

السابع: عقد النكاح لنفسه - أي الزواج - أو لغيره - يعني تزويج غيره كابنته وأخته - لقول ﷺ: «لا ينكح المحرم ولا ينكح» رواه مسلم.

الثامن: الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة:١٩٧] **قال ابن** عباس: الرفث: الجماع.

فمن جامع قبل التحلل الأول فسد حجه، ويلزمه إكماله وقضاؤه العام القادم وعليه ذبح بدنة، وإن كان الوطء بعد التحلل الأول صح حجه وعليه ذبح شاة.

التاسع: مباشرة المرأة بلمس بشهوة أو تقبيل ونحوه.

يجب على الحاج أن يبتعد عن هذه المحظورات، لئلا يقدح في حجه، ومن فعل شيئًا منها فحكمه فيه تفصيل من جهة لزوم الفدية أو عدم لزومها ولا مجال لتفصيل ذلك هنا، ويمكن الرجوع إلى أهل العلم عند وقوع ذلك.

أسأل الله أن يتقبل منا عباداتنا، وأن يجعلها صحيحة على السنة.

* * *

القابضات على الجمر

الحمد لله الذي أسكن عباده هذه الدار، وجعلها لهم منزلة سفر من الأسفار، وجعل الدار الآخرة هي دار القرار، فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار، ويرفق بعباده الأبرار في جميع الأقطار، وسبق رحمته بعباده غضبه وهو الرحيم الغفار، أحمده على نعمه الغزار، وأشكره وفضله على من شكر مدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحد القهار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي المختار، الرسول المبعوث بالتبشير والإنذار ﷺ، صلاة تتجدد بركاتها بالعشي والإبكار.

أما بعد: فهذه رسالة، رسالة إلى القابضات على الجمر، رسالة إلى أولئك الفتيات الصالحات، والنساء التقيات، حديث إلى اللاتي شرفهن الله بطاعته، وأذاقهن طعم محبته، إلى حفيدات خديجة وفاطمة، وأخوات حفصة وعائشة، هذه أحاسيس أبثها إلى من جعلن قدوتهن أمهات المؤمنين، وغايتهن رضا رب العالمين، إلى اللاتي طالما دعتهن نفوسهن إلى الوقوع في الشهوات، ومشاهدة المحرمات، وسماع المعازف والأغنيات، فتركن ذلك ولم يلتفتن إليه، مع قدرتهن عليه، خوفًا من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

هذه وصايا إلى الفتيات العفيفات، والنساء المباركات، اللاتي يأمرن بالمعروف، وينهين عن المنكر، ويصبرن على ما يصيبهن.

هذه همسات إلى حبيبة الرحمن، التي لم تجعل همها في القنوات، ومتابعة آخر الموضات، وتقليب المجلات، وإنما جعلت الهموم همًّا واحدًا هو هم الآخرة.

هذه رسالة إلى تلك المؤمنة العفيفة التي كلما كشر الفساد حولها عن أنيابه، رفعت بصرها إلى السماء وقالت: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

هذه رسالة إلى القابضات على الجمر اللاتي قال فيهن النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر».

رسالة إلى المرأة الصالحة التقية، التي قدمت محبة الله وأوامره على تقليد فلانة أو فلانة، فأصبحت غريبة بين النساء بسبب صلاحها وفسادهن، وقد قال النبي ﷺ لها فيما رواه ابن ماجه والدارمي: «إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس».

هذه كلمات إلى القابضات على الجمر، لأذكرهن بأخبار من تقدمهن إلى طريق الجنة، ممن تركن لذة الحياة، وحملن هم الدين، حتى ضاعف الله لهن الحسنات، وكفر السيئات، ورفع الدرجات، حتى سبقن كثيرًا من الرجال.

أول تلك القابضات على الجمر:

هي تلك المرأة الصالحة التي كانت تعيش هي وزوجها، في ظل ملك فرعون، زوجها مقرب من فرعون، وهي خادمة ومربية لبنات فرعون، فمن الله عليهما بالإيمان، فلم يلبث زوجها أن علم فرعون بإيمانه فقتله، فلم تزل الزوجة تعمل في بيت فرعون تمشط بنات فرعون، وتنفق على أولادها الخمسة، تطعمهم كما تطعم الطير أفراخها، فبينما هي تمشط ابنة فرعون يومًا، إذ وقع المشط من يدها، فقالت: باسم الله، فقالت ابنة فرعون: الله، أبي؟ فصاحت الماشطة بابنة فرعون: كلا، بل الله ربي، وربك، ورب أبيك، فتعجبت البنت أن يعبد غير أبيها، ثم أخبرت أباها بذلك، فعجب أن يوجد في قصره من يعبد غيره، فدعا بها، وقال لها: من ربك؟ قالت: ربي وربك الله، فأمرها بالرجوع عن دينها، وحبسها، وضربها، فلم ترجع عن دينها، فأمر فرعون بقدر من نحاس فملئت بالزيت، ثم أحمي، حتى غلا، وأوقفها أمام القدر، فلما رأت العذاب، أيقنت أنما هي نفس واحدة تخرج وتلقى الله تعالى، فعلم فرعون أن أحب الناس أولادها الخمسة، الأيتام الذين تكدح لهم، وتطعمهم، فأراد أن يزيد في عذابها فأحضر الأطفال الخمسة، تدور أعينهم، ولا يدرون إلى أين يساقون، فلما رأوا أمهم تعلقوا بها يبكون، فانكبت عليهم تقبلهم وتشمهم وتبكي، وأخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها، وألقمته ثديها، فلما رأى فرعون هذا المنظر أمر بأكبرهم، فجره الجنود ودفعوه إلى الزيت المغلي، والغلام يصيح بأمه ويستغيث، ويسترحم الجنود، ويتوسل إلى فرعون، ويحاول الفكاك والهرب،

وينادي إخوته الصغار، ويضرب الجنود بيديه الصغيرتين، وهم يصفعونه ويدفعونه، وأمه تنظر إليه، وتودعه، فما هي إلا لحظات، حتى ألقي الصغير في الزيت، والأم تبكي وتنظر، وإخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة، حتى إذا ذاب لحمه من على جسمه النحيل، وطفحت عظامه بيضاء فوق الزيت، نظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بالله، فأبت عليه ذلك، فغضب فرعون، وأمر بولدها الثاني، فسحب من عند أمه وهو يبكي ويستغيث، فما هي إلا لحظات حتى ألقي في الزيت، وهي تنظر إليه، حتى طفحت عظامه بيضاء واختلطت بعظام أخيه، والأم ثابتة على دينها، موقنة بلقاء ربها، ثم أمر فرعون بالولد الثالث فسحب وقرب إلى القدر المغلي ثم حمل وغيب في الزيت، وفعل به ما فعل بأخويه، والأم ثابتة على دينها، فأمر فرعون أن يطرح الرابع في الزيت..

فأقبل الجنود إليه، وكان صغيرًا قد تعلق بثوب أمه، فلما جذبه الجنود، بكى وانطرح على قدمي أمه، ودموعه تجري على رجليها، وهي تحاول أن تحمله مع أخيه، تحاول أن تودعه وتقبله وتشمه قبل أن يفارقها، فحالوا بينه وبينها، وحملوه من يديه الصغيرتين، وهو يبكي ويستغيث، ويتوسل بكلمات غير مفهومة، وهم لا يرحمونه، وما هي إلا لحظات حتى غرق في الزيت المغلي، وغاب الجسد، وانقطع الصوت، وشمت الأم رائحة اللحم، وعلت عظامه الصغيرة بيضاء فوق الزيت يفور بها، تنظر الأم إلى عظامه، وقد رحل عنها إلى دار أخرى، وهي تبكي، وتتقطع لفراقه، طالما ضمته إلى صدرها، وأرضعته من ثديها، طالما سهرت لسهره، وبكت لبكائه، كم ليلة بات في حجرها، ولعب بشعرها، كم قربت منه ألعابه، وألبسته ثيابه، فجاهدت نفسها أن تتجلد وتتماسك، فالتفتوا إليها، وتدافعوا عليها، وانتزعوا الخامس الرضيع من بين يديها، وكان قد التقم ثديها، فلما انتزع منها، صرخ الصغير، وبكت المسكينة، فلما رأى الله تعالى ذلها وانكسارها وفجيعتها بولدها، أنطق الصبي في مهده وقال لها: يا أماه اصبري فإنك على الحق، ثم انقطع صوته عنها، وغيب في القدر مع إخوته، ألقي في الزيت، وفي فمه بقايا من حليبها، وفي يده شعرة من شعرها، وعلى أثوابه بقية من دمعها، وذهب الأولاد الخمسة، وها هي عظامهم يلوح بها القدر، ولحمهم يفور به الزيت، تنظر المسكينة إلى هذه العظام

الصغيرة، عظام من؟ إنهم أولادها، الذين طالما ملئوا عليها البيت ضحكًا وسرورًا، إنهم فلذات كبدها، وعصارة قلبها، الذين لما فارقوها كأن قلبها أخرج من صدرها، طالما ركضوا إليها، وارتموا بين يديها، وضمتهم إلى صدرها، وألبستهم ثيابهم بيدها، ومسحت دموعهم بأصابعها، ثم ها هم ينتزعون من بين يديها، ويقتلون أمام ناظريها، وتركوها وحيدة وتولوا عنها، وعن قريب ستكون معهم، كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين هذا العذاب، بكلمة كفر تسمعها لفرعون، لكنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى، ثم لما لم يبق إلا هي، أقبلوا إليها كالكلاب الضارية، ودفعوها إلى القدر، فلما حملوها ليقذفوها في الزيت، نظرت إلى عظام أولادها، فتذكرت اجتماعها معهم في الحياة، فالتفتت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة، فصاح بها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنها في قبر واحد، ثم أغمضت عينيها، وألقيت في القدر، واحترق جسدها، وطفت عظامها، فلله در هذه الماشطة ما أعظم ثباتها، وأكثر ثوابها.

ولقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء شيئًا من نعيمها، فحدث به أصحابه وقال لهم فيما رواه البيهقي: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ فقيل لي: هذه ماشطة بنت فرعون وأولادها».

الله أكبر تعبت قليلاً، لكنها استراحت كثيرًا، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٤].

مضت هذه المرأة المؤمنة إلى خالقها، وجاورت ربها، ويرجى أن تكون اليوم في جنات ونهر، ومقعد صدق عند مليك مقتدر، وهي اليوم أحسن منها في الدنيا حالاً، وأكثر نعيمًا وجمالاً، وعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها

على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «من دخل الجنة ينعم لا يبؤس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. وله في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ومن دخل إلى الجنة نسي عذاب الدنيا فمن سكان الجنة؟!

إنهم أهل الصيام مع القيا ... م وطيب الكلمات والإحسان
أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان
عسل مصفى ثم ماء ثم خمـ ... ـر ثم أنهار من الألبان
وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ... ولحومهم طير ناعم وسمان
وفواكه شتى بحسب مناهم ... يا شبعة كملت لذي الإيمان
وصحافهم ذهب تطوف عليهم ... بأكف خدام من الولدان
وشرابهم من سلسبيل مزجه الـ ... ـكافور ذاك شراب ذي الإيمان
والحلي أصفى لؤلؤ وزبرجد ... وكذاك أسورة من العقيان
هذا وخاتمة النعيم خلودهم ... أبدًا بدار الخلد والرضوان
يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن أين المشتري ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ ... ـعشاق عنك وهم ذوو إيمان
والله لم تخرج إلى الدنيا للذ ... ة عيشها أو للحطام الفاني
لكن خرجت لكي تعد الزاد لل ... أخرى فجئت بأقبح الخسران

فما أطيب عيش المؤمنة في الجنة عندما تتقلب في أنهارها، وتشرب من عسلها، بل وتنظر إلى وجه ربها، ما أطيب عيشك أنت، وربك يسألك في الجنة: يا فلانة، هل رضيت، هل رضيت بما أنت فيه من النعيم، فتقولين وما لي لا أرضى وقد أعطيتني ما أرجو وأمنتني مما أخاف، فيقول: أعطيك أعظم من ذلك، ثم يكشف الحجاب عن وجهه فتنظرين إليه، فلا تنصرفين إلى شيء من النعيم ما دمت تنظرين إليه ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ

مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢٨].

ولكن لن يصل أحد إلى الجنة إلا بمقاومة شهواته، فلقد حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فاتباع الشهوات في اللباس، والطعام، والشراب، والأسواق طريق إلى النار، قال ﷺ كما في الصحيحين: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»، فاتعبي اليوم وتصبري، لترتاحي غدًا، فإنه يقال لأهل الجنة يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، أما أهل النار فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠].

هذه أولى القابضات على الجمر، ثبتت على دينها برغم الفتنة العظيمة التي أحاطت بها، فعجبًا والله لفتيات، لا تستطيع إحداهن الثبات على إقامة الصلاة، فلا تزال تتساهل بأدائها حتى تتركها حتى تكفر، وقد قال النبي ﷺ كما عند الترمذي: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، ومن تركت الصلاة خلدها الله في النيران، وعذبها مع الشيطان، وأبعدها عن النعيم وسقاها من الحميم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣، ١٤].

ذكر الذهبي في الكبائر: أن امرأة ماتت فدفنها أخوها، فسقط كيس منه فيه مال في قبرها فلم يشعر به حتى انصرف عن قبرها، ثم ذكره فرجع إلى قبرها فنبش التراب، فلما وصل إليها وجد القبر يشتعل عليها نارًا، ففزع، ورد التراب عليها، ورجع إلى أمه باكيًا فزعًا وقال: أخبريني عن أختي وماذا كانت تعمل؟ فقالت الأم: وما سؤالك عنها؟ قال: يا أمي إني رأيت قبرها يشتعل عليها نارًا، فبكت الأم وقالت: كانت أختك تتهاون بالصلاة، وتؤخرها عن وقتها.

فهذا حال من تؤخر الصلاة عن وقتها، فلا تصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس، أو تؤخر غيرها من الصلوات، فكيف حال من لا تصلي؟! وقد أخبر النبي ﷺ عن رؤياه لعذاب من يخرج الصلاة عن وقتها، فقال: «أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا

آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، فقلت: سبحان الله!! ما هذان؟ فقال الملكان: هذا الرجل، يأخذ القرآن فيرفضه - يعني لا يعمل بما فيه - وينام عن الصلاة المكتوبة». ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

أما ثانية القابضات على الجمر: فقد كانت ملكة على عرشها، على أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، لكنها كانت مؤمنة تكتم إيمانها، إنها آسية، امرأة فرعون، كانت في نعيم مقيم، فلما رأت قوافل الشهداء تتسابق إلى السماء اشتاقت لمجاورة ربها، وكرهت مجاورة فرعون، فلما قتل فرعون الماشطة المؤمنة، دخل على زوجه آسية يستعرض أمامها قواه، فصاحت به آسية: الويل لك! ما أجرأك على الله، ثم أعلنت إيمانها بالله، فغضب فرعون، وأقسم لتذوقن الموت، أو لتكفرن بالله، ثم أمر فرعون بها فمدت بين يديه على لوح، وربطت يداها وقدماها في أوتاد من حديد، وأمر بضربها فضربت، حتى بدأت الدماء تسيل من جسدها، واللحم ينسلخ عن عظامها، فلما اشتد عليها العذاب، وعاينت الموت، رفعت بصرها إلى السماء، وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]، وارتفعت دعوتها إلى السماء. قال ابن كثير: فكشف الله لها عن بيتها في الجنة فتبسمت، ثم ماتت.

نعم، ماتت الملكة، التي كانت بين طيب وبخور، وفرح وسرور. نعم، تركت فساتينها، وعطورها، وخدمها، وصديقاتها، واختارت الموت، لكنها اليوم تتقلب في النعيم كيفما شاءت، ولماذا لا يكون جزاؤها كذلك، وهي طالما:

وقفت تناجي ربها	والليل مسدول البراقع
تصغي لنجواها السما	ء وقد جرت منها المدامع
تدعو فتحتشد الملائك والد	جى هيمان خاشع
والعابدات الزاهدات جفت	ت مراقدها المضاجع
وتخر للرحمن سا	جدة مطهرة النوازع

نفعها صبرها على الطاعات، ومقاومتها للشهوات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

فأين نساؤنا اليوم؟ أين نساؤنا عن سير هؤلاء الصالحات؟ أين النساء اللاتي يقعن في المخالفات الشرعية في لباسهن، وحديثهن، ونظرهن، ثم إذا نصحت إحداهن قالت: كل النساء يفعلن مثل ذلك، ولا أستطيع مخالفة التيار.

سبحان الله!! أين القوة في الدين، والثبات على المبادئ، إذا كانت الفتاة بأدنى فتنة تتخلى عن طاعة ربها، وتطيع الشيطان، أين الاستسلام لأوامر الله، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أين تلك الفتيات العابثات، اللاتي تتعرض إحداهن للعنة ربها، فتلبس عباءتها على كتفها، فيرى الناس تفصيل كتفيها وجسدها، إضافة إلى تشبهها برجال، لأن الرجال هم الذين يلبسون عباءاتهم على أكتافهم، ومن تشبهت بالرجال فهي ملعونة.

وأين تلك المرأة التي تنتف حواجبها وتغير خلق الله، والنبي ﷺ قد لعن النامصة والمتنمصة.

وأين تلك الواشمة، التي تضع الوشم على وجهها على شكل نقط متفرقة، أو على شكل رسوم في مناطق من جسدها، وهذا فعل المومسات، والنبي ﷺ قد قال: «لعن الله الواشمة والمستوشمة».

بل أين تلك المرأة التي تلبس الشعر المستعار، أو ما يسمى بالباروكة، والله تعالى قد لعن الواصلة والمستوصلة.

فهؤلاء النساء ملعونات، أتدرين ما معنى ملعونة؟! أي مطرودة من رحمة الله، مطرودة عن سبيل الجنة، أو ترضين أن تطردي عن الجنة بسبب شعرات تنتفينها من حاجبيك، أو عباءة تنزلينها على كتفيك، أو نقاط من وشم في أنحاء جسدك.

أو تريدين الجمال؟! ليس الجمال ـ والله ـ بالتعرض للعنة الله وسخطه، بل

الجمال الحقيقي هو ما يكون بطاعة الله، ويكمل الجمال ويزين للمؤمنات في الجنة، فإذا كان الله تعالى قد وصف الحور العين بما وصف، وهن لم يقمن الليل، ولم يصمن النهار، ولم يصبرن عن الشهوات، فما بالك بجمالك أنت، وحسنك، وبهائك، وأنت التي طالما خلوت بربك في ظلمة الليل، يسمع نجواك، ويجيب دعاك، طالما تركت لأجل رضاه اللذات، وفارقت الشهوات، فيا بشراك وقد تلقتك الملائكة عند الأبواب، تبشرك بالنعيم وحسن الثواب، وقد ازددت جمالاً فوق جمالك، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢)، فأنت في الجنة قد

كملت خلائقك وأكمل حسنك	كالبدر ليل الست بعد ثمان
والشمس تجري في محاسن وجهك	والليل تحت ذوائب الأغصان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرك	فيضيء سقف القصر بالجدران
وتبختري في مشيك ويحق	ذاك لمثلك في جنة الحيوان
ووصائف من خلفك وأمامك	وعلى شمائلك ومن أيمان
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فتحرمي ذا	وذا يا ذلة الحرمان
منتك نفسك باللحاق مع القعو	د عن المسير وراحة الأبدان
ولسوف تعلم حين ينكشف الغطا	ماذا صنعت وكنت ذا إمكان

فأين تلك المسكينة، التي تعرض عن سماع السور والآيات، وتستمع إلى المعازف والأغنيات، فتتعرض لعذاب الله، وتحرم من سماع الغناء في الجنة، سبحان الله، ما كفاك القرآن وسماعه، فتركتيه وبحثت عن الغناء. قال محمد بن المنكدر: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟! أسكنوهم رياض المسك، ثم يقول الله للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي.

وعن شهر بن حوشب: أن الله جل ثناؤه يقول لملائكته: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي، فأسمعوا عبادي، فيأخذون بأصوات من تسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط.

قال ابن عباس ويرسل ربنا ... ريحًا تهز ذوائب الأغصان
فتثير أصواتًا تلذ لمسمع الـ ... إنسان كالنغمات بالأوزان
يا لذة الأسماع لا تتعوضي ... بلذاذة الأوتار والعيدان
واهًا لذياك السماع فكم به ... للقلب من طرب ومن أشجان
نزه سماعك إن أردت سماع ذيـ ... ـاك الغنا عن هذه الألحان
حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبد ليس يجتمعان
والله إن سماعهم في القلب والـ ... إيمان مثل السم في الأبدان
والله ما انفك الذي هو دأبه ... أبدًا من الإشراك بالرحمن
فالقلب بيت الرب جل جلاله ... حبًا وإخلاصًا مع الإحسان
فإذا تعلق بالسماع أصاره ... عبدًا لكل فلانة وفلان

بل إن القابضات على الجمر، لم يكتفين بالصبر على العذاب، وتحمل البلاء، وإنما كان لهن في نصر الدين، ومقاومة الباطل، بطولات وأعاجيب.

صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، عجوز قد جاوز عمرها الستين سنة، فلما اجتمع الكفار من قريش وغيرها، وتآمروا على غزوة المدينة، حفر المسلمون خندقًا في جهة من جهات المدينة، وكانت الجبال تحيط ببقية الجهات، وكان عدد المسلمين قليلاً، فاستنفرهم النبي ﷺ للرباط أمام الخندق لصد من يتسلل إليهم من الكفار، أما النساء والصبيان فقد جمعهم النبي ﷺ في حصن منيع، ولم يترك عندهم من يحرسهم، لقلة المسلمين وكثرة الكفار، وبينما النبي ﷺ منشغل مع أصحابه في القتال عند الخندق، تسلل جمع من اليهود حتى وصلوا إلى الحصن، ثم لم يجرءوا على الدخول خشية من وجود أحد من المسلمين، فاصطفوا خارج الحصن، وأرسلوا واحدًا منهم يستطلع لهم الأمر، فجعل هذا اليهودي يطوف بالحصن، حتى وجد فرجة فدخل منها، وجعل يبحث وينظر، فرأته صفية رضي الله عنها، ففزعت وقالت في نفسها: هذا اليهودي يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، وإن صرخت فزعت النساء والصبيان، وعلم اليهودي أن لا رجال في الحصن، فتناولت سكينًا وربطتها في وسطها، ثم أخذت عمودًا من خشب، ونزلت من الحصن إليه وتحينت منه التفاتة،

فضربته بالعمود على أم رأسه، حتى قتلته، فلما خمد، تناولت سكينًا، فلله در صفية، تلك العابدة لتقية.

فتأملي في جرأتها وبذلها نفسها لخدمة الدين، فكم تبذلين أنت للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كم ترين في المجالس من النامصات، وفي الأسواق من المتبرجات، وفي الأعراس من المتعريات، فماذا فعلت تجاههن؟! ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحق اللعنة ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩].

ولا تخجلي من ذلك فالدعوة تحتاج إلى جرأة في أولها، ثم تفرحين بآخرها، والصالحات القابضات على الجمر إذا أتى إحداهن الأمر من الشريعة أطاعت وسلمت، وأذعنت، ولم تعترض، أو تخالف، أو تبحث عن مخارج.

قالت عائشة رضي الله عنها كما عند أبي داود: والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزل في سورة النور قوله تعالى في الأمر بحجاب المؤمنات: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] فسمعها الرجال من رسول الله ﷺ، ثم انقلبوا إليهن، يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، يتلو الرجل على امرأته، وابنته، وأخته، وعلى كل ذات قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من قماش تلبسه النساء - فاعتجرت به لفته على رأسها وقامت بعضهن إلى أزرهن فشققنها واختمرن بها. أي الفقيرة التي لم تجد قماشًا تستر به وجهها، أخذت إزارها وهو ما يلبس من البطن إلى القدمين ثم شقت منه قطعة غطت بها وجهها، تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله في كتابه.

قالت عائشة: فأصبحن وراء رسول الله معتجرات كأن على رءوسهن الغربان.

الله أكبر، هذا حال المرأة في ذلك الزمان، في تغطيتها لوجهها، وسترها لزينتها تتستر حتى لا يراها الرجل، هل تدرين من هذه المرأة التي أمرت بالتستر، إنها عائشة أم المؤمنين، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأسماء بنت أبي بكر، وغيرهن من الصالحات التقيات، وهل تدرين يسترن زينتهن عمن، عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم من الصحابة، أزكى رجال الأمة، وأعفهم وأطهرهم، ومع ذلك أمرت النساء بالتستر مع صلاح ذلك المجتمع.

بل قد نهى الله أبا بكر، وعمر، وطلحة، والزبير، والصحابة جميعًا عن الاختلاط بالنساء، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب:٥٣] يعني إذا سألتم أزواج النبي وهن أطهر النساء ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ لماذا؟ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. فكيف الحال اليوم مع نسائنا، ورجالنا، وقد فسد الزمان؟

ماذا نقول لنساء جريئات، تحادث إحداهن البائع في السوق بكل طلاقة لسان، وكأنه زوجها أو أخوها، بل قد تضاحكه، وتمازحه، ليخفض لها في السعر، مع لبسها للنقاب الواسع، وقد تزيد على ذلك الخلوة بالسائق، وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، وكل هذه المعاصي هي تعلم أنها معاصٍ، لكنها مع ذلك تقدم عليها بنعم أعطاها الله لها، فتعصي الله بنعمته، وكأن ربها عاجز عن عذابها.

سبحان الله، لو شاء الله لسلب منك هذه النعم التي تعصينه بها!!

اذهبي إلى مستشفى النقاهة وانظري أحوال النساء التي فقدن العافية، اذهبي إلى هناك، لتري فتيات في عمر الزهور، لا يتحرك في الواحدة منهن إلا عيناها، أما بقية جسدها فمشلول شللاً كليًا، لو قطعت رجلاها ويداها بالسكاكين لما أحست بشيء، نسأل الله لهن الشفاء والعافية، والأجر العظيم، كل واحدة منهن، تتمنى لو تتحكم ولو بإخراج البول والغائط، بل لا تدري إحداهن أنه قد خرج منها بول أو غائط إلا إذا شمت الرائحة، يلبسن حفائظ على عوراتهن كالأطفال، وتبقى الحفائظ على بعضهن ثلاثة أيام وأربعة، قد كانت مثلك، تأكل وتشرب، وتضحك وتلعب، وتتمشى في الأسواق، وفجأة، ودون سابق تحذير، أصيبت بحادث سيارة، أو جلطة في القلب أو الدماغ، والنتيجة، صارت حية في صورة ميتة، عشر سنين، وعشرون

سنة، وثلاثون ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٦، ٤٧].

ولا يعني أن كل من أصابها مرض فإن ذلك يكون عقوبة وجزاء، كلا، ولكن، لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

والقابضات على الجمر يتسابقن إلى الأعمال الصالحة، صغيرها وكبيرها، ولهن في كل ميدان سهم، ولا تعلمين ما العمل الذي به تدخلين إلى الجنة، فلعل شريطًا توزعينه في مدرسة، أو نصيحة عابرة تتكلمين بها، يكتب الله بها لك رضاه ومغفرته.

ولقد أخبر النبي ﷺ كما في الصحيحين أن امرأة بغيًا من بني إسرائيل كانت تمشي في صحراء، فرأت كلبًا بجوار بئر يصعد عليه تارة، ويطوف به تارة، في يوم حار قد أدلع لسانه من العطش، قد كاد يقتله العطش، فلما رأته هذه البغي، التي طالما عصت ربها، وأغوت غيرها، ووقعت في الفواحش، وأكلت المال الحرام، لما رأت هذا الكلب، نزعت خفها، حذاءها، وأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء، وسقته، فغفر الله لها بذلك، الله أكبر، غفر الله لها، بماذا؟ هل كانت تقوم الليل وتصوم النهار؟! هل قتلت في سبيل الله؟! كلا، وإنما سقت كلبًا شربة من ماء، فغفر الله لها.

وروى مسلم عن عائشة ﵂ أنها أخبرت عن امرأة مسكينة جاءتها، تحمل ابنتين لها، فقالت: يا أم المؤمنين، والله ما دخل بطوننا طعام منذ ثلاثة أيام، فبحثت عائشة في بيت النبي ﷺ فلم تجد إلا ثلاث تمرات، فأعطتها الثلاث تمرات، ففرحت المسكينة بها، وأعطت كل واحدة من الصغيرتين تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فكانت البنتان لفرط الجوع، أسرع إلى تمرتيهما من الأم إلى تمرتها، فرفعتا أيديهما تريدان التمرة التي بيد الأم، فنظرت الأم إليهما، ثم شقت التمرة الباقية بينهما. قالت عائشة: فأعجبني حنانها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

فالقابضات على الجمر يتسابقن إلى الطاعات، وإن كانت يسيرة صغيرة، والأعظم

من ذلك هو الحذر من المعاصي، وعدم التساهل بها، فقد قال تعالى عن قوم تساهلوا بالمعاصي وتصاغروها: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وأخبر النبي ﷺ كما في الصحيحين، أنه رأى امرأة تعذب في النار، فما الذي أدخلها إلى النار؟ هل سجدت لصنم؟ هل قتلت نبيًا؟ هل سرقت أموال الناس؟ كلا، «دخلت امرأة النار في هرة، سجنتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض». حتى ماتت هزلاً، قال ﷺ: «فلقد رأيتها في النار والهرة تخدشها».

وروى البخاري أنه قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، لكنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا خير فيها، هي من أهل النار».

قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأثوار - يعني بأجزاء يسيرة من الطعام - ولا تؤذي أحدًا..

فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة».

والقابضات على الجمر في هذا الزمان، تعلم كل واحدة منهن أن الحرب الموجهة إليها حرب ضروس يريدون منها استعبادها، وهتك عرضها، باسم الحرية والمساواة، فما معنى الحرية التي يدعو إليها المفسدون؟ ولماذا لا يدعون إلى تحرير العمال المظلومين، والضحايا المنكوبين، والأيتام المنبوذين، لماذا يصرون على أن المرأة العفيفة، التي تعيش في ظل وليها، ولو مد أحد العابثين يده إليها، لما عادت إليه يده، لماذا يصرون دائمًا على أن هذه المرأة تحتاج إلى تحرير.

هل ارتداء المرأة للعباءة والحجاب لتحمي نفسها من النظرات المسعورة، يعد عبودية تحتاج أن تحرر المرأة منها؟؟ هل تخصيص أماكن معينة لعمل المرأة، بعيدة عن مخالطة الرجال، هو عبودية وذل للمرأة؟ هل تربية المرأة لأولادها، ورأفتها ببناتها، وقرارها في بيتها، هو عبودية تحتاج إلى تحرير؟؟

ثم لماذا نجد أن أكثر من يتنابحون ويدعون إلى تحرير المرأة، وتكشفها لهم، ويزعمون أن حجابها قيد وغل لا بد أن تتحرر منه، لماذا نجد أن أكثر هؤلاء هم

ليسوا من العلماء، ولا من المصلحين، وإنما أكثرهم من الزناة، وشراب الخمور، وأصحاب الشهوات المسعورة؟ فلماذا يدعو هؤلاء إلى تحرير المرأة؟ لماذا يستميتون لإخراج العفيفة من بيتها، لماذا؟

الجواب واضح، اشتهوا أن يروها متعرية راقصة فزينوا لها الرقص، فلما تعرت وتبذلت، وأصبحت تلهو وترقص في المسارح، أرضوا شهواتهم منها، ثم صاحوا بها وقالوا: قد حررناك، واشتهوا أن يتمتعوا بها متى شاءوا، فزينوا لها مصاحبة الرجال، ومخالطتهم، حتى حولوها إلى حمام متنقل، يستعملونه متى شاءوا، على فرشهم، وفي حدائقهم، وباراتهم، وملاهيهم، فلما تهتكت وتنجست، صاحوا بها وقالوا: قد حررناك.

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء

واشتهوا أن يروها عارية على شاطئ البحر، وساقية للخمر، وخادمة في طائرة، وصديقة فاجرة، فزينوا لها ذلك كله وأغروها بفعله، فلما ولغت في مستنقع الفجور، تضاحكوا بينهم وقالوا: هذه امرأة متحررة، فمن ماذا حرروها؟

عجبًا، هل كانت في سجن وخرجت منه إلى الحرية؟ هل الحرية في تقصير الثياب، ونزع الحجاب، أم الحرية في التسكع في الأسواق، ومضاجعة الرفاق، هل الحرية في مكالمة شاب فاجر، أو الخلوة بذئب غادر، أليس الحرية الحقيقية، والسيادة النقية، هي أن تكوني عفيفة مستترة، أبوك يرأف عليك، وزوجك يحسن إليك، وأخوك يحرسك بين يديك، وولدك ينطرح على قدميك، وهذه هي الكرامة العظيمة التي أرادها الله تعالى لك، فلقد أوصى الله بك أباك وأمك فقال ﷺ فيما رواه مسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه».

وأوصى بك أولادك فقال ﷺ كما في الصحيحين للرجل الذي سأله فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك».

بل أوصى النبي ﷺ بالمرأة زوجها، وذم من غاضب زوجته أو أساء إليها، فعند مسلم والترمذي أن النبي ﷺ قام في حجة الوداع، فإذا بين يديه مائة ألف حاج، فيهم الأسود والأبيض، والكبير والصغير، والغني والفقير، صاح ﷺ بهؤلاء

جميعًا وقال لهم: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، ألا واستوصوا بالنساء خيرًا».

وروى أبو داود وغيره أنه في يوم من الأيام أطاف بأزواج رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن فلما علم النبي ﷺ بذلك، قام، وقال للناس: «لقد طاف بآل محمد ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، ليس أولئك بخياركم».

وصح عند ابن ماجه والترمذي أن النبي ﷺ قال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

بل قد بلغ من إكرام الدين للمرأة. أنها كانت تقوم الحروب، وتسحق الجماجم، وتتطاير الرءوس، لأجل عرض امرأة واحدة.

ذكر أصحاب السير أن اليهود كانوا يساكنون المسلمين في المدينة، وكان يغيظهم نزول الأمر بالحجاب، وتستر المسلمات، ويحاولون أن يزرعوا الفساد والتكشف في صفوف المسلمات، فما استطاعوا، وفي أحد الأيام جاءت امرأة مسلمة إلى سوق يهود بني قينقاع، وكانت عفيفة متسترة، فجلست إلى صائغ هناك منهم، فاغتاظ اليهود من تسترها وعفتها، وودوا لو يتلذذون بالنظر إلى وجهها، أو لمسها والعبث بها، كما كانوا يفعلون ذلك قبل إكرامها بالإسلام، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، ويغرونها لتنزع حجابها، فأبت، وتمنعت، فغافلها الصائغ وهي جالسة، وأخذ طرف ثوبها من الأسفل، وربطه إلى طرف خمارها المتدلي على ظهرها، فلما قامت، ارتفع ثوبها من ورائها، وانكشفت سوءتها، فضحك اليهود منها، فصاحت المسلمة العفيفة، وودت لو قتلوها ولم يكشفوا عورتها، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، سل سيفه، ووثب على الصائغ فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه، فلما علم النبي ﷺ بذلك، وأن اليهود قد نقضوا العهد وتعرضوا للمسلمات، حاصرهم، حتى استسلموا ونزلوا على حكمه، فلما أراد النبي ﷺ أن ينكل بهم، ويثأر لعرض المسلمة العفيفة، قام إليه جندي من جند الشيطان، الذين لا يهمهم عرض المسلمات، ولا صيانة المكرمات، وإنما هم أحدهم متعة بطنه وفرجه، قام رأس المنافقين، عبد الله بن أبي بن سلول، فقال: يا محمد أحسن في موالي اليهود وكانوا أنصاره في الجاهلية، فأعرض عنه النبي ﷺ، وأبى؛ إذ كيف يطلب العفو عن أقوام يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فقام المنافق مرة

أخرى، وقال: يا محمد أحسن إليهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، صيانة لعرض المسلمات، وغيرة على العفيفات، فغضب ذلك المنافق، وأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ، وجره وهو يردد: أحسن إلى موالي، أحسن إلى موالي، فغضب النبي ﷺ والتفت إليه وصاح به وقال: «أرسلني». فأبى المنافق، وأخذ يناشد النبي ﷺ العدول عن قتلهم، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «هم لك». ثم عدل عن قتلهم، لكنه ﷺ أخرجهم من المدينة، وطردهم من ديارهم.

إن الصالحات، القابضات على الجمر، عفيفات مستورات، تموت إحداهن ولا تهتك سترها.

بل قد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، كانت دائمة الستر والعفاف، فلما حضرها الموت، فكرت في حالها وقد وضعت جثتها على النعش، وألقي عليها الكساء، فالتفتت إلى أسماء بنت عميس، وقالت يا أسماء: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه ليطرح على جسد المرأة الثوب فيصف حجم أعضائها لكل من رأى، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله، أنا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة، قالت: ماذا رأيت؟ فدعت أسماء بجريدة نخل رطبة فحنتها، حتى صارت مقوسة كالقبة، ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، تعرف بها المرأة من الرجل، فلما توفيت فاطمة، جعل لها مثل هودج العروس، هذا حرص فاطمة على الستر وهي جثة هامدة، فكيف لما كانت حية؟!

سبحان الله!!

أين أولئك الفتيات المسلمات، اللاتي نعلم أنهن يحببن الله ورسوله، وقلوبهن تشتاق إلى الجنة، ولكن مع ذلك تذهب إحداهن إلى المشغل النسائي فتكشف عورتها طائعة مختارة لتقوم امرأة أخرى بإزالة الشعر من أجزاء جسدها، وقد قال ﷺ فيما رواه الترمذي: «ما من امرأة تضع ثيابها، في غير بيت زوجها، إلا هتكت الستر بينها وبين ربها».

والنبي ﷺ قد قال فيما صح عند البيهقي: «شر نسائكم المتبرجات المتخيلات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم».

بل أين الفتيات المسلمات اللاتي نؤمل فيهن أن ينصرن الإسلام، ويبذلن أنفسهن وأرواحهن خدمة لهذا الدين، فنفاجأ بإحداهن قد لبست العباءة المطرزة، أو الكعب العالي، ثم ذهبت إلى سوق، أو حديقة، أو تلبس إحداهن البنطال، وتقول: لا يراني إلا إخوتي، أو أنا ألبسه بين النساء، وكل هذا لا يجوز، كما أفتى بذلك العلماء.

بل قد تزيد بعض النساء بأن لا تكتفي بعمل المعصية بل تجر غيرها من الفتيات إليها، فتنشر الصور المحرمة، أو أرقام الهواتف المشبوهة، أو المجلات المليئة بالعهر والفساد، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور:١٩).

إن تساهل المرأة بالتكشف والسفور، يؤدي إلى فساد حياتها، وأن تكون أحقر عند الناس من كل أحد.

سألت عددًا من الشباب، ممن يتتبعون الفتيات في الأسواق وعند بوابات المدارس، كيف تنظرون إلى الفتاة التي تستجيب لكم فقالوا لي جميعًا: والله إننا نحتقرها ونلعب بها وبعقلها، فإذا شبعنا منها ركلناها بأرجلنا، بل قال لي أحدهم: والله يا شيخ إني إذا ذهبت إلى السوق ورأيت فتاة عفيفة قد جمعت على نفسها ثيابها فإنها تكبر في عيني، ولا أجرؤ على الاقتراب منها، بل والله لو رأيت أحدًا يقترب منها لتشاجرت معه.

بل انظري إلى ما يحدث في البلاد التي يزعمون أن فيها حرية، فقد بلغت المرأة من التكشف والسفور، بل التفسخ والانحطاط، ما ندمت عليه، يغتصب يوميًا في أمريكا ألف وتسعمائة فتاة، عشرون في المائة منهن يغتصبن من قبل آبائهن!!

ويقتل سنويًا في أمريكا مليون طفل ما بين إجهاض متعمد أو قتل فور الولادة!! وبلغت نسبة الطلاق في أمريكا ستين في المائة من عدد الزيجات!! وفي بريطانيا مائة وسبعون شابة تحمل سفاحًا كل أسبوع!!

كم من امرأة هناك والله تتمنى ما أنت عليه من تستر وعفاف؟

بل إن النساء لما تكشفت هناك، انتشرت الفواحش، وكثرت السرقات وأنواع

الجرائم، والشيطان طالما استعمل بعض النساء لتحقيق الفساد في الأرض، ومن استغواها الشيطان، فأطاعته وقدمت شهوات نفسها، وتتبعت الموضات، في اللباس، والعباءة، والنمص، والوشم، والأغاني، والأفلام، والمجلات، وصارت هذه الشهوات أغلى عندها من اتباع شريعة ربها، فهي عاصية، وما خلقت النار إلا لتأديب العصاة.

أخرج مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ يومًا، فسمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟».. فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها». قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥-٦٨].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٨].

أما طعامهم فيها فشجرة الزقوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان:٤٣-٥٠].

أما حالهم في المحشر بين الناس فهم كما قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

هذا حال من عصت ربها، وأهملت آخرتها، حتى خفت موازينها، وتبرأ منها أبوها وأمها، ولم تنفعها صديقاتها، ولا أساورها ومجلاتها، وأهل النار، هم في النار لا ينامون ولا يموتون، يمشون على النار، ويجلسون على النار، ويشربون من صديد أهل النار، ويأكلون من زقوم النار، فرشهم نار، ولحفهم نار، وثيابهم نار، وتغشى وجوههم النار، قد ربطوا بسلاسل بأيدي الخزنة أطرافها، يجرونهم بها في النار، فيسيل صديدهم، ويرتفع صراخهم، ويلقى الجرب على جلودهم، فيحكون

جلودهم، حتى تبدو العظام، ولو أن رجلاً أدخل النار، ثم أخرج منها إلى الأرض، لمات أهل الأرض من نتن ريحه، وتشوه خلقه ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٨].

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩٤-١٠٤].

والقابضات على الجمر لا تعيش إحداهن لنفسها فقط، بل تحمل هم هذا الدين، ليس همّ إحداهن لباسها وحذاؤها، وتسريحة شعرها، وإنما همها الأكبر كيف تخدم هذا الدين، إذا رأت عاصية فكيف تنصحها، فتجدين أنها مباركة أينما كانت، تفيد النساء في مجالسهن، توزع عليهن الأشرطة النافعة، تنصح هذه، وتتودد إلى هذه، فهي أحسن الناس قولاً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

القابضات على الجمر هن نساء صالحات، تغض إحداهن بصرها عن النظر إلى الرجال، بل وتغض بصرها عن النظر إلى من قد تفتن بها من النساء، ومن تساهلت بالنظر الحرام، والخلوة المحرمة، جرها ذلك إلى كبيرة الزنا، أو السحاق عياذًا بالله ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وعند البخاري أن النبي ﷺ رأى رجالاً ونساء عراة في مكان ضيق مثل التنور، أسفله واسع وأعلاه ضيق، وهم يصيحون ويصرخون، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب صاحوا من شدة حره، قال ﷺ «فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة والزواني». فهذا عذابهم إلى يوم القيامة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، نسأل الله العفو والعافية.

ومن تساهلت بالمعصية الصغيرة جرتها إلى الكبيرة، وخشي عليها من سوء

الخاتمة، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النور:٢١].

ذكر ابن جرير في تفسيره: أن راهبًا من بني إسرائيل تعبد ستين سنة، وأن الشيطان أراد أن يغويه فلم يقدر عليه، فمرضت فتاة لها ثلاثة إخوة، فجاءوا بها إليه، وجعلوها في بيت قريب منه، ليأتي إليها ويداويها، فوسوس له الشيطان مرارًا، حتى خلا بها، فوقع عليها وحملت منه، فقال له الشيطان: الآن يعلم إخوتها، فيفضحونك، فاقتلها، وقل لهم: ماتت فصليت عليها ودفنتها، فعمد إليها فقتلها ودفنها، فلم يلبث إخوتها أن علموا به، فاشتكوا إلى ملكهم فأمر بصلبه وقتله، فلما ربط ليقتل، أتاه الشيطان، وقال له: أنا صاحبك الذي وسوست لك حتى أوقعتك، فاسجد لي سجدة واحدة، وأخلصك مما أنت فيه، فخر له الراهب ساجدًا، فلما سجد له، قال له الشيطان.

إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٦، ١٧].

واعلمي أن المؤمنات إذا ذكرن تذكرن.

ذكر ابن قدامة في كتابه التوابين: أن قومًا فساقًا، أمروا امرأة ذات جمال أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها، فراعه أمرها فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو قد ساء بك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة، وبكت، ثم تولت إلى بيتها، وتعبدت، حتى ماتت.

وذكر العجلي في تاريخه: أن امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترى يرى أحد هذا الوجه ولا يفتتن به؟! قال: نعم، قالت: من؟! قال: عبيد بن عمير العابد الزاهد في الحرم، قالت: أرأيت إن فتنته، وأكشف وجهي عنده، قال: قد أذنت لك، فأتته كالمستفتية فخلا معها في

ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله، غطي وجهك واتق الله، فقالت: إني قد فتنت بك، فقال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقت، نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة، قالت: اللهم لا، قال: فلو أدخلت في قبرك فأجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو أردت المرور على الصراط ولا تدرين تنجين أم لا، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة، قالت: اللهم لا، قال: فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة، كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: فاتقي الله يا أمة الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال، ونحن بطالون، الناس يتعبدون ويستعدون للآخرة، وأنا وأنت على هذا الحال، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، حتى ماتت.

وختامًا: أيتها الجوهرة المكنونة، والدرة المصونة، يا مربية الأجيال، وصانعة الرجال، هذه وصايا استخرجتها لك من مكنون نصحي، سكبت فيها روحي، وصدقتك فيها النصح والتوجيه، أسأل الله تعالى أن يحفظك ويحميك من كل سوء، وأن يجعلك مباركة في نفسك وأهلك وولدك، اللهم وفق ولي أمرنا لما تحب وترضى.

❊ ❊ ❊

ذكريات تائب

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، الحمد لله الذي يقول للشيء كن فيكون، وبرحمته نجى موسى وقومه من فرعون، الحمد لله الذي كان نعم المجيب لنوح لما دعاه، وبرحمته كشف الضر عن يونس إذ ناداه، وسبحان من كشف الضر عن أيوب، ورد يوسف بعد طول غياب إلى يعقوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه ما ذكره الذاكرون الأبرار، وما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد: فهذه ذكريات، ومشاعر وهمسات، أفضى بها التائبون، واعتبر بها المذنبون، نعم، هي ذكريات، اعترف بها كهول هدمهم مر السنوات، وشباب لعبت بهم الشهوات، وفتيات ولغن في الملذات، هي ذكريات، مرت وانقضت، وانتهت ونسيت، لكنها سجلت وكتبت، وأحصيت وعدت.

نعم، هذه ذكريات تائب، واعترافات منيب وراغب، في زمن كثرت فيه المغريات، وتنوعت الشهوات، وزلت بكثير من الناس الأقدام، فقارفوا المعاصي والآثام، فضعف إيمانهم، وقوي عليهم شيطانهم، إنها ذكريات، لمن يؤمن بقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الحجر:٤٩» كما يؤمن بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ «الحجر:٥٠».

هذه أخبار أقوام أخبر ربهم أنه يفرح بتوبة التائبين إليه، مع غناه عنهم، وشدة حاجتهم إليه، وكيف لا يفرح بتوبتهم، وقد ناداهم بقوله: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم.

وناداهم نبيهم بقوله: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

ومن فرح الله بالتائبين إليه أنه لا يغفر سيئاتهم فقط، كلا، بل يبدل سيئاتهم

حسنات، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧١].

وفي البخاري: أن حكيم بن حزام ؓ أقبل على رسول الله ﷺ فقال: أي رسول الله، أرأيت أمورًا كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صدقة أو عتاقة، أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير».

الله أكبر، الذنوب تغفر، والسيئات تبدل حسنات، والحسنات أيام الجاهلية تثبت لصاحبها بعد التوبة، فماذا بقي.

هو التواب الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، لكن رحمته قريبة من المحسنين، الراجعين التائبين، الذين إذا أذنبوا استغفروا، وإذا ذُكروا ذَكروا، فليست المشكلة في وقوع الذنب، لكن المشكلة الكبرى، والداهية العظمى، هي أن يألف الذنب، ثم يتساهل به، فلا يحدث منه توبة، والله رحيم بعباده، رحمته أسرع من غضبه، ومغفرته أعجل من عقوبته، هو والله أرحم بعباده، من آبائهم وأمهاتهم.

في الصحيحين: أن النبي ﷺ لما انتهى من حرب هوازن، أتي إليه بعد المعركة، بأطفال الكفار ونسائهم، ثم جمعوا في مكان، فالتفت النبي ﷺ إليهم، فإذا امرأة من السبي، أم ثكلى، تجر خطاها، تبحث عن ولدها، وفلذة كبدها، قد اضطرب أمرها، وطار صوابها، واشتد مصابها، تطوف على الأطفال الرضع، تنظر في وجوههم، يكاد ثديها يتفجر من احتباس اللبن فيه، تتمنى لو أن طفلها بين يديها، تضمه ضمة، وتشمه شمة، ولو كلفها ذلك حياتها، فبينما هي على ذلك، إذ وجدت ولدها، فلما رأته جف دمعها، وعاد صوابها، ثم انكبت عليه، وانطرحت بين يديه، وقد رحمت جوعه وتعبه، وبكاءه ونصبه، أخذت تضمه وتقبله، ثم ألصقته بصدرها، وألقمته ثديها، فنظر الرحيم الشفيق إليه، وقد أضناها التعب، وعظم النصب، وقد طال شوقها إلى ولدها، واشتد مصابه ومصابها، فلما رأى ذلها، وانكسارها، وفجيعتها بولدها، التفت إلى أصحابه ثم قال: «أترون هذه طارحة ولدها في النار». يعني لو أشعلنا نارًا وأمرناها أن تطرح ولدها فيها، أترون أنها ترضى، فعجب

الصحابة الكرام: كيف تطرحه في النار، وهو فلذة كبدها، وعصارة قلبها، كيف تطرحه، وهي تلثمه، وتقبله، وتغسل وجهه بدموعها، كيف تطرحه، وهي الأم الرحيمة، والوالدة الشفيقة، قالوا: لا، والله يا رسول الله، لا تطرحه في النار، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «والله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

نعم، ربنا أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا، ومن سعة رحمته، أنه عرض التوبة على كل أحد، مهما أشرك العبد وكفر، أو طغى وتجبر، فإن الرحمة معروضة عليه، وباب التوبة مشرع بين يديه، وانظر إلى ذاك الشيخ الهرم، الذي كبر سنه، وانحنى ظهره، ورق عظمه، أقبل على رسول الله ﷺ، وهو جالس بين أصحابه يومًا، يجر خطاه، وقد سقط حاجباه على عينيه، وهو يدعم على عصا، جاء يمشي، حتى قام بين يدي النبي ﷺ، فقال بصوت تصارعه الآلام: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة، ولا داجة، أي صغيرة ولا كبيرة، إلا أتاها، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم، فهل لذلك من توبة؟ فرفع النبي ﷺ بصره إليه، فإذا شيخ قد انحنى ظهره، واضطرب أمره، قد هده مر السنين والأعوام، وأهلكته الشهوات والآلام، فقال له ﷺ: «فهل أسلمت؟». قال: أما أنا، فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال ﷺ: «تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن». فقال الشيخ: وغدراتي، وفجراتي؟ فقال: «نعم». فصاح الشيخ: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى عنهم. الحديث: رواه الطبراني والبزار، وقال المنذري، إسناده جيد قوي، وقال ابن حجر: هو على شرط الصحيح.

وذكر ابن قدامة في التوابين: أن بني إسرائيل أصابهم قحط على عهد موسى ﷺ، فاجتمع الناس إليه، فقالوا: يا كليم الله، ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث، فقام معهم، وخرجوا إلى الصحراء، وهم سبعون ألفًا أو يزيدون، اجتمعوا بين يديه، وقاموا يدعون، وهم شعث غبر، عطاش جوعى، وقام كليم الله يدعو: إلهي، اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع، والبهائم الرتع، والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشعًا، والشمس إلا حرارة، فقال موسى: إلهي، اسقنا، فقال الله: كيف أسقيكم وفيكم عبد يبارزني بالمعاصي منذ أربعين سنة، فناد في

الناس حتى يخرج من بين أظهركم، فبه منعتكم، فصاح موسى في قومه: يا أيها العبد العاصي، الذي يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرج من بين أظهرنا، فبك منعنا المطر، فنظر العبد العاصي، ذات اليمين وذات الشمال، فلم ير أحدًا خرج، فعلم أنه المطلوب، فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق، افتضحت على رءوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم منعوا المطر بسببي، فانكسرت نفسه، ودمعت عينه، فأدخل رأسه في ثيابه، نادمًا على فعاله، وقال: إلهي، وسيدي، عصيتك أربعين سنة، وسترتني وأمهلتني، وقد أتيتك طائعًا فاقبلني، وأخذ يبتهل إلى خالقه، فلم يستتم الكلام، حتى ارتفعت سحابة بيضاء، فأمطرت كأفواه القرب، فعجب موسى وقال: إلهي، سقيتنا، وما خرج من بين أظهرنا أحد، فقال الله: يا موسى سقيتكم بالذي به منعتكم، فقال موسى: إلهي، أرني هذا العبد الطائع، فقال: يا موسى، إني لم أفضحه وهو يعصيني، أأفضحه وهو يطيعني.

نعم، غفر الله له، ولماذا لا يغفر له العزيز الرحيم وهو الذي قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٥٣-٦١]. وصح عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».

نعم يأتيه بقراب الأرض مغفرة.

ومن رحمة الله تعالى، أنه يرى عبده يعصيه، فلا يعاجله بالعقوبة، بل قد يبتلا بالأمراض والأسقام، والمصائب والآلام، ليرده إليه، ويطرحه بين يديه، فيقرع أبواب السماء بأنواع الدعاء، طالبًا كشف الضر ورفع البلاء، والعبد كلما كان خائفًا توابًا، منيبًا لربه أوابًا، كانت رحمة الله أقرب إليه، وفضل الله أوسع عليه، يستجيب الله دعاءه، ويكشف عنه بلاءه.

وقد روى الترمذي أن النبي ﷺ قال: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

التائبون، هم من أحب الخلق إلى الله، والله أخبر أنه يحب التوابين، لكنه يبغض المعتدين الظالمين، وكم من عاص يمسي ويصبح ضاحكًا، وربه من فوقه يلعنه، والملائكة تبغضه، والصالحون يدعون عليه، والنار تشتاق إليه، أتم الله له سمعه وبصره، وسلم له عقله وفكره، فبارز ربه بالعصيان، وصار من أنصار الشيطان، يعصي ولا يتوب، ويتتبع الشهوات والذنوب.

عجبًا، ينعم الله عليك وتعصيه بنعمه، هب أنك كنت مشلولاً مقعدًا، أو مريضًا مجهدًا، أو مسلوب السمع والبصر، فكيف يكون حالك؟!

دخلت على مريض في المستشفى، فلما أقبلت إليه، فإذا رجل قد بلغ من العمر أربعين سنة، من أنضر الناس وجهًا، وأحسنهم قوامًا، لكن جسده كله مشلول لا يتحرك منه ذرة، إلا رأسه وبعض رقبته، دخلت غرفته، فإذا جرس الهاتف يرن، فصاح بي وقال: يا شيخ أدرك الهاتف قبل أن ينقطع الاتصال، فرفعت سماعة الهاتف ثم قربتها إلى أذنه ووضعت مخدة تمسكها، وانتظرت قليلاً حتى أنهى مكالمته، ثم قال: يا شيخ، أرجع السماعة مكانها، فأرجعتها مكانها، ثم سألته: منذ متى وأنت على هذا الحال؟ فقال: منذ عشرين سنة، وأنا أسير على هذا السرير.

وحدثني أحد الفضلاء أنه مر بغرفة في المستشفى، فإذا فيها مريض يصيح بأعلى صوته، ويئن أنينًا يقطع القلوب، قال صاحبي: فدخلت عليه، فإذا هو جسده مشلول كله، وهو يحاول الالتفات فلا يستطيع، فسألت الممرض عن سبب صياحه، فقال: هذا مصاب بشلل تام، وتلف في الأمعاء، وبعد كل وجبة غداء أو عشاء، يصيبه عسر هضم، فقلت له: لا تطعموه طعامًا ثقيلاً، جنبوه أكل اللحم، والرز، فقال

الممرض: أتدري ماذا نطعمه، والله لا ندخل إلى بطنه إلا الحليب من خلال الأنابيب الموصلة بأنفه، وكل هذه الآلام، ليهضم هذا الحليب.

وحدثني ثالث أنه مر بغرفة مريض مشلول أيضًا، لا يتحرك منه شيء أبدًا، قال: فإذا المريض يصيح بالمارين، فدخلت عليه، فرأيت أمامه لوح خشب عليه مصحف مفتوح، وهذا المريض منذ ساعات، كلما انتهى من قراءة الصفحتين أعادهما، فإذا فرغ منهما أعادهما، لأنه لا يستطيع أن يتحرك ليقلب الصفحة، ولم يجد أحدًا يساعده، فلما وقفت أمامه، قال لي: لو سمحت، اقلب الصفحة، فقلبتها، فتهلل وجهه، ثم وجه نظره إلى المصحف وأخذ يقرأ، فانفجرت باكيًا بين يديه، متعجبًا من حرصه وغفلتنا، وشدة مرضه وحسن صحتنا.

هذا حال أولئك المرضى، فأنت يا سليمًا من الأمراض والأسقام، يا معافى من الأدواء والأورام، يا من تنقلب في النعم، ولا تخشى النقم، ماذا فعل الله بك فقابلته بالعصيان، بأي شيء آذاك، أليست نعمه عليك تترى، وأفضاله عليك لا تحصى؟ أما تخاف أن توقف بين يدي الله غدًا فيقول لك: يا عبدي ألم أصح لك في بدنك، وأوسع عليك في رزقك، وأسلم لك سمعك وبصرك، فتقول بلى، فيسألك الجبار: فلم عصيتني بنعمي، وتعرضت لغضبي ونقمي، فعندها تنشر في الملأ عيوبك، وتعرض عليك ذنوبك، فتبًا للذنوب، ما أشد شؤمها، وأعظم خطرها، أولها عناء، وأوسطها بلاء، وآخرها فناء، وهل أخرج أبانا من الجنة إلا ذنب من الذنوب، وهل أغرق قوم نوح إلا الذنوب، وهل أهلك عادًا وثمود إلا الذنوب، وهل قلب على قوم لوط ديارهم، وعجل لقوم شعيب عذابهم، وأمطر على أبرهة حجارة من سجيل، وأنزل بفرعون العذاب الوبيل، إلا المعاصي والذنوب، قال الله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت: ٤٠].

ولا تعجب، إذا عذبت بذنبك في الدنيا، فمرضت في بدنك، أو ابتليت في ولدك..

أو خسرت في تجارتك، أو ضاق عليك رزقك، أو كثر عليك البلاء، ولم يستجب منك الدعاء، فتتابعت عليك المصائب، وأحاطت بك المتاعب، قال الله:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١]، **فبادر إلى التوبة من ذنوبك.**

واندب زمانًا سلفًا سودت فيه الصحاف ... ولم تـزل معتكفًا على القبيح الشنع
كـم ليلـة أودعتهـا مآثمًـا أبـدعتها ... لـشهوة أطعتهـا في مرقـد ومـضجع
وكم خطى حثثتها في خزية أحـدثتها ... وتوبـة نكثتهـا لملعـب ومرتـع
وكم تجرأت على رب السماوات العلى ... ولم تراقبـه ولا صـدقت فيمـا تـدعي
فالبس شعار الندم واسكب شآبيب الدم ... قبـل زوال القـدم وقبـل سـوء المـصرع
واخضع خضوع المعترف ولذ ملاذ المقترف ... واعص هواك وانحرف عنه انحراف المقلع
فيا خسـار مـن بغـى ومن تعدى وطغى ... وشـب نيـران الـوغـى لمطعم أو مطمع

ولقد كان الصالحون، يصبرون أنفسهم على الطاعات، وينهونها عن المحرمات، ويجعلون موعد الراحة الجنات.

نعم، يستطيعون أن يزنوا، أتظنهم عاجزين عن ذلك؟ ويستطيعون أن يمتعوا أعينهم بالنظر إلى المحرمات، وأسماعهم بسماع الأغنيات، ويكثروا أموالهم بالربا، يستطيعون ذلك كله، فما الذي يمنعهم؟! نعم ما الذي يمنعهم؟! إنهم يخشون أن يتجرعوا من الحميم، ويقاسوا العذاب الأليم، يخشون من يوم تزيغ فيه الأبصار، ويشتد غضب الجبار، يخافون يومًا كان شره مستطيرًا.

كان الإمام أحمد بن حنبل يكثر على نفسه التعبد، والصلاة والقيام، فقال له ابنه عبد الله يومًا: يا أبت، متى ترتاح؟! فقال أبو عبد الله: أرتاح، إذا وضعت أولى قدمي في الجنة.

فـاجمع قـواك لمـا هنـاك وغمـض ... العيـنين واصـبر سـاعة لزمـان
مـا هـا هنـا والله مـا يـسوى قـلا ... مـة ظفـر واحـدة تـرى بجنـان
يـا غـافلاً عمـا خلقـت لـه انتبـه ... جـد الرحيـل فلـست باليقظـان
سـار الرفـاق وخلفـوك مـع الأولى ... قنعـوا بـذا الحـظ الخـسيس الفـاني
ورأيـت أكثـر مـن تـرى متخلفًـا ... فتبعـتهم ورضـيت بالحرمـان
والله لا يرضـى بهـذا تائـب ... ذو همـة طلبًـا لهـذا الـشان

والله مـا ينجـي الفتـى مـن ربـه شـيء سـوى التقـوى مـع الإيمـان
ولسـوف تعلـم حـين ينكشـف الـ ـغطـا مـاذا صنعت وكنت ذا إمكان

وعلى التائب أن يصبر على ما قد يصيبه بعد التوبة من بلاء، أو سخرية واستهزاء، ويتحمل ذلك في ذات الله، فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة، ولا يغتر بكثرة الواقعين في المعاصي، ولا يلتفت إلى الهالكين في الشهوات ممن استغواهم الشيطان، فأصبح أكبر هم أحدهم شهوة فرجه، أو فمه وبطنه، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

أما الحياة بعد التوبة، فهي الحياة التي خلقت لأجلها، وأوجدك الله لها، فأي لذة للحياة، إذا كنت تشعر في كل لحظة منها أنك عدو لله، متتبع للشهوات، واقع في المحرمات، وربك الذي يطعمك ويسقيك، وإذا مرضت فهو يشفيك، وهو الذي يميتك ثم يحييك، بل كل شعرة من شعراتك، وذرة من ذراتك، لا تتحرك إلا بإذنه..

ومن صدق الله في توبته تحول بعدها إلى جندي من جنود هذا الدين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحمل هم الإسلام، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يبسط أحدهم يده فيبايع محمدًا ﷺ، ثم يستشعر أنه بهذه البيعة أصبح جنديًا يعمل لهذا الدين.

ذكر ابن إسحاق - وأصل القصة في البخاري - أن النبي ﷺ، لما تمكن في المدينة، بدأ يبعث أصحابه إلى ما حوله من القرى والوديان، يدعون الناس إلى الإسلام، فبعث أحد الصحابة إلى وادي نعمان قرب الطائف، فلما وصل ذلك الصحابي إليهم، فإذا أعراب في بواديهم، لا يعقلون من الحياة إلا إبلهم وغنمهم، فدعاهم إلى الله، وأبان لهم الدين، فأعرضوا، فانطلق رجل منهم إلى المدينة، لينظر في خبر هذا النبي، انطلق الرجل على ناقته، حتى وصل إلى المدينة، ثم دخلها، وأقبل يصيح بين الناس: أين ابن عبد المطلب، أين ابن عبد المطلب، فدله رجل على المسجد، فتوجه إليه، فبينما رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه يومًا، إذ أقبل الأعرابي الجلد، وقد جعل شعره جديلتين، فأناخ بعيره على باب المسجد، فعقله،

ثم دخل المسجد، وقال وصاح بالناس: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب». فقال: محمد؟ فقال: «نعم». فقال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك، ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجدن في نفسك علي، فقال ﷺ: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك». فقال: من رفع السماء؟ قال: «الله». قال: فمن بسط الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب الجبال؟ قال: «الله». قال: فأسألك بالذي رفع السماء، وبسط الأرض، ونصب الجبال، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم». قال: فأنشدك الله، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللهم نعم». ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة، فريضة: آلله أمرك أن نصلي خمس صلوات؟ آلله أمرك أن نزكي أموالنا؟ آلله أمرك أن نصوم؟ ويعدد فرائض الإسلام، والنبي ﷺ يقول: «اللهم نعم». حتى إذا فرغ قال: فأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني بكر بن سعد، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف خارجًا من المسجد، راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة». ثم أتى بعيره، فأطلق عقاله، وانطلق عليه حتى قدم على قومه، فاجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص، والجنون، والجذام، قال: ويلكم، إنهما ما يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فما زال بقومه، يدعوهم، ويستنقذهم من النار، حتى ما غابت الشمس ذلك اليوم، وفي قومه أحد كافر.

فهل نجد عند التائبين اليوم مثل هذا الحماس، في نشر الدين، ومناصرة المؤمنين، كم من تائب كان في جاهليته رأسًا في المنكرات، والدعوة إلى الشهوات، لكنه بعد توبته، وصلاحه واستقامته، أصبح ذيلاً بعد أن كان رأسًا، راجلاً بعد أن كان فارسًا، عجبًا!! جبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟!! لا ينفع الإسلام ولا المسلمين، لا في دعوة، ولا إصلاح، ولا تعليم جاهل، أو نصح غافل.

ومن عظم قدر ربه في قلبه، حاسب نفسه أشد المحاسبة، وعاتبها أعظم المعاتبة.

قال زيد بن أرقم: كان لأبي بكر الصديق مملوك، يعمل، ويشتري طعامًا كل يوم، فأتاه ليلة بطعام، فتناول أبو بكر منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة عن الطعام، ولم تسألني الليلة، قال: حملني على ذلك الجوع، فمن أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية، فتكهنت لهم، ولا أحسن كهانة، فوعدوني بأجرة، فلما أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم، فأعطوني هذا الطعام، فقال أبو بكر: أف لك، كدت تهلكني، فأدخل يده في حلقه، فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست ماء فجعل يشرب، ويتقيأ، حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله!! كل هذا من أجل هذه اللقمة؟!! فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به». فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

أما شهيد المحراب، العابد الأواب، عمر بن الخطاب، فله في محاسبة النفس شأن عجيب.

ذكر صاحب الحلية: أن عمر بعث إليه أميره في الشام زيتًا في قرب، ليبيعه ويجعل المال في بيت مال المسلمين، فجعل عمر يفرغه للناس في آنيتهم، وكان كلما فرغت قربة من قرب الزيت، قلبها ثم عصرها وألقاها بجانبه، وكان بجواره ابن صغير له، فكان الصغير كلما ألقى أبوه قربة من القرب أخذها ثم قلبها فوق رأسه حتى يقطر منها قطرة أو قطرتان، ففعل ذلك بأربع قرب أو خمس فالتفت إليه عمر فجأة، فإذا شعر الصغير حسن، ووجهه حسن، فقال: أدهنت؟ قال: نعم، قال: من أين؟ قال: مما يبقى في هذه القرب، فقال عمر: إني أرى رأسك قد شبع من زيت المسلمين من غير عوض، لا والله لا يحاسبني الله على ذلك، ثم جره بيده إلى الحلاق وحلق رأسه، خوفا من قطرة وقطرتين.

هذا حال المتقين، الأوابين الخاشعين، أما المتهالكون في الشهوات، فهم في شقوة في حياتهم، وحسرة عند مماتهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣].

حدثني أحد الأطباء، قال: دخلت إلى غرفة العناية المركزة في المستشفى، ولفت انتباهي شاب في الخامسة والعشرين من عمره مصاب بمرض (الإيدز)، حالته خطرة جدًا، كلمته برفق فأجاب بكلمات غير مفهومة، اتصلت بأهله، فحضرت أمه، سألتها عن حال ابنها؟ فقالت: كان حاله على ما يرام، حتى عرف تلك الفتاة، قلت: هل كان يصلي؟ قالت: لا، لكنه كان ينوي أن يتوب ويحج في آخر عمره، اقتربت من الفتى المسكين، فإذا هو يعالج سكرات الموت، اقتربت من أذنه وقلت: لا إله إلا الله، قل: لا إله إلا الله، بدأ يفيق وينظر إلي، المسكين يحاول بكل جوارحه، الدموع تسيل من عينيه، ووجهه يتغير إلى السواد، وأنا أردد قل: لا إله إلا الله، بدأ يتكلم بصوت متقطع: آه، آه، ألم شديد، آه، أريد مسكنًا للألم، آه، آه، بدأت أدافع عبراتي وأقول: قل: لا إله إلا الله، بدأ يحرك شفتيه بصعوبة، فرحت، سينطقها الآن، لكنه قال: لا أستطيع، لا أستطيع، أريد صديقتي، لا أستطيع، الأم تنظر وتبكي، النبض يتناقص، يتلاشى، لم أتمالك نفسي، أخذت أبكي بحرقة، أمسكت بيده، عاودت المحاولة: أرجوك قل لا إله إلا الله، وهو يردد: لا أستطيع، لا أستطيع، ثم بدأ يشهق، ويشهق، توقف النبض، انقلب وجه الفتى أسود، ثم مات، انهارت الأم، وارتمت على صدره، تصرخ، وتصرخ، وأنى ينفعه صراخها، أو حزنها ونحيبها.

نعم، قد مضى الفتى إلى ربه، لم تنفعه شهواته، ولا ملذاته، طالما اغتر بشبابه، وجمال سيارته وثيابه، ثم هو اليوم تجالسه في قبره أعماله، وتحيط به أفعاله، ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

قارن حال هذا الشاب، بذلك الشاب، الذي بلغ من عمره ستة عشر عامًا، كان في المسجد يتلو القرآن، وينتظر إقامة صلاة الفجر، فلما أقيمت الصلاة، رد المصحف إلى مكانه، ثم نهض ليقف في الصف، فإذا به يقع على الأرض فجأة مغمى عليه، حمله بعض المصلين إلى المستشفى، فحدثني الدكتور الجبير الذي عاين حالته، قال: أتي إلينا بهذا الشاب محمولاً كالجنازة، فلما كشفت عليه فإذا هو مصاب بجلطة في القلب، لو أصيب بها جمل لأردته ميتًا، نظرت إلى الشاب فإذا هو يصارع الموت، ويودع أنفاس الحياة، سارعنا إلى نجدته، وتنشيط قلبه، أوقفت عنده

طبيب الإسعاف يراقب حالته، وذهبت لإحضار بعض الأجهزة لمعالجته، فلما أقبلت إليه مسرعًا، فإذا الشاب متعلق بيد طبيب الإسعاف، والطبيب قد ألصق أذنه بفم الشاب، والشاب يهمس في أذنه بكلمات فوقفت أنظر إليهما، لحظات وفجأة أطلق الشاب يد الطبيب، وحاول جاهدًا أن يلتفت لجانبه الأيمن، ثم قال بلسان ثقيل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأخذ يكررها، ونبضه يتلاشى، وضربات القلب تختفي ونحن نحاول إنقاذه ولكن قضاء الله كان أقوى ومات الشاب، عندها انفجر طبيب الإسعاف باكيًا حتى لم يستطع الوقوف على قدميه، فعجبنا وقلنا له: يا فلان، ما لك تبكي؟! ليست هذه أول مرة ترى فيها ميتًا، لكن الطبيب استمر في بكائه ونحيبه، فلما خف عنه البكاء سألناه: ماذا كان يقول لك الفتى؟ فقال: لما رآك يا دكتور، تذهب وتجيء، وتأمر وتنهى علم أنك الطبيب المختص به، فقال لي: يا دكتور، قل لصاحبك طبيب القلب لا يتعب نفسه لا يتعب أنا ميت لا محالة، والله إني أرى مقعدي من الجنة الآن.

الله أكبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

أسأل الله أن يختم لنا جميعًا بالصالحات.

هذا هو الفرق بين المطيع والعاصي، والفرق الحقيقي يتبين ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٤-٤٢].

أما الذين صبروا أنفسهم عن الشهوات، ومنعوها من المحرمات، فقد وعدهم ربهم بجنات تجري من تحتها الأنهار، تلك الجنة التي جعلها الله لعباده المؤمنين نزلاً، وأودعها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فواعجبًا لها كيف نام طالبها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟

فيهـا الـذي والله لا عـين رأت ... كـلا ولا سمعـت بـه الأذنـان
كـلا ولا قلـب بـه خطـر المثـا ... ل لـه تعـالى الله ذو السلطان
وبناؤهـا اللبنـات مـن ذهـب ... وأخـرى فـضة نوعـان مختلفـان

وقصورها من لؤلؤ وزبرجد أو فضة أو خالص العقيان
حصباؤها در وياقوت كذا ك لآلئ نشرت كنثر جمان
وترابها من زعفران أو من المسـ ـك الذي ما استل من غزلان
سكانها أهل القيام مع الصيا م وطيب الكلمات والإحسان
وخيامها منصوبة برياضها وشواطئ الأنهار ذي الجريان
أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاءوا مفـ ـجرة وما للنهر من نقصان
عسل مصفى ثم خمـ ـر ثم أنهار من الألبان
وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ولحوم طير ناعم وسمان
لحم وخمر والنسا وفواكه والطيب مع روح ومع ريحان
وصحافهم ذهب يطوف عليهم بأكف خدام من الولدان
لهم حياة ما بها موت وعافية بلا سقم ولا أحزان

وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب».

نعم، هذا الرجل الذي ذاق من الدنيا أعظم نعمتها، ومن الحياة غاية لذتها، أنساه كل نعيم الدنيا غمسة واحدة في النار، فكيف به إذا تردى في دركاتها، وصارع حياتها، وتجرع من زقومها، وغرق في حميمها.

بل كيف به إذا استغاث فيها فقيل له: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، بالله عليك، هل يذكر في تلك الحال فاحشة ارتكبها؟ أو أغنية سمعها؟ أو خمرًا شربها؟ أو أموالاً جمعها؟

كلا، بل يقال لهم: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

قال ﷺ: «ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا، من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

نعم، أنساه كل بؤس الدنيا، غمسة واحدة غمسها في الجنة، فكيف به إذا شرب من أنهارها، وتقلب في أحضان حورها، وسكن في قصورها، وجالس أنبياءها، بل كيف به إذا نظر إليه ربه وهو فيها، ثم قال لهم: يا أهل الجنة، هل رضيتم، ثم ينظرون إلى وجه ربهم جل جلاله، هل يذكر شدة طاعة أداها، أو حسرة شهوة تركها، كلا، بل هو في نعيم دائم، لا يفنى شبابه، ولا تبلى ثيابه، قال الله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

نعم.. ولدينا مزيد.

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة».

بالله..

ما عذر امرئ هو مؤمن	حقًّا بهذا ليس باليقظان
تالله لو شاقتك جنات النعيـ	ـم طلبتها بنفائس الأثمان
جليت عليك عرائس والله لو	تجلى على صخر من الصوان
رقت حواشيه وعاد لوقته	ينهال مثل نقى من الكثبان

أسأل الله تعالى أن يرزقنا التوبة والإنابة في الأمور كلها.

وقبل الختام، هنا أربع مسائل مهمة تتعلق بالتوبة:

* المسألة الأولى:

أن المعاصي التي تجب التوبة منها تتفاوت، فأكبرها وأعظمها: الشرك بالله، كمن يدعو غير الله في قضاء الحاجات، ويستغيث بالأولياء في كشف الكربات، أو يقف عند القبور سائلاً أهلها الحاجات، والله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

ومن الشرك: تعليق التمائم الشركية، في الأجساد أو على الأولاد، أو في السيارات والبيوت، لدفع العين أو غيرها. قال ﷺ فيما رواه أحمد: «من علق تميمة فقد أشرك».

ومن الشرك: الحلف بغير الله تعالى، فلا يجوز الحلف بالكعبة، ولا بالأمانة، ولا بالشرف، ولا ببركة فلان، ولا بحياة فلان، ولا بجاه النبي، ولا بجاه الولي، ولا بالآباء والأمهات، كل ذلك حرام.

وقد روى أحمد أنه ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك». ومن جرى على لسانه شيء من هذا بغير قصد، فكفارته أن يقول: لا إله إلا الله، كما روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله».

ومن أكبر الذنوب: استعمال السحر والكهانة والعرافة، أما السحر فإنه من أكبر الكبائر، وقد يصل إلى حد الكفر، ولا يجوز الذهاب إلى السحرة، قال ﷺ كما في المسند: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». وقال فيما رواه مسلم: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

ومن ذلك: اللجوء إلى أبراج الحظ في الجرائد والمجلات، أو الاتصال هاتفيًا على بعض من يدعي معرفة الغيب، أو سؤالهم، كل ذلك حرام.

ومن أكبر الذنوب بل من الكفر: ترك الصلاة، قال ﷺ فيما رواه مسلم: «بين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة». وإذا حكمنا على تارك الصلاة بالكفر، فهذا يقتضي أنه تنطبق عليه أحكام المرتدين، فلا يصح أن يزوج، فإن عقد له وهو لا يصلي فالنكاح باطل، وإذا ترك الصلاة بعد أن عقد له فإن نكاحه ينفسخ ولا تحل له الزوجة، وإذا ذبح لا تؤكل ذبيحته لأنها حرام، ولا يدخل مكة، ولو مات أحد من أقاربه فلا حق له في الميراث، وإذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين، ويحشر يوم القيامة مع الكفار، ولا يدخل الجنة، ولا يحل لأهله أن يدعوا له بالرحمة والمغفرة لأنه كافر.

ومن أكبر المعاصي: الزنا، وهو أعظم الذنوب بعد الشرك والقتل، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وفي عصرنا فتحت كثير من أبواب الفاحشة، ففشا التبرج والاختلاط ومجلات الخنا، وأفلام الفحش، فنسألك اللهم رحمتك ولطفك، وسترك وعصمة من عندك،

طهر قلوبنا، وحصن فروجنا، واجعل بيننا وبين الحرام برزخًا، وحجرًا محجورًا.

ومن المعاصي: أكل أموال الناس، أو أكل الربا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨، ٢٧٩]، وهذا كاف في بيان شناعة هذه الجريمة عند الله ﷻ.

وقال ﷺ فيما رواه مسلم: «لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء».

وصح في مستدرك الحاكم أنه ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابًا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

وصح في مسند الإمام أحمد: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨].

ومن المعاصي: شرب المسكرات، أو تعاطي المخدرات:

قال ﷺ كما عند مسلم: «إن على الله ﷻ عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال». قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: «عرق أهل النار أو عصارة أهل النار».

وصح عند الطبراني أنه ﷺ قال: «من مات مدمن خمر لقي الله وهو كعابد وثن».

وقد تنوعت المسكرات، وتعددت أسماؤها، فأطلقوا عليها البيرة والعرق والشمبانيا، وغير ذلك.

ومن المعاصي: سماع الغناء:

وقد قال ﷺ كما عند البخاري معلقًا: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف».

وصح عند الترمذي أنه ﷺ قال: «ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ، وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف».

ومما زاد البلاء في عصرنا دخول الموسيقى في أشياء كثيرة كالساعات، والأجراس، وألعاب الأطفال، والكمبيوتر، وأجهزة الهاتف، والله المستعان.

وغير ذلك من المعاصي، ويجب نصيحة أهلها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

* المسألة الثانية:

أن بعض الناس إذا أراد أن يتوب من معصية سماع الحرام مثلًا قال له الشيطان: لا يصح أن تتوب منها وأنت مقيم على معصية التدخين، أو التساهل بالصلاة، فإما أن تتوب منها كلها، أو لا تتعب نفسك.

وهذا باطل، فإن لكل ذنب توبة، فيمكن أن تقبل التوبة من الزنا، مع وجود معاصٍ أخرى، ولكن عليه أن يجتهد في التوبة من الذنوب كلها.

واعلم أن الوقوع في الذنب مرة أخرى بعد التوبة منه، لا يعني أن التوبة بطلت وأن العبد ييئس ويعود إلى المعاصي، لا، بل يسارع إلى توبة أخرى.

وصح في السنن أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

* المسألة الثالثة:

شروط التوبة خمسة:

أولها: الإقلاع عن الذنب فورًا.

وثانيها: الندم على ما فات.

وثالثها: العزم على عدم العودة.

ورابعها: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم.

أما الخامس فهو: أن تكون التوبة في وقت المهلة، فلا تقبل عند الموت، ولا تأمن متى ينزل بك، ولا تقبل عند طلوع الشمس من مغربها.

* المسألة الأخيرة:

من أهم عوامل الثبات على التوبة: مفارقة مكان المنكر، بل ومفارقة الأصحاب الذين يذكرونك به، أو يدعونك إليه.

وفي الصحيحين قصة ذلك الرجل، الذي تلطخ بالدماء، وقتل الأبرياء، حتى قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم بدا له أن يتوب، فشك هل يقبل الله توبته، وهو الذي يتم الأطفال، ورمل النساء، ومزق البيوت، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عابد راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فرفع الراهب بصره إليه، فإذا رجل قد ظلم العباد، وأكثر الفساد، حتى قسا قلبه، وكبر ذنبه، فقال الراهب: لا، ليست له توبة، فغضب هذا الرجل، وقتله، فكمل به مِائة، ومضى من بين يدي الراهب، ثم بدا له أن يتوب، فسأله عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فأتاه، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال العالم: نعم، نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟!! ولكن، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق الرجل التائب، حتى إذا انتصف في الطريق، نزل به الموت، فخر صريعًا ميتًا، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا، مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم حكمًا، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

فانظر كيف قال له العالم: فارق بلدك، واخرج من أرضك فإنها أرض سوء.

وكذلك من كان يريد أن يتوب من الزنا، لا بد أن يفارق أماكن الاختلاط، ومن أراد أن يتوب من ترك الصلاة، أو من سماع الغناء، أو من أكل الربا، أو يتوب من أنواع الشرك، كل هؤلاء، لا بد أن يفارقوا كل ما يعينهم على تلك المعاصي.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، أن يقسم لنا من خشيته ما يحول به بيننا وبين معصيته، ومن طاعته ما يبلغنا به جنته، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه، وأن يتقبل توبتنا، ويغسل حوبتنا، إنه

سميع مجيب، وصلى وسلم على النبي الأمي محمد، وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

* * *

اعترافات عاشق

الحمد لله الذي جمع قلوب أهل حبه على طاعته، وأورثهم من الخيرات ما نالوا به كرامته. أحمده سبحانه فهو الذي جعل محبته إلى جنته سبيلاً، وأبغض العصاة وأورثهم حزنًا طويلاً، وسبحان من نوع المحبة بين محبة الرحمن ومحبة الأوثان، ومحبة النسوان والصبيان، ومحبة الألحان ومحبة القرآن.

وأصلي وأسلم على أشرف نبي وأحسنه وأزكاه، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد أيها الإخوة والأخوات:

فهذه جلسة مع العاشقين والعاشقات من الشباب والفتيات. لا لأزجرهم وأخوفهم، وإنما لأعدهم وأبشرهم.

حديث إلى أولئك الشباب الذين أشغلوا نهارهم بملاحقة الفتيات في الأسواق وعند أبواب المدارس والكليات، وأشغلوا ليلهم بالمحادثات الهاتفية والأسرار العاطفية.

وحديث إلى أولئك الفتيات اللاتي فتنت عيونهن بالنظرات، وغرتهن الهمسات فامتلأت حقائبهن بالرسائل الرقيقة، وصور العشيق والعشيقة.

فلماذا أتحدث مع هؤلاء؟!

أتحدث معهم لأن كثيرًا من العاشقين والعاشقات وقعوا في شراك العشق فجأة بسبب نظرة عابرة أو مكالمة طائشة فأردت أحدهم قتيلاً، وأورثته حزنًا طويلاً ولم يجد من يشكو إليه.

نعم أتحدث معهم لأن التساهل بالعشق والتمادي فيه يجر إلى الفواحش والآثام ومواقعة الحرام، ويشغل القلوب عن علام الغيوب. وكم أكبت فتنة العشق رءوسًا في الجحيم، وأذاقتهم العذاب الأليم. كم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة.

فلو سألت النعم ما الذي أزالك؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك؟ والعافية ما الذي أبعدك؟ والستر ما الذي كشفك؟ والوجه ما الذي أذهب نورك وكسفك؟ لأجابتك بلسان الحال: هذا بجناية العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون.

نعم أتحدث عن العشق لأن انتشار العلاقات المحرمة لا يضر الفاعلين فقط، فقد جرت سنة الله أنه عند ظهور الزنا يشتد غضب الجبار. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها.

وفي الحديث الحسن الذي عند ابن ماجه وغيره قال ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».

وكم من فتاة ضيعت شبابها وفضحت أهلها أو قتلت نفسها بسبب ما تسميه العشق. وكم من فتى أشغل أيامه وساعاته وأضاع أنفاس حياته فيما يسميه العشق.

وما كيس في الناس يحمد رأيه ... فيوجد إلا وهو في الحب أحمق

وما أحد ما ذاق بؤس عشية ... فيعشق إلا ذاقها حين يعشق

ونحن في زمن كثرت فيه المغريات وتنوعت الشهوات وترك المفسدون في قنواتهم ومجلاتهم مخاطبة العقول والأفهام، ولجئوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام، فأصبح الشباب والفتيات حيارى بين مجلات تغري وشهوات تسري وقنوات تعري وأفلام تزين وتجري. فاشتغل الشباب والفتيات بعضهم ببعض واغتروا بالصحة والفراغ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] وإلا فلو كان أحدهم فقيرًا معدمًا أو مريضًا مقعدًا لما وجد في عقله مكانًا لفلان أو فلانة.

أيها العاشقون والعاشقات..

لقد كان العشاق قديمًا يكتفي أحدهم بتذكر محبوبه وإنشاد الأشعار فيه دون أن يخلو به أو يراه. قال عمرو بن شبة: كان أحدهم إذا أحب امرأة دار حول بيتها سنة لعله يرى من رآها.

أما اليوم فإن الرجل إذا عشق امرأة جهدها وكأنما أشهد على نكاحها أبا هريرة.

وبعض الناس يسمع عن العشق والعشاق ويجالس العاشقين ويقرأ أخبارهم

ويصل إلى درجة يشعر معها أنه عاشق وهو ليس كذلك. فيجتهد في البحث عن معشوق أو معشوقة ثم يبدأ يتغنى بالعشق والغرام وهو ليس من أهله.

كما ذكروا أن أعرابيًا مر بمسجد فجلس مع قوم صالحين يتذاكرون التعبد في الليل وكل واحد منهم يذكر فضل نوع من العبادات فهذا يذكر الصلاة وذاك يمدح الاستغفار والأعرابي ساكت فالتفوا إليه وقالوا له: هل تنام طوال الليل أم أنك تقوم؟ فقال: كلا بل والله إني أقوم. قالوا: إذا قمت فماذا تفعل؟ فقال: أبول ثم أرجع وأنام.

وقد يزين الشيطان للفتى أو للفتاة أنه جميل جذاب وأن الطرف الآخر معجب به أشد الإعجاب. وإذا مشى في الأسواق أو ضاحك الرفاق ظن أنه يلفت الأنظار ويفتن الواقف والمار فيدفعه ذلك للتعرض والتبذل ويحتال عليه أصحاب الشهوات حتى يعبثوا به أو بها فإذا قضوا شهواتهم منه أو منها ذهبوا يبحثون عن فريسة أخرى. ولو أنه ترفع عن ذلك، واشتغل بما خلق من أجله، لكان أسلم لدينه وعقله.

وتأمل في حال يوسف عليه السلام، الذي أوتي من البهاء والحسن والجمال، ما يفوق الخيال..

تراوده الملكة، وهو عبد مملوك، اشتراه زوجها بثمن بخس، ليخدمها، وهو إلى ذلك غريب لا يخشى فضيحة، شاب أعزب تشتاق نفسه إلى مثلها، وهي ذات منصب وجمال، وهي تتوعده بالسجن والصغار، وتراوده، وتبذل كل ما عندها لإغرائه، أسرعت إلى أبوابها فغلقتها، وإلى ثيابها فجملتها، وإلى فرشها فزينتها، ثم قالت في تغنج ودلال: هيت لك، فيصرخ بها العفيف عليه السلام ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

بل تأمل في حاله عليه السلام لما جمعت امرأة العزيز زوجات الكبراء، وحليلات الأمراء، ووضعت لهن أطايب الفاكهة، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، ثم جعلت يوسف يمر أمامهن، فلما رأينه، ما تحملن النظر إليه، وغابت عقولهن من حسنه وبهائه، فقطعن أيديهن بالسكاكين، وقلن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] فهل التفت يوسف إليهن؟ أو اغتر بشبابه وجماله؟ كلا، بل صاح بأعلى صوته وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣] قال الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤]. نعم

السجن خير له من الفاحشة.

قارن ذلك بما ذكر عن شاعر الغزل عمر بن ربيعة، أنه مر بامرأة في الطريق، فحكت عينها بيدها، فظن أنها تغازله، فوقع في حبها، وأنشد متغزلاً يقول:

أشارت بطرف العين، خيفة أهلها ... إشارة مخزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

فقارن حال يوسف بهذا، أو قارنه إن شئت بذلك الشاب الذي خرجت مرة من المسجد، فإذا هو ينتظرني عند سيارتي، بجسم نحيل، ووجه شاحب، ومظهر مخيف، فلما رأيته فزعت، فقلت له ماذا تريد؟ فقال لي: أنا يا شيخ، قررت أن أتوب، فظننت أنه سيتوب من تهريب المخدرات، أو قطع الطريق، أو القتل، إذ إن مظهره قد يوحي بذلك، لكني سألته وقلت: تتوب من ماذا؟ فقال: مغازلة الفتيات. فعجبت، لكني سكت، وقلت له مشجعًا: نعم، الحمد لله على أن وفقك للتوبة، فصاح بي قائلاً: ولكن هناك أمرًا يمنعني من التوبة. قلت له: وما هو؟ فقال: إذا مشيت في السوق، البنات ما يتركنني، يغازلنني في كل زاوية! مع أنني أجزم أنه لو غازل عجوزًا شمطاء لما التفتت إليه، وهذا الشاب يذكرني بما ذكر أن أحد المفتونين بمغازلة الفتيات، تعرف على فتاة من خلال الهاتف، فأعجبه صوتها، وتمنى أن يراها، فما زال هو والشيطان بها حتى قابلته في طريق، فلما كشفت غطاء وجهها ليراها، فإذا وجه قبيح بشع، فصاح بها وقال: أعوذ بالله، ما هذا الوجه، فقالت له: أصلاً، أهم شيء الأخلاق!!

ما شاء الله، الأخت تقول: أهم شيء الأخلاق! وأي أخلاق بقيت، وقد سلكت هذا السبيل..

أيها الإخوة والأخوات، أسباب المحبة كثيرة، فقد تحب أحدًا لأنه قوام لليل، أو صوام للنهار، أو حافظ للقرآن، أو داع إلى الله، فهذه المحبة لله، وأنت مأجور عليها، والمتحابون في الله، ولأجل الله، يوم القيامة يكونون على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء.

هذا هو النوع الأول من أسباب المحبة، وهو نوع نافع بلا شك في الدنيا والآخرة،

أما نفعه في الدنيا فهو ما يقع من تعاون على الخير، ومحبة صادقة، وأما نفعه في الآخرة فهو الاجتماع في جنات النعيم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وقد تحب شخصًا لجمال وجهه أو رقة كلامه، أو تغنجه ودلاله، دون أن تنظر إلى صلاحه وطاعته لله، فهذه المحبة لغير الله، ولا تزيد من الله إلا بعدًا، وقد هدد الله أصحابها وقال: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وفي الآية الأخرى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. بل إن هؤلاء المتحابين الذين اجتمعوا على ما يغضب الله يعذبون يوم القيامة، وينقلب حبهم إلى عداوة، كما قال تعالى عن فريق من العصاة ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] نعم، مأواهم النار، ولماذا لا يكون جزاؤهم كذلك وهم طالما اجتمعوا على الحرام، وتحدثوا عن الحب والغرام لعبت بهم الشهوات، وولغوا في الملذات، فهم يوم القيامة يجتمعون، ولكن أين يجتمعون؟ في نار، لا يخبو سعيرها، ولا ينقص لهيبها، ولا يبرد حرها، ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩]. وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى، والبلية العظمى التي استعبدت النفوس لغير خلاقها، وملكت القلوب لعشاقها، فأحاطت القلوب بمحنة، وملأتها فتنة، فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لباه، وإن قيل له ما تتمنى؟ فهو غاية ما يتمناه. [الجواب الكافي (٤٩٤ - ٤٩٦)].

أيها الإخوة والأخوات:

هذا هو العشق المحرم، الذي يكون الدافع إليه، ليس هو صلاح المحبوب، وإنما جماله وملاحته.

ومن أكبر أسباب وقوعه: النظر إلى الأفلام الهابطة، التي يختلط فيها الرجال بالنساء، حتى يقع في قلب الناظر إليها أن الاختلاط أمر عادي، فيبدأ في البحث عن عشيق أو عشيقة، وأعظم من ذلك إذا كانت هذه الأفلام يقع فيها الحب والغرام، واللمسات والقبلات، فإذا رآها الشباب والفتيات حركت فيهم الساكن، وأظهرت الباطن، ونزعت الحياء، وقربت البلاء، فمن رأى صور الفسق والفجور، ومشاهد العهر والمجون، اندفعت نفسه إلى تقليدها في كل حين، في السوق، وعلى فراشه، وفي مكتبه، ولا يزال الشيطان يدعوه إليها، ويحثه عليها، لذلك لما أمر الله تعالى بحفظ الفروج عن الزنا أمر قبل ذلك بغض البصر فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. وفي الصحيحين قال ﷺ: «العين تزني وزناها النظر». فجعل النظر إلى الحرام نوعًا من الزنا، يأثم عليه صاحبه.

كما أن كثرة الكلام عن العشق والحب، في مجالس الشباب والفتيات، أو في المدارس والكليات، يهيج النفوس إليه، بل ويشعر العفيف الذي صان نفسه عن هذه الأمور أنه شاذ بينهم، فيبدأ في البحث عن خليل، أو خليلة، فعلى العاقل أن يجتنب هذه المجالس، التي لا تكاد تحفها الملائكة، ولا تغشاها الرحمة، بل هي طريق للحسرة والندامة على أصحابها يوم القيامة.

ومن أسباب التعلق بهذا العشق: الاستماع إلى الأغاني، نعم، هذه الأغاني التي حرمها الله تعالى من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]. الأغاني، هي صوت العصيان، وعدوة القرآن، بل هي مزمار الشيطان، الذي يزمر به فيتبعه أولياؤه، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال ابن مسعود: الغناء رقية الزنا، أي أنه طريقه ووسيلته.

عجبًا، هذا كان يقوله ابن مسعود لما كان الغناء يقع من الجواري والإماء المملوكات، يوم كان الغناء بالدف والشعر الفصيح، يقول هو رقية الزنا، فماذا يقول ابن مسعود لو رأى زماننا هذا، وقد تنوعت الألحان، وكثر أعوان الشيطان، فأصبحت الأغاني تسمع في السيارة والطائرة، والبر والبحر، وما يكاد يذكر فيها إلا الحب والغرام، والعشق والهيام.

بالله عليكم، هل سمعتم مغنيًا غنى في التحذير من الزنا؟ أو غض البصر؟ أو حفظ أعراض المسلمين؟! كلا، ما سمعنا عن شيء من ذلك، بل كل إناء بما فيه ينضح، امتلأ قلب هذا المغني بالشهوات، وتعلقت نفسه بالملذات، فبدأ ينفق مما عنده.

كما أن من أسباب العشق، المؤدي غالبًا إلى الفاحشة: **التساهل بمخالطة** الخادمات في المنازل، أو الخلوة بهن عند غياب أهل البيت، وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، والتساهل كذلك باستعمال شبكة الإنترنت، والمحادثات التي تتم من خلالها بين الشباب والفتيات، وقد يصاحب ذلك نقل الصوت والصورة، أو إرسال الصور من خلال البريد الإلكتروني، ومع الأسف، أن بعض الآباء يوفر لأولاده هذه الشبكة، ولا يدري والله ما يقع فيها. كما أن من أسبابه قراءة الروايات العاطفية، والقصص الغرامية.

فمن تساهل بهذه الأسباب، وقع في العشق المذموم، وحلت عليه الكرب والهموم.

أيها العاشقون والعاشقات..

وقد يزعم البعض أن وقوعه في هذا العشق أمر اضطراري لا يستطيع التخلص منه، كما قال:

يلومونني في حب سلمى وإنما	يرون الهوى شيئًا تيممته عمدا
ألا إنما الحب الذي صدع الحشا	بلاء من الرحمن يبلو به العبدَ

بل قد كتب إلي أحد العاشقين، رسالة يلومني فيها على إثارة هذا الموضوع، وسطر فيها أبياتًا بلهجته العامية، ولا بأس أن أنقل لكم شيئًا منها، يقول:

لو يتداوى كل يا شيخ من حب	وش لون ابلقى لي وليف نصوحي
لي صاحب بالحب شاطر مدرب	ما أظن من شافه يصد ويروحي
عن الهوى لا تنشد إلى مجرب	تلقى دوى العشاق كان أنت توحي
وأنت لو أنك يالعريفي تكهرب	في حب مجمول شحوح مزوحي
كان اعترفت وقمت يا شيخ تقلب	عنوان درسك بالعنا والجروحي

ومهما زعم هؤلاء أن العشق يأسر قلوبهم بغير اختيارهم، فهذا باطل، بل هم الذين يستدعونه، ويتسابقون إليه، ويمنون أنفسهم به حتى يقعوا فيه.

نعم، وقد يتساهل الفتى أو الفتاة، حتى يقع في المرض الأعظم، والخطب الأطم، وهو تعلق الشاب بشاب مثله، وافتتان الفتاة بفتاة أخرى، لأن ظاهر هذه العلاقة، أنها صداقة سليمة نظيفة، لكن باطنها على غير ذلك، وقد يعترض البعض ويقول: أنت تشدد علينا، فأنا لي مكالمات، ونظرات، لكنها كلها علاقات بريئة، كما كتب إلي أحد العاشقين مشكلته مع عشيقته في رسالة طويلة، وكان مما قال فيها: وأنا يا شيخ آخذها معي في السيارة، ونمضي الساعات الطوال ونحن نتمشى، ووالله يا شيخ لا يقع بيننا شيء يغضب الله، لكن الجلسة لا تخلو من القبلات الشريفة!

ولا أدري ما معنى القبلات الشريفة، لعلها من وراء حجاب، وهذا مسكين، فإن مجرد الخلوة بينهما محرمة، وما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء». يعني الخلوة بهن، بل أمر الله المرأة بالتستر حتى لا يراها الرجال فقال الله ﷻ لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]. بل قد نهى الله الصحابة جميعًا عن الاختلاط بالنساء، فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ [الأحزاب:٥٣] يعني: إذا سألتم أزواج النبي وهن أطهر النساء..

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، لماذا؟ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. وحسبك بالصحابة طاعة وخوفًا وتعبدًا، فكيف الحال اليوم مع شبابنا، وفتياتنا، وقد فسد الزمان؟ فكيف يخلو اليوم شاب بفتاة، ويقولان صداقة بريئة.

عجبًا..

قال سفيان الثوري لرجل صالح من أصحابه: لا تخلون بامرأة ولو لتعلمها القرآن، نعم أيها الإخوة والأخوات، هذا ديننا، ليس فيه تساهل مع الأعراض.

وحتى يعرف الشاب والفتاة، الفرق بين المحبة المحرمة المبنية على العلاقات العاطفية، وبين المحبة العادية، أذكر بعض الضوابط في ذلك:

تجد أن المحب العاشق لا يهتم بدين محبوبه، ولا بصلاحه، وإن اهتم بذلك

فهو يهتم به ظاهريًا ليبعد اللوم عن نفسه، وأكثر ما يعجبه في محبوبه، نظراته، وحركاته، بل قد يضل ويقع في الآثام من أجل موافقة محبوبه، كما قال أحدهم وقد أحب امرأة فاسقة:

فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري ... يعلق رجال بين أعينهم صلبا

وتجد أن هذا العاشق، ينبسط انبساطًا زائدًا، عند وجوده في مجلس مع معشوقه، وينشرح صدره، ويكثر كلامه وضحكه، ويحاول أن يجذب الأنظار إليه، بل ويحاول الجلوس بجانبه دائمًا، والمشي معه، مع قبض اليدين على بعضهما، ونحو ذلك، وكذلك تجد أنه يديم إحداد النظر إليه، ولا يكاد يصرف عنه بصره مع الغيرة الشديدة على من يحب، فإذا رآه مع غيره، ضاق صدره، ويحس أن ذلك الإنسان اعتدى على بعض خصوصياته، ولا يصبر عنه أبدًا، بل إما أن يراه كل يوم، أو يتصل به بالهاتف، أو ينظر إلى صوره، أو يقرأ رسائله، فمن كانت عنده هذه الأعراض، فليسارع إلى علاج نفسه، فإنه مبتلى.

يا من يرى سقمي يزيد ... وعلتي أعيت طبيبي

لا تعجبن فهكذا ... تجني العيون على القلوب

فما السبب الأول، والداهية العظمى، والمصيبة الكبرى، الذي يوقع في هذا الداء؟!

إنها السهم المسمومة، إنها جناية العين.

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

نعم هي جناية العين، بل إنها عقوبة المخالفة لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله للمؤمنات: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

ما زلت تتبع نظرة في نظرة ... في إثر كل مليحة ومليح

وتظن ذاك دواء قلبك ... وهو في التحقيق تجريح على تجريح

نعم، قد أفسد قلبه وجرحه.

ومستفتح باب البلاء بنظرة ... تزود منها قلبه حسرة الدهر

فوالله لا تدري أيدري بما جنت ... على قلبه أم أهلكته ولا يدري

قال ابن القيم رحمه الله: إن الله تعالى لما أمر بغض البصر أعقب ذلك بالأمر بحفظ الفرج، ليدل بذلك على أن من أطلق بصره، أداه ذلك إلى إطلاق فرجه.

نعم، أيها الإخوة والأخوات.

وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه، قال ﷺ: «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه». وفي الصحيحين قال ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك، أو يكذبه».

فتأمل كيف بدأ بالعين، وختم بالفرج، ليدل أن إطلاق البصر، هو طريق الزنا.

قال ابن القيم: دافع الخطرة فإن لم تفعل صارت فكرة.

وصدق رحمه الله، فإن المرء إذا تساهل بالسهم الأولى وهي النظرة، أصابته السهم الثانية وهي النظر بالقلب فيتفكر ويتمنى، ثم يتدخل الشيطان فيزين ويوسوس، يقول له: افعلها وتب، كل الشباب هكذا، تمتع بحياتك، فتتحول هذه الفكرة إلى عزيمة وهَمٍّ، فيبدأ يفكر ويخطط، فإن لم يدافع ذلك، صار فعلاً، فإذا هتك الستر بينه وبين ربه، هانت المعصية على النفس، وتعودت المعصية، لكنه لو تعوذ بالله من أول نظرة، وصاح بها كما صاح يوسف، ويقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

نعم، هذا حال الأبرار المتقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١، ٢٠٢].

وإطلاق البصر في الشهوات سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله، هل سمعتم بالرجل الذي قيل له عند موته: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام

منجاب؟ ذاك رجل، كان واقفًا بازاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فأشار إلى باب بيته وقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت خدعة منها له وتحيلاً لتتخلص مما أوقعها فيه، وخوفًا من فعل الفاحشة، يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت، فهام الرجل، وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق ويقول:

يا رب قائلة يومًا وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته قائلة:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها ... حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيجانه ولم يزل يردد هذا البيت حتى مات.

وذكر ابن القيم أن رجلاً قيل له عند موته قل: لا إله إلا الله فصاح بأعلى صوته وقال:

أسلم يا راحة العليل ... ويا شفاء المدنف النحيل

حبك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

هذا شاب، عشق شخصًا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع ألمًا به ولزم الفراش بسببه، وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده، فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره، وانجلى غمه وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فبينا هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق، ورجع فرغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وبرح بي ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال:

أسلم يا راحة العليل ... ويا شفاء المدنف النحيل

حبك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقلت له: يا فلان، اتق الله، قال: قد كان، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة.

لذا كان للسلف في الحرص على غض البصر شأن عجيب.

نعم، هؤلاء كان لهم أبصار، وعندهم غرائز، ونفوسهم تشتهي الملذات، لكنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، ومن تساهل بالنظرة الأولى، ولم يسارع إلى علاج نفسه، وقع في الداهية العظمى وهي تعلق القلب، فإذا تمكن المحبوب من القلب بدأ المحب يستحسن كل ما يقع منه، وتعجبه حركاته، وتثيره ضحكاته، ويفتن بابتسامته، ويأنس بمجالسته، بل ويعجب منه بكل شيء وإن كان قبيحًا، كما ذكروا أن رجلاً كان يحب امرأة سوداء، فلما تمكن حبها من قلبه، صار كل سواد يذكره بها، فأحب كل شيء أسود، وكان يتغزل بها ويقول:

أحب الكلاب السود من أجل حبها ... ومن أجلها أحببت ما كان أسودا

ومن تساهل بالنظر أوقعه ذلك في أحد الخطرين، إما عشق النساء، أو عشق الغلمان، فيصرفه ذلك عن طاعة الرحمن، إلى وسوسة الشيطان.

كما كتب إلي أحدهم يشرح فيها قصة وقوعه في العشق، وضمنها أبياتًا نظمها بلهجته العامية، ولا بأس أن أسوق لكم شيئًا منها، يقول:

بسم الله الرحمن بابدا كلامي ... واكتب على بيض الورق كل ما أخفيت

بعد إذنكم باشرح حكاية غرامي ... والعذر منكم كان بالهرج زليت

يا شيخ أنا والله ما أدري علامي ... حبيت مدري ليه يا شيخ حبيت

لو أدري إن الحب هم وهيامي ... ما كان لا حبيت ولا تعنيت

علقني بحبه وزاد اهتمامي ... ودارت بي الدنيا وقفا وقفيت

واليوم عقب الهجر عفت المنامي ... مغير أفكر فيه لأصبحت وأمسيت

وإن جيت ابنسى قلت هذا حرامي ... لا يمكن انسى صحبته لو تناسيت

يا أهل الهوى ما في المحبة ملامي ... أما شقا ولا دموع وتناهيت

نعم، هي شقاء، ودموع، وتناهيت، ولا يزال الشيطان بهذا العاشق حتى يقع في الفاحشة عياذًا بالله.

وقد عظم الله هذه الفاحشة وقرنها بالشرك والقتل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] ثم ذكر الله تعالى عذاب من فعل ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩] ثم دعاهم الكريم الرحيم إلى رحمته فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٧٠، ٧١] ونفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني فقال كما في الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». وسبيل الزنا هو شر السبل، لذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢] وروى البخاري أن النبي ﷺ أتاه في المنام آتيان فابتعثاه معهما، فاطلع على أنواع من عذاب العصاة، قال ﷺ «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور - والتنور هو نقب مثل الحفرة يشعل فيه الخباز النار ويطرح الخبز على جدرانها حتى ينضج - قال: فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب، ضوضوا - أي: صاحوا - فلما رآهم النبي ﷺ فزع من حالهم، وسأل جبريل عنهم، فقال جبريل: هؤلاء هم الزناة والزواني».

وفي رواية ابن خزيمة بإسناد صحيح قال ﷺ «ثم انطلق بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، كأن ريحهم المراحيض، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني».

وذكر الهيثمي أنه مكتوب في الزبور: إن الزناة يعلقون بفروجهم في النار، ويضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث أحدهم من الضرب، نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك، وتفرح، وتمرح، ولا تراقب الله ولا تستحي منه!

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال: «يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله، أن يزنى عبده، أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».

نعم، كم من لذة ساعة، أورثت حزنًا عظيمًا، وعذابًا أليمًا، وليس ربهم والله بغافل عنهم، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فليس بعد مفسدة الشرك والقتل أعظم من مفسدة الزنا، ولو بلغ الرجل أن ابنته قتلت، كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت، أف للزنا، ما أقبح أثره، وأسوء خبره، وكم من شهوة ذهبت لذتها، وبقيت حسرتها..

وأول من يشهد على الزناة والزواني: أعضاؤهم التي متعوها بهذا الزنا، رجله التي مشى بها، ويده التي لمس بها، ولسانه الذي تكلم به، بل تشهد عليه كل ذرة من جلده، وكل شعرة من شعراته، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:١٩-٢٤] نعوذ بالله من هذا الحال.

وفي الدنيا، أمر الله بتغليظ العقوبة على الزاني والزانية، وإن كانا شابين عزبين، ونهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة، وأمر أن يكون الحد بمشهد من الناس، قال ﷻ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]، هذا غير عقوبات الدنيا التي تتتابع على الزاني، كالفقر الذي ينزله الله به ولو بعد حين، والبلاء والكرب المبين، وضيق الصدر، وتعسر الأمر، هذا غير دعاء الصالحين عليه، فكم من يدٍ في ظلمة الليل بسطت، تدعو عليه وعليها..

وكم من جبهة بين يدي الله سجدت، تستنزل العذاب عليه وعليها، وكم من عين دمعت، ودعوة رفعت، تستعدي رب العالمين على المفسدين، فكيف يتلذذ عاقل بمتعة هذه عاقبتها، وشهوة هذه نهايتها، تلكم أيها الشباب والفتيات عاقبة الزنا في الدنيا، وأول طريق الزنا خطوة، ونظرة، وضحكة، وتبرج وسفور، وبعض الفتيات، إذا مشت في السوق أو الشارع صارت كأنها بغي تدعو الناس إلى فعل الفاحشة، وإلا، فبماذا تفسرون تبرج بعض الفتيات في عباءتها، وإخراجها كفيها

وقدميها، بل ووجهها أحيانًا، وقد تخرج غير ذلك، وبماذا تفسرون وضعها للطيب، وهي تمشي بين الرجال فيشمون ريحها، وقد قال ﷺ فيما أخرجه أحمد والنسائي: «أيما امرأة استعطرت ثم مرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية»، وبماذا تفسرون تبرجها في لباسها أو عباءتها، إضافة إلى تكسرها في مشيتها، وجرأتها في مخاطبة الرجال، والله يقول: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب:٣٢، ٣٣].

وإنك لتعجب، وتعجبين، إذا علمت أن قوله تعالى للمؤمنات: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] معناه: أن لا تضرب المرأة برجلها الأرض بقوة وهي لابسة خلاخل في قدميها، حتى لا يسمع الرجال صوت الخلاخل فيفتنون.

عجبًا، إذا كان هذا حرامًا، فما بالك بمن تحادث شابًّا الساعات الطوال في الهاتف، أو ترفع صوتها بالضحكات، والهمسات، وتنظم القصائد الشعرية، وتكتب الرسائل العاطفية، ومثل ذلك بعض الشباب الذين لا هم لهم إلا التزين، والتسكع في الأسواق، وهذا كله من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وقد توعد الله من فعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩] وهذا الوعيد في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة، فقط مجرد محبة، لهم عذاب أليم، فكيف بمن يعمل على إشاعتها.

بل قد تقع هذه العاشقة أو العاشق، فيما هو أكبر من مجرد الشهوة، إذ قد يفعلون ما يخل بالعقيدة، من التشبه بالكفار، والاحتفال بأعيادهم التي هي من مظاهر دينهم، كالاحتفال بعيد الحب، بأي صورة من الصور كإرسال الهدايا، أو الرسائل العاطفية، أو غير ذلك، ولو رأينا مسلمًا أو مسلمة قد علق صليبًا على صدره، أو رسم على لباسه نجمة اليهود السداسية، لأنكرنا عليه، وهذا لا يختلف كثيرًا عمن يحتفل بعيد الحب الذي هو عيد القسيس فالنتاين، إذ كلاهما قد أحيا مظهرًا من مظاهر الكفار.

ومن ادعى أن يكلم الفتيات، أو ادعت أنها تكلم الشباب، لمجرد الصداقة

والتسلية، فقد وقع في الحرام، فقد قال تعالى في حق المؤمنات: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، وقال في حق الرجال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]، والخدن هو العشيق والعشيقة..

نعم، هذا حال الفساق، أما أهل العفاف، الذين غضوا أبصارهم عن الحرام، فليبشروا، فإن من حفظ لسانه وفرجه دخل الجنة، وبشر النبي ﷺ النساء خاصة فقال: «أيما امرأة اتقت ربها، وأحصنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها يوم القيامة: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت».

وللعفيفين والعفيفات، مع العفة أخبار وأسرار، يصيح أحدهم بالفتنة إذا عرضت له، ويقول:

والله لو قيل لي تأتي بفاحشة	وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذي أخشى عقوبته	ولا بأضعافها ما كنت آتيها

فهم قوم عفوا عن المحرمات، فكشف الله عنهم الكربات، واستجاب لهم الدعوات.

وليبشر من عف من المحرمات بظل عرش الرحمن يوم القيامة، فإن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، وهذا ليس خاصًا بالرجل، بل حتى المرأة، التي تزين لها الفاحشة فتتركها خوفًا من الله، هي في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

تعرضت امرأة لأحد الصالحين، فجعلت نفسه توسوس له أن يقع في الفاحشة ثم يتوب، وكان أمامه سراج فيه فتيلة تشتعل..

فقال: يا نفس أدخل أصبعي في هذا السراج فإن صبرت على حر هذه النار، مكنتك مما تريدين، ثم وضع أصبعه على لهيب النار، فاضطرب من حر النار، وسحب أصبعه، فقال: يا نفس لم تصبري على حر هذه النار التي خففت سبعين مرة عن نار الآخرة، فكيف تصبرين على عذاب الله!!

نعم..

فكـم ذي معـاص نـال مـنهن لـذة ... ومـات فخلاهـا وذاق الـدواهيا
تـصرم لـذات المعاصـي وتنقـضي ... وتبقـى تباعـات المعاصـي كمـا هيـا
فيـا سوءتـا والله راء وسـامـع ... لعبد بعيـن الله يغشـى المعـاصيـا

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ذكر الدمشقي في كتابه (مطالع البدور) عن أمير القاهرة في وقته شجاع الدين الشرزي، قال: بينما أنا عند رجل بالصعيد، وهو شيخ كبير شديد السمرة، إذ حضر أولاد له بيض حسان، فسألناه عنهم، فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية، ولي معها قصة، فسألناه عنها، فقال: ذهبت إلى الشام وأنا شاب، أثناء احتلال الصليبيين له، واستأجرت دكانًا أبيع فيه الكتان، فبينما أنا في دكاني إذ أتتني امرأة إفرنجية زوجة أحد قادة الصليبيين، فرأيت من جمالها ما سحرني، فبعتها وسامحتها في السعر، ثم انصرفت، وعادت بعد أيام فبعتها وسامحتها، فأخذت تتردد علي، وأنا أتبسط معها فعلمت أني أعشقها، فلما بلغ الأمر مني مبلغه، قلت للعجوز التي معها: قد تعلقت نفسي بهذه المرأة فكيف السبيل إليها؟ فقالت: هذه زوجة فلان القائد، ولو علم بنا، قتلنا نحن الثلاثة، فما زلت بها، حتى طلبت مني خمسين دينارًا، وتجيء بها إلي في بيتي، فاجتهدت حتى جمعت خمسين دينارًا، وأعطيتها إياها، وانتظرتها تلك الليلة في الدار، فلما جاءت إلي أكلنا وشربنا، فلما مضى بعض الليل، قلت في نفسي: أما تستحي من الله!! وأنت غريب، وبين يدي الله، وتعصي الله مع نصرانية!! فرفعت بصري إلى السماء وقلت: اللهم إني أشهدك أني عففت عن هذه النصرانية، حياء منك وخوفًا من عقابك، ثم تنحيت عن موضعها إلى فراش آخر، فلما رأت ذلك قامت وهي غضبى ومضت، وفي الصباح، مضيت إلى دكاني، فلما كان الضحى، مرت علي المرأة وهي غضبى، ووالله لكأن وجهها القمر، فلما رأيتها، قلت في نفسي: ومن أنت حتى تعف عن هذا الجمال؟ أنت أبو بكر، أو عمر، أم أنت الجنيد العابد، أو الحسن الزاهد..

وبقيت أتحسر عليها، فلما جاوزتني، لحقت بالعجوز، وقلت لها: ارجعي بها، الليلة، فقالت: وحق المسيح، ما تأتيك إلا بمائة دينار، قلت: نعم، فاجتهدت حتى جمعتها، وأعطيتها إياها، فلما كان الليل، وانتظرتها في الدار. جاءت، فكأنها القمر

أقبل علي، فلما جلست، حضرني الخوف من الله، وكيف أعصيه مع نصرانية كافرة، فتركتها خوفًا من الله، وفي الصباح، مضيت إلى دكاني، وقلبي مشغول بها، فلما كان الضحى، مرت علي المرأة وهي غضبى، فلما رأيتها، لمت نفسي على تركها، وبقيت أتحسر عليها، فسألت العجوز، فقالت: ما تفرح بها، إلا بخمسمائة دينار، أو تموت كمدًا، قلت: نعم، وعزمت على بيع دكاني، وبضاعتي، وأعطيها الخمسمائة دينار، فبينما أنا كذلك، إذ منادي النصارى ينادي في السوق، يقول: يا معاشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم، قد انقضت، وقد أمهلنا من هنا من التجار المسلمين أسبوعًا، فجمعت ما بقي من متاعي وخرجت من الشام وفي قلبي من الحسرة ما فيه، ثم أخذت أتاجر ببيع الجواري، عسى أن يذهب ما بقلبي من حب ما فيه، فمضى لي على ذلك ثلاث سنين، ثم جرت وقع حطين، واستعاد المسلمون بلاد الساحل، وطلب مني جارية للملك الناصر، وكان عندي جارية حسناء، فاشتروها مني بمائة دينار، فسلموني تسعين دينارًا، وبقيت لي عشرة دنانير، فقال الملك: امضوا به إلى البيت الذي فيه المسبيات من نساء الإفرنج، فليختر منهن واحدة بالعشرة دنانير التي بقيت له، فلما فتحوا لي الدار، رأيت صاحبتي الإفرنجية، فأخذتها، فلما مضيت إلى بيتي، قلت لها: تعرفيني؟! قالت: لا، قلت: أنا صاحبك التاجر، الذي أخذت مني مائة وخمسين دينارًا، وقلت لي: لا تفرح بي إلا بخمسمائة دينار، ها أنا أخذتك ملكًا بعشرة دنانير، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلمت وحسن إسلامها، فتزوجتها، فلم تلبث أن أرسلت أمها إليها بصندوق، فلما فتحناه، فإذا فيه الصرتان التي أعطيتها، في الأولى الخمسون دينارًا، وفي الأخرى المائة، وفيه لباسها الذي كنت أراها فيه، وهي أم هؤلاء الأولاد، وهي التي طبخت لكم العشاء.

نعم، ومن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه..

فهذا طرف من أخبار أهل العفة، وهذه الطائفة لعفتهم أسباب:

أقواها إجلال الجبار، ومراقبته في السر والعلن، والخوف من الله تعالى، فهو الذي وهبهم القوى والأسماع والأبصار، والعبد قد يختفي من الناس، ولكن أنى له أن يختفي من الله، وهو معه، والمرأة العفيفة، لا تهتك سترها، ولا تدنس عرضها، وإن كان في ذلك فقدان حياتها.

ذكر الخطابي في كتابه «عدالة السماء»: **أنه كان ببغداد قبل قرابة الأربعين سنة، رجل يعمل جزارًا يبيع اللحم، وكان يذهب قبل الفجر إلى دكانه، فيذبح الغنم، ثم يرجع إلى بيته، وبعد طلوع الشمس يفتح المحل ليبيع اللحم، وفي أحد الليالي بعدما ذبح الغنم، رجع في ظلمة الليل إلى بيته، وثيابه ملطخة بالدم، وفي أثناء الطريق سمع صيحة في أحد الأزقة المظلمة، فتوجه إليها بسرعة، وفجأة سقط على جثة رجل قد طعن عدة طعنات، ودماؤه تسيل، والسكين مغروسة في جسده، فانتزع السكين، وأخذ يحاول حمل الرجل ومساعدته، والدماء تنزف على ثيابه..**

لكن الرجل مات بين يديه، فاجتمع الناس، فلما رأوا السكين في يده، والدماء على ثيابه، والرجل فزع خائف اتهموه بقتل الرجل، ثم حكم عليه بالقتل، فلما أحضر إلى ساحة القصاص، وأيقن بالموت، صاح بالناس، وقال: أيها الناس أنا والله ما قتلت هذا الرجل، لكني قتلت نفسًا أخرى، منذ عشرين سنة، والآن يقام علي القصاص، ثم قال: قبل عشرين سنة كنت شابًا فتيًا، أعمل على قارب أنقل الناس بين ضفتي النهر، وفي أحد الأيام جاءتني فتاة غنية مع أمها، ونقلتهما، ثم جاءتا في اليوم التالي، وركبتا في قاربي، ومع الأيام، بدأ قلبي يتعلق بتلك الفتاة، وهي كذلك تعلقت بي، خطبتها من أبيها لكنه أبى أن يزوجني لفقري، ثم انقطعت عني بعدها، فلم أعد أراها ولا أمها، وبقي قلبي معلقًا بتلك الفتاة، وبعد سنتين أو ثلاث، كنت في قاربي، أنتظر الركاب، فجاءتني امرأة مع طفلها، وطلبت نقلها إلى الضفة الأخرى، فلما ركبت، وتوسطنا النهر، نظرت إليها، فإذا هي صاحبتي الأولى، التي فرق أبوها بيننا، ففرحت بلقياها، وبدأت أذكرها بسابق عهدنا، والحب والغرام، لكنها تكلمت بأدب، وأخبرتني أنها قد تزوجت وهذا ولدها، فزين لي الشيطان الوقوع بها، فاقتربت منها، فصاحت بي، وذكرتني بالله، لكن لم ألتفت إليها، فبدأت المسكينة تدافعني بما تستطيع، وطفلها يصرخ بين يديها، فلما رأيت ذلك أخذت الطفل، وقربته من الماء وقلت إن لم تمكنيني من نفسك، غرقته، فبكت وتوسلت، لكني لم ألتفت إليها، وأخذت أغمس رأس الطفل فإذا أشفر على الهلاك أخرجته، وهي تنظر إلي وتبكي، وتتوسل، لكنها لا تستجيب لي، فغمست رأس الطفل في

الماء، وشددت عليه الخناق، وهي تنظر، وتغطي عينيها، والطفل تضطرب يداه ورجلاه، حتى خارت قواه، وسكنت حركته، فأخرجته فإذا هو ميت، فألقيت جثته في الماء، ثم أقبلت عليها، فدفعتني بكل قوتها، وتقطعت من شدة البكاء، فسحبتها بشعرها، وقربتها من الماء، وجعلت أغمس رأسها في الماء، وأخرجها، وهي تأبى علي الفاحشة، فلما تعبت يداي، غمست رأسها في الماء، فأخذت تنتفض حتى سكنت حركتها، وماتت، فألقيتها في الماء، ثم رجعت، ولم يكتشف أحد جريمتي، وسبحان من يمهل ولا يهمل، فبكى الناس لما سمعوا قصته، ثم قطع رأسه، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

فتأملوا في حال هذه الفتاة العفيفة، التي يقتل ولدها بين يديها، وتموت هي، ولا ترضى بهتك عرضها، فأين هذه العفة من فتيات اليوم، تبيع إحداهن عرضها بمكالمة هاتفية، أو هدية شيطانية، وتنساق وراء كلام معسول من فاسق، أو تنجر وراء شبهة من منافق.

ومن أسباب العفة: الرغبة في الدار الأخرى فيها متع عظيمة، والتفكر في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع هناك، قال ﷺ «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة».

فلا يكاد يجمع للعبد بين لذائذ الدنيا المحرمة، ولذائذ الآخرة الدائمة، فلذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان في الدنيا، خشي أن يحرم من متع الآخرة..

ومن تعلقت نفسه بالجنة وما أعد الله فيها من المتع هانت عليه متع الدنيا، وكذلك من اشتاقت نفسها إلى الجنة وما فيها من زيادة حسن وجمال لها، لم تدنس عرضها في الدنيا، ويكمل الجمال ويزين للمؤمنات في الجنة، تكون المؤمنة في الجنة أكمل وأجمل.

نعم، إذا كان الله تعالى قد وصف الحور العين بما وصف، وهن لم يقمن الليل، ولم يصمن النهار، فما بالك بجمالك أنت، وحسنك، وبهائك، وأنت التي طالما

خلوت بربك في ظلمة الليل، يسمع نجواك، ويجيب دعاك، طالما تركت لأجله اللذات، وفارقت الشهوات، قال الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

فعلق نفسك بجمال آخر في الجنة، وعلقي نفسك به، واسمع واسمعي صفات عرائس الجنات ثم اختر لنفسك يا أخا العرفان:

حور حسان قد كملن خلائقًا	ومحاسنًا من أجمل النسوان
كملت خلائقها وأكمل حسنها	كالبدر ليل الست بعد ثمان
والشمس تجري في محاسن وجهها	والليل تحت ذوائب الأغصان
حمر الخدود ثغورهن لآلئ	سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها	فيضيء سقف القصر بالجدران
ولقد روينا أن برقًا ساطعًا	يبدو فيسأل عنه من بجنان
فيقال هذا ضوء ثغر ضاحك	في الجنة العليا كما تريان
لله لاثم ذلك الثغر الذي	في لثمه إدراك كل أمان

وروى ابن أبي الدنيا والخطيب في تاريخه عن يزيد الرقاشي قال: بلغني أن نورًا سطع في الجنة لم يبق موضع في الجنة إلا دخل من ذلك النور فيه فقيل ما هذا؟ قيل: حوراء ضحكت في وجه زوجها.

هذا جمال ثغرها، وتلك حلاوة بسمتها.

والمعصمان فإن تشأ شبههما	بسبيكتين عليهما كفان
كالزبد لينًا في نعومة ملمس	أصداف در دورت بوزان
لا الحيض يغشاه ولا بول ولا	شيء من الآفات في النسوان
وإذا يجامعها تعود كما أتت	بكرًا بغير دم ولا نقصان
أقدامها من فضة قد ركبت	من فوقها ساقان ملتفان
والريح مسك والجسوم نواعم	واللون كالياقوت والمرجان
وكلامها يسبي العقول بنغمة	زادت على الأوتار والعيدان
بكر فلم يأخذ بكارتها سوى	المحبوب من إنس ولا من جان

يعطى المجامع قوة المائة التي اجتمعت لأقوى واحد الإنسان
وأعفهم في هذه الدنيا هو الـ أقوى هناك لزهده في الفاني
فاجمع قواك لما هناك وغمض الـ عينين واصبر ساعة لزمان
ما ها هنا والله ما يسوى قلا مة ظفر واحدة ترى بجنان
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فإن تفعل رجعت بذلة وهوان
وإذا بدت في حلة من لبسها وتمايلت كتمايل النشوان
تهتز كالغصن الرطيب وحمله ورد وتفاح على رمان
وتبخترت في مشيها ويحق ذا لك لمثلها في جنة الحيوان
ووصائف من خلفها وأمامها وعلى شمائلها وعن أيمان
كالبدر ليلة تمه قد حف في غسق الدجى بكواكب الميزان
فلسانه وفؤاده والطرف في دهش وإعجاب وفي سبحان
فالقلب قبل زفافها في عرسه والعرس إثر العرس متصلان
حتى إذا ما واجهته تقابلا أرأيت إذ يتقابل القمران
فسل المتيم هل يحل الصبر عن ضم وتقبيل وعن فلتان
وسل المتيم أين خلف صبره في أي واد أم بأي مكان
وسل المتيم كيف عيشته إذا وهما على فرشيهما خلوان
وسل المتيم كيف مجلسه مع الـ محبوب في روح وفي ريحان
وتدور كاسات الرحيق عليهما بأكف أقمار من الولدان
يتنازعان الكأس هذا مرة والخود أخرى ثم يتكئان
فيضمها وتضمه أرأيت معـ شوقين بعد البعد يلتقيان
غاب الرقيب وغاب كل منكد وهما بثوب الوصل مشتملان
أتراهما ضجرين من ذا العيش لا وحياة ربك ما هما ضجران

هذا حالهم ولا يمل أحدهما من الآخر أبدًا..

ويزيد كل منهما حبًّا لصا حبه جديدًا سائر الأزمان
ووصاله يكسوه حبًّا بعده متسلسلاً لا ينتهي بزمان
فالوصل محفوف بحب سابق وبلاحق وكلاهما صنوان

هذا هو والله النعيم الحقيقي، أما نعيم الدنيا ومتعتها، فمهما طالت فهي منقطعة.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الذل والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

قال الله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٩].

هذا هو النوع الأول من العاشقين والعاشقات الذي تعلق كل جنس منهم بالجنس الآخر، أما النوع الثاني من العشاق فهم من شذوا عن الفطرة، فعشق الشاب شابًا مثله، والفتاة فتاة مثلها، وهؤلاء أعظم شذوذًا، وأكثر ضلالاً، وقد ذكر الله خبرهم في القرآن، وأن لوطًا صاح بهم وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٠] وإذا وقعت هذه الفاحشة، كادت الأرض تميد من جوانبها، والجبال تزول عن أماكنها، ولم يجمع الله على أمة من العذاب ما جمع على قوم لوط، فإنه طمس أبصارهم، وسود وجوههم، وأمر جبريل بقلع قراهم من أصلها ثم قلبها عليهم، ثم خسف بهم، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل، قال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود:٨٢] فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالاً للمجرمين، إن في ذلك لآيات للمتوسمين، أخذهم على غرة وهم نائمون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

نعم، ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، وأعقبهم عذابًا أليمًا، ندموا والله ولا ينفع الندم، وبكوا بدل الدموع الدم، فلو رأيتهم والنار تشوي وجوههم، وتخرج من أفواههم وأنوفهم، وهم بين أطباق الجحيم، يشربون كئوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون، ذوقوا ما كنتم تكسبون، ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٦] وما هي من الظالمين ببعيد..

نعم، هذا حال هؤلاء الفساق

وبعض الشباب قد يتساهل بمثل ذلك، بل قد يظهر منه ما يدل على استدعائه لذلك، فكم نرى من الشباب المائعين في حركاتهم، وضحكاتهم، بل وأسلوب الكلام، وطريقة المشي، إضافة إلى لبس الثوب الضيق المخصر، واستعمال العطورات المنوعة، والاعتناء الزائد بالمظهر، وقصة الشعر، نرى أحيانًا هذه المظاهر في بعض المدارس، وفي الشوارع، فلماذا يفعل هذا الشاب ذلك؟!

أيا ناكح الذكران تهنيكم البشرى ... فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأكثروا ... فإن لكم زفًا إلى ناره الكبرى
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم ... وقالوا إلينا عجلوا لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم في انتظاركم ... سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتم ... يغيبون عنكم بل ترونهم جمرى
ويلعن كل منهم لخليله ... ويشقى به المخزون في الكرة الأخرى
يعذب كل منهم بشريكه ... كما اشتركا في لذة توجب الوزرى

أما رسول الله ﷺ فقد صح عنه فيما رواه الترمذي أنه قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»، وصح فيما رواه ابن حبان: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط»، وصح في مسند أحمد أنه ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

أما الصحابة فكانوا يحرقون اللوطية بالنار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اللوطي إذا مات من غير توبة مسخ في قبره خنزيرًا.

ومن كان قد أسرف على نفسه، ووقع في شيء من ذلك، فليسارع إلى التوبة والاستغفار، والإنابة إلى العزيز الغفار، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٣].

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «لله ﷻ أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه فأضلها فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه فأموت فيه فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها

طعامه وشرابه وزاده، فأخذها ثم قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

والتوبة أمرها يسير، ولا يلزم من وقع في الفاحشة أن يسلم نفسه، ليقام عليه الحد، بل يتوب بينه وبين ربه، ويستتر بستر ربه، وإن كانت الفتاة قد وقع لها صور أو تسجيل، تهدد بها، فلا يمنعها ذلك من التوبة، بل تستعين بثقة من أهل العلم والدين، ولا تستجيب للتهديد والوعيد، وحتى لو وقعت الفضيحة، فإن خزي الدنيا أهون من خزي الآخرة.

هذه أنواع المحبة، ولا ننسى أقوامًا من المحبين، سمت نفوسهم عن التعلق بمحبة الخلق إلى التعلق بمحبة الخالق جل جلاله، يحبهم ربهم ويحبونه، ربهم أحب إليهم من أهلهم وأموالهم وأنفسهم، طالما تملقوا إليه في الأسحار، وبكوا من خشيته في النهار، اشتاقوا إلى رؤيته، وتقطعت قلوبهم من عظم محبته.

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

وكيف لا تتعلق القلوب بمن حياتها بنعمه، وطعامها وشرابها بكرمه، ومرضها وشفاؤها بأمره، وموتها بقضائه وقدره.

هؤلاء الصالحون لهم شهوات، نعم، لهم شهوات، وفيهم غرائز، لكنها سمت وارتفعت عن المعاصي، قال محمد بن سيرين: ما غشيت امرأة في يقظة ولا مَنام غير أم عبد الله، وإني أرى المرأة في المنام فتعجبني فأذكر أنها لا تحل لي فأصرف بصري طاعة.

وختامًا، أيها العاشقون والعاشقات ما العلاج من هذا الداء؟

العلاج سهل ميسور، لكنه يحتاج إلى جزم وإصرار.

أول العلاج: أن تعلم أنه لا اختيار لك في إطلاق بصرك، نعم لا اختيار لك، هل تنظر أم لا تنظر، بل يجب عليك أن تصرف بصرك فورًا، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وإطلاق البصر باب من أبواب النار.

ثانيًا: مجاهدة النفس لترك هذا الفعل المحرم، وصرف النفس عن التفكير فيه، وتذكر ما يبغضك في هذا المعشوق، قال عبد الله بن مسعود: إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مناتنها. يعني: يتذكر رائحة فمها الكريهة، وغائطها، وبولها، وقيئها الذي يملأ فمها، ومخاطها الذي يقذر أنفها، ويتخيل حالها لو أصابها جدري أو جذام، واعلم أن الشيطان يزين لك المعشوق، وإن كان قبيحًا.

ذكر ابن الجوزي في «المواعظ»: أن شابًّا فقيرًا كان بائعًا يتجول في الطرقات، فمر ذات يوم ببيت، فأطلت امرأة وسألته عن بضاعته فأخبرها، فطلبت منه أن يدخل لترى البضاعة، فلما دخل أغلقت الباب، ثم دعته إلى الفاحشة، فصاح بها، فقالت: والله إن لم تفعل ما أريده منك صرخت، فيحضر الناس فأقول: هذا الشاب، اقتحم علي داري، فما ينتظرك بعدها إلا القتل أو السجن، فخوفها بالله فلم تنزجر، فلما رأى ذلك، قال لها: أريد الخلاء، فلما دخل الخلاء: أقبل على الصندوق الذي يجمع فيه الغائط، وجعل يأخذ منه ويلقي على ثيابه، ويديه، وجسده، ثم خرج إليها، فلما رأته صاحت، وألقت عليه بضاعته، وطردته من البيت، فمضى، يمشي في الطريق والصبيان، يصيحون وراءه: مجنون، مجنون، مجنون، حتى وصل بيته، فأزال عنه النجاسة، واغتسل، فلم يزل يشم منه رائحة المسك، حتى مات.

وكذلك من العلاج: الإقبال على الله تعالى ومصاحبة الصالحين، وتقوية العلاقة بالله، بالإكثار من قراءة القرآن، والمحافظة على صلاة الوتر، وحضور مجالس الذكر، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل».

ومن أهم العلاج: الابتعاد عما يذكرك بهذه المعاصي، فلا تجالس أهلها، وإن كان عندك صور تذكرك بها فأتلفها، وأحرق كل ما لديك من رسائل وأشرطة..

ومن العلاج: الابتعاد عن الأماكن التي يختلط فيها الرجال بالنساء، سواء في الأسواق أو الجامعات أو غير ذلك، ولا تكن ممن يبيع دينه بعرض من الدنيا..

ومن العلاج: الابتعاد عن المثيرات من الأفلام، والصور الفاتنة، والقصص والروايات التي تذكر العشق والغرام.

ومن العلاج: إدامة ذكر الله على جميع الأحوال، في الصباح والمساء، وعند النوم.

ومن العلاج: مفارقة بلاد المحبوب، والسفر إلى بلد آخر، فإن البعيد عن العين بعيد عن القلب، وإن كان المحبوب زميلاً في مدرسة أو كلية أو وظيفة، فابحث عن مكان آخر، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا.

ومن العلاج: ملء وقت الفراغ بالنافع المفيد.

ومن العلاج: الزواج، فإنه الطريق الشرعي لحماية الفطرة، ونشر الفضيلة، ولا تقل لا أريد إلا فلانة، فإن النبي ﷺ قال: «إذا أعجبت أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها».

وأنبه هنا إلى أمر مهم، وهو أن تقصير أحد الزوجين في حق الآخر، وعدم مشاركته في عواطفه، يجعله يبحث عن بديل، فيبدأ الرجل يتطلع إلى من يفرغ فيه عواطفه، وتبدأ المرأة تميل مع كل من يتلطف معها، أو يلين لها الكلام، ولا بأس من استعمال الطب في العلاج من الزنا، ومن اللواط خاصة.

فابدأ حياة جديدة من هذه الساعة، قبل أن تقوم قيامتك، وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت وأنت تبكي وتقول: كيف كنت أتتبع الشهوات، وأواقع اللذات، قد غرني فيما مضى شبابي، وجمال سيارتي وثيابي، وقد عظمت كربتك، وذهبت قوتك، آه، إذا زلت يوم القيامة القدم، وارتفع البكاء وطال الندم.

والله لو علمت ما وراءك ... لما ضحكت ولأكثرت البكا
قد حفت الجنة بالمكاره ... والنار بالذي النفوس تشتهي
وإن عملت سيئًا فاستغفر ... وتب إلى الله بدارًا يغفر
وبادرًا بالتوبة النصوح ... قبل احتضار وانتزاع الروح

أسأل الله تعالى أن يخلص محبتنا له وفيه ﷻ، وأن يعيذنا جميعًا من الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجعل حبنا له سبحانه فوق كل حب، وطاعتنا له فوق كل طاعة، وأن يجعلنا ممن يتبعون الحق إذا تبين لهم، آمين.

❊ ❊ ❊


فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات

❁❁❁